



مجلد فصلیه وثائقیه مصوّرة تُعنى بالقرآن والتوشیح تصدر عن العتبة العباسية المقدسة قسم الشؤون الفكرية والثقافية



فالأمة الإسلامية شريف الوثائق



فالأمة الإسلامية شريف الوثائق

مجلد فصلیه وثائقیه مصوّرة تُعنى بالقرآن والتوشیح تصدر عن العتبة العباسية المقدسة قسم الشؤون الفكرية والثقافية
العدد العاشر - السنة الثالثة ١٤٤١ - ٢٠٢٠ - الاعتماد في نقابة الصحفيين العراقيين ١٧٥٧



ذِكْرُ الْأَشْرَفِ الزَّنَائِقِ

مَجْلَتُ فَصْلِيَّةٍ وَتَأَقِّيَّةٍ مُصَوَّرَةٍ تُعْنَى بِالتَّارَاتِ وَالتَّوْثِيقِ
تَصْدُرُ عَنِ الْعَتَبَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ قَسَمِ الشُّؤُونِ الْفِكْرِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ

المَشْرُفُ الْعَامُ

سَيَّاحُ السَّيِّدِ أَحْمَدُ الصَّافِي

رئيس التحرير

سَيِّمُ الْجَبُورِيِّ

كربلاء المقدسة، باب بغداد، (مجمع الإمام العسكري، ط ٣)

هاتف: ٠٧٨١٥١٦٦٦٦ - ٠٧٧١٦٦٦٦٤٧

البريد الإلكتروني: arshefbaghdad@gmail.com

المحتويات

الملك فيصل الأول	٥
سليم الجبوري	
رسالة الخط العربي نشأته وتطوره والمذاهب فيه	٥١
العلامة الشيخ أحمد رضا	
الترحال إلى العراق (القسم الأول)	١٠٩
حسن الأمين	
استئذان في الانصراف رجاء ودعاء... وتقرير ختامي	١٥٥
محمد حسنين هيكل	
المخطوطات العربية في العالم تطور فهرسة المخطوطات في العراق ٢١٩	
كوركيس عواد	
العمل في التراث: الاتجاهات والغايات	٢٦١
د. بشار عواد معروف	
ملف خاص عن الشاعر السيد أحمد الصافي النجفي	٢٨١

التراث والذاكرة: إخراج معرفي لعلاقة جديدة ٤٠١

د. بغداد عبد المنعم

وثائق وصور من ذاكرة الأرشيف ٤٢٥

الملك فيصل الأول

سليم الجبوري

الملك فيصل الأول مؤسس الدولة العراقية الحديثة، ومهندس استقلال العراق، وطي صفحة الانتداب، إمتاز بالحنكة والدهاء والهدوء والاحتواء.

لا يزال الكثير من العراقيين على اختلاف توجهاتهم واختلاف مشاربهم يحنون الى الملك فيصل الأول ويصفون عصره بالذهبي وبلورة الفكر السياسي العراقي، وإنه ساهم في دعم أهم ركائز الدولة الحديثة، فتراهم يصفون دوره بالإكبار والإحترام والإجلال، فترى صورته تعلق على جدران بيوتهم وتتصدر المطاعم والمقاهي والساحات العامة، ولعل البعض وصفهم بالمبالغة والغلو تجاه الملك الراحل، قصص ونوادير وشواهد وأحداث يرويها كبارهم الى صغارهم من جيل الطيبين ما تبقى من أرشيف المملكة العراقية.

ومن يقرأ التاريخ السياسي العراقي الحديث ويسبر في أغواره جيداً ويقلب في صفحاته يلاحظ حجم الرجل ومكانته ومفاصل حياته المهمة، ولقد حظي الملك فيصل باهتمام المفكرين والباحثين والدارسين اهتماماً بالغاً، وصدرت دراسات عديدة تنوّه بدوره الإيجابي والمحوري في معالجة القضايا العراقية المصيرية.

واكب فيصل مسيرة جديدة من حياته شعباً لم يعاصره أو يجامله أو

يعرف نقاط ضعفه وقوته، لكن قرأ مفاصله وتأقلم مع أبعاده بروح دبلوماسية وصفات حميدة استطاعت أن تؤسس لهوية عراقية وطنية، فقد ركز على جوهرها لعراق والوطن، إذ أعلن منذ البداية شعاره (العراق أولاً).

أسلوب فريد جسده في تعامله وأدوار مملكته مما جعله يحلق في مركز الصدارة وموقع القرار، كان يتمتع بذكاء حاد ودهاء متميز إضافة الى ملكة من الهدوء ووأعصاب باردة وصدر رحب وعمق في التفكير، أدرك إدراكاً جيداً مجريات الأحداث في الساحة العراقية وطلع عليها اطلاعاً قيمياً، وتأمل في مشاكلها وحلولها ومعانيها، فكان الرجل الناجح في إدارة الملفات المعقدة، وأبدى أسلوباً شفافاً في مناقشة هموم الوطن والمواطن، يمتلك حساً مرهفاً بلغته الحجازية الجميلة حتى أعجب به الناس حتى أن كثير من الشيعة كانوا يظنون أنه منهم لكثرة أحاديثه في مدح آل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وكانت طريقته تستهوي مشاعرهم وتدغدغ في أعماقهم، وكان في أحاديثه واضحاً صريحاً، ويروي توماس ليل أنه سأل الشيخ عبد الواحد آل سكر كيف جاز له وهو الشيعي المتدين أن يطالب بفصل ملكاً مع أنه سني؟! فأجابه الشيخ عبد الواحد قائلاً: ولكنه في أعماق قلبه شيعي.

واستطاع الملك فيصل أن يحقق نجاحاً باهراً في كسب واحتواء الزعامات الدينية والعشائرية، وكان يتفهم الى مطالبهم الحققة والمشروعة ولم يميز بين العربي والكردي واليهودي والمسيحي والاسلامي، فكان يعاملهم بروح واحدة وطريقة محبة مما جعله يحظى بودهم واحترامهم.

الملك فيصل ذلك الحجازي المحنك الذي استطاع أن يحقق لعراق ما يعجز عنه أي زعيم عراقي آخر في تاريخ العراق.. فلقد ساهم في تأسيس دولة المؤسسات ووضع نهجاً لمحور الأسس السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية والإدارية والعسكرية، فلقد كانت لديه رؤية ثابتة للبلد.

وشكل الجذور الأولى لمعنى الوطنية في الدولة، فقد تجاوز حزمة الأفكار الى دولة مؤسسات وكان الراعي الرسمي وإن كانت هناك عوائق عديدة إلا أنه وبكل شجاعة تجاوز تلك العقبات وتعامل بروح أبوية.

لم يكن الملك فيصل مجرد ملك يجلس على كرسي العرش نصب ضمن تسويات في المنطقة بل كان مثقفاً واعياً وهو جميل النفس والروح، إضافة الى أناقته الواضحة إذ كان يحرص على شراء الملابس من كبرياء العواصم الأوروبية آنذاك، وهو متكلم لبق يجيد فن الخطابة ومعاني الفصاحة، واجتمعت في شخصيته صفات رجل الدولة القائد مع صفات الحكمة والكياسة والتسامح.

من هو الملك فيصل؟

هو فيصل بن الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون ينتمي الى أسرة هاشمية عريقة يعود نسبها الى الإمام الحسن (عليه السلام)، ولد في مدينة الطائف مصيف الحجاز في ٢٠ آيار عام ١٨٨٣م، تربى ونشأ وترعرع مع إخوته (علي وعبد الله) في رحاب والده الشريف حسين الذي عني بتربيته وأغدق عليه من حنانه ومعاني أخلاقه الهاشمية، توفيت والدته الشريفة عابدية وهو طفل صغير فاهتمت برعايته جدته لأبيه. أرسل الى البادية إذ كانت انطلاقته الأولى، وقد نشأ هو وأخوته جرياً على العادة التي اعتاد عليها الأشراف أن يبعثوا أولادهم الى البادية الى عرب عتيبة النازلين باتجاه الحجاز ليتعلم فصاحة العرب وشجاعتهم ويتدرب على حياة الصحراء، ويتعلم التقشف وقسوة المعيشة، وهناك تعلم الفروسية والقتال بالسيف والبندقية.

تلقى والده دعوة خاصة من السلطان عبد الحميد ليقم في الاستانة فمضى إليها عام ١٨٩٤م مصطحباً أولاده الثلاثة، وكان عمر فيصل إحدى عشر عاماً، وهناك قضى صباه، وفي أول شبابه حثه والده على الدراسة والتعلم وخصص له أساتذة خصوصيين وكان في مقدمته صفوت العوا

الدمشقي الأصل الذي صحب الشريف الحسين وأنجاله الى الحجاز ثم رافق فيصل الى سوريا والعراق وكان أميناً على ماليته وكبير أمنائه، درس فيصل العلوم الدينية والعربية واللغة التركية والفرنسية وسائر العلوم.

فيصل في مجلس المبعوثان العثماني :

دخل مجلس المبعوثان ممثلاً مدينة جدة ولقد كان له دور كبير مع إخوانه العرب، أبدى كفاءة عالية في المجلس فكان زملائه العرب أعجبوا به، وصاروا يعرفونه جيداً، فكانت مواقفه تدل على نباهته وذكائه من خلال عمله في المجلس إذ كان التمثيل العربي ضعيفاً وهشاً وكان عدد النواب سبعون مبعوثاً، وهو عدد فيه غبن وإقصاء وتهميش، وكان يظم جمهور من الصحفيين والعسكريين والمفكرين، سوريين وعراقيين وفلسطينيين يشكلون نواة المجلس، وكان طموحهم أن يكون هناك كيان خاص لهم نحو الاستقلال وخصوصاً الإستقلال الثقافي، ولقد انصهر فيصل مع هذه المجموعة وصادف وجود فيصل في دمشق أصدر جمال باشا السفاح حكماً بالاعدام بحق مجموعة من الوطنيين العرب في بيروت ودمشق تحت ذريعة الاتصال بالفرنسيين عندها توسط فيصل لدى جمال باشا بأن يعفو عنهم إلا أن الأخير لم يستجب لذلك التوسط، إذ تم تصفيتهم في ساحة المرجا بدمشق وساحة البرج في بيروت، وكان فيصل غضباً شديداً واستاء من هذا التصرف لكنه كتم هذا الاستياء وأمسى حذراً جداً في تعامله مع جمال باشا حتى لا يثير شكوكه وارتياحه حول الثورة العربية التي كان والده يخطط لها في الحجاز، وللتمويه عن ذلك قام بتقديم مطالبة الى العثمانيين حيث جاء في تلك المطالب : ليس للشريف حسين وأولاده أية مطامع في الحجاز سوى المحافظة على تراث العرب وعروبتهم من التتريك، وعلى الرغم من توتر العلاقة بين فيصل وجمال باشا فقد استأذنه للعودة الى مكة فوافق على طلبه وعاد الى مكة واندلعت الثورة بعد شهر.

رسالة الملك حسين الى نقيب بغداد بخصوص قدوم فيصل الى العراق:

بغداد : فرع الدوحة النبوية، فضيلة السيد الأجل، حضرة النقيب ضروري بلغكم توجه ابني فيصل الى طرفكم، بناء على طلبات الأهالي المتعددة، ولامتزاج عائلتنا بكم، فلا أحتاج أن أبحث عما يجب لسعيكم جميعاً فيما يستلزم راحة البلاد، ومضاعفة الرغبة وتأمين مستقبل الكل، هذا ما انتظره من همم نجابتكم، والحسنة الدينية والقومية، والله يتولانا وإياكم بالتوفيق.

عن مكة المكرمة في ١٧ حزيران ١٩٢١م
التوقيع: (حسين)

رد نقيب بغداد على برقية الشريف حسين:

لحضور صاحب الشوكة والعظمة، جلالة الملك حسين، سلطان الحجاز، أيد الله شوكته لقد أخذت بيد التكريم والإجلال، برقية جلالتم المشعرة بتوجيه سمو الأمير، ذي القدر الخطير، الأمير فيصل حفظه الله الى العراق، وقد ابتهجنا سروراً من هذه البشارة، ودعونا له بالسلامة، وصرنا ننتظر قدومه ساعة فساعة شوقاً للقياء، فبمنه تعالى عند قدوم سموه نبادر الى القيام بالواجب علينا، من خدمته، حيث اتحاد النسب والحسب القديمين يقضيان بذلك على الداعي، وأما الأمر السامي الملوكي لهذا الداعي، بالسعي جميعاً فيما يستلزم راحة البلاد، فهو واجب الامتثال، على كل حال، لاقتضاء الحس الوطني، ونسأل الله التوفيق.

عن بغداد ١٩ حزيران ١٩٢١م
التوقيع: (نقيب أشرف بغداد)

فيصل الأول في مرآة الآخرين :

أمين الريحاني :

إن فيصل كان يخص كل فريق من الناس وكل وفد من الوفود بكلمة توحىها إليه تقاليدهم ونزعاتهم السياسية والدينية، فكان يناشد الشيعة بوحدة الإسلام والإخاء الاسلامي، ويتلو على أهل السنة من صفحات العباسيين الذهبية، ويذكرهم بالرشيد والمأمون وما كان للعرب من فضل على الأوربيين، وكان يصرح ويؤكد للأقليات أنه مقيم على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين الرعية على اختلاف المذاهب الدينية...

اللورد سيف :

كان ألطف رجل قابلته في حياتي، صغير الجسم ذا ملامح رقيقة كملامح النساء، وصوت ناعم بطيء مرتفع النبرة كصوت الطفل، وهيئة شجية، وخلق مستهين بالنفس، مع فكاهة حلوة متhekمة بين حين وآخر، إن الملك فيصل لم يطمع في مال ولم يؤثّل ثروة.

أحمد حسن الزيات :

عرفت جلالة ملك العراق أثناء مقامي ببغداد معرفة وشرف وخبرة، وكانت حال البلاد في ذلك الحين محنة ابتليت بها كفاية الملك النابغ، فالانتداب البريطاني كان قبل الملكية يعمل في العلن ويحمل التبعة فأصبح بعدها يعمل في السر ولا تبعة عليه، والحكومة العراقية كانت يومئذ بادية البلى ممزقة الجوانب، لا تستطيع بخروقتها أن تستر العرش، فالملك كان يستر الانكليز ولكن الوزارة بحكم الضعف كانت تكشفه فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل في رأي المعارضة على الملك.

اضطلع فيصل وحده بأعباء الملك والحكم والزعامة في هذه الحال المضطربة فكفكف بحكمته من شدة الانتداب وخفف من عسف الوزارة ولطف بحلمه من غضب الشعب، صرف من شؤون الدولة على قدر ما

يسلم الرأي الحصيف من خبث الإشارة وضعف الوزارة، ثم سهل حجابهِ
لأمراء العشائر ورؤساء الطوائف وزعماء الأضراب ما في صدورهم بالقول
اللين والعتاب الهين والشخصية الجذابة.

السيد جعفر الحسيني:

كان فيصل الأول الذي تبوأ العرش في (٢٣ آب ١٩٢١م) ذكياً مثقفاً
حكيماً، فهو رجل دولة من الطراز الأول وقد تكونت لديه بسرعة خبرة
عميقة بالشأن العراقي، ولو قدر له أن يعيش أطول لكنا ربما أمام عراق
آخر؛ كان مدركاً لأدق نقاط الواقع السياسي وكان ينظر الى أبعاد اللحظة
الراهنة، وعرف بوضوح أهمية تحويل تلك الجملة من مجتمعات التخلف
والاختلافات والانفلات على الذات الذي كان عليه العراق.

إلى دولة حديثة ومنسجمة:

فيصل في العراق ملكاً:

كان جمهرة من العراقيين السياسيين والعسكريين العائدين من سوريا
وتركيا وعلى رأسهم جعفر العسكري ونوري السعيد عملوا على تهيئة
الأجواء لفيصل فصاروا يحدثون الناس والمقربين ويعتبرونه أفضل مرشح
لعرش العراق؛ إضافة الى التأييد والتشجيع غير المباشر من قبل المس
بيل، وصار قدوم فيصل الى العراق حتمياً وأخذت البرقيات تأخذ دورها
وتتوالى الى بغداد عن قرب وصول فيصل ووجوب الاستعداد إليه، وكان
من الأوائل السيد محمد الصدر الى والده السيد حسن ومن يوسف السويدي
الى ابنه ناجي، ولقد اهتم ناجي السويدي اهتماماً بالغاً في بطاقات الدعوة
الى أعيان ووجهاء بغداد دعاهم للإجتماع صباح الجمعة (١٧ حزيران)
لننظر في منهاج استقبال فيصل، عندها وصلت الوفود المستقبلة الى
البصرة، ووصل الطراد الذي يحمل فيصل والوفد المرافق له الى ميناء
البصرة في الساعة الخامسة والنصف من (٢٣ حزيران) وكانت الاستعدادات

واضحة في الاستقبال حيث الحفاوة والفرحة بالضيف الحجازي، فنصبت أقواس النصر في الشوارع العامة، كما خرجت في شط العرب بعض الزوارق النهرية موشحة بالأعلام العربية، وتجمهر لفيف من أعيان العشائر البصرية وهم يرددون الأهازيج ترحيباً بالضيف الجديد.

وكانت أول محطة يحط بها هي دار متصرف لواء البصرة أحمد باشا الصانع وقد عجت داره بالضيوف وأقيمت حفلة في دار المتصرف وألقيت الخطب الترحيبية والقصائد من قبل محمد زكي المحامي، وعطا أمين، وكاظم الدجيلي، وعبد الرحمن خضر، ومحمد عبد الحسين، وعبد الحافظ طه، وأحمد حمدي ملا حسين، ومهران مهونيان، ولم يبق فيصل إلا يوماً واحداً فيها ثم غادر بالقطار الى الحلة ومنها الى النجف وكربلاء؛ وأول عمل قام به استهله بزيارة مرقد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) والتقى بعض العلماء بمدينة النجف، وإن اللقاء تم داخل الحرم العلوي وأقيم له حفل بهيج في بيت السيد هادي النقيب الذي عج بالشخصيات والوجهاء والعلماء والأدباء، وألقى فيصل كلمة أثنى فيها على الثورة العراقية والثورة الحجازية كما أن الشيخ باقر الشيببي ألقى كلمة نيابة عن الحضور قال فيها: إننا كنا نتطلع بشوق الى هذه الزيارة الميمونة من ضيف العراق الكبير المير فيصل الى موطن الثورة التي نرجو أن تستكمل نتائجها المطلوبة، كما نرجو من الله أن يحقق أهداف جلالة الملك حسين باستقلال البلاد العربية ثورة التحرر والانعتاق.

وفي نفس الوقت أقام السيد عباس الكلدار مأدبة عشاء تخللتها كلمات حماسية وثورية ختمت بكلمة مرتجلة لفیصل؛ وفي كربلاء كانت على الحمل والاستعداد لاستقبال فيصل، وكان متصرف كربلاء حميد خان، وقد زار فيصل مرقد الإمام الحسين وأخيه العباس عليهما السلام ثم توجه الى طويريج زائراً السيد هادي القزويني، وكان اللقاء جيداً جداً إذ شعر فيصل بالاندماج مع السيد القزويني وقد تناول معه هموم البلاد والأمر

العالقة، ثم غادر الى الحلة حيث شاهد الجموع من شيوخ وأطفال ونساء وهم يهتفون (حي الله الملك فيصل).

الى بغداد النقطة الحاسمة والأخيرة فقد كانت بغداد على كامل الجهوزية للإستقبال فقد نصبت أقواس النصر في شوارع عديدة، كما زينت بالأعلام العربية والسعف والنخيل، وكما تزينت بعض البيوت البغدادية فرحاً وبهجة بقدوم فيصل، وفرح الأمير بحفاوة الاستقبال له.

وفي بغداد نحرت الذبائح ونشرت الزهور ورشّ ماء الورد، ترحيباً بالضيف الأمير، وأول حفلة أقيمت له في بلدية بغداد في حدائق مود في الصالحية وأغلب الكلمات والقصائد تضمنت الإشادة بفيصل باعتباره ملك العراق ومنقذه، وافتتح الحفل عبد المجيد الشاوي مرحباً، ثم ألقى أمين آل المفتي قصيدة كان مطلعها:

قد دعوناك علينا ملكاً ليس نرضى عنده يوماً بدلاً

وألقى الزهاوي:

إننا محيوك فاسلم أيها الملك ومصطفوك لعرش شاءه الفلك
وفي المدرسة الجعفرية أقيم حفل بهيج شارك فيه جميل صدقي الزهاوي وكاظم الدجيلي وعبد الحسين الازري وباقر الشبيبي وابراهيم ناجي المحامي.

وفي مقر اليهود في بغداد كان هناك حفل خاص وأهديت له نسخة.

وفاته:

سافر الملك فيصل الأول الى بيرة في سويسرا في (١/ سبتمبر/ ١٩٣٣) لرحلة العلاج وفحوص دورية ولكنه بعد سبعة أيام تعرض الى أزمة قلبية، وكانت وفاته (٨/ سبتمبر/ ١٩٣٣) وكان لرحيله خسارة فادحة للعراق والوطن العربي فقد عطلت الحياة وأقيمت له المآتم في كافة أنحاء العراق.

فاجعة الأمة العربية^(١)

محمد علي اليعقوبي

وبدر الشرق غيبه الصعيْدُ
فقل للدهر يفعل ما يريد
يشيب لهول فادحه الوليد
يسوس الشعب أو بطل يقود
صوارم أرهفت منها الحدود
وحز من البلاد بها ويريد
وخيم فوقها الخطر الشديد
حقيقتها ومنقذها الوحيد
وعدة آل يعرب والعديد
ولا عجب فسيدها الفقيد
عيون وتقشعر له الجلود
وركن البيت كاد أسأ يُميد
ولا وافي ضحى فيه يريد

عماد العرب قوّض والعميد
وأردى الدهر عز بني لوي
أطل على الجزيرة أي خطب
أصيب به العراق فلا زعيم
نضى القدر المتاح من المنايا
فجُنت للرشاد بها يمين
أحين أحاطت الأحداث فيها
مضى الباني لدولتها وحامي
خلاصة هاشم وصريح فهر
تؤبّنه ملوك الأرض طرّاً
فيا نبأ لذكراه تسيل الـ
تنوح له الأباطح والمصلى
فلا لمعت به ليلاً بروق

العراق اليتيم وسوريا الحزينة

بلاد أنت والدها الودود
ولم يك من خلائقك الصدود
ولا بالواديين اخضر عود
مواسمه لأهل الشرق عيد

أبا (الغازي) لقد باتت بيتم
شكت لك يتمها فصدت عنها
فلا بالرافدين صفا نمير
لك انعقدت مآتمها بيوم

قالها في تأبين صاحب الجلالة المغفور له فيصل الأول وقد نعاه البرق من (برن) (١) f
صباح الجمعة (٨) أيلول سنة (١٩٣٣م) المصادف (١٧ - جمادى الأول) سنة
١٣٥٢هـ ونشرت في مجلة الاعتدال (مجلد ١).

فما حسبت بأنك لا تعود
فحال من الردى أمد بعيد
بأدمعها لغيرك لا تجود
لضوء الصبح في أفق عمود
وضج القدس فانفجع الصعيد
تتم بك الأمانى والوعود
فبعدك أي منتجع ترود
وأنت البيت والعرب القصيد
وقمت لعزهم وهم قعود
ورحت لما بنى لهم تشيد
به تاريخ أمته المجيد

لئن ودعتها مذ غبت عنها
وباتت ترتجي وصلاً قريباً
نعاك البرق فانبجست عيون
نعاك بليلة لا شقَّ فيها
بكت بغداد فانصدعت دمشق
فليت الدهر أمهلها إلى أن
ذوى روض الرجاء اليوم منها
كأنك درة والشرق تاج
سهرت لحفظهم وهم رقود
بنى لهم أبوك أساس عز
وليس بميت من عاد حياً

الشعب والاستقلال

ترفُّ عليه بالنصر البنود
وفيك تحطمت عنه القيود
فما ذهبت سدىً تلك الجهود
يُسام بما تسام به العبيد
فرأيك في سياسته سديد
مقاماً ما لباغيه صعود
بها الأضغان عاثت والحقود
كذلك يصنع الرجل الرشيد
فكل العالمين بها شهود
ولحن قلائداً والكون جيد
بها الأجيال بعدك تستفيد
عسى تُجدي الوصية أو تفيد
يلاقي الخصم بعدك أو يذود

وشعب فيك أصبح مستقلاً
وكان يئن تحت قيود ذل
جهدت لكي تعيد له كيانه
ولولا أن تحرره لأضحى
إذا الآراء أخطأت الرامي
جذبت بضبعه فبلغت فيه
وقد ألفت بين قلوب قوم
ورحت محبباً لهم جميعاً
إذا جحدت مساعيك الأعادي
طلعن فراقداً و الدهر أفق
مساع لم تكن إلا دروساً
وتوصي الشعب بعدك باتحاد
بأية جنة وبأي غضب

مددت عليه ظل الأمن لكن تقلص بعدك الظل المديد
أعدت مصاب أهل البيت فينا كأنهم وهم صرعى أعيدوا

يوم تشييع الجثمان

تحيط بنعشك الناس ازدحاماً فعجت كما ازدحمت على الركن الوفود
بالصياح له العذارى يقلك (مدفع) ونكست السلاح له الجنود تسير وذلك
فيه العوادي أطود المجد تسحبه العجب الشديد ويجذب جوهر الكون
المذاكي تشيعه النفوس وليس يدرى الحديد وجودك فيه أم فيه الوجود
تدق لك النواقيس النصارى تنوء به وتندب في معابدها اليهود بها
وقد خضعت رقاب كأن الناس من الأطواق منك علماً وجود سكارى قد
دهش وحزن كأن صدى المدافع حين دنا منها الوعيد صواعق في السماء لها
صاحت فنار في الفضاء لها دوي رعود وأخرى في القلوب لها وقود
بكوا تمثال شخصك وهو يفنى وتمثال القلوب له الخلود

على ضريح الفقيد

لقد دفنوك وانصرفوا حيارى وما بالقول مبدٍ أو معيد
طووا ببرودك الشرف المعلى فيا لله ما طوت البرود
وفوق ضفاف دجلة أي بحرٍ صدور العرب منه والورود
فمن يروي صداها بعدما قد تغيّض ذلك العذب البرود
وما واروك في جدث ولكن لك الأحشاء شقت والكبود
لقد حسد الضراح ثرى ضريح حولك صعيده فهو السعيد
يضوع من (الأكاليل) اللواتي عليه شذاك والخلق الحميد
تحياه الأكف مسلمات وتلثمه النواظر والخدود
هل الحسن الزكي «أبوك» فيه ثوى أم عمك السبط الشهيد

يوم الأربعاء

إذا ذكروا اللوك فليس فيهم
وإن فتىً لبیت الوحي ينمی
عليك بنت بیوت الحزن لما
فلا طرفٌ یقر ولا فؤاد
وقالوا الأربعاء أتت فشقت
فلا قلمی يطیق الجري فیما
فکیف وقد ذكرت بها زماناً
ولولا ما دهانی من ذهول
نظمت من القوافي فیک مالا

سواک فتی له الشرف التلید
فما فی العالمین له ندید
هو ی بک صرح سؤدها المشید
یسرُّ بها ولا عیشٌ رغید
علیَّ لک المراثی والنشید
أحاول والقریحة لا تجود
أهزک بالنشید وتستعید
ووجد بافتقاده لا یبید
یفوه به (ابن أوس) و (الولید)

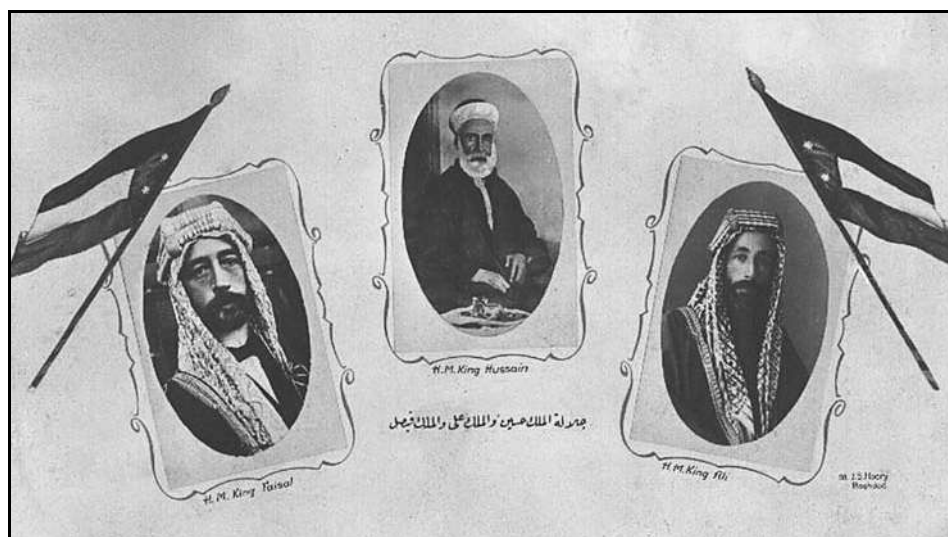
الملك الغازي

فیا زاکي الجدود لفد أقیلت
لیهنک أن ذاک التاج أضحی
وغاب الملك بعدک عاد یحمی
وما إن خاض بحر نداد حتی
وما سهرت عیون العرب حتی
نضت عنها الحداد غداة سدت
أعاد لنا لیالیک الزواهی
تبوأ خیر عرش ورثته
تضعع برهة ثم اطمأنت
کأن الدست لما حل فیہ
رعی (دستورها) وحمی حماها
ویأبى الشعب ألا (فاطمیاً)
إذا حادت قلوبٌ عن هواه

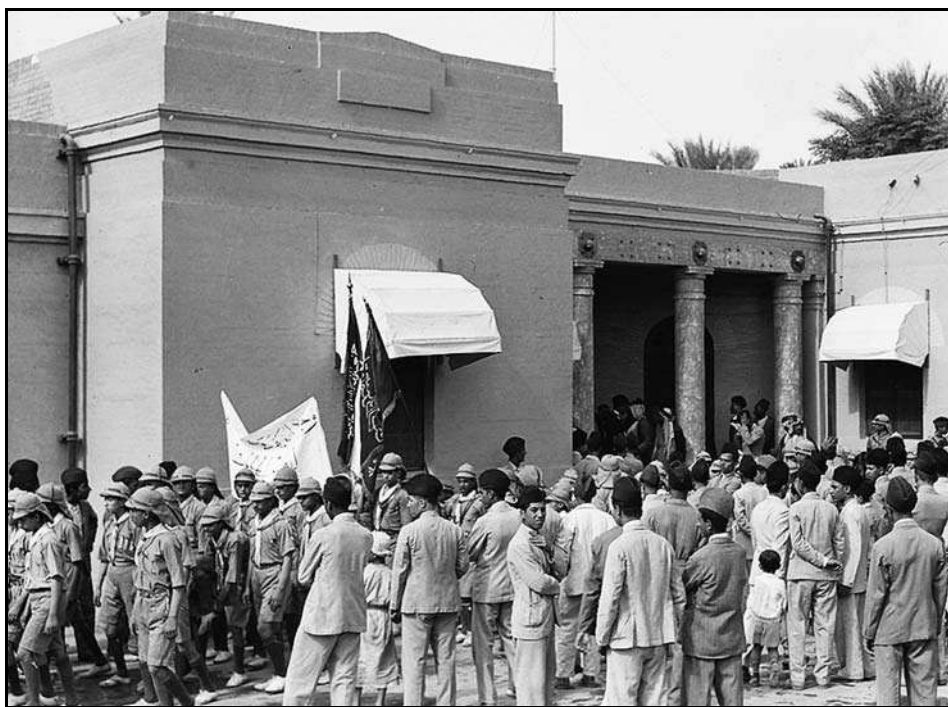
بنجلک بعد عثرتها الجدود
علی الغازي تلوح به السعود
بشبل فیہ أنجبت الأسود
بدا من قعره الدر النضید
رأته بدا فطاب لها الهجود
ثغور الشعب فیہ والحدود
وقد رجعت به تلک العهد
له الآباء قدماً والجدود
قواعده وقد رغم الحسود
به (المأمون) حلّ أو (الرشید)
فخاب عدوها فیما یکید
یؤمر فی بنیه أو یسود
فما لقلوبنا عنه محید

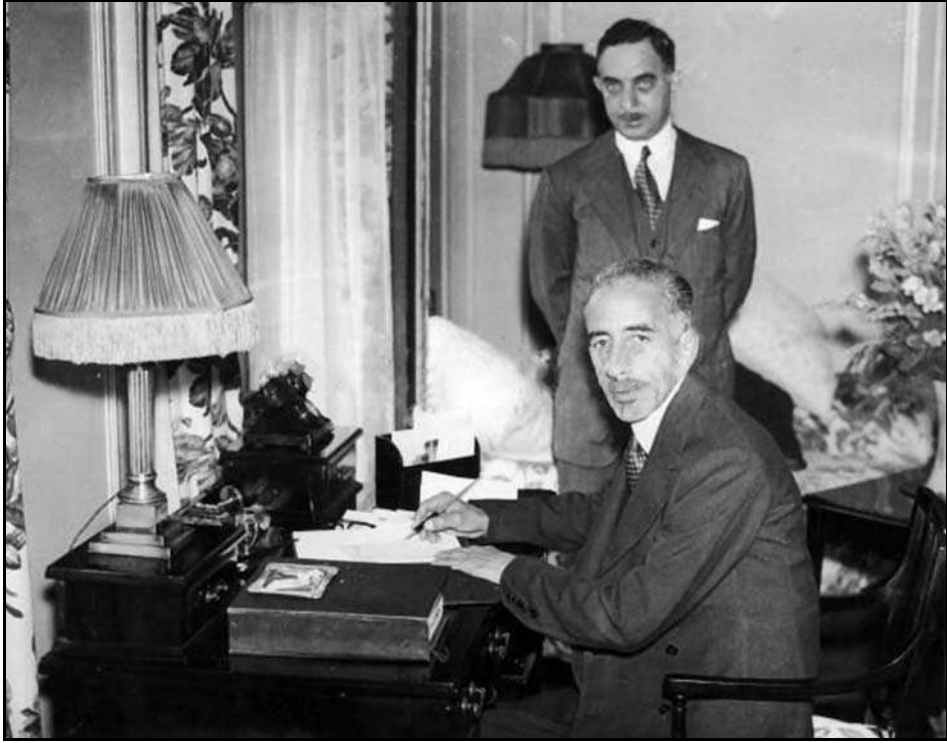
عليه الشعب قد عقد الأمانى ونيط بعزمه الأمل الوطيد
فحقق ذلك الأمل المرجى وجمع ذلك الشمل البديد
قد انتظمت أمور الملك فيه كما بالسلك تنتظم العقود
وأضحى الشعب في عهدٍ جديد به فليحي ذا العهد الجديد





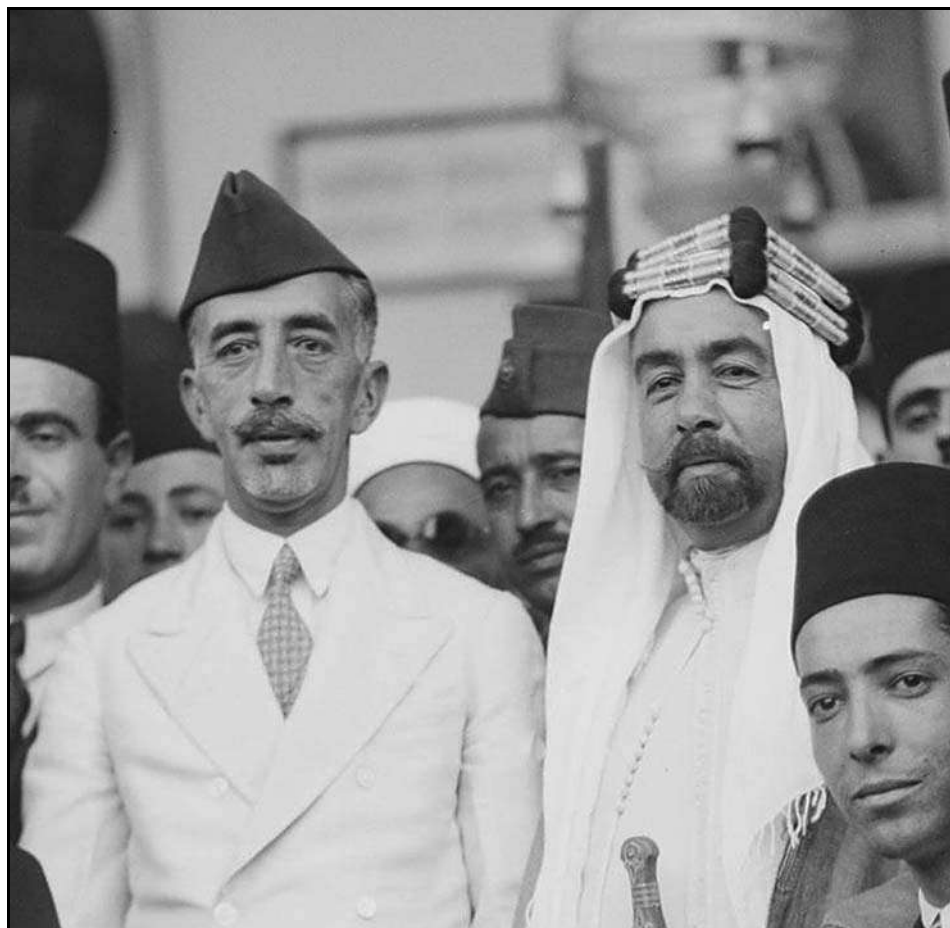




























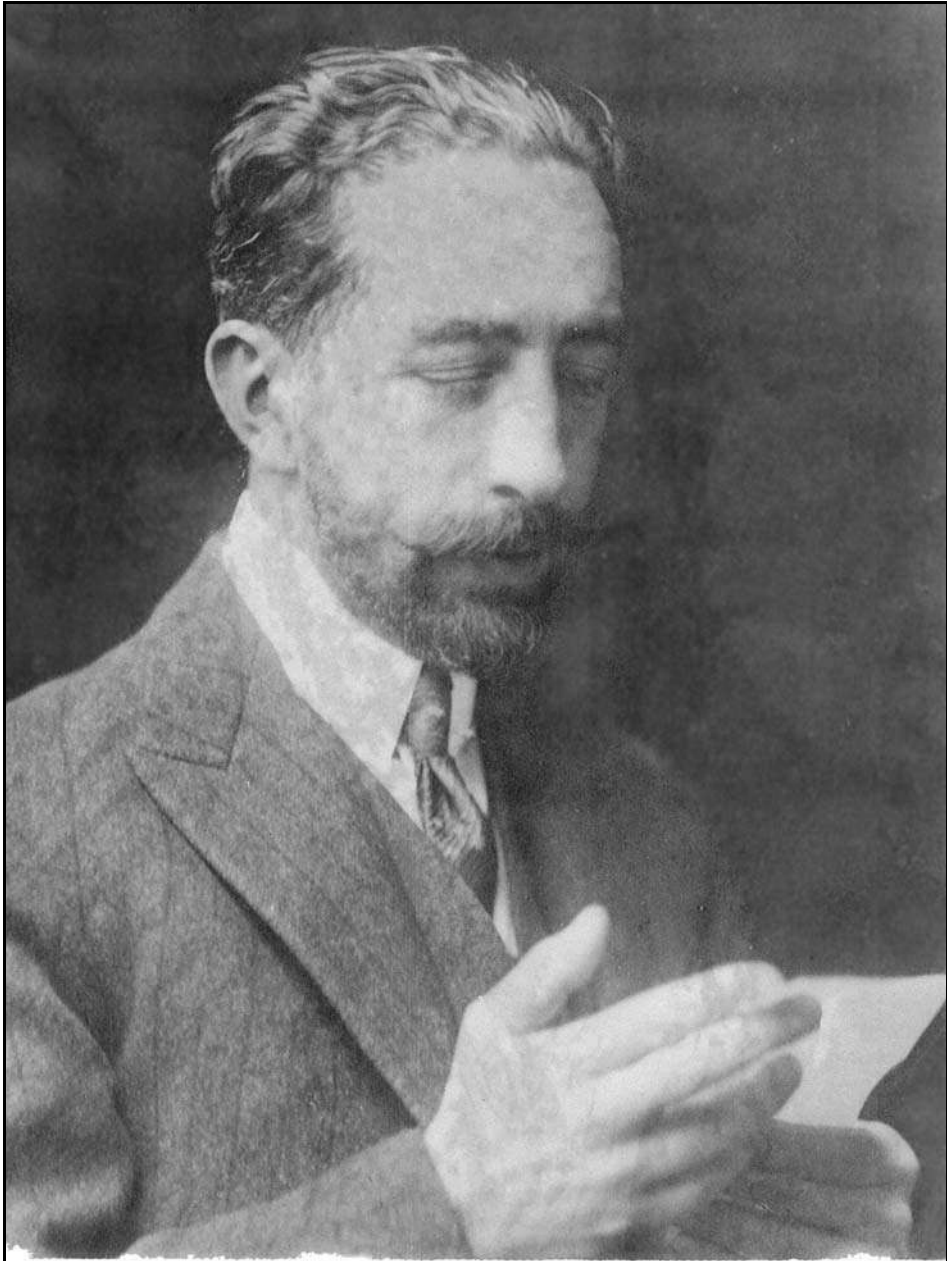




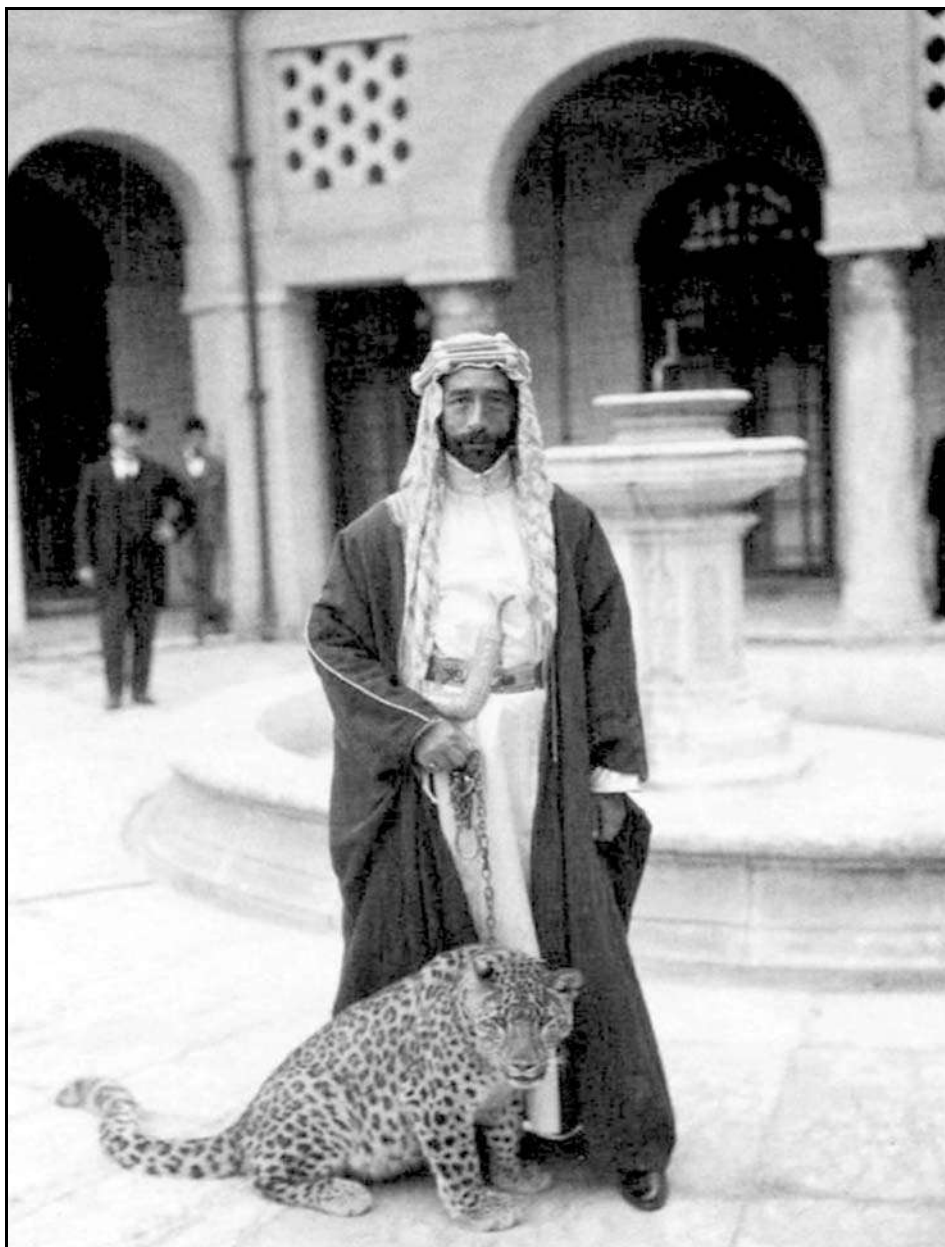








● الملك فيصل الأول رحمه الله.





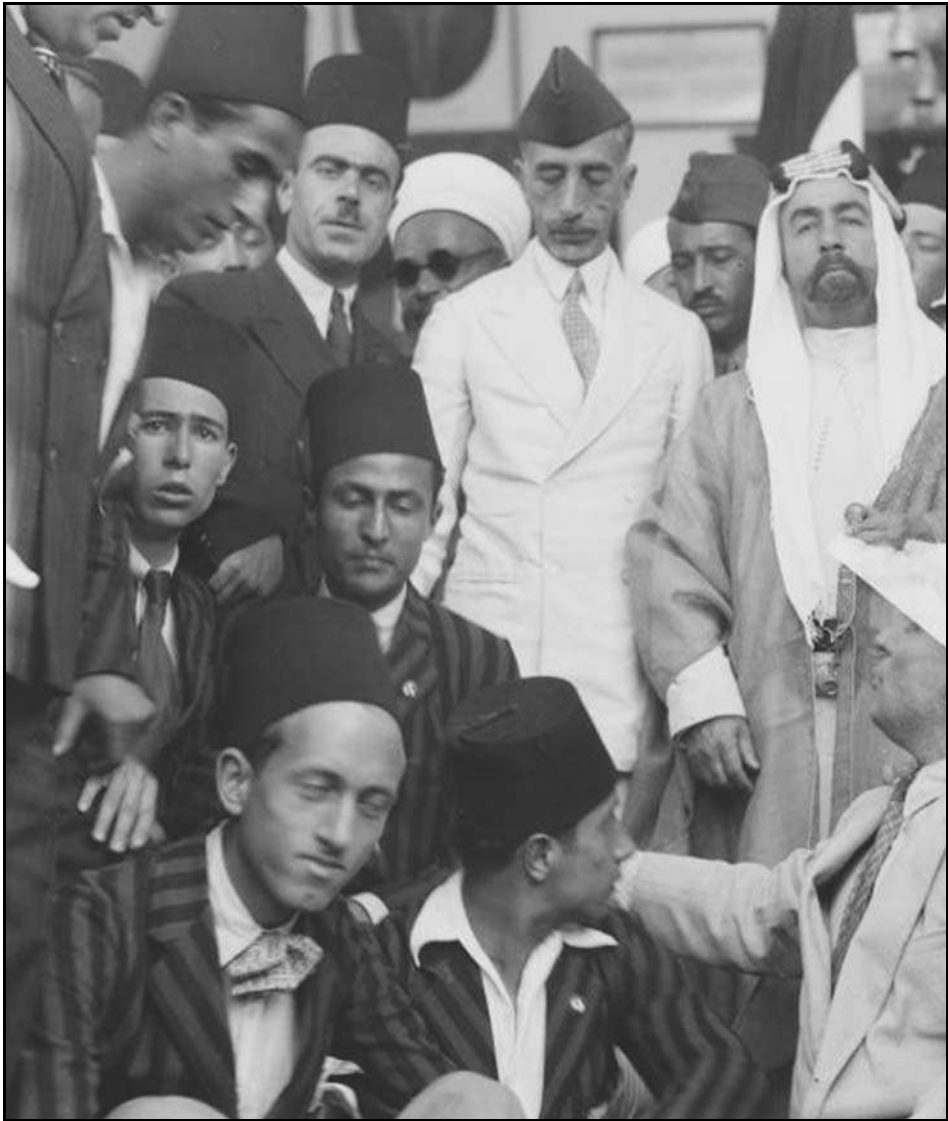


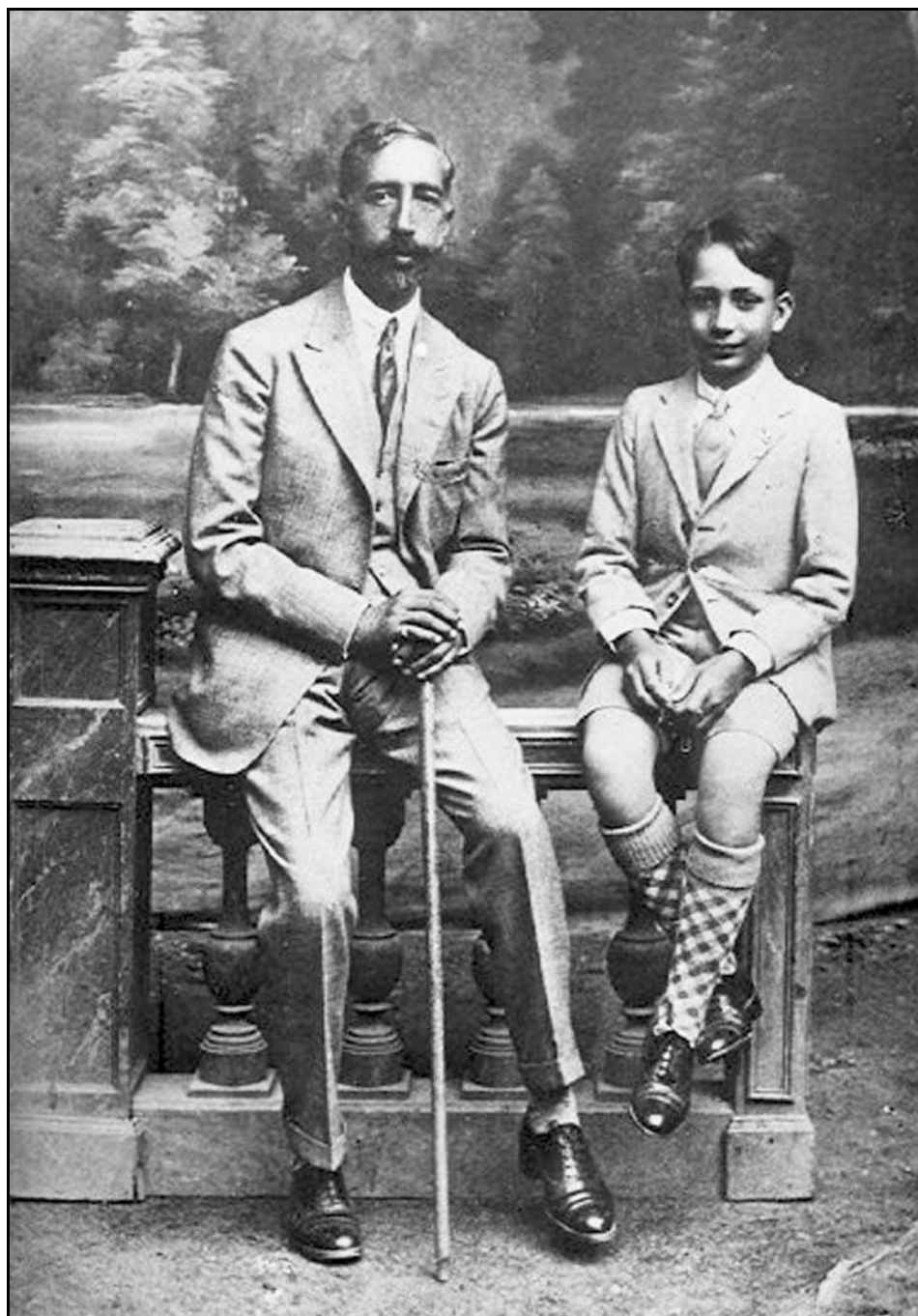


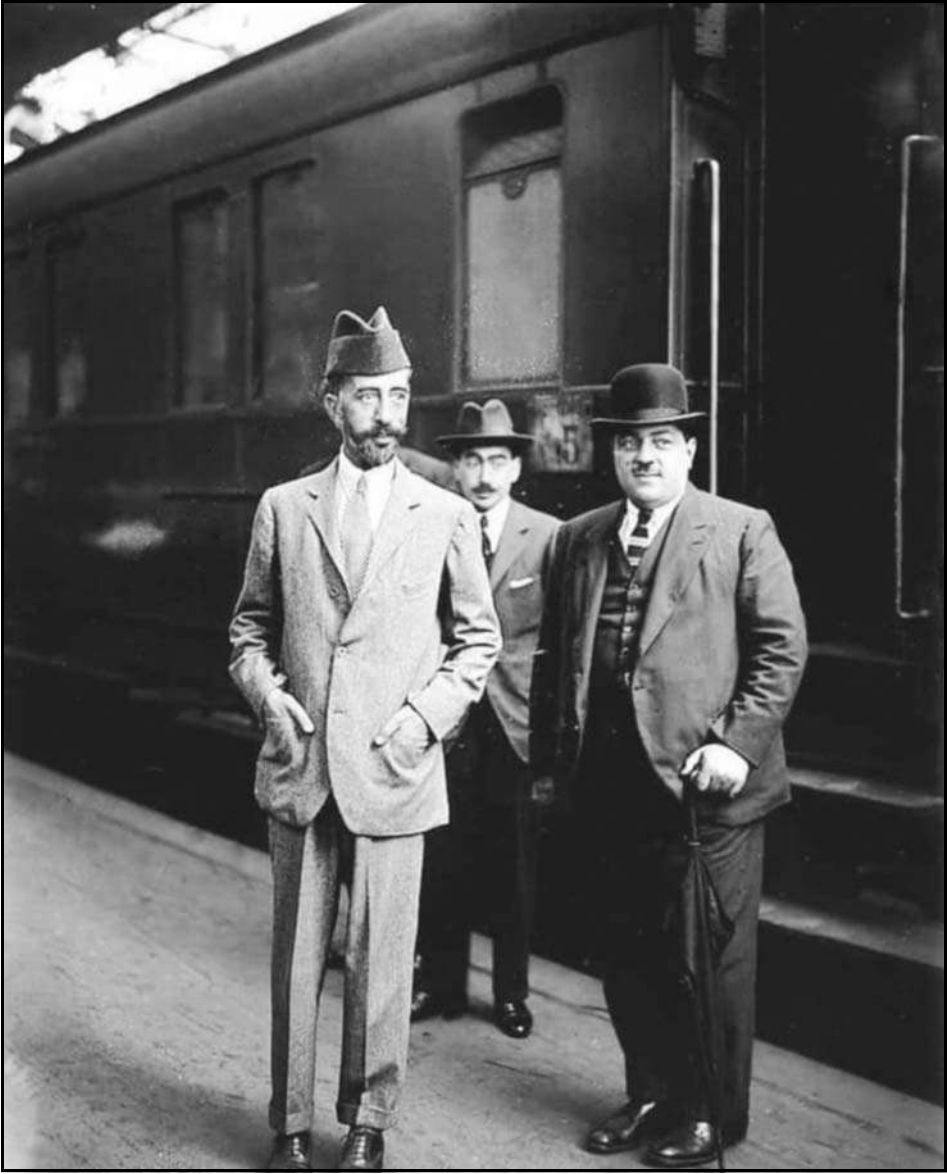












رسالة الخط العربي نشأته وتطوره والمذاهب فيه

(القسم الأول)
العلامة الشيخ أحمد رضا

مقدمة وبحث:

هذه الرسالة هي الأولى التي ظهرت بعد عصر النهضة، في أوائل القرن العشرين، فكانت فتحاً لطريق لم يلجه قبل المؤلف أحد.

قلت في تصديري لهذه الرسالة: إن عوامل شتى، ودوافع قوية قادني للبحث عنها وإظهارها بحلة جديدة مع فهارس وشروحات، علاوة عما قدمته في التصدير.

وأكثر هذه العوامل والدوافع تأثيراً هي هذه الحركة الهدامة أو التي تنطوي على الهدم الخفي، وإن كان بعض أصحابها يملكون النية الطيبة أو الدوافع الخاصة طمعاً بالظهور والبروز. هذه الحركة التي بدأت تكبر وتكبر وكثر أتباعها منذ أوائل الستينيات في حجة تبسيط اللغة العربية. وهي إحلال اللغة العامية - وأطلقوا عليها اللغة المحكية خدعة لبعض العقول - محل اللغة الفصحى، لغة الكتابة والشعر والأدب، واستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني.

هذه الحركة، التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، والتي حاولوا

إبرازها كما تقدم بمحاولة تبسيط اللغة العربية على متعلميها.

وكان من أغرب المقترحات لتبسيط اللغة تلك التي جاء بها الأديب التونسي الجنيدي خليفة في كتابه «نحو عربية أفضل». ولا يمكن الرد عليه إلا بالجملة التقليدية التي كانت محط أواخر اقتراحاته (فهل تهبط السماء على الأرض). فنقول له: وهل إذا أمتنا اللغة العربية بكاملها فهل تهبط السماء على الأرض؟

ومن الأبحاث الجليلة على الرغم من ما فيها من مقترحات بعضها قيم وبعضها غث، ما اقترحه بعض المفكرين اللبنانيين. ما دعاني مضطراً إلى الرجوع لما كنت قد كتبه في أواسط الستينيات في الدفاع عن اللغة العربية فصيحها وعاميتها، وعن الحرف العربي نطقاً ورسمًا، فقد قلت:

وأخيراً ظهر المولود الذي بقي يتمخض به رائد اللغة المحكية في لبنان عدة سنوات. فإذا بعد طول المدة مولود ثماني. وإذا به هجين كسيح عجيب، ولم يكن إلا وليد زوبعة لا يمكن أن توصف بثورة، كما أراد من هم على مذهبه وصفها، لأن المسببات والأسباب التي تقدمتها أو هيأت لها ليست وليدة حاجة ماسة تتطلبها ضرورات الإحياء اللغوي، أو ضرورات مسيطرة الركب العالمي الحضاري، إذ لم تعد اللغة العربية الفصحى المستعملة في الكتابة والشعر اليوم لغة الجاحظ وابن المقفع وجريز والفرزدق، كما أن لغة هؤلاء لم تكن لغة من هم قبلهم كالشنفرى وقس. فسنة التطور تعمل في اللغة العربية المكتوبة منذ انفصالها عن أمها السامية.

وأما الإنحاء باللائمة دائماً على علماء اللغة الذين يحظرون القياس ويزدرون الدخيل ويخافون التجديد، حسب رأي البعض، وتحميلهم وزر الجمود اللغوي، فهذا افتئات على الحقيقة، وتهرب من قول الحق الذي يلوح من خلال سطورهم التي دبجوها.

فلو ترك القياس مفتوحاً، وفتحت الأبواب على مصاريعها لتلقي الدخيل ولكل ما هو جديد، لأصبحت اللغة في فوضى الوضع وإبراز

المهارة في الاشتقاق، والفدامة باستعمال الدخيل، نهباً مقسماً، وأصبح لكل أديب أو متأدب لغة يكتب بها. ولم يعد هنالك من رابطة لغوية تربط الفرد بأخيه ولا القطر بشقيقه.

وأما الخوف من الازدواجية فلا محل لوروده هنا، فإن للغات الأجنبية كالإنكليزية والفرنسية والألمانية لغة فصحي مكتتبه ولغة عامية دارجة؛ يقول العلامة جبر ضومط: «فالمكتتبه في أعلى درجات الفصاحة، والدارجة في أحط الدرجات في بعض أقسام لوندريه وباريس وبرلين». ثم ذكر أنه تعرف بمستشرق اسوجي جاء بيروت لدرس اللغة العربية الدارجة فاخبره أن عندهم لغتين: فصحي ودارجة، وأن الدارجة الأجنبية أكثر من الدارجة العربية بعداً عن الفصحي.

وأن المتتبع للغة العامية منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا يرى الفرق البين بين عامية الأمس وعامية اليوم، ويلمس تعالي العامية اليوم نحو الفصحي التي انحدرت من برجها العاجي وأخذت بتسهيل كلماتها المكتوبة اقتراباً من اللغة المحكية، حتى في كتابات علماء اللغة.

والذي يدلنا على أن النهضة العربية لتقريب العامة من الفصحي قد ظهرت بوادرها من أول نشأتها، ما قاله الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٩٠٦ لبعض أصدقائه: «إنني لمغتبط بأن اللغة العامية علت بلهجتها، وقل فيها الابتذال الذي كان لها أول نهضتها، ويتخللها الآن من الفصيح ما لم يكن يعهد فيها في عصور الانحطاط».

ثم إن العامية في سيرها الملتوي لم تكن شديدة الاندفاع، لوجود علماء كرسوا أوقاتهم لمحاربة هذا الداء، وصنفوا في تقويم العامية.

ولكن الآن، ونحن وراء مكتبنا التجاري أو المهني، أو في حانة من حانات الليل بين الأنغام المبعثرة والكؤوس الدائرة بالرؤوس نصرف جل أوقاتنا، ثم نتطلع للإصلاح اللغوي، ونلقي الكلام على عواهنه، دون تبصر، ولكن حباً بالتقليد وجرياً مع الحضارة الغربية، وإن تكن في قمة

التطور الإنساني اليوم، ومخطئ كل من يعتقد أن الفكر والعلم قد توقف عند حدود الحضارة الغربية. فإن يقظة الشعوب لن تدع لهذه الحضارة السير في الطليعة، وقد أصبحت تدور في حلقة مفرغة، وهذه الشعوب هم أبناء شعوب قامت على جذور حضاراتهم سوق الحضارة الغربية.

لقد استطاعت اللغة العربية الفصحى في عصرها الذهبي أيام الدولة العباسية أن تعيش التطور العلمي والأدبي خطوة خطوة، فأصبحت بفضل علمائها أداة طيعة بين أيديهم ينقلون بها كل الموارث الأدبية والعلمية للحضارات السابقة من يونانية ورومانية وفارسية. وفرض الحرف العربي نفسه على لغات الشعوب التي دانت للفتوح العربية اللغة الفارسية والتركية. وهذا دليل كاف لنفي عدم صلاح الحرف العربي، وإنه يشارك أمه اللغة في الجرم الأكبر الذي قضى بموجبه ديّان اللغة في لبنان عليها بالإعدام وأداً.

ولا يمكن لأحد منا أن ينكر أن اللغة مثلها ككل الكائنات الحية من حيث الرضوخ لسنة النشوء والارتقاء. فكانت تتطور وتتغير بتغير الزمن، وتبعاً لتطور أهلها أفكاراً وعادات.

فيعتبرها ما يعتري الفرد من أدوار الحياة شباباً وكهولة وشيخوخة، ثم موت واندثار. والأخير لا يكون إلا إذا تخلص عنها أهلها بعد فقدهم سلطانهم كأمة ذات سيادة. واللغة العربية عراها من الأدوار الثلاثة الأولى. ولتليقظ علمائها قبل فوات الأوان تخطت عتبة شيخوختها إلى دور طفولتها الأولى. وأصبحت الآن في سن يفاعتها. وإذا استمر علماؤها على جهودهم وضاعفوا نشاطهم، غير مبالين بجعجعة الطواحين ونقيق الضفادع، فلا شك أنهم واصلون إلى جعلها لغة الشعب، كل الشعب، لا لغة النخبة أو لغة الأدباء أو لغة المعاجم، كما يحلو للبعض تسميتها.

وأما صعوبة تعلم اللغة العربية وإتقانها، أي قواعد إعرابها وصرفها، ووجود الحركات التي هي بمقام الأحرف الصوتية، التي ينادون بوجوب وجودها، فأمر لا بد من الوقوف عنده، ودرسه بتؤدة وروية.

إن قواعد اللغة العربية في صرفها ونحوها، وما أدخل على هذه القواعد من الملابس البيانية جدير بإعادة النظر في وضعه، وقد أحسن الأستاذ السودا في بعض ما جاء في أحرفيته، وأخطأ الطريق في البعض الآخر.

ويمكن لاقتراحات الأستاذ السودا والدكتور فريحة أن تكون نقطة الانطلاق نحو درس مركز موقع، يستهدف تبسيط قواعد اللغة على طلابها، مع إيجاد تعاليل مقنعة لحالات الاعراب. فلا نذهب كما ذهب الأستاذ السودا في كلامه عن المبتدأ والخبر، فاختصر على قوله: «جملة اسمية مرفوعة حكماً». «وهذه من تعابير القضاء. ولكن القاضي - وليس لي الأستاذ بأن أتطفل عليه بذلك؛ إذ ليس هذا من اختصاصي - لا يصدر حكمه بصورة الإبرام، لا استئناف ولا تمييز، إلا بعد أن يذكر من الحيثيات ما يؤيد وجوب هذا الحكم المبرم.

فأين هي حيثيات الرفع حكماً في الجملة الإسمية؟ وهل يمكن إجراء ذلك على جميع الجمل الاسمية دون التفصيل؟ فإذا قلنا: الشمس طالعة، هي جملة اسمية مرفوعة حكماً!! فإذا نقول عن هذه الجملة: شمس النهار طالعة، وقد توسط المضاف المجرور بين طرفي الجملة. فهل نقسمها بقولنا الشمس مبتدأ مرفوع، والنهار مجرور بالإضافة إلى الشمس، وطالعة خبر مرفوع؟ أم نقول جملة اسمية مرفوعة حكماً؟ وماذا نقول بهذه الجملة الاسمية «لزيد المال»؟

إنها مشكلة يجب أن تدرس لتتوصل إلى ما يسهل تعلم لغتنا على ناشئتنا، وعلى من يريد تعلمها من الأجانب.

وأفضل طريق في رأيي أن نرجع بحثنا إلى نقطة الانطلاق الأولى من تدوين اللغة ووضع قواعدها. فننطلق من جواب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لأبي الأسود عندما سأله: ما النحو؟ فأجابه الإمام علي عليه السلام: ذات وحدث ورابطة. أي اسم وفعل وحرف. ونأخذ بعين النظر بعض ما

زاده أبو عمرو بن العلاء، ثم الخليل بن أحمد، وأما الجملة الاسمية فالأساس فيها الرفع ما لم يتقدمها أو يدخل عليها ما يفقدها هذا الأساس.

إلى حيث لا شمس النهار مطلة ولا الليل نوار بأعينه النُّجَل

وأما استدلال الأستاذ السودا على صعوبة تعلم اللغة العربية بقصة أولاد السفير الأندونيسي في الفاتيكان فأمر لا يكون نقطة اعتماد، ويمكن الرد عليه بأن السفير الأندونيسي السابق في بيروت الحاج مونتي دانتي كان يتكلم اللغة العربية الفصحى كأحد ابنائها، وقد صرَّح لنا بقوله: إن جميع علماء الدين في أندونيسيا والكثير من شيوخنا وشبابنا يتقنون اللغة العربية ويتكلمونها بسهولة»، فما رأي الأستاذ السودا؟ سفير بسفير والبادي أظلم.

وأما قضية الحرف العربي واستبداله بالحرف اللاتيني مع إيجاد رسوم جديدة لبعض الحروف اللاتينية لتتوافق نطقاً من الحروف العربية التي لا وجود لها في الأحرف اللاتينية، فأمر لا يجوز مجرد التفكير به. لأن حرفنا العربي هو جزء من كيانه ورثناه عن آباء كرام، لهم ما لنا من المميزات والصفات، ولا يمكننا التخلي عنها أو التبرؤ منها. فإنها عميقة الجذور في نفوسنا ووجودنا عمق الحرف العربي في التاريخ الذي أخذت عنه الأحرف اللاتينية. وملتصقة بنا التصاق الحرف العربي بكل ما يميزنا كأمة مستقلة حية لها طابعها الخاصة. فهو انعكاس لذاتنا، وفي حناياه آثار منا، واشكاله تمثل طبائعنا. وزيادة على ذلك تلك الحرية التي تركها نطقه إلى اللسان يتحرك كما يشاء في الفم دون تحذب أو تعجير، ما جعل العربي قادراً على لفظ أي لغة في العالم والتكلم بها كأحد ابنائها، خلافاً للحرف اللاتيني الذي يجبر اللسان على التحذب والتعجر مما أفقد غير العربي النطق السليم للغة العربية حتى ولو كان من جهاذتها.

ثم إن الحرف العربي يوفر لنا الوقت والقرطاس. ولا أتحرج في القول بأنه الخط الاختزالي.

وهب أننا ثرنا عليه وحطمناه وأقمنا مقامه الحرف اللاتيني، فهل تُحل الأزمة؟

أعتقد أن ذلك لا ينقذ القارئ من صعوبة القراءة الصحيحة؛ لأن العلة ناجمة عن الإعراب والتحريك والتي لا حل لها إلا بوجود المعلم الصالح الأول الذي هضم قواعد لغته ومرن لسانه على النطق الصحيح.

ونحن في بدء نهضتنا لم نقم بذلك لعدم توفر ذلك المعلم ولسيطرة اللغات الأجنبية على معاهد تدريسنا، لكونها هي أجنبية، فلم تُعن باللغة العربية وتعليمها لأسباب معروفة.

ولا أغالي إذا قلت إن الجهد الذي يجب أن يبذل لإتقان اللغة العربية، مهما عظم، لا يوازي نصف الجهد المبذول في إتقان قواعد اللغة الألمانية التي تتطور فيها أداة التعريف بالنسبة لوضعها في الجملة، مع العلم أن اللغة العربية متصرفة وتدخل الزيادات في صلب الكلمة لزيادة في المعنى؛ لذلك لا يحل إحلال اللغة المحكية مكان الفصحى حتى المشكلة المعجمية.

وإذا قيدنا اللغة المحكية بقواعد فلا شك أنه بعد مرور وقت قصير سيصبح عندنا لغة محكية غيرها. وأما إذا اطلقناها دون قيد أو قواعد فسيصبح لكل بلدة أو قرية لغة خاصة، بل لكل حي من أحياء المدن الكبيرة لغة خاصة مما يفكك عرى الأمة الواحدة والبلد الواحد ويعرضه إلى الزوال.

وإذا أوجدنا الأحرف الصوتية، كما يدعو إليه البعض، فهل يعني ذلك استغنائنا عن الحركات؟

إنني لا أعتقد ذلك فالحركات ملازمة للحرف العربي ملازمته للوجود العربي. ولأن هذه الحركات تكون إما عارضة لمادة الكلمة ومبناها، أو عارضة لآخرها. وتدعى الأولى حركات المباني، فقد تتفق عدة كلمات في الحروف وفي ترتيبها، وتختلف معانيها باختلاف حركاتها فمثلاً الأسر

والأسر. وتسمى الثانية حركات الإعراب، ولا تؤثر هذه بمعنى الكلمة الوضعي، بل تدل على حالتها واقع منها الفعل أم واقع عليها.

إن الحرف العربي بأشكاله وهندسته، واختصاراته، وسهولة كتابته، والحيز القليل من الوقت والمكان الذي يشغله، مستمد من حياتنا وتفكيرنا وإحساساتنا. مستمد من صميمنا ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

وإذا حلّى لبعضهم التقليد لكل ما هو غربي لأنه الحق لا يأتيه الباطل من خلف ولا من أمام، وكان لهم من أتاتورك مثلاً ي نهجون نهجه ويرسمون مخططه، فإنهم على غباء من أمرهم لأن الأتراك عندما استبدلوا الحرف العربي بالحرف اللاتيني، قد استبدلوا مستعاراً بمستعار. فإن الحرف العربي لا أصالة له في اللغة التركية، وحتى إن اللغة التركية ليس لها أصالة اللغة العربية، فهي عبارة عن خليط غريب من لغات شتى. ليس للكلمة فيها مدلول وطني ولا تراثي، وليس للغة التركية أدب خاص بها، ولا تراث ثقافي أو حضاري يربط مستقبلهم بماضيهم.

ورغم استبدال الحرف لم يطرأ على اللغة التركية أي تقدم، ولم تسجل في مضممار الثقافة الأدبية أي أثر.

وهذا ينفي كون الحرف العربي سبب الجمود في اللغة التركية.

واللغة، وأردد القول، ككل مخلوق بحاجة إلى التعهد والوقاية، فلها حياة وموت، وصحة وسقم، وشباب وهرم. فإذا لم تعتصم بقوة تذود عنها وترد جائحة المعتدي ماتت كالنبته إذا حرمت الماء.

وأكبر دليل على أن اللغة قابلة للتطور كتابة نثراً ونظماً، إنها مطوعة للجديد من الأوزان التي أتى بها شعراء الأندلس. وكونها حضنت النثر المرسل بعد سجع الجاهلية والإسلام، متكيفة حسب متطلبات العصر، ملائمة لأذواق أهله. كما ضاقت في أعصر الانحطاط في ذلك السجع الغث، وكما يرحب صدرها الآن للشعر الحر المرسل وحتى لبعض سخيغه من القصائد النثرية التي لم أدرك حتى الآن مدى علاقتها بالشعر.

وفي بدء النهضة الحديثة كان لبنان أول من رعى حرمة الأمومة وحافظ على لغته في حفاظ حكام نشؤوا على حبها. فالمعنيون والشهابيون والحرافشة وبنو زهرة وغيرهم من خلص أبنائها. وكان لهم الفضل الأول في التوجيه نحو الأحياء بتقريبهم العلماء وجعلهم بطانتهم وأمناء أسرارهم.

ولبنان، وهو البقعة الصغيرة من البلاد العربية، رغم قلة عدد سكانه، قد قدم للأدب العالمي أدباء هم في الطليعة نظماً ونثراً، ومفكرين وعلماء. والمجال المهجري الرحب الفسيح خير دليل على صحة ما تقدم. ولم يقف الحرف العربي، ولا صعوبة إتقان اللغة العربية سداً مانعاً أمام عبقرية هؤلاء العظماء وقد عاشوا في محيط غير محيطهم، وجو غير ملائم لطبائعهم وعاداتهم.

ولبنان، هذا قد قدم لدنيا العرب علماء لغة، وشعراء، وأدباء تفخر بهم العروبة في كل مجال، وذكرهم على ألسنة الجميع في كل قطر من الاقطار العربية.

وعفى الله عن كل متعنت لئيم، عتل بعد ذلك زعيم. ولله الحمد من قبل ومن بعد، وعليه الاتكال.

الدكتور نزار رضا

الخط

اللغة في الخط:

الخط لغة: هو الكُتْبُ بالقلم، قاله صاحب القاموس. وخط الرجل الكتاب «من باب قتل»: كتبه، قاله صاحب مجمع البحرين. وهو مأخوذ من الخِطَة «بالكسر» يخطها الرجل لنفسه. وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه اختارها ليعينها قاله في مجمع البحرين.

مثل الكتابة، وهي كما في القاموس، كتبه كتباً وكتابة: خطه، ككتّبه واكتّبه. أو كتبه: خطه.

وهي مأخوذة من الكتب وهو الجمع. يقال كتب القوم إذا اجتمعوا.

قال الشاعر:

أنبئت أن بني جديلة أوعبوا شعراء من سلمى لنا وتكتّبوا
يريد تجمعوا.

وإنما سمي الكاتب كاتباً لأنه يضم بعض الحروف إلى بعض من قولهم: كتب القرية إذا خرزها إلى خُرَز، قاله ابن بشار الأنباري في شرح المعلقات، ومنها قوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي جمعه. نص عليه صاحب مجمع البحرين.

فضل الخط:

قالوا الكلام ريح قيّده الكتابة. وقد منّ الله تعالى على الناس بنعمة

الخط إذ قال: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وأقسم بقوله تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالى ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: إنه الخط.

وقال عبيد الله بن عباس: الخط لسان اليد.

وقال جعفر بن يحيى: الخط سمط الحكمة، به تُفصل شذورها، وينتظم منظورها.

وقال النظام: الخط أصل الروح، له جسدانية في سائر الأعمال.

وقال ابراهيم بن محمد الشيباني: الخط لسان اليد، وبهجة الضمير، وسفير العقول، ووحى الفكر، وسلاح المعرفة، وأنس الإخوان عند الفرقة، ومحادثهم على بعد المسافة، ومستودع السر، وديوان الأمور.

وقال مسلم بن الوليد: من عجائب الله تعالى في خلقه، وإنعامه عليهم من فضله تعليمه إياهم الكتابة، المفيدة للباقيين حكم الماضين، والمخاطب للعيون بسرائر القلوب، على لغات متفرقة، في معان معقولة، بحروف مؤلفة من ألف وباء وجيم ودال، متباينات الصور، مختلفات الجهات، لقاحها التفكير، ونتاجها التأليف، تخرس منفردة، وتنطق مزدوجة بلا أصوات مسموعة، ولا ألسن مردودة، ولا حركات ظاهرة، ما خلا قلماً جوّف باريه بطنه ليعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليرد ما انتشر منه إليه، وشق رأسه ليحتبس الاستمداد عليه، وأربع من شفثيه ليجمعها حواشي تصويره إليه، فهناك اشتد القلم برشفه، وقذف المادة إلى صدره، ثم مجها من شقه بمقدار ما احتملت شفثاه بتخطيط أجزاء النقط التي أدار بها الخطوط والأبصار لها سامية، فإذا حكته الألسن فالآذان لها واعية، وأواني أسمائها بها حينئذ الكلام الذي سداه العقل، وألحمه اللسان، وقطعته الأسنان، ولفظته الشفتان، وصداه الجو، وجرعته الأسماع على أنحاء شتى. وسميت لها الأشياء التعريف متناكرها، وتميز متشابهها، وتبين معلومها من مجهولها.

تعريف الخط:

قال في إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، من المتقدمين: الخط علم تعرف منه صور الحروف المفردة وأوضاعها، وكيفية تركيبها خطأً، وما يكتب منها في السطور، وكيف سبيله أن يكتب، وما لا يكتب، وإبدال ما يبدل منها في الهجاء وبماذا يبدل؟

وقال صاحب رسالة الخط من المتأخرين: الكتابة هي رسوم وأشكال، تدل على ما في النفس.

وهو تعريف مختصر شامل لكل ما يرسم ويراد منه الدلالة على معنى، سواء في ذلك الأرقام العددية والحروف الهجائية والكتابة المختزلة، بل هو شامل أيضاً للخط الرمزي، فهو أجمع من التعريف الأول.

نشأة الخط:

الإنسان فخور من طبعه، معجب بعمله، مفتون بحب الشهرة، فكان يُحدّث بآثاره سمّاره، ويفاخر بأعماله أقرانه، فلما بلغ المنتهى من هذه الغاية أراد نشر مفاخره على أبناء القرون التالية، حتى إذا خرس عنها ألسن المحدثين، وأخبار القصاصين نطق بها لسان التاريخ، وأظهرتها رواميز النقوش. أو أنه رأى حادثاً جليلاً عظم وقعه من حوادث الزمن، أو من أفاعيل أبنائه، فأراد أن يبلغ من بعده خبره؛ ليكون لهم منه ذكرى وعبرة، فعمد إلى الحفر على الحجر أو الأحجار بما يدل به على ما في نفسه.

ولا شك أن أول ما اخترعته مخيلته أن يرسم الخبر على صورته المحسوسة؛ لأن المحسوسات لها أولية التأثير في الذهن. فرسموا الحوادث والوقائع بصورها، فإذا أرادوا مثلاً أن يخبروا أن ملكاً قتل أسداً صوروا رجلاً على رأسه تاج، ويده سيف، وأمامه صورة أسد، والسيف مغمّد في جسمه.

وإذا كتبوا عن رجل شرب ماء صوره، وصوّروا القدح في يده، وقد أدناه من فمه.

قلنا: إن الإنسان أول ما كتبه هو تصوير الوقائع، فهل كان مصوراً

منذ نشأته؟ لم يكن علم الرسم متقناً عندهم؛ ولكنه يدلهم على ما يريدون، ولو كان خطوطاً يعترض بعضها بعضاً؛ فتظهر بشبه بعيد الصورة التي يريدونها، حتى كثر مراسهم لهذا الأمر فارتقى التصوير عندهم.

ولكن الخط أيضاً ارتقى، فاستبدلوا، في بعض الحالات، الدلالة على المسمى بالصورة للدلالة بها على أول مقطع من اسمها. وقد يكون أكثر من حرف وحركة فأصبحت صورة الأسد بعد أن كانت رمزاً على هذا الحيوان الجريء تدل على أول مقطع من اسمه، وهو الهمزة المفتوحة مثلاً، هكذا ارتقت الكتابة من العلامات الرمزية الدالة على المعاني المستقلة إلى الدلالة على مقاطع الكلمات وحروفها، فقلّت حروف الكتابة بعد أن كانت لا تدخل تحت إحصاء.

فالخط المسماري مثلاً لما استعمله الأكاديون بلغتهم، التي هي من اللغات الطورانية (أخت التركية القديمة) كان في أول أطواره، فكان صور بالخط، ولما خلفهم الآشوريون في بلاد مادي^(١) وفارس وأخذوا خطهم استعملوه في لغتهم الآشورية السامية (أخت العربية)، فكان الخبر عن رجل يشرب ماء في خطهم قائماً بكتابة شكل مجوف مستطيل يريدون به الفم، وفي وسطه خط عمودي صغير بأسفله كرة صغيرة، يمثلون به نقطة الماء ساقطة من السحاب، ويرمزون به إلى الماء، وكلتا العلامتين على هذا التصوير تدل على شرب الماء.

والشهر في خطهم عبارة عن دائرة، يريدون بها الشمس، في جوفها ثلاث من علامة العشرة، وهي شكل زاوية منفرجة يريدون بها الثلاثين يوماً. وقد ظهر من بحث علماء الآثار أن كثيراً من الخط المسماري يدل على حروف مقطعية، وهي ما تدل على حرف وحركة أو حرفين وحركتين، وكذلك الحال في الخط الهيروغليفي بعضه صوري وبعضه مقطعي لفظي، فيه ما هو علامة لحرف وحركة، أو لحرفين، أو لثلاثة أحرف، فهو من هذه الجهة شبيه بالخط الصيني.



نقش محفور على لوح حجري في حتري يظهر الإله نسر فوق مخطوطة آرامية
يعود عهدها للقرن الثاني للميلاد (متحف الموصل)

إن الكتابة الصورية عرف منها إلى الآن فروع، بعضها قرأه الباحثون
بحيث أصبح معروف الدلالة بينهم، كالهيروغليفي المصري، والمسماري
والصيني، وبعضها لم يهتد أحد حتى اليوم إلى حل رموزه كلها كالحثي
والمكسيكي القديم والكانوني لقدماء الأميركيين.

والهيروغليفي المصري قُسم إلى ثلاثة فروع:

أقدمها ما يكتب على الآثار ذات الشأن عندهم ممّا يراد تأييده، ويسمى الهيروغليفي، وهو صوري.

وثانيها ما كان يكتب في الصكوك المدنية، والحاجات العامة وهو أخصر من الأول ويسمى الهيراتي أي المقدس، لأنه يكاد يختص بالكهنة، وعلاماته صور مجازية أو لفظية، ويراد بالمجازية أن لا يكون لمصورها مادة محسوسة، كالشر حيث دلوا عليه بصورة رجل يقتل نفسه؛ لأن قتل المرء نفسه أعظم الشرور وأقبح الحلال والمراد بالصور اللفظية تصوير ألفاظ الأسماء، فهم يكتبون الرجل مثلاً بصورة تدل على لفظ اسمه بدلاً من صورته نفسه، كدلالة الأرقام الهندية على معدودها، يفهمها العالم بوضعها بأي لغة كانت، ولم يعلم معنى لفظها.

والثالث من فروع الخط المصري العامي أو الداموتيكي، وهو موجز من الهيراتي، وأقرب إلى السهولة منه، بل هو آخر حلقة تصله بالخط الهجائي، وقد استعملته العامة، وهو المرسوم في صحف البابيروس في الآثار المصرية.

وأما الخط المسماري - ويعرف بالسفيني، لشبهه بالسفين من آلات البناء - فقد كان كالمصري القديم صوراً محسوسة للدلالة على معاني تلك الصور لما استعمله الأكاديون، ثم صار بعضه صوراً للألفاظ، كما تقدمت الإشارة إليه، حتى إذا اتصل بالفرس وسمي بالفارسي، ارتقى بارتقائهم وصار مقطعيّاً، ثم ارتقى إلى الهجائي، كما تحول المصري عند الفينيقيين إلى الهجائي أيضاً.

خطا الخط خطوة عظيمة في سبيل الإصلاح منذ تبدل من الصوري إلى اللفظي، فقلّت علاماته ورموزه، ولكنه لم يصل إلى الدرجة المطلوبة من حيث تسهيل تعلمه وتعميم فائدته، وبقي بعيداً عن الإتقان لكثرة

العلامات اللفظية الباقية فيه، وتعدُّ أشكالها، بحيث يستغرق تعلمها وقتاً طويلاً، كما تجده في اللغة الصينية اليوم.

فانبرت الهمة في إيجاز هذا الطريق واختصاره، ووجدوا بالاختبار وأعمال الفكرة إمكان تقطيع الألفاظ والكلمات إلى مقاطع صوتية تنحصر في عدد يمكن ضبطه، فقطعوها وجعلوا لكل مقطع صورة من تلك الصور، بحيث كان المقطع الدالة عليه أول مقاطع اسمها، كما يراه الناظر في لغة الأحباش^(٢) اليوم، فنزل عدد العلامات من الألوف إلى المئات، فكان هذا التحويل خطوة أعظم في تسهيل الخط.

ثم فتح الله على المفكرين، فحولوا المقاطع إلى حروف هجائية، لم يتجاوز عددها الثلاثين، ولم ينقص عن العشرين، كما هو الحال في أكثر اللغات المعروفة اليوم التي تكتب بالحروف الهجائية، فكتب العرب بثمانية وعشرين حرفاً. والفينيقيون باثنين وعشرين حرفاً.



كتابة فينيقية وجدت في مدينة جبيل، وهي من آخر المراحل التي سبقت الأبجدية (المتحف الوطني - بيروت)

أول من عرف حروف الهجاء:

اختلف الباحثون في أول من رقى بالكتابة من شكلها الصوري إلى الهجائي؛ فقال قوم إنهم السريان. وقال غيرهم إنهم المصريون، وخص جماعة ذلك بأهل الهند، وأغرب مَنْ نسبَه إلى العرب، ولكن جمهور الباحثين قديماً وحديثاً أثبتوا أن أول من اخترع أحرف الهجاء هم الفينيقيون الذين زهرت بهم هذه البلاد وملكوا بعلو همهم أزمة البحر والتجر بشهادة المؤرخ الفينيقي سانخيناثون البيروتي وبلنيوس الروماني الذي نسب القول في ذلك إلى الشيوخ في زمانه.

وقد ذهب بعض الباحثين اليوم إلى احتمال نسبة ذلك إلى أبناء قبرص حيث اكتشف بعض علماء الآثار الكتابة القبرصية؛ فذهب فريق إلى أنها هجائية ولكن الماجور كندور ذهب إلى أنها غير هجائية، بل هي علامات ثلاثة وخمسين صوتاً، وأنها وضعت في الأصل لكتابة لغة غير اللغة الآرية، ورجح أنها مغولية. وأصل وضعها لم يكن في قبرص بدليل استعمال الكاريين لها شمالي جزيرة قبرص، والظاهر أنها تتضمن الصور الأولى التي هي أصل الحروف الهجائية عند الفينيقيين واليونان وأهل ليسيه^(٣).

وهذا رأي جماعة من العلماء وتابعوهم يزدادون يوماً فيوماً، ومعلوم أن الحروف الهجائية الفينيقية أصل الهجاء عند الأمم، وقد حلت محل القلم المسماري والقلم الهيروغليفي المصري، فإذا ثبت أن الفينيقيين نقلوا حروفهم عن القلم القبرصي كان هذا القلم أصل الأبجديات، والله أعلم.

والقول المشهور أن أبناء فينيقية سلكوا سبيل المصريين كما تقدم فأخذوا عنهم واحداً وعشرين حرفاً كانت معروفة عندهم، وغيروا وبدلوا فيها وجعلوها حروف علة وحروفاً صحيحة، ثم انفردوا بحرف واحد تمة الاثنين وعشرين حرفاً حروف اللغة الفينيقية، وهذا الحرف - وهو العين - غير موجود في لغة المصريين، فوضعوا له علامة مخصوصة، وهي دائرة صغيرة، تشبه وضع الصفر عند الإفرنج.

ثم تبع الفينيقيين في حروفهم كل الأمم التي عرفتهم وغيروا وبدلوا بما تقتضيه لغاتهم، وأشهر من تتبعهم فيها اليونان، كما شهد بهم أقدم مؤرخيهم هيرودوت أبو التاريخ، قال في الكتاب الخامس من تاريخه: والفينيقيون الذين جاءوا مع قدمس^(٤) أدخلوا إلى بلاد اليونان عند وصولهم فنوناً شتى، ومن جملتها فن الكتابة الذي كان اليونانيون يجهلونه حتى ذلك الزمان.

ولكن كلام هيردوت لا يدل على أن الفينيقيين أول من استنبط حروف الهجاء. ونحن في غنى عن هذه الدلالة بالأدلة الكثيرة الشائعة، حتى أصبح استنباط أحرف الهجاء من مفاخر هذه الأمة، كعمل الزجاج. وقد عملوا بهذا الاستنباط في أول عصر تمدنهم ونشأوا على استعماله بحيث جهلوا من منهم أول من قام به. بل أغرقوا فنسبوه إلى أحد آلهتهم الذي جعلوه إله تصحيف الخط واسمه تاوت، وهو من آلهة المصريين القدماء. وكأنها سبقت معرفتهم للخط على زمن التاريخ عندهم، فكان مجالاً للروايات الخرافية.

قلنا إنهم جهلوا أول من قام منهم بمعرفة الخط، ولكن الأقرب إلى ذهن الباحث أن ذلك لم ينفرد به شخص، بل هو عمل نشأ من اختلاط الفينيقيين بالمصريين الذي كان الخط الهيراتي شائعاً عند خدمة الدين منهم، وبه تكتب الصكاك المدنية والحاجات العامة، وكان الخط الداموتي معروفاً عند عامتهم، وهو أبسط الخطوط المصرية، وهذان الخطان أقرب إلى الحروف الهجائية منها إلى الكتابة الصورية. وبعبارة أخرى هما أقرب إلى الخط الفينيقي منها إلى الخط الهيروغليفي القديم. وعنهما اتخذ الخط الفينيقي شكله.

وقد صرح العالم شامبوليون^(٥) بأن الحروف الفينيقية اشتقت من الحروف المصرية.

وقال العالم روجه إن العلاقات السياسية والتجارية بين المصريين والفينيقيين كانت كثيرة فلا يجد الكاتب بداً من أن يرسم بعض كلمات لغته

الفينيقية بالخط المصري فيضطر إلى التغيير والتبديل لاختلاف مقاطع اللغتين. وفي الحقيقة كانت الحروف الفينيقية تتفق مع العلامات المصرية في الهيراتي والداموتي في خمسة عشر حرفاً، وتختلف عنها اختلافاً غير بعيد في السبعة الأحرف الباقية.

وفي كلام العالم روجه ما يدل على أن التغيير المذكور إنما نشأ لمكان الحاجة والاضطرار، وذلك يحصل إما بتنصيب الواضع بأن يضع العلامة ويقول هي لهذا المقطع الصوتي ويحمل الناس على العمل بما وضع، وإما بتوفر الهمم على هذا الاستعمال وشيوعه دون تنصيب واضع مخصوص، وإنما يشيع لمكان الحاجة إليه فيصبح اصطلاحاً.

وذلك نظير وضع اللفظ لمعنى مخصوص في اللغة فإنما يدل عليه بوضعه اللغوي بتنصيب الواضع أو بوضعه العرفي بشيوع استعماله وصيرورته حقيقة عرفية.

ولما كان الوجه الأول أي الوضع المخصوص من واضع مخصوص لم يقم عليه برهان ولم ينص عليه أحد، فإننا نميل إلى الوجه الثاني حتى يظهر ما ثبت الأول؛ لأن الثاني أقرب إلى الطبع، وأكثر في العادة. ثم طرأ على الكتابة الفينيقية أدوار دخل التغيير والتبديل في هياتها، وكانت في آخر أيامهم أكثر بساطة وسهولة من أولها.

ثم أخذ أخذهم بها أكثر الأمم المعاصرة لهم، حيث نقل الفينيقيون حروفهم مع ما نقلوه من تمدنهم وصنائعهم إلى الأقطار؛ فاليونان عنهم أخذوا وبهم اقتدوا، كما تقدم الكلام عليه، بل إن المصريين معلمهم عادوا فاقبسوا أحرفهم من تلامذتهم أبناء فينيقية.

وكان للعرب من هذا الأخذ والاحتذاء النصيب الوافر، والعرب يومئذ في عصر تمدن ومعرفة أيام كانت أرض اليمن تزهر بهم، والناظر في الخط الحُميري يجده قريب الشبه بالخط الفينيقي، وإن حسنَ هندام ذلك ولكن الشكل يكاد يكون غير متبدل. فرسم الباء يشبه بعضه، ولكن رسم الجيم هو

واحد في الخطين، والطاء كذلك، ومثله النون والعين والصاد والقاف، إلى غير ذلك من المتماثلات والمتشابهات.

ولا يبعد أن يكون الكلدان قد سلكوا سبيل أبناء فينيقية في الكتابة فوضعوا حروفهم، وفيها اليوم بُعد عن الشكل الفينيقي، ولعل ذلك البُعد من كثرة الاستعمال والتغير، ولم يبق الدليل القاطع أو الواضح لدى علماء الآثار على أصالة الخط الكلداني؛ بل ربما كان أكثر الباحثين يميلون إلى فرعيته.

بعد أن شاعت الكتابة الهجائية، وأخذ بها أكثر أصحاب اللغات، تفنن كل قوم فيها يكتبون. فكانت صور الحروف مختلفة الأشكال بين لغة ولغة. حتى لقد وقع الاختلاف بين الأصل والفرع كما هو الحال في الخط الهيراتي المصري، والخط الفينيقي؛ مع أن الأول أصل للثاني - كما تقدمت الإشارة إليه - فكان من ذلك: الخط الفينيقي والمسماري والهيراتي المصري والسنسكريتي الهندي والصيني والحشي، وبعض هذه الخطوط مقطعي لا هجائي.

وكان من ذلك أيضاً: الخط العربي بقسميه الحِميري والكوفي، والعبراني القديم وهو السامري، والعبراني الحديث، والسرياني الشرقي، والكلداني واليوناني واللاتيني.

اختلفت لغات الناس، وهي ترجع إلى ثلاثة أصول: السامي والآري والطوراني.

فمن اللغات السامية: العربية، وأخواتها العبرانية والسريانية والكلدانية من اللغات المعروفة، والفينيقية والآشورية والآرامية والنبطية والحِميرية من اللغات المندرسة.

ومن اللغات الآرية: الهندية والفارسية واليونانية والفرنسية، وأكثر لغات أوروبا.

ومن الطورانية - بل هي أشهر فروعها - التركية التي بدلت ألفاظها وانمحت رسومها القديمة إلا شكلها في السبك والجمل؛ إذ بقي هذا الشكل حاملاً هذا الاسم.

اختلفت هذه اللغات فاختلفت رسومها الخطية وحروفها الهجائية.

وليس اتحاد اللغتين في أصلها موجباً لاتحاد الشكل في حروفها؛ بل قد تختلف اللغات في الأصل وتتحد في الكتابة، وقد تتحد في الأصل وتختلف في الكتابة.

وإن الآشوريين - ولغتهم السامية - قد أخذوا خطهم عن الأكاديين، وهم طورانيون. بل إن اللغة العربية نفسها قد اختلف خطها بين مسند حمير في جنوبي بلاد العرب والشكل الكوفي في شماليها، وبين الخطين اختلاف ظاهر لمن عرفهما.

وإن اللغات التي دخل أهلها في الإسلام واتخذوه ديناً قد غير أبنائها شكل كتابتهم، واتبعوا فيها الرسم العربي وإن كانت لغاتهم بعيداً أصلها عن أصل اللغة العربية، كاللغة التركية الطورانية واللغة الفارسية الآرية؛ فإنهما تكتبان بالحروف العربية كما لا يخفى.

إن الاختلاف البعيد الشقة بين أشكال الحروف الهجائية في الكتابة على اختلاف أنواعها، يذهب بالفكر إلى استبعاد اتحاد أصله. ولذلك أكثر الباحثون من التنقيب، وأفرغوا الوسع في التحقيق. فلم يقف بهم البحث على ما تظمن إليه النفس من وحدة الأصل أو اختلافه في جميعها.

ولكنهم على ما يظهر كانوا يميلون إلى اتحاد الأصل وخصوصاً في اللغات الحية اليوم، وغاية ما أوردوه من الأدلة على ذلك أن أسماء الحروف تكاد تكون واحدة مع اختلاف يسير:

ففي اللغة العربية: ألف، باء، جيم، دال.

وفي العبرانية والسامرية: ألف، بيت، غامل، دالث.

وفي السريانية: آلف، بيث، جيمل، دالث.

وفي الحبشية: ألف، بيت، جمل، دن.

وفي اليونانية: الفا، فيتا، غمّا، دلتا وهكذا.

ومن أدلتهم أن ترتيب الحروف يكاد يكون واحداً في هذه اللغات؛ فالألف أول الحروف ثم الباء، ثم الجيم، ثم الدال، وهكذا.

ومن أدلتهم أن طائفة من هذه اللغات - مع اختلاف أصلها - تجد قوة الحروف فيها تكاد تكون واحدة.

والمراد بقوة الحروف قوتها العددية، أو الحساب المعروف بحساب الجمل. فهو في السرياني والعربي واحد، وفي اليوناني كذلك مع اختلاف يسير يماثله اختلاف الجمل في اللغة العربية بين المشاركة والمغاربة.

وقد وصل القول باتحاد أصل الخط في اللغات كلها إلى حد ذهب فيه أحد الباحثين الفرنسيين إلى التصريح بوحدة الأصل بين الحروف المصرية والحروف الصينية؛ لأنه رأى شبيهاً بين حروف اللغتين.

وقد نسب الخط بعض علماء العرب، في القرون الوسطى، إلى واضع واحد وهو آدم عليه السلام، وأنه كتب الحروف في طين وطبخها، فلما أظلمت الأرض الغرق أصاب كل قوم كتابتهم، وبعضهم جعل الواضع الأول لها إدريس عليه السلام، وهناك أقوال على هذا النمط غريبة لا تشم رائحة التحقيق. والله أعلم.



معبد التالوكان: المقر الأعظم لآلهة المطر حسب ما تبينه الصور والمخطوطات المرسومة على الجدران الداخلية للمعبد الذي يعود عهده قبل عهد المايا والأزتيك الذين حكموا المكسيك قديماً.

الخط العربي

كيف نشأ الخط العربي؟

للعرب تمدن قديم عرفوا به في الزمن القديم، ولم يذكر مؤرخونا القدماء أخباره، وإنما عرّفنا به مباحث الأثريين في آثار العربية السعيدة. وكانت زهرة هذا التمدن في بلاد العرب الجنوبية كاليمن وحضرموت وما إليهما، وكانت ديار المعينيين مقر مُلك عظيم للعرب، ومركز تمدن لهم معروف.

وكانت مملكة متسرى العربية لها المركز الأول تحت قيادة سبيي أو (صيفي) في الحلقة التي عقدت على خلع طاعة الآشوريين لما توفي تغلت فلاسر الثاني مكتسح بلاد العرب بجنوده ومخضعها لسلطانه وتولى سرجون في سنة ١٣٤٢ قبل الهجرة النبوية.

وقام بالثورة يومئذ ملك حما وملك غزة والقائد العربي سبيي هذا. وقامت لهم في الجنوب الغربي من جزيرتهم مملكة عظيمة تعرف بمملكة سبأ، وهي التي كان ممن ولي أمرها بلقيس التي أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، وقيل إن منها ذا القرنين الحُميري الذي قيل إن فتوحاته امتدت إلى ما وراء فارس، على ما أخرجه بعض الرواة.

وما زالت آثار الحُميريين ناطقة بعظيم مجدهم، وشديد حولهم، وقديم عزهم؛ حتى أشبه على بعض العلماء فظن أن أبناء فينيقية أخذوا كتابتهم عن الحُميرية، وأن الحُميرية كانت أقدم من الفينيقية.

وكان العرب اليمانيون يومئذ أهل تجارة وكسب، يضربون في الأرض التي دانت لملكهم وفي غيرها، ووجدت آثارهم مكتوبة بالخط الحُميري في تيماء، وهي إلى الشمال مع ميله إلى الشرق عن المحل المعروف بمداين

ابن صالح بين الحجاز والشام، وشرقي تبوك. واتصلت تجارتهم مع صور الفينيقيّة يوم كانت سلطنة البحار. فكانوا بذلك أمس الناس حاجة إلى الكتابة، وكان عندهم الخط المسند المعروف بالحميري ويسميه الإفرنج بالسبائي نسبة إلى مملكة سبأ وهو يشبه الفينيقي، كما سبقت الإشارة إليه، ولكنه أحسن هنداماً وأبدع شكلاً وذلك من أدلة فرعيته عنه.

واتصل العرب الشماليون بالآراميين والكلدان ومنهم السريان، فاقتبسوا من معارفهم الكتابة السريانية، ثم اتخذوا منها الشكل العربي المعروف اليوم بالكوفي. وهو لدى الناظر المدقق يكاد يكون كالخط السرياني الشرقي شكلاً لولا اختلاف يمكن معه رده إلى أصله. وإن بين الكتابة السريانية والكتابة الكوفية من الشبه ما هو أظهر وأقرب مما بين الكتابتين العربيتين الحميرية والكوفية.

ولم أر اختلافاً يعتد به في أقوال الباحثين من حيث نسبة الكوفي إلى السرياني الشرقي الكلداني، ومن حيث نسبة الحميري إلى الفينيقي. ولكن في النسبة بين السرياني والفينيقي وقع الخلاف.

وذهب جماعة إلى أنهما من أصلين مختلفين؛ فالسرياني ينسب إلى المسماري، والفينيقي إلى الهيروغليفي، ولم يعلم اشتراك هذين الأصلين في المنشأ إلا من حيث اتحاد أبجديتهما، ووحدة أسماء الحروف في اللغتين. كما تقدم البحث فيه. وذلك لم يقنع كثيراً من الباحثين؛ فذهب بعضهم إلى تباين الأصلين.

أما اتصال الخط بالعرب الحميريين فقد جلبته إليهم تجارتهم مع الفينيقيين، ثم دخل فيه التغيير والتبديل بكثرة الاستعمال بحيث أصبح كتابة قائمة بنفسها سميت حميرية. وعم استعمالها بلاد العرب الجنوبية، وإن شئت قل اليمنية، وبلغ هذا الخط في دولة التابعة^(٦) مبلغ الإتقان.

قال العلامة ابن خلدون المغربي في مقدمته: «وقد كان الخط العربي بالغاً مبلغه من الأحكام والإتقان والجودة في دولة التابعة لما بلغت من

الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحُمَيْرِي.

وقد ذهب بعض علماء السريان إلى القول بنسبة الخط الحُمَيْرِي إلى السرياني، فإن أراد بالسريان ما يعم الكنعانيين الذين منهم الفينيقيون فلكلامه وجه، ولكنه أغرب في التسمية وخالف فيها، وإن أراد بالسريان الأمة السريانية الشرقية المعروفة بالكردان فقد خالف بذلك جمهور الباحثين.

وأما اتصال الخط الكوفي - وهو المسمى قبل الكوفة بخط الجزم - بالعرب الشماليين فقد اختلف في أصله:

فذهب ابن خلدون، وتبعه كثير من علماء العرب، إلى أنه اشتق من الحُمَيْرِي؛ قال في المقدمة:

«وانتقل - أي الخط - منها - أي من دولة التبابعة - إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل منذر نساء التبابعة في العصبية، والمجددين لملك العرب بأرض العراق، ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين، وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك. ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش.

إلى أن قال:

«فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة، ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحُمَيْر، هو الأليق من الأقوال، وكان لحُمَيْر كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم».

«ومن حُمَيْر تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو».

وقال غيره: «أن سبب تسمية الخط الكوفي بخط الجزم قبل وجود الكوفة لأنه جزم أي اقتطع، وولد من المسند الحُمَيْرِي، ومرامر هو الذي اقتطعه».

والذي عليه المحققون اليوم، أن الخط العربي المعروف اليوم - ومثله

الكوفي - أخذنا من الخط السرياني، وأدلتهم في ذلك كثيرة - منها: تقارب أشكال الحروف بين الخطين.

ومنها: اتحاد الأبجدية في اللغتين.

ومنها: القوة العددية أي حساب الجمل فهو في اللغتين متشابه.

ومنها: اتحاد أسماء الحروف في اللغتين الألف والجيم والداد والزاي والشين والصاد والضاد وغيرها.

وفي هذه الحروف ما طرأ على تسميته تغيير قليل، كالزاي بدل الزين، والعامّة لم تغيره، والجيم بدل جيمل أو جومال، والداد بدل دالت أو دولاث، والصاد بدل صادي.

ومنها أن كل حرفين يلفظان من مخرج واحد يتشابه رسمهما في العربية وفي السريانية كالصاد والضاد، والطاء والظاء، ولكن بعض هذه الحروف التي تشابه في الخط ذات القرب منها في المخرج غير موجودة في السريانية؛ وإنما احتاجوا إليها في خطهم المعروف بالكارشوني وهو ما كان لفظه عربياً ورسمه سريانياً. فجعلوا للحروف التي لا توجد في السريانية علامات خاصة بأن اتخذوا شكل ما كان قريباً منها في المخرج، ووضعوا عليه نقطة لتتوب مناب تلك الحروف، كالداد والذال، فجعلوا للثاني نقطة من أعلاه، والكاف والخاء فللكاف نقطة عليا وللخاء نقطة سفلى، وكذلك الطاء والظاء، والصاد والضاد.

فهل جرى السريان هذا المجرى بعد معرفتهم العربية ليدلوا على حروفها التي عريت منها لغتهم؛ فيكونوا قد أخذوا اصطلاح النقط فيها عن العرب، فلا يتم حينئذ هذا الدليل؟

أم أن ذلك اصطلاح عندهم سابق على معرفتهم العربية، جروا فيه مع غيرها ثم أجروه فيها، ويكون العرب اتخذوا نهجهم في ذلك الرسم؟ أمر موجب للنظر والتأمل...

ومن أدلتهم على تفرُّع خطنا العربي عن السرياني أن الخط السرياني تُكتب حروفه متصلة، فللحرف ثلاثة أشكال: في أول الكلمة، وفي وسطها، وفي آخرها، وكذلك الخط العربي، بخلاف الحِمِّيَري والعبراني.

على أن السريانيين أعرق في الاتِّصال حتى إنَّهم يحذفون الألف إذا جاء به حرف مدٍّ في حشو الكلمة، وتبعهم العرب في بعض ذلك فأوجبوا حذف الألف من «هذا»، و«هؤلاء»، و«لكن».

ومن أدلتهم: أنَّ كل الحروف التي تفصل في السريانية عما بعدها كالراء والواو والألف والdal هي كذلك في العربية.

هذا مجمل مما ذكره الباحثون في ترجيح أصالة السريانية للخط العربي المعروف بالكوفي، وهذه الأدلة لا تقوم في الخط الحِمِّيَري.

أما في أسماء الحروف فلم يدلنا التاريخ على كيفية أسمائها عند التبابعة؛ بل أغفل التاريخ العربي شكلها ورسمها، وغاية ما وصفها ابن خلدون بأنها حروف منفصلة، حتى قام علماء الآثار في العصر الأخير، واستعانوا بالخط الحبشي القريب الشكل من الحِمِّيَري على حل رموز هذا الخط وقراءته، ولم أعلم أنهم وقفوا له على كتب تعليمية هجائية كما اتفق لهم في الخط البابلي، فلذلك لا يمكن لنا البحث في هذا الأمر.

وأما أشكال الحروف فَبُعْدُ ما بين الخطين ظاهر لمن عرفها وليس فيها أدنى مشابهة، وأما تشابه الحروف إذا كانت من مخرج واحد فذلك لا أراه في الخط الحِمِّيَري.

وإنك تجد في الحِمِّيَري الفرق ما بين رسم الباء، التي هي من حروف الشفة - ورسم التاء والتاء - اللتين هما من حروف الوسط ومخرجها - يكاد يكون متحداً، وكذلك الصاد والضاد والطاء والظاء.

ثم إن الخط الحِمِّيَري يُكتب منفصلاً كله وليس فيه اتصال كما هو

ظاهر لِمَن عرفه، وكما نصّ عليه ابن خلدون فيما تقدم بيانه، فليس بينه وبين الخط العربي من هذه الحيشة أدنى نسبة؛ ولكن السرياني ليس كذلك؛ بل هو كالعربي في الاتصال والانفصال.

الخطُّ الكوفي القديم والحديث

أصل الخط الكوفي والمذاهب فيه:

الخط الكوفي هو الذي عرف في البلاد العربية الشمالية، وسُمِّي بالكوفي نسبة إلى الكوفة التي عمرت ومصرّت بعد غلبة المسلمين على العراق؛ فاسمه هذا حادث بالنسبة إلى وضعه. وكان قديماً يعرف بالجزم؛ قال العالم العراقي محمود شكري الألوسي في كتابه (بلوغ الأرب في أحوال العرب): «لأنه جزم أو اقتطع وولد من المسند»؛ وهذا القول منه مبني على ما اشتهر لدى أكثر كتاب العرب من أن أصل الكوفي كان من الحُمَيْرِي مِمَّا غلط فيه العلامة ابن خلدون المغربي وصاحب القاموس. وقد بينا ما في مذهبهما من البُعد عن محجة الصواب.

ولعل الجزم أخذ من قولهم جزم القراءة، أي وضع الحروف مواضعها، والجزم في الخط تسوية الحروف بالقلم، قاله في القاموس.

وقد اشتهر بين الرواة أن أول من وضع الخط العربي ثلاثة رجال من بولان - وبولان قبيلة من طيء - نزلوا مدينة الأنبار وهم: مرامر بن مرة، وأسلم بن سدره، وعامر بن جدرة، اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصلة ثم قاسوها على هجاء السريانية.

فأما مرامر فوضع الصور.

وأما أسلم ففصل ووصل.

وأما عامر فوضع الإعجام أي النقط.

وهذه الرواية مسندة إلى ابن عباس، أخرجها أحد علماء القرن الثامن في مؤلف له نفيس في علم الخط، وفيها من الدلالة على أن أصل الكوفي من الخط السرياني ما لا يحتاج معه إلى بيان، وهو المطابق للأدلة السابقة التي سردناها حجة على ذلك.

وروى صاحب كشف الظنون مثلها مع اختصار. فلم يتعرض لما كشفته هذه الرواية من أن الثلاثة الواضعين قاسوها على هجاء السريانية. وقيل: إن مرامر ورفيقيه أخذوها عن كاتب الوحي للنبي هود عليه السلام، وعلموها أهل الأنبار، وانتشرت من الأنبار.

وقال العلامة ابن خلدون: إن سفيان بن أمية أخذ الكتاب عن أسلم بن سدره، وهو كما علمت أحد الثلاثة الذين قيل عنهم في الرواية السابقة إنهم أخذوا الخط عن النبي هود عليه السلام.

فيكون مع الجمع بين الروایتين أن أسلم أخذها عن كاتب وحي هود عليه السلام، وأعطاه سفيان بن أمية وبينهما من آلاف السنين ما لا يقطعه عمر ولا أعمار.

فانظر إلى مقدار الخلط والخط في هذا الأمر الذي لم تنجل حقيقة إلى اليوم.

وذهب قوم إلى أن واضع الهجاء العربي والحروف العربية ستة أشخاص من طسم^(٧)، كانوا نزولاً عند عدنان بن أد، أسماؤهم: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت، فوضعوا الكتابة والخط، وما شذ من الحروف عن أسمائهم ألحقوها بها وسموها الروادف، وهي الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين، ثم انتقل عنهم إلى الأنبار، واتصل بأهل الجزيرة، وفشا في العرب.

ويُروى أنها أسماء ملوك مدّين، قاله صاحب كشف الظنون، وقيل فيه إنهم هلكوا يوم الظلة بدعوة شعيب عليه السلام، وقالت إحدى القينات ترثي كلّمُن:

كَلُمْنِ كَلَّمْ قَلْبِي هَلْكُهُ وَسَطُ الْمَجْلِهِ
وقال العلامة الزمخشري في كتابه المعروف بغريب القرآن ما نصُّه:
«أبو جاد، وهواز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقريشيات، أسماء ملوك
مدين في قول الشعبي. قال شاعرهم:

ملوك بني حطي وهواز منهم وسعفص أهل للمكارم والفخر
هم صبحوا أهل الحجاز بغارة كمثل شعاع الشمس أو طالع الفجر
وقال الضحاك: إنها أسماء الأيام الستة التي قال الله تعالى في القرآن
خلق الله السموات والأرض في ستة أيام.

وقال هشام بن عروة: إنها أسماء من وضع الكتابة، وضعوها على
أسمائهم ثم ألحق بها الروادف.

ونقل الجوهري (أبو نصر إسماعيل) - وهو من أئمة اللغة العربية -
عن الشرقي بن القطامي: إن أوّل من وضع الخط رجال من طي فيهم
مرامر بن مرة، وأنشد عليه:

تعلمت باجادٍ وآل مرامر وسوّدت أثواني ولست بكاتب
قال الجوهري: وإنما قال وآل مرامر لأنه كان سمّى كل واحد من
أولاده بكلمة من أبي جاد، وهم ثمانية.

وهذه الرواية ذاهبة إلى أن أصحاب هذه الأسماء ليسوا من مدين أو
من طسم بل هم من طيء.

وقيل: إن بني إسماعيل وضعوا كتاباً واحداً، جعلوه سطرّاً واحداً
موصول الحروف، ثم فرقه ثبّت وهُمِيسَع وقِيدَار، فرّقوا الحروف
وجعلوا الأشباه والنظائر، وهذه الرواية بعدت في مذهبها عن الروايات
السابقة.

وقيل: إن أوّل من كتب الكتاب العربي رجل من بني النضر بن كنانة،
وعنه أخذ العرب.

وقيل: إن أول مَنْ وضع الخط العربي بنو إيراد، وكانت منازلهم العراق، واستبعده ابن خلدون، لأن إيراداً - وإن نزلوا ساحة العراق - فإنهم لم يزالوا على شأنهم من البداوة، والخط من الصنائع الحضرية، وإنما معنى قول الشاعر:

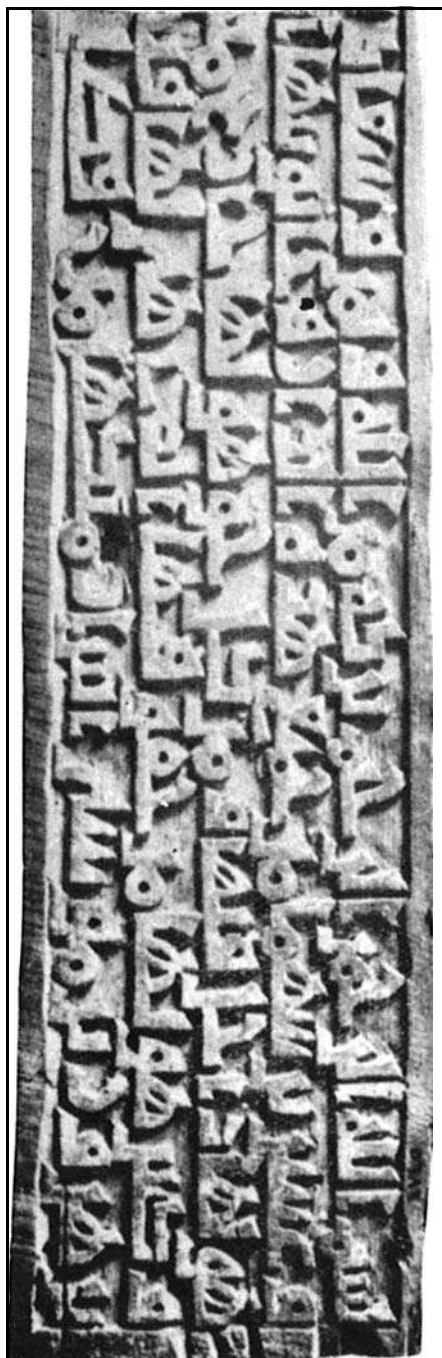
قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم
أنهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة
الأمصار وضواحيها.

وقيل - ورجحه السهيلي (عبد الرحمن بن عبد الله «ت ٥٨١هـ») وأسنده إلى ابن عبد البر (يوسف بن عبد البر)، عن النبي ﷺ -: إن أول من كتب بالعربية إسماعيل عليه السلام. قال ابن عبد البر وهو أصح من القول بأن أول من تكلم بالعربية إسماعيل عليه السلام.



علبة اسطوانية من العاج مؤرخة من ٣٥٧هـ عليها

شريط من الكتابة الكوفية



قطعة من خشب عليها كتابات كوفية من العصر الطولوني (القرن التاسع م.).

الخط النسخي

الخط النسخي المعروف اليوم:

ذهب الجمهور من علماء العرب إلى أن النسخي أخذ من الكوفي، والكوفي أصل له.

وذهب فريق منهم أن الذي نقله الوزير أبو علي بن مقلة الكاتب المعروف المتوفى سنة ٣٢٨هـ.

قال في كشف الظنون: «وهو أول من كتب الخط البديع ثم ظهر صاحب الخط البديع علي بن هلال المعروف بابن البواب المتوفى سنة ٤١٣. ولم يوجد في المتقدمين من كتب مثله ولا قاربه، وإن كان ابن مقلة أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين، وأبرزها في هذه الصورة له أفضلية سبق».

والظاهر من قوله «أول من نقل هذه الطريقة وأبرزها في هذه الصورة» أنه يريد بها الخط النسخي الشائع وأنه هو الذي سماه بالخط البديع؛ لأن اسم الإشارة في قوله هذه الصورة يراد بها الصورة الماثلة للخط لدى صاحب كشف الظنون، وهو من المتأخرين كما لا يخفى، والصورة الماثلة لديه هي صورة الخط النسخي، ولعله إنما نسب إلى ابن مقلة لأنه أول من اشتهر به ونقل عنه وإن كان سلك فيه سبيل الاتباع لغيره.

أو إنه أدخل في شكل الكتابة تحسیناً سُميَ باشتهاره عنه اختراعاً وقارب تحسينه هذا الخط النسخي فنسب إليه.

قال صاحب إعانة المنشئ، عن ما نقله عن بعض أفاضل القرن

الثامن:

«إن الوزير أبا علي بن مقلة وأخاه أبا عبد الله ولدا طريقة اختراعها، وكتب في زمانها جماعة فلم يقاربوها، وتفرد أبو عبد الله بالنسخ، والوزير بالدرج، وكان الكمال في ذلك للوزير، وهو الذي هندس الحروف وأجاد

تحريرها، وعنه انتشر الخط في مشارق الأرض ومغاربها، انتهى.
وإلا فالخط النسخي معروف قبل ابن مقلة، وقد ذكر صاحب إعانة
المنشي قوله: «ولدا طريقة اخترعها»، كما سبق: «إن أول ما نقل الخط
العربي من الكوفي إلى الأقلام المستعملة الآن في آخر خلافة بني أمية وأول
خلافة العباسيين».

وجعل في مقام آخر انتهاء صناعة الخط إلى رجلين من أهل الشام
يقال لأحدها: الضحّاك وللثاني: إسحاق ابن حمّاد، مستنداً في ذلك إلى
رواية أبي جعفر النّحاس (أحمد النّحاس لغوي وأديب ومفسّر «ت ٩٥٠هـ»)
في كتابه صناعة الكتاب، وقال ابن الضحّاك: كان في خلافة السفّاح،
وإسحاق في خلافة المنصور والمهدي؛ إذ يسبقان ابن مقلة بمدة تقارب
القرنين.

فلا يحمل كلامه «ولدا طريقة اخترعها» إلا على أن ابن مقلة وأخاه
أدخلا تحسناً من حيث البسط والتقوير، وأمثال ذلك في الخط، ولا يحمل
على أن المراد بها النسخي؛ لأنه استدل على وجوده قبل ابن مقلة، كما
تقدم.

وكان صاحب إعانة المنشي أراد بالأقلام المستعملة التي قال إن
الضحّاك وإسحاق نقلًا إليها الخط من الكوفي هي غير الكوفي؛ لأن لفظة
النقل تشعر بذلك.

وقد ذكر الفاضل المتقدم ذكره نسبة اختراع الخط المعروف اليوم إلى
ابن مقلة وغلط القائلين بذلك، فقال:

«على أن كثيراً من كتاب زماننا (القرن الثامن) يزعمون أن الوزير أبا
علي بن مقلة - رحمه الله - هو أول من ابتدع ذلك، وهو غلط؛ فإننا نجد
الكتب بخط الأولين فيها قبل المأتين مما ليس على صورة الكوفي؛ بل
يتغير عنه إلى نحو هذه الأوضاع المستقرة، وإن كان هو إلى الكوفي أميل
لقربه من نقله عنه».

ويؤيد هذا القول أن في المكتبة الخديوية بمصر نسخة من الرسالة للإمام الشافعي كتبت سنة ٢٦٥هـ، أي قبل وفاة ابن مقلة بثلاث وستين سنة، وخطّها إلى النسخي أقرب منه إلى الكوفي.

وقد وجد الباحثون حجراً، في اللجا من جبل حوران، عليه كتابة عربية ويونانية، يرتقي زمنها إلى ما قبل الهجرة النبوية بأربع وخمسين سنة، والخط العربي فيها من النوع النسخي.

والذي يظهر من ذلك أن الخط النسخي كان قائماً ومستعملاً قبل الإسلام في ديار الشام والعراق، ولم يقد دليل على عدم فرعيتة عن الكوفي، كما لم يقد دليل على الفرعية؛ ولكن الاعتماد على القول بأن أصل الخط العربي الشمالي هو من السرياني يقرب القول بالفرعية؛ لأن الكوفي أقرب إلى الأصل - الذي هو السرياني - من النسخي.

ويمكن القول بأن النسخي أخذ من الخط النبطي الذي كان مستعملاً عند الأنباط^(٨) زمن دولتهم في البتراء، وهم أخذوه عن الآرامي والسرياني، والله أعلم.



بسملة بالخط الريحاني كتبها ابن البواب المتوفى عام (٤١٣هـ)
محفوظة بمتحف طوب كبي - اسطنبول - تركيا



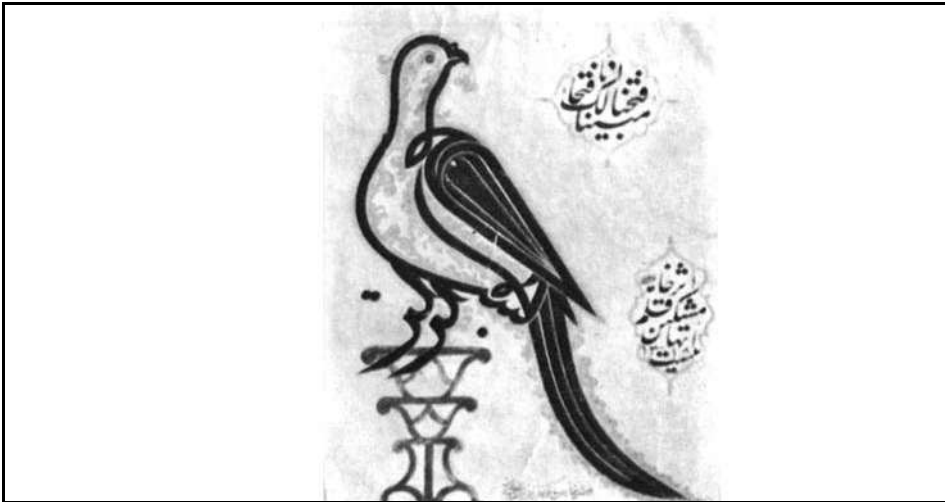
كتابة بخط الثلث لابن البواب (متحف طوب كبي - تركيا)



صفحة من مصحف كتبه الشيخ حمد الله الاماسي بن الشيخ مصطفى درة المتوفى سنة ٩٤٣هـ، عن ١٢٠ عاماً، وهو بداية المدرسة التركية في الخط، ونلمس فيها قوة كتابته الثلثية والنسخية التي تفوق كل كتابة سبقتها



لوحة بخط الثلث من كتابات محمود جلال الدين الملقب بالشيخ



بسملة بشكل طائر لمشكين قلم تعود إلى سنة ١٣١٨م (من مجموعة فؤاد اللادقي)

قد اعترف انما من جيانه وان زعم انما من ماله فهذا
 لشراف واغزله على كل حال واضمرك اليك عمله فكتب ابو
 عبيدة الى خلد مقدم عليه وجمع الناس وجلس لهم على
 المنبر مقام البريد فقال يا خالدا من مال الشارح عشرة
 الاف او من اصابعه فلم يجبه حتى اكثر عليه واثم وعبيدك
 سالت لا نقول شيئا مقام رايه بلال وقال ان امر الرب
 امر لك بكدا وكنا وتناول عمامته فنقضها لا يمينه
 سعا وطلعه واخذ قلنسوته واقامه وقال له ما نقول
 ان مالك اجرت امر من اصابعه اصبته فقال لا بل من
 مالي فاطلقه واغاد قلنسوته وعمته بيده وقال
 لسبع ونطيع لولايتنا ونفخ ونكلم موالينا ثم اقام
 خلد طويلا ما يدرى امعزول هو ام على العمل وبيت
 ابو عبيد في ذلك الى عمر فاستقدم عمر خالدا فلما
 قدم عليه قال له ما اردت بما فعلت رحمك الله ولقد
 شكوتك الى المسلمين فحاسبه عمر على ما كان عنده
 فاقض منه عشرين الفا واظهرها بيت المال ثم قال ما خلا لك
 والله على كرم وانك اليك الحبيب ولن تغالبنني بعد اليوم
 عياشي وكتب الى الامصار اني لم اعزل خالدا عن خط ولا

كيف اشتهر الخط الكوفي دون غيره في صدر الإسلام؟

إن الإسلام هو، ولا ريب، مبعث حضارة العرب والأساس الأعظم في تمدنهم. والخط إنما هو من لوازم الحضارة وتوابع العمران، كما نص عليه العلامة ابن خلدون قال في مقدمته: «لهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون، ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصراً وقراءته غير نافذة، ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقاً لاستحكام الصنعة فيها».

ولا شك أيضاً أن الإسلام قد صبغ بصبغة أهله أكثر الديار التي دخلها، بل كل البلاد التي دخلت في طاعته زمن من حيث اللغة والعادات. لأن العرب وهم يومئذ معززون بعريتهم حاكمون بسلطتهم، لأن منهم دعاة الإسلام وحملة القرآن. وقد نزل القرآن بلسانهم فزادهم ذلك استمسكاً بما هم عليه من العصبية العربية.

كانوا إذا فتحوا بلاداً واستعمروها لا يجدون بعد دينهم أمراً يحتفظون به أعظم من عاداتهم التي قبلها الإسلام منهم وأقرهم عليها. ومن ذلك الكتابة، فإنها وإن تكن عرفت في ديار اليمن وكانت الحِميرية لهم، وفي ديار العراق وكان الجزم خطهم، إلا أن انتشارها كان بانتشار المسلمين الذين تلقاها الصدر الأول منهم. فكتبوا بها القرآن واحتذى سبيلهم جميع المسلمين يومئذ، فانمحت الكتابة الحِميرية من اليمن وحل محلها الخط الكوفي. وانفرد هذا الخط بالقطر العراقي وفي بلاد الشام فلم يعرف بعد ذلك غيره عندهم إلا قليلاً. ولعله بقيت بقية فيه تعرف الخط النسخي حيث اتصل بالضحك واسحاق زمن السفاح العباسي الذي اتخذ العراق دار ملكه، كما تقدم الكلام في ذلك.

وكان أول خط عرف في الإسلام هو الخط المكي، نص على ذلك ابن اسحاق (محمد بن اسحاق) ونقله عنه صاحب كشف الظنون.

وقال بعض الباحثين من المتقدمين: «ولم ينتشر الخط كل الانتشار

إلى أن كان البعث». فيكون انتشار الخط بين المسلمين إنما كان من بدوّه مكة ثم المدينة. وأول وصول الخط إلى مكة كان على يد حرب بن أمية، وقيل سفيان بن أمية، ذهب إلى ذلك ابن خلدون وكثير من المحققين.

وقد نقل عن أبي زكريا يحيى الفراء الدليمي عن العمري أنه قيل لابن عباس من أين تعلمتم الهجاء والكتاب والشكل؟ قال: علمناه حرب بن أمية. وقيل لأهل مكة من علمكم الكتابة؟ فقالوا: أبو سفيان بن أمية. فقيل: ومن أين أتته؟ قالوا: من رجل من أهل الحيرة. وقال أهل الحيرة: أخذناها عن الأنبار.

وقال أبو بكر بن أبي داود، عن ابن السائب، تعلم بشر بن عبد الملك الكتابة من أهل الأنبار وخرج إلى مكة وتزوج الصهباء بنت حرب فعلم أباهما الخط.

وقال غيره أن أبا سفيان بن حرب تعلم من أبيه حرب وتعلمه عمر بن الخطاب وجماعة من قريش.

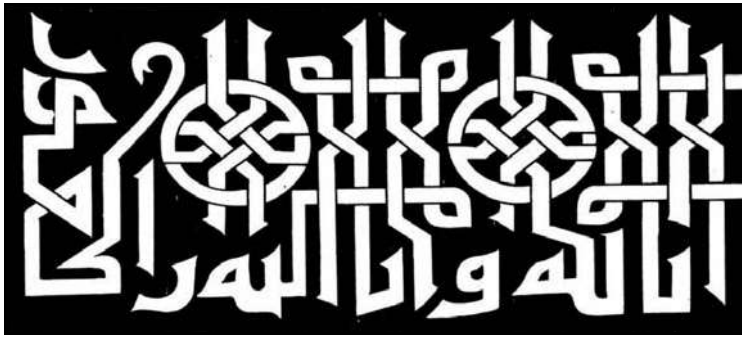
ثم اتصلت الكتابة بيثرب من رجل يهودي من يهود مكة تعلمه فكان يعلمه الصبيان. فجاء الإسلام وفي المدينة بضعة عشر رجلاً يكتبون منهم: سعيد بن زرارة، والمنذر بن عمرو، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت وكان يكتب بالعبرانية أيضاً، ورافع بن مالك، وأسيد بن حضير، ومعن بن عدي، وأبو عيس بن كبير، وبشير بن سعد.

وقد كان كتبة الوحي من المهاجرين والأنصار يرجع السند في اتصال الكتابة إليهم، كما هو ظاهر مما تقدم، إلى حرب بن أمية أو سفيان بن أمية على اختلاف القولين. وكان خطهم يومئذ هو المعروف بعدهم باسم الكوفي. نص على ذلك صاحب الأبحاث الجميلة، ونقله عنه صاحب كتاب الخط.

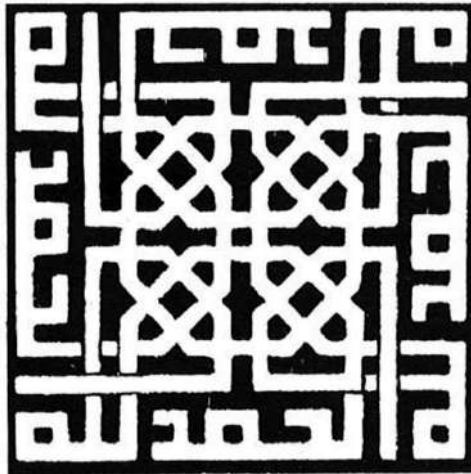
ولا ريب أن المسلمين بعد ذلك ساروا بسيرة كتبة الوحي، الذين هم أول من كتب في الإسلام، واتخذوا شكل حروفهم. فعشت حينئذ الكتابة الكوفية ولم يبق أحد يومئذ بالدعوة إلى غيرها حتى استبحر عمران الإسلام، وتفرقت أمصاره، فتفاوتت البلاد في العناية بأمره.



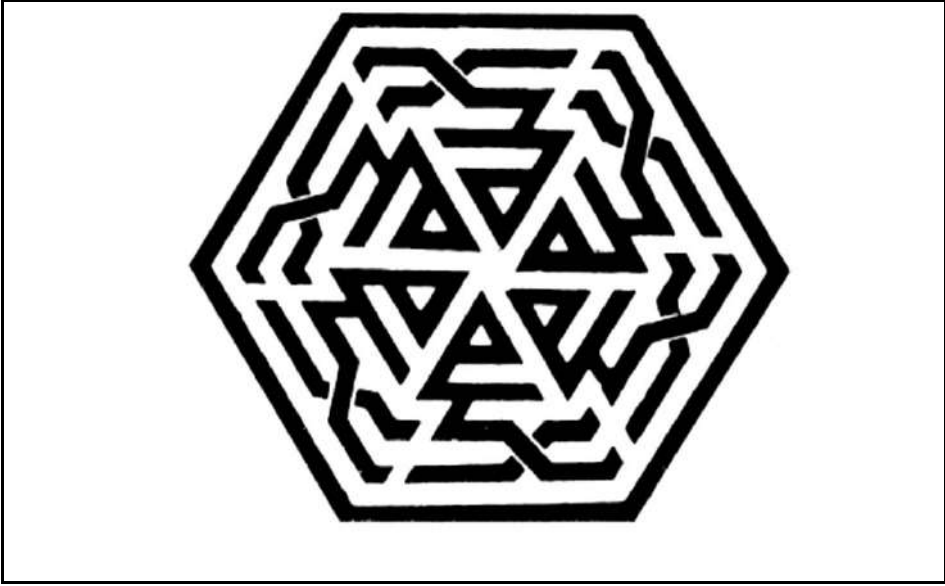
قطعة من نسيج الحرير صنع مدينة يزد بإيران في القرن الثاني عشر الميلادي، عليها شريط من الخط الكوفي الجميل على مهاد من الفروع النباتية. نص الكتاب: (وفي القبر وحدتي وفي اللحد وحشتي)



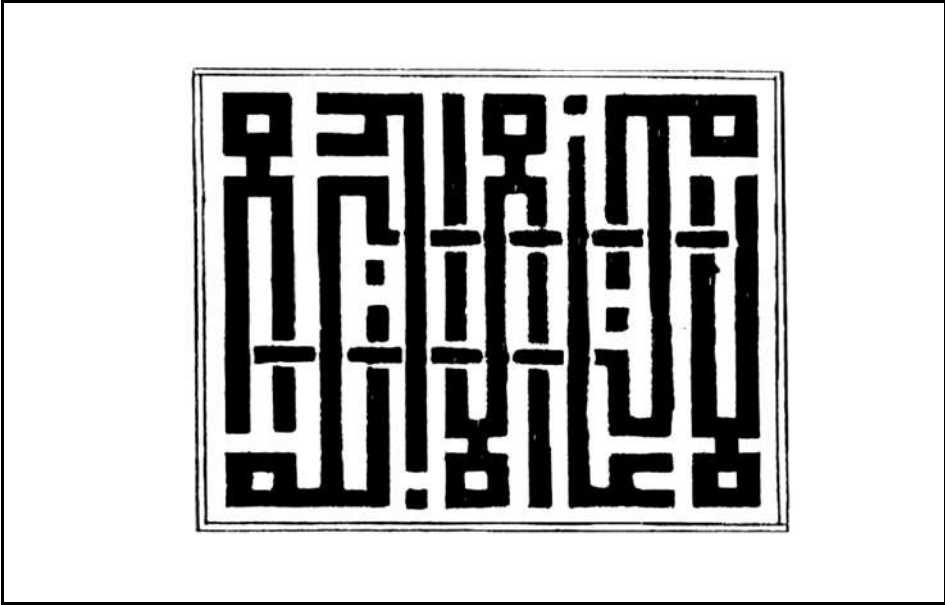
(إنا لله وإنا إليه راجعون)، خط كوفي تحولت فيه الحروف إلى زخارف، من تركيا في القرن الثالث عشر الميلادي



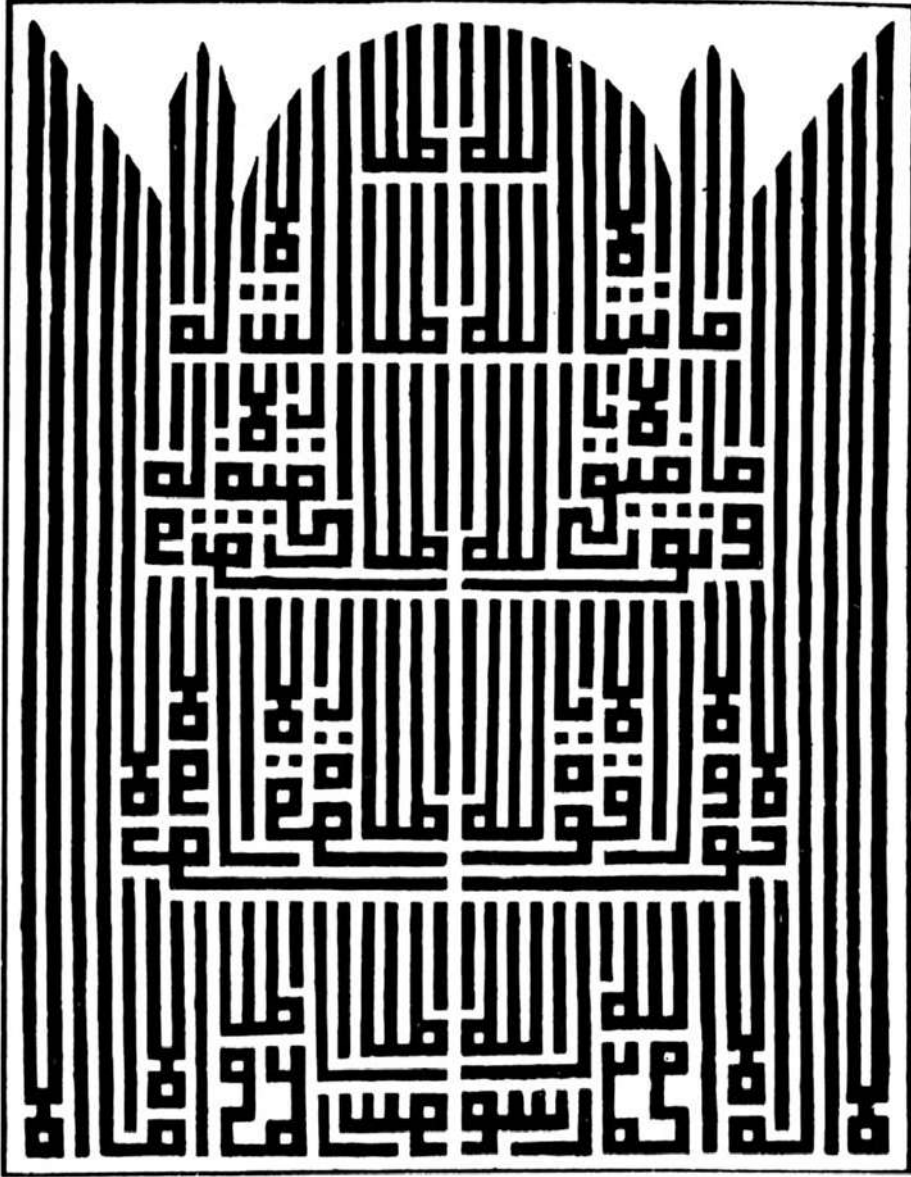
كتابة لوحية كوفية تربيعية قديمة نقلت من أسفل اسطوانة منارة جامع السلطان بايزيد بتركيا (٩١١هـ). نصها المكرر أربع مرات (الحمد لله)، وفي الوسط أربع نجومات



كتابة كوفية زخرفية مثلثة التركيب داخل مضلع سداسي الشكل نصها: (الله)



كتابة كوفية متناظرة تقرأ من أعلى ومن أسفل، نصها: (لا غالب إلا الله)
من كتابات الحاج أحمد - اسطنبول



كتابة كوفية مبتكرة متناظرة مشطبة بخطوط قائمة تقرأ من أسفل إلى أعلى وبالعكس،
 نصها من الأعلى: (ما شاء الله - وما توفيقى إلا بالله - ولا حول ولا قوة إلا بالله
 - لا إله إلا الله - محمد رسول الله)

حملة الخط النسخي:

قلنا إن صناعة الخط انتهت إلى رجلين من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية وهما الضحاك وإسحاق.

ثم نشأ بعدهما جماعة أشهرهم إبراهيم الشجري، أخذ الخط عن إسحاق بن حماد المذكور، وأحدث طرقاً جديدة في الكتابة.

ثم اشتهر بعده محمد بن معدان المعروف بأبي زرجان، أخذ الخط عن الشجري، ثم أخذ عن أبي زرجان، أحمد بن محمد بن حفص، المعروف بزاقف، وكان في عصر المعتصم العباسي ذا وجهة عند الوزير ابن الزيات، مقدماً عنده لا يكتب بين يديه غيره.

ثم عرف بمصر كاتب مجيد اشتهر باسم طبطب، قال النحاس: كان أهل بغداد يحسدون مصر عليه.

وعرف بعد ذلك الوزير أبو علي ابن مقله، واشتهر أمره حتى صار مضرب المثل في جودة الخط.

وأخذ عنه ابن السمسسماني وابن أسد، وعنهما أخذ أبو الحسن علي بن هلال، المعروف بابن البواب المشهور، ثاني ابن مقله في الشهرة. وأخذ عن ابن البواب محمد بن عبد الملك.

وأخذت عن ابن عبد الملك امرأة من فضليات نساء عصرها، حتى انتهت إليها صناعة الخط في عصرها، وهي الشیخة المحدثه الكاتبة زينب الملقبة بشهدة بنت الإبري.

وعنها أخذ أمين الدين ياقوت، وعنه أخذ الولي العجمي، وعنه كتب العفيف، وعن العفيف ولده عماد الدين، وعنه شمس الدين بن أبي رقية محتسب الفسطاط، وعنه الشيخ شمس الدين محمد بن علي الرقادي، وعنه الشيخ زين الدين بن شعبان بن محمد بن داود الاثاري محتسب مصر ناظم

ألفية الخط، المسماة بالعناية الربانية في الطريقة الشعبانية من علماء القرن الثامن للهجرة.

كذا ساق هذه السلسلة صاحب الكتاب في الخط المتقدم ذكره.

وقال صاحب كشف الظنون بعد أن ذكر ابن البواب في مشاهير الكتاب: «وكان شيخه في الكتابة محمد بن أسد الكاتب، ثم ظهر أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي المتوفى سنة ٦٢٦، ثم ظهر أبو المجد ياقوت بن عبد الله الرومي المستعصي المتوفى سنة ٦٩٨، وهو الذي سار ذكره في الآفاق واعترفوا بالعجز عن مدانة رتبته.

ثم اشتهرت الأقلام الستة بين المتأخرين، وهي: الثلث والنسخ والتعليق والريحان والمحقق والرقاع.

ومن الماهرين في هذه الأنواع: ابن مقلة، وابن البواب، وياقوت، وعبد الله أرغون، وعبد الله الصيرفي، ويحيى الصوفي، والشيخ أحمد السهروردي، ومبارك شاه السيوفي، ومبارك شاه القطب، وأسد الله الكرمانلي.

ومن المشهورين في البلاد الرومية: حمد الله بن الشيخ الأماسي، وابنه دده جلبي، والجلال، والجمال، وأحمد القره حصاري، وتلميذه حسن، وعبد الله القريمي، وغيرهم من النساخين.

ثم ظهر قلم التعليق والديواني والدشتي، وكان ممن اشتهر بالتعليق سلطان علي المشهدي، ومير علي، ومير عماد، وفي الديواني تاج وغيرهم. ولم يكن هؤلاء الأفاضل مع شهرتهم في الخط منفردين في تجويده؛ بل كان في عصورهم من يقاربهم في الجودة والإتقان.



صورة الكتاب الذي يقال إن المنذر بن ساوى المتوفى عام ١١٠هـ
تلقاه من النبي ﷺ مختوماً بخاتمه الشريف

تنوع الخط:

إن تفرق الأقطار واختلافها، كما أثر في الأخلاق واللغة والعادات، كذلك أثر في الخط، فاختلف باختلاف البلاد، وتنوع بذلك الخط العربي إلى أنواع، فكان قديماً «فضلاً عن الخط الكوفي»: الخط البغدادي، والخط الأفريقي، والخط الأندلسي، والخط النسخي.

قال ابن خلدون في المقدمة:

«لما انتشر العرب في الأقطار والممالك، وافتتحوا إفريقية والأندلس، واختط بنو العباس بغداد، وترقت الخطوط فيها إلى الغاية لما استبحرت في العمران، وكانت دار الإسلام ومركز الدولة العربية، وكان الخط البغدادي معروف الرسم، وتبعه الخط الإفريقي المعروف رسمه القديم بهذا العهد (عهد ابن خلدون)، ويقرب من أوضاع الخط المشرقي، وتحيز ملك الأندلس بالأمويين، فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط، فتميز صنف خطهم الأندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد».

ثم قال: «وأما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر، وتعلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وأفريقية، من لدن الدولة اللمتونية^(٩) إلى هذا العهد، فغلب خطهم على الخط الإفريقي وعفى عليه، ونُسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها لتوفر أهل الأندلس بها.....».

«وحصل في دولة بني مروان من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريباً واستعمالهم إياهم سائر الدولة. ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره، كأنه لم يعرف» فصارت الخطوط بأفريقية والمغربين مائلة إلى الرداء بعيدة عن الجودة».

هكذا الحال في المغرب إلى عصر ابن خلدون وهو في أخريات القرن الثامن للهجرة.

وقد كان الاختلاف بين خط أهل المغرب وأهل المشرق في شكل الحروف واضحاً لمن يتأمله، وما زال الفرق ظاهراً إلى اليوم؛ ففي الدال والذال، والكاف والفاء والقاف، اختلاف بين الخطين لا يخفى على من عرفهما.

وكذلك اختلف شكله في البلدان التي دخلها يحمله إليها حملة الملة الإسلامية، وناشروا الدعوة المحمدية، أيام انبسط ظل الخلافة على أكثر أنحاء المعمور؛ فانقلب الخط الفارسي من شكله القديم إلى شكله العربي المعروف، ولم يبق من حملة الخط الأول العارفين به ممن يتكلم الفارسية غير بقية من خدمة الدين عند المجوس وقليل من غيرهم، على قلة من العناية ونقص في الرغبة، يحدو المجوس إليه تقاليد دينية قديمة، وكلهم مع ذلك بالخط العربي أعرف لأنه أصبح خط اللغة العام، واقتصروا من الخط الفارسي على الأمور الدينية والأثرية.

ولم يكن للأتراك من خط غير خطنا؛ لأنهم عرفوا الإسلام قبل الخط، فلم يختاروا غير الكتابة المعروفة عند أهلهم.

وكذلك أهل الهند فإنهم نبذوا خطهم القديم، واستمسكوا بخطنا العربي، ولم يدخل قوم في الإسلام إلا ومالوا إلى اتباع أهله وخصوصاً في الخط، إلا ما شذ من مسلمي الصين؛ لأن هؤلاء لم يملكوا أزمة الدولة في الديار الصينية، بل نشؤوا قليلي العدد والعدة بين قوم عقدوا الأيدي على التمسك بعاداتهم وتقاليدهم؛ فلم يؤثر إسلام فريق منهم في شيء من أحوالهم أثراً مذكوراً؛ ولكن مسلمي الصين ما فتئوا يحثون إلى العربية ودراستها؛ لأنها لغة القرآن، وكثير منهم عارفون باللغة العربية والخط العربي. قضت الضرورة على الذين اتخذوا الحروف العربية لكتابة لغاتهم أن يزيدوا فيها ما ليس له في العربية لفظ.

أخذ الأتراك حروفنا الهجائية وزادوا عليها خمسة أحرف ليس لها في العربية مثل: أربعة منها أخذوها عن الفارسية وهي:

(پ) تلفظ بين الباء والفاء كالحرف (P) عند الافرنج.

و(ژ) تلفظ كالجيم المخففة عند أهل الشام أو كالحرف (Je) عند الافرنج.

و(گ) تلفظ كالجيم المصرية أو كالحرف (G) عند الافرنج.

و(چ) تلفظ بين التاء والشين.

وحرف واحد انفرد به الأتراك عن الفرس وهو (ك)، وتسمى عندهم صاغر كاف، أي الكاف الصماء، وتلفظ كالنون.

كتب بهذه الحروف الأتراك على اختلاف لهجاتهم بين عثمانية وقازانية وقريمية وأذربايجانية وداغستانية وقرغيزية وجغطائية وأوزبكية وتكية وغير ذلك.

وكتب بحروفنا العربية الفرس فزادوا حروفهم الأربعة، التي تقدم ذكرها، وانتظم فيها لهجتا فارس والأفغان، وتبعتهما في ذلك اللغة المنتشرة بين أكراد فارس وأرمينية وديار بكر.

وكتب بحروفنا العربية أهل الهند وزادوا عليها الأحرف الأربعة الفارسية، ثم حروف غيرها لمقاطع ألفاظهم التي لا توجد في العربية والفارسية، منها:

التاء «بأربع نقط» لمقطع بين التاء والطاء.
والذال «بأربع نقط» لهجاء بين الذال والضاد.
والزاي «بأربع نقط» للفظ بين الراء والغين.
وكتب بها منهم أبناء اللغة الأوردية والدكنية والكشميرية والسندية والجاتكية.

وكتب بحروفنا العربية سكان بلاد الملايو «جاوه»، وزادوا عليها حروف الأصوات خاصة بهم وهي:

چ «بثلاث نقط» وتلفظ عندهم هكذا «تشا».
وڭ «بثلاث نقط» وينطق بها «نجا».
وڤ «بثلاث نقط» تلفظ كالحرف الفرنجي (v).
وك «فوقها نقطة واحدة» تنطق «جا».
وڤ «بثلاث نقط فوقية» تقوم مقام «نيا».
وكتب بحروفنا الزنج في زنجبار، وتعرف لغتهم بالسواحلية والحزراتية.
والزنج في بلاد النيجر، أو (مملكة حوسة) في السودان الغربي وتعرف لغتهم بالحوسية.

وكتب بها البربر سكان الريف من بلاد مراكش، وتعرف لغتهم بالشلحية. والبربر من أهل الجزائر، وتعرف لغتهم بالقبائلية، ولهم أحرف زائدة على الحروف العربية.

وكتب به غير من ذكرنا.

ولما قام بالأمس أبناء البانيا الأرناؤوط ليكتبوا لغتهم اختار لها الفريق الأكبر منهم - وهم المسلمون المتدينون - الأحرف العربية جرياً لهم على سنة

مَنْ تقدّمهم من الأمم التي اتبعت في كتابتها النسق العربي، وإن كانت ذات تمدن قديم وخط معروف مألوف، فكيف بالألبان الذين لم يكن لهم خط معروف وأرادوا اليوم أن يتخذوا خطأ لهم؟! واختار فريق من الذين أشربوا المدنية الغربية، وتلقنوا عاداتها الحروف الإفرنجية، وكانت الغلبة لهؤلاء.

كتبت كل هذه الأمم بالحروف العربية، وامتاز خط كل أمة من غيرها من حيث التفنن في هندام الحروف والتصرف في بسطها وتقويرها؛ فكان الفارسي له قلم غير القلم العثماني، وللهندي نسق غير نسق الفارسي، ولهذه الأقلام شكل غير المغربي، وهكذا.

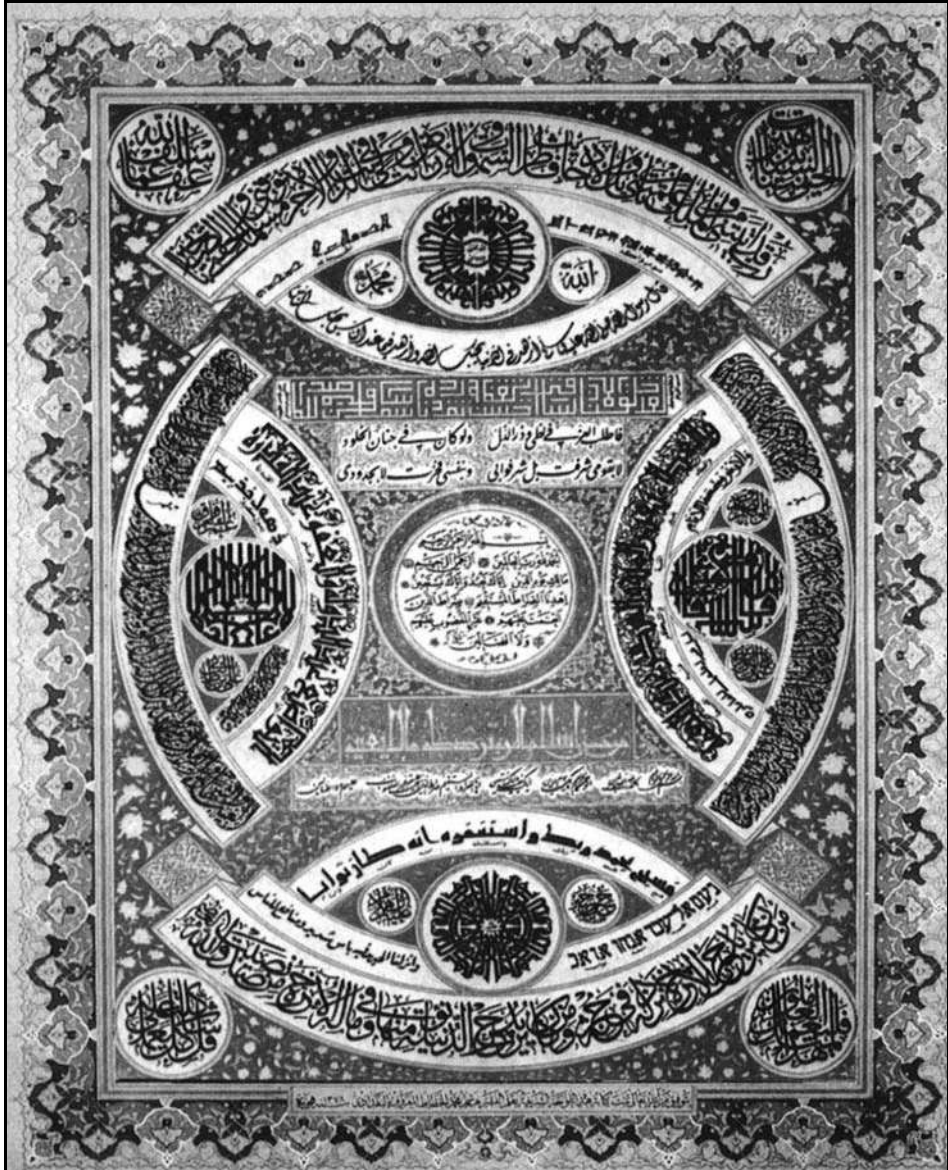
وبقي من اصطلاحات الخط القديمة أقلام ما زالت تعرف باسمها القديم، كالثلث والنسخ والتعليق، واستحدثت بعد ذلك أقلام أخرى كالديواني والفارسي وغيرها.

وما زالت العناية بالخط منتشرة، ولمصر بعد بغداد الحظ الأكبر فيها حتى باد أمر الخلافة منها، وسلبها السلطان سليم كثيراً من مهرة صناعها وأساتذتها، واصطحبهم إلى القسطنطينية، فعرفت بعد ذلك هذه العاصمة الكبرى بالعناية في تجويد الخط، وعرف قلم منه باسم الخط الإسلامبولي نسبة إلى إسلامبول - وهو من أسماء القسطنطينية - وأشهر من اشتهر فيها بعد عصر صاحب الظنون الخطاط المشهور المعروف بحافظ عثمان وهو من كتبة القرآن الكريم.

إلا أنه لما ظهرت صناعة الطبع بالحروف أثر ذلك في رغبة الناس في تعلم الخط، فضعفت العناية فيه، وكادت تتفق خطوط الأمصار النائية والبلاد المختلفة على شكل واحد وهو المعروف بالنسخي الإسلامبولي.

وقد رأيت بعض المطابع في بلاد مراكش قد نبذت الخط المغربي، مع بعده عن الإسلامبولي، واتبعت سنة غيرها من المطابع العربية والتركية حتى الفارسية والهندية، من المطابع غير الحجرية، باستعمالها كلها قلماً واحداً وهو القلم النسخي، كما تقدم، وبقيت لدى المطابع العربية بقية

مسكة بغير النسخ من الأقلام، فباتت تستعملها في العناوين حياً بالتفنن، كما نرى في كثير من مطابع القسطنطينية، وسوريا، ومصر، من كتابة العناوين بالخط الفارسي والتركي بل وبعضها بالكوفي....



لوحة فيها أساليب متنوعة من الخطوط كتبها الخطاط الشهير هاشم محمد البغدادي عام (١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م)

فلا فؤاد

جَمْعُ الطَّبِيعِ عِبْرَتِيهَا فَكَانَتْ الْجَمَالَ

الشَّيْخِي

وَكَاذُ أَحْسَنَهُ وَأَشْرَفَهُ مَا جَلَّ فِي الْهَيْكَلِ الْأَدِيمِ وَجَاوَرَ الْعَقْلَ الشَّرِيفَ وَالنَّفْسَ اللَّطِيفَةَ وَالْحَيَاةَ الشَّامِخَةَ

الشَّيْخِي

فَاِجْمَالُ الْبَشَرِيِّ سَيِّدُ اِجْمَالِ كُلِّ

الشَّيْخِي

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَا مَنْ سَطَاكَ أَنْ يَخْلُقَ عَلَى الدُّنْيَا الْحُسْنَانَ وَلَا تَنْتَ إِلَّا أَنْ تَزْهِيَ فِي لَيْلِي الصُّجُرَاءَ مَا لَمْ يَمْزُجْهُ وَمَنْهَا

الرَّقِصِي

وَلَا بَسِيعَ الزَّهْرِ وَغَرِيبَ فِي سَبَابِ لَرْبِيعِ مَالِهِ بِسَاسَةٍ وَطِيبِ

الرَّقِصِي

وَيْسَ الْجَمَالِ نَحْمَدُ الْعَبْرَةَ وَلَا بَرِيءَ النُّعُورِ وَلَا نَفِيسَ الْقُرُودِ وَلَا لَمْلَمَةَ الْخُرُودِ

الدُّيُوتِي

وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَا مَنْ سَطَاكَ أَنْ يَخْلُقَ عَلَى الدُّنْيَا الْحُسْنَانَ وَلَا تَنْتَ إِلَّا أَنْ تَزْهِيَ فِي لَيْلِي الصُّجُرَاءَ مَا لَمْ يَمْزُجْهُ وَمَنْهَا

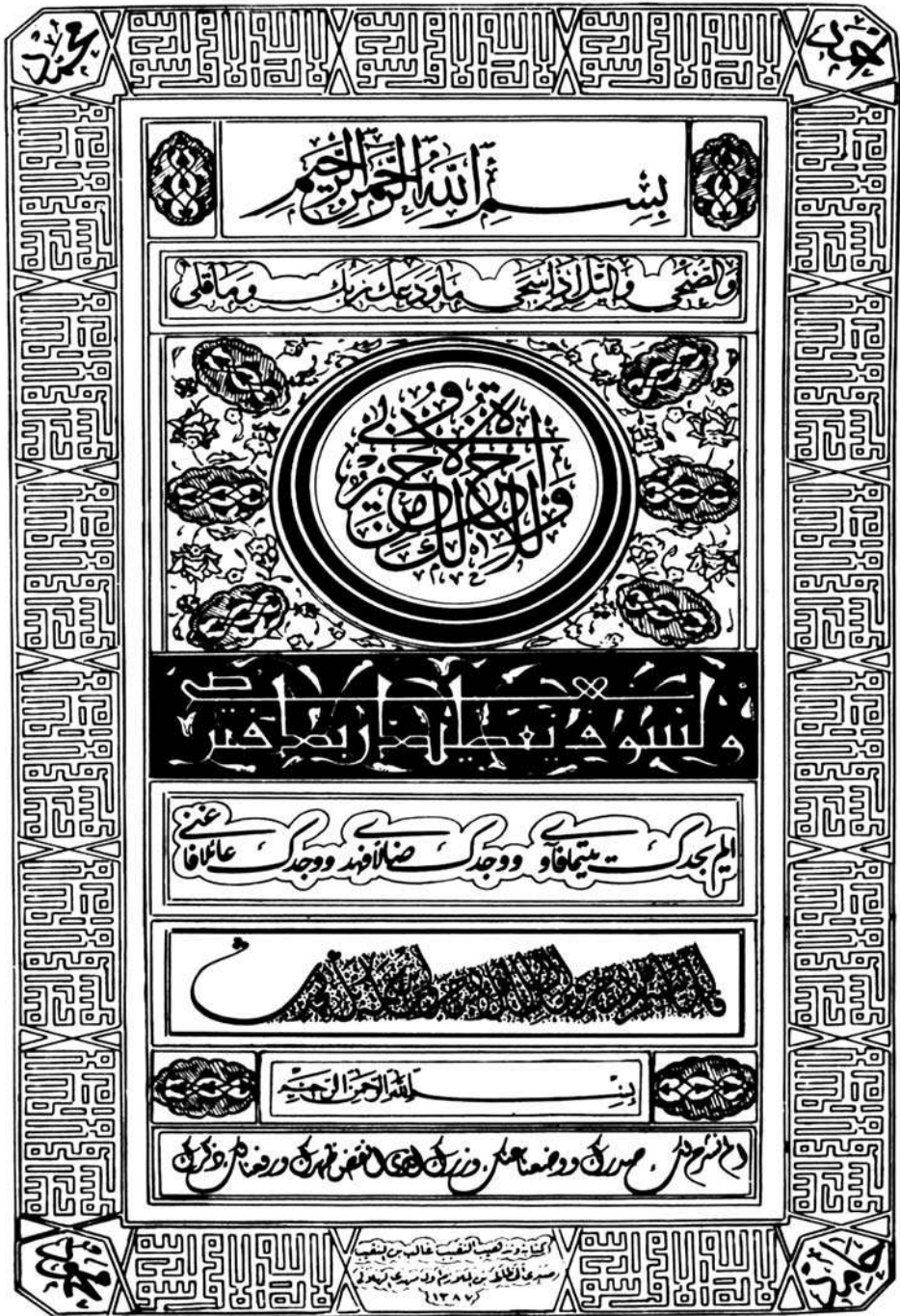
الدُّيُوتِي

لِيَكُنْ لَهَا دُوعَاتُهُ وَيُجَاهِلُهَا لَهَا وَفَنَتْهُ النَّاسُ

الْكُوفِي

فلا فؤاد

بيروت ١٥١ تموز ١٩٥٤



لوحة تجمع عدة أشكال من الخطوط كتبها الفنان غالب بن الخطاط المبدع محمد صبري سنة ١٣٨٧هـ

هوامش البحث

- (١) بلاد مادي تشمل البلاد التي بين الجزيرة العربية غرباً وفارس شرقاً وبحر قزوين شمالاً.
- (٢) سكان بلاد الحبشة (أثيوبيا).
- (٣) ليسيا أو ليقيا: قديماً بلاد في آسيا الصغرى واقعة على الساحل الجنوبي.
- (٤) هو قدمس السوري كما ورد اسمه مكرراً في تاريخ هيرودوت.
- (٥) هو جان فرنسوا شامبو ليون من كبار المستشرقين الفرنسيين، وأول من فك رموز الكتابة المصرية القديمة أو الهيروغليفية.
- (٦) التبابعة: لقب ملوك اليمن الأقدمين من الحميريين.
- (٧) قبيلة من العمالية العرب من بني إرم كانت تقيم في بلاد البحرين واليمامة.
- (٨) الأنباط أو النبط قبائل بدوية عربية كانت لا تزال رحالة حتى القرن الرابع (ق.م.).
- (٩) نسبة إلى قبيلة لمتونة من البربر ومنها خرجت دولة المرابطين في المغرب.

الترحال إلى العراق (القسم الأول)

حسن الأمين

صباح الغوطة:

تحركت السيارة بنا حوالي الساعة الخامسة صباحاً مختربة شوارع دمشق الغافية في تلك الساعة البكرة ثم خرجت بنا من دمشق، فجلتُ بطرفي إلى ما حولنا من فتون الطبيعة وروعة جمالها، فكانت مشاهد الغوطة تمر أمام العيون مرّاً سريعاً لا تستطيع معه النفس التملّي من محاسنها الرائعة، فاجتزنا دوماً وحرسنا ومستشفى القصير.

وكانت كروم العنب تغطي السهول حولنا على مسافات شاسعة، ثم انقطعت الكروم فجأة وبدت الأرض جرداء كالحة، فكانت تظهر إلى يسارنا سلسلة تلال طويلة وإلى يميننا سهول واسعة تلوح فيها عن بعد قرى مبثوثة هنا وهناك، ثم اختفت القرى ولم يبق أمام عيوننا إلا السهول إلى اليمين والتلال إلى اليسار حتى لاحت لنا قرية ضمير وما هو غير قليل حتى كنا نخترقها ونجتازها.

وبعد الخروج من ضمير تلفتُ إلى الورا ملقياً النظرة الأخيرة على مغاني الغوطة ومعاهد دمشق التي غابت وراء الموامي.

فقلت لقلبي حين خف به الهوى وكاد من الوجد المُبرّ يطير

فهذا ولمّا تمض للبين ليلة فكيف إذا مرّت عليك شهور
وأصبح أعلام الأحبة دونها من الأرض غول نازح ومسير
لقد انقطع العمران بعد ضمير ودخلنا في البادية فكنا نبصر إلى اليمين
سهولاً لا آخر لها وإلى اليسار على بعد تلال متصلة ظلت تراقبنا حتى دخلنا
مرحلة (أبو الشامات) وهي مخفر يقوم في الصحراء فيه مركز للدرك السوري
ومركز للجمرك فتوقفنا هناك ريثما أخذت جوازات السفر للتأشير عليها.

في الصحراء:

ثم قمنا بعد ساعة إلى السيارة مستأنفين السير في عرض بادية الشام
التي كسرت سورتها هذه السيارات الجبارة فقربت أبعادها وذللت صعابها،
ولم يكن أمام العيون سوى هذا السهل الأفيح تتخلله تلول كثيرة نراها على
بعد منتشرة إلى يميننا ويسارنا. وفي وسط هذه الصحراء الهائلة التي أصبحنا
في صميمها، والتي كنا نحسب أن لا أثر للحياة فيها، كنا نبصر رعاة تسوق
أباعرها في هذا البر الأقفر فما ندري كيف جاءت وأين تعيش وأين تذهب
وأين منازلها وأهلها؟ وإذا كان الجو اليوم معتدلاً فكذلك كنا نبصرها يوم
اجتزنا الصحراء في حمارة القيظ.

ولقد ذكرت وأنا أتطلع إلى ذلك الراعي البدوي غير الحافل بما في
الحياة من نعيم حضري ورفاه مدني، والضارب في قلب الرمال مرحاً طروباً
يحدو لإبله ويشدو لسائمته، ذكرت ذلك الأعرابي الذي سأله كيف تفعل
في البادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله؟ فقال: وهل العيش إلا
ذاك... يمشي أحدنا ميلاً فيرفض عرقاً كأنه الجمان ثم ينصب عصاه وينشر
عليها كساه فتهب الريح من كل جانب فكأنه في إيوان كسرى!...

وتغلغلنا في حشا الصحراء فكانت المشاهد الواحدة التي لا تتبدل
تبعث في النفس السأم والضجر حتى بدا لنا تل صغير تقوم في رأسه بنية
يخفق فوقها علم عرفنا من الصوى المنصوبة على الطريق أن اسم المكان

(السبع بيار) وأنه مركز (التلغراف اللاسلكي) فكان مظهرًا واضحًا من مظاهر حضارة هذا القرن التي اجتاحت كل شيء حتى حطّت في هذه البوادي المتمردة تخضعها لأمرها، وتنزلها على حكمها.

ظللنا نشق الصحراء فما يتغير فيها منظر فنحسب أننا لا نبرح مكاننا وأننا لا ننفك في البقعة التي طلّعنا منها، وفجأة لمحنا نصبين متوازيين يقومان على نشز من الأرض قيل لنا إنهما سمة الحدود بين الشام والعراق وإننا بعدهما ندخل الأرض العراقية. وما لبثنا أن وقفنا عليهما هنيهة نتطلع إلى هذه الأحجار التي يراد إليها أن تفصل بين أراضي العرب، وما تصنع الأنصاب والأحجر أمام وحدة الشعور وارتباط القلوب...

وشعرنا بعد اجتياز الحد العراقي بزمان أن تبدلاً طرأ على الجو وأن شيئاً من الحرارة أضحى يشوب هذا الهواء اللطيف، ولكنها حرارة ظلت خفيفة لا تؤثر شيئاً. وهنا أيضاً في هذه المهامة الموحشة كنا نبصر عن بعد أذواداً من الإبل حولها نفر من البدو، ووالله لقد حيرنا هؤلاء الأعراب. فكيف هبطوا هذه الأرض؟ وهل في هذا الموات عمران وحياة؟ لقد قطعت السيارة عن آخر نقطة من الحياة في أرض الشام الساعات الطوال، ولا يزال بينها وبين أول نقطة للحياة في أرض العراق الساعات الطوال، فبين هؤلاء الرعاة وإبلهم وبين العمران أيام، أي أيام؟ وليال، أي ليال؟ فعن أي شعب صدرهم وإلى أي جزع وردهم؟

إنه لا بان هنا يحطهم في ظلاله التهجير ولا أراك يرميهم إليه حر السموم فمن أين يقبلون، وإلى أين يمضون؟!

في الليل ومضت السيارة لا تلوي على شيء وكنا نتطلع بلهفة إلى الأمام على طلائع الحياة تطل من خلف السهوب فتذهب بوحشة النفس ونصب الجسم. وكنا قد أمسينا على أبواب الغروب ثم أظلنا الليل بجلبابه الواسع فزادنا وحشة ونصباً، ولم نلبث أن لاحت لنا في جوف الليل أنوار الرطبة الحمراء السامقة فكانت خير أنيس. ثم انكشف الظلام عن أنوارها

اليضاء، ثم ولجناها مستبشرين متهللين وكانت مقاهيها جياشة بركاب السيارات التي سبقتنا إليها، وكانت أصوات الحاكي تشق الفضاء والركاب يتناجون طربين ضاحكين، وللرطوبة فضل أي فضل على قاطع الصحراء فهي الأمل الباسم في ذلك العبوس المريع.

ثم قمنا على صوت النفير إلى السيارة تشق بنا فحم الليل، فما لبثنا أن هومنا، واستسلم أكثرنا للكرى فكنا نصحو ونغفو حتى طالعنا الفجر فالشمس، فكانت مشاهد جد جميلة، وإذا بنا نبصر طريق السيارة قد تبدل من رمال وحصى إلى إسفلت معبد ثم كنا بعد قليل في الرمادي قاعدة لواء الديلم العراقي وتركنا الرمادي قاصدين بغداد فكانت أشجار النخيل تطالعنا في السهول المنبسطة أمامنا فتبعث فينا الانشراح، ورأينا الفرات أول مرة فهز مرآه النفوس، فكان يسايرنا حيناً ثم يختفي حتى بلغنا جسر الفلوجة الجميل، وخرجنا من الفلوجة إلى أرض صحراوية خلنا معها أنا عدنا إلى وراء ثم أخذنا في طريق مزفت كان يقربنا من دار السلام. ثم لاحت مآذن الكاظمة وقبابها، ومعاهد بغداد ومنازلها.

الرحيل عن بغداد في القطار:

أخذت بغداد تتوارى وراء الليل، وتنطوي خلف السجف السود، وغاب ضجيجها عن الآذان وبعدت صورتها عن العيون، ولم يبق منها سوى هذه الأضواء الكهربائية تتعالى ببياضها الناصع وحمرتها الوهاجة، ثم تأخذ بالاختفاء قليلاً قليلاً حتى لا نعود نبصر سوى الظلام الدامس يطبق من كل ناحية، وما إن يمضي القطار معنا في الإدلاج حتى تتتالى شتى المشاهد، وتحول الظلمة الكالحة إلى بصيص من النور يتجلى في هذه المصابيح التي تدير المحطات القروية في (الدورة) (وهور رجب). ثم نعود إلى السدف الغاسق حتى تلوح لنا أنوار (المحمودية) المتألئة، ولم نزل نقلب من حال إلى حال ومن ظلال إلى نور حتى بلغنا بلدة «المسيب» وشع

في وجوهنا ألقها الوقاد، ومن ذا الذي يمر بالمسيب ولا يمر في ذهنه
جسرها الجميل وبيته الشعري الشعبي الخالد الذي أودع فيه ناظمه حلاوة
اللفظ وعذوبة المعنى ورقة العاطفة.

إزدحام:

طاب لي الجلوس بين هؤلاء الريفين المسافرين، ولذَّ لي مقامهم
وأصباني إنشادهم، ورحت أطلع في هذه العربة الزاخرة وقد حملت ما تنوء
به العربات من الأمتعة والبشر، فتكدس الرجال والنساء والأطفال على
المقاعد فغصت بهم فوقفوا على أرجلهم حتى لقد استحالت العربة إلى كتلة
بشرية متراصة الأجزاء وانتشرت الأمتعة على الأرض انتشاراً عجيباً، فبعد أن
ضاقت الرفوف بما حملت من الحقائب واللفائف والأكياس، وضع
الراكبون أمتعتهم الضخمة في أرض العربة فشغلت كل فراغ فيها وحالت
دون كل حركة وأخذت الأصوات المتنافرة تتصاعد من كل زاوية، فهنا
عراك وصياح وتزاحم على المقاعد، وتشاجر على المجالس ونداءات للباة
المتجولين الذين يتنقلون مع القطار من محطة إلى محطة، فيهبطون من
القطار القادم ويصعدون مع الآيب، وصياحات للشحاذين المتجولين الذين
يرون في القطار سوقاً رائجة فيتفننون باستدراار عطف الراكبين بأساليب
منطقية وأشكال مقنعة فيقول أحدهم مثلاً:

فلس من كل واحد...

فلس يا إسلام مو طلب...

وحقيقة فإن فلساً من كل واحد لا يكون بالنسبة لهذا الواحد مطلباً
مهماً، ولكنه بالنسبة لهذا السائل ثروة ضخمة حين تجتمع الأفلاس كلها،
فكم من آحاد في هذه العربة إذا اقتنعوا بهذه المقدمة المنطقية عادوا على
السائل بأعظم النتائج... أرايت كيف أنه حتى المستعطي لا يستعطيك إلا
بالحجج والبراهين...؟!!

وها هنا جنود يهتفون ملء حناجرهم بأغانهم الريفية الجميلة ويصفقون بقوة أكفهم مترنحين سروراً بقرب لقاء أهلهم، وها هنا طلاب يرتلون أناشيدهم المدرسية ثم يهيج بهم الحنين إلى أريافهم فيندفعون بـ (البوذيات) و(البسات) فتنتشي النفس طرباً، ويهتز الفؤاد حنيناً.

النور والنار:

ظلت المحطات تتعاقب علينا الواحدة بعد الأخرى فيقف القطار على بعضها ولا يقف على بعضها الآخر، حتى لاحت لنا أنوار (السدة) تشع في ذاك الغسق البهيم، ثم وقفنا عليها ونزلنا نتمتع بالهواء الطلق، ونستجلي مشاهد الليل الرائعة، ونزود من ألبان السدة اللذيذة، ونزل مسافرو كربلاء لينتقلوا إلى القطار الآخر، فعلت للجميع ضجة توقر الأسماع، وامتزج صياح الركاب بضجيج الباعة نساء ورجالاً، وتجاوبت السهول بهذه المجموعة الفريدة من الأصوات الصاخة. ولم تلبث أن سرينا من السدة متلفتين إلى أنوارها حتى غابت وراء المفاوز، وتلاشت في الأبعاد، فرحنا نرسل أبصارنا إلى الأمام متشوفين إلى ما يطلع علينا من بين هذه الحنادس وما يفجؤنا من خلال هذه الموامي فما كنا نرى إلا ظلاماً متلاحقاً، ولا نلمس إلا برداً لاذعاً حتى انجلت لنا من قلب النخيل نار تتوهج شعلها ويتألق لهبها ويتسامى دخانها...

هذه هي النار التي طالما تغنى بها أجدادنا في أشعارهم وفاخروا بها في مجامعهم، هذه هي نار القرى التي طالما أوقدها أسلافنا لترشد السارين وتصلي المقرورين وتشبع الجائعين، بل هذه هي النار التي قال حاتم الطائي يطلب من غلامه إيقادها:

أوقد فإن الريح ريح صر والليل يا موقد ليل قر
عل يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر

وهذه هي النار التي عناها الأعشى وهو يثني على المحلق:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار في اليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلّق
وما يدرينا أي مقرورين يصطليان هذه النار المضطربة في هذا اليفاع،
وأي كريم يبيت عليها في هذا الليل الأليل، فلعلّ وراء هذا الدخان سيّداً
من أكرم السادات المطاعيم المناجيد لا ينقصه إلّا شاعر كالأعشى يشيد
بناره ويتمدح بسجاياءه، ولعل عند النار شاعراً إذا لم تكن له فصحي
الأعشى فإنه له معاني الأعشى وقريحة الأعشى يتغنى الساعة بهذه النار،
ورب هذه النار، هي ذي النار التي افتخر الفرزدق بأن أباه غالباً كان
يوقدها فرسم لنا هذه الصورة الشعرية الفائقة:

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب
سروا يخطبون الليل وهي تلفهم على شعب الأكوار من كل جانب
إذا ما رأوا ناراً يقولون ليّتها وقد خصرت أيديهم نار غالب

وإذا كان ركبنا المغذ لم تلفته هذه النار وهو يخطب الليل خصر
الأيدي فكم من ركبان يتحرقون للوصول إليها، وكم من ناس يتطلعون في
جوف الليل ليروها، وكم من عفاة إذا أبصروها قالوا ليّتها نار فلان...

لا تزال هذه المرباع منابت الكماة المساعير والفرسان المغاوير ولا
تزال نار القرى تضرم هنا للتائهين وتوقد للنازلين، ولا تزال حيثما سرت
هنا وأنى قصدت تلق الجواد الكريم والبطل العظيم، ولا تزال العروبة في
هذه المضارب حية بكل ما فيها من رجولة وكرم ونجدة وبأس.

ورحت في عدو القطار أتلقت للنار وأملاً عيني من سناها وذهنني من
ذكرها حتى غيبها السير وأناتها المراحل وتلاشت في المنائي السحيقة:

تلقتُ حتى لم يبن من دياركم دخان ولا من نارهن وقود
وإن التفات القلب من بعد طرفه طوال الليالي نحوكم ليزيد

ذكريات الحلة:

وظل القطار يطوي بنا مراحل الليل حتى كان يقبل على مرابع الحلة. فيها هي محطتها تتوهج أمامنا فتستثير في النفس ذكرى تلك الشهور التي قضيتها في الحلة منذ أعوام فجعلت لي منها موطناً ثانياً أشتاقه وأحن إليه. وما ذكرت الحلة إلا وهفت نفسي إليها وتطلعت إلى ذاك الماضي الجميل الذي حفل بنا على ضفاف النهر، وجانبي الجسر، وظلال النخل. ولم تستطع الأيام أن تمحو من الذهن تلك الصور المشرقة التي تتعاقب عليه كلما تذكر الحلة، فكم من أماسي حالمت تمضت أمام ذاك الماء الدافق، وكم من أصال زاهيات توالى تحت ذاك الشجر الغض...

لقد كنت أرنو بقلبي إلى الحلة وأنا بعيد الشقة عنها، وها أنذا الساعة على قيد خطوات منها فأنت لي بالصبر على لواعج الشوق، وأنتى لذكرياتي أن تقر وأنا أنتشق نسيمها وأبصر أنوارها وأتلمس أرضها... فيها هنا في هذه المحطة كنا نلتقي مسافرين إلى بغداد أو آتين منها. ومن ها هنا كنا كل مساء نسير تحت هوائي النخيل في السبيل الظليل، وفي هذه المعابر الحالية كنا نغور في جمال الطبيعة وبهجة الأرض ونضارة الكون، ومن ها هنا كنا نقصد إلى طياتنا طرين ضاحكين...

تسعة شهور قضيتها في الحلة كنت فيها كل صباح آخذ طريقي من ذاك المنزل الصغير سائراً على ضفة النهر فأودّ لو طال الطريق وبعدت الشقة لأزداد تملياً من هذه المشاهد وتمتعاً من هذه المباهج.

تسعة شهور كنت أصيل كل يوم فيها أقف على الجسر وقد انعطفت أمامي النهر وانحنت فوقه الأشجار وانعكست الأنوار وأحمر الأفق وصفا الجو وبدت الحلة جنة من الجنان...

أيتها الحلة الجميلة: تتوالى الأيام فما أزداد إلا حنيناً إليك، حنيناً إلى الشواطئ وقد ضمنتنا طرفي النهار وزلفاً من الليل، حنيناً إلى الماء المنساب وقد روى الأرض فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

من الليل إلى الصباح:

لم يلبث القطار إلّا قليلاً ثم مشى يهدر في سواد الليل متنقلاً بنا من مرحلة إلى مرحلة حتى بلغ الديوانية، وكان النعاس قد أخذ يراود أجفاننا، فأغلقتنا النوافذ واستسلمنا للنوم، ولم نستيقظ إلّا على نور وضاء يبهر أبصارنا وإلّا على نداءات تتعالى صارخة:

- شاي... شاي... شاي

- شاي وبيض... شاي وبيض...

وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل فعرفنا أننا الآن في السماوة، وأن هذه الأنوار أنوار محطاتها الفخمة، ثم عدنا للنوم ولم نع إلّا على المنادين ينادون «أور». هذه أور، فانتفضت من مضجعي مسرعاً وأخذت حقيبتني ونزلت من القطار أستقبل البرد اللاذع والهواء الجاري، ونظرت في ساعتي فإذا هي حوالي الخامسة، فلم أكد أسمع صوت المنادي ينادي على سيارته حتى نزلت من القطار إلى السيارة التي مضت بنا في طريق نقطعه أخاديد وحفرًا، ونجتازه أرضاً سبخة جرداء ثم صرنا بين النخلات. وما هو غير قليل حتى لمعت لنا أضواء الناصرية ثم كنا نعبر جسرها الخشبي المتأرجح ونطلع على شوارعها الوهاجة المقفرة.

وقبيل الساعة السادسة كانت تقف بنا السيارة أمام أحد المقاهي، فإذا بجمهور محتشد في المقهى لم يكدر يرى السيارة مقبلة حتى تعالى صياحه مستفهماً: سوق؟؟ شطرة؟؟ فلم أستطع أن أفهم ما الذي ساق هذا الجمع لقضاء الليل في هذا المقهى بانتظار سيارة تمر به لنقل بعضه إلى الشطرة وبعضه إلى سوق الشيوخ. وأقبل واحد على السائق وقال له بكل برودة: ما تروح الشطرة ولك؟ فأسرعت في النزول من السيارة لأكون بعيداً عن هذه الأسئلة والأجوبة. ووقفت تلقاء السيارة وشاهدت كيف صعد الراكبون ثم عادوا فتركوها وكيف تكرر ذلك بسبب مزاج السائق وتحكمه، فأدركت أن مثل هؤلاء السائقين، سواء كانوا في الناصرية أو بغداد أو دمشق أو

القاهرة، لا تصح مخاطبتهم إلا بتلك اللهجة الباردة لمن يستطيع أن يخاطبهم بها.

مقهى حبيب الله:

حرت أين أذهب في هذه الساعة المبكرة وأطللت على المقهى فلم أجد فيه ما يغري بالجلوس، ولكنني كنت مضطراً للجلوس بعد ذاك الليل المتعب فدخلت «مقهى حبيب الله» موطناً النفس على قضاء هذه الفترة فيه. وقد كان يضم صنوفاً شتى من الناس لا أدري ما الذي حملهم على المكوث فيه إلى هذه الساعة. فها هنا جندي مستلق على المقعد الخشبي الطويل وقد غطى وجهه بمعطفه واستغرق في نوم عميق. وهناك جنود منتشرون على المقاعد يتجاذبون أطراف الحديث. وهنا عجوز يندثر بفروته الضخمة. وهناك أفراد وجماعات ملتفون بعباءاتهم وقد غاب أكثرهم في تفكير طويل لعله نتيجة السهر أو الهم أو الجهد. أما أرض المقهى فكانت يوماً ما مبلطة ولكنها اليوم مغطاة بطبقة كثيفة من الطين وأعقاب لفائف التبغ، وعيدان الكبريت وعلب الدخان والورق الممزق، وصاحب المقهى يخطر بكوفيته المعقوفة فوق رأسه و«دشداشته» الملوثة وسترته القذرة و«وزرته» الحمراء المربوطة في وسطه وهو يخشخش في كيس الفلوس ويصيح بين آونة وأخرى بلهجة الأمر المسيطر: شاي... عبيد، شاي...

وتتطلع إلى «عبيد» فإذا هو صورة مشوهة عن أستاذه يحمل أفداح الشاي ويدور بها على الجالسين. ولم تنقطع الحركة خارج المقهى بل كانت تزداد باقتراب النهار فتسمع ضجيج العربات والسيارات وصياح الذاهبين والآيبين، ولكن الصوت الذي كان يعلو على كل صوت هو صوت صاحب المقهى يصيح: شاي هنا شاي...

صباح الناصرية:

سئمت نفسي هذا المقهى وخرجت أتنشق الهواء وأفتش عن «الشط»،

فمشيت قليلاً وكان الفجر قد بدأ ينبثق، فاهتديت إلى النهر فإذا بالنسيم يحرك أمواجه ويهز صفحته فتنبعث من ذلك حركات رائعة وأصوات عذبة. وكانت تتألق عن يميني سلسلة أنوار وهاجة ويناوحي في الضفة المقابلة النخيل الكثيف المتعالي في الجو، وتغطي السماء سحب شفافة وتهب نسيمات لطيفة فانتقلت إلى جو شعري بهيج وسبحت في عالم سحري رفيع، وشعرت أنني في موقف من أجمل مواقف الطبيعة وأسناها. وكانت الناصرية ساجية هادئة لا تحس فيها إلا أصوات الديكة صائحة صارخة وإلا صوت موحد يهتف من الأعماق: الله أكبر... ثم أخذ أفراد يقبلون على النهر وقد شمروا عن أذرعهم استعداداً لإسباغ الوضوء والإقبال على الله. ثم سرت في شارع يوازي النهر فكانت العربات قد بدأت تصل ناقلة القادمين في القطار فترن جلاجلها ويعلو ضجيجها في ذاك السكون الرهيب. وكانت آحاد من القرويين تقبل مسرعة بأقدامها الحافية وعباءاتها السابغة وقد التف كل بعباءته وجرى جرياً أشبه بالركض. ثم أخذ النهار يتجلى رويداً وشوارع الناصرية تبدو بتناسقها وتنظيمها الدقيق، وأخذت الطرقات تحفل بكثير من الوجوه التي كان معظمها من القرويين المقبلين على أقدامهم من المحطة وقد حمل كل منهم أمتعته على رأسه. وتقدم مني كهل يتنكب خرجاً أحمر فبدرني بتحية الصباح العذبة وما أعذب تحية الصباح ينطق بها الفم العراقي قائلاً: صبحك الله بالخير. فرددت لصاحبي التحية بمثلها فسألني ألا تعرف لي الجندي سليمان؟ وقد كان من البديهي أنني لا أعرف لا الجندي سليمان ولا الجندي داود، وأعجبني سذاجة هذا القروي الذي يحسب أن شهرة الجندي سليمان قد امتدت حتى وصلت إلى أي إنسان يلقاه في عرض الطريق، ولكن لسوء الحظ كانت هذه المرة لم تصل بعد إلى هذا السائح الذي هبط الناصرية منذ حين... ولقد شعرت بأسف لأنني سأرد هذا الملهوف خائباً، ولأنني لا أقدر أن أخفف من لوعة هذا الغريب المشوق... فتركني ومضى ينشد سليمان عند غيري...

أيها الإنسان المجهول: لقد كنت غريباً مثلك، وإذا كنت أنت مشتاقاً إلى سليمان، فكم لي من أنا مشتاق إليهم، وإذا كنت أنت ستلقى شائقك عن قريب فإنني لن ألقى شائقي عن قريب، وإذا كانت تفصلك عن سليمانك خطوات فإنني تفصلني عن أحبائي بواد وفلوات.

لا أدري ماذا كانت نظراتك إلي وأنت لا تجد عندي سؤالك ولا أدري عقيدتك بي وأنت تبتعد عني، ولا أعلم أثري في نفسك... أما نظرتي إليك فكانت الإشفاق والمواساة. وأما عقيدتي فيك فكانت عقيدة الإخلاص والحب. وأما أثرك في نفسي فقد رأيتك زميلاً لي في الحنين والشوق ونسيباً في اللوعة واللهفة، فهجنتني إلى أودائي النائين وخلصائي النازحين وأحبائي البعيدين ودياري الشاحطة...

نهار الناصرية:

عدت من تجوالي فوصلت قريباً من مقهى «حبيب الله» وكان الصبح قد تبلج والنهار قد أطل وكثرت الحركة في الأسواق والشوارع، واصطفت على باب المقهى بائعات «القيمر» بأرديتهن السوداء وعباءاتهن الفضفاضة. فهذه عجوز درديس لا تدري وأنت تنظر إليها أيهما أشد اسوداداً، عباؤها أم وجهها تفتersh الأرض في رأس الشارع وتستند إلى عمود الكهرباء واضعة يدها تحت ذقنها مفكرة تارة ومتفرسة تارة في وجوه المارة على من يقبل منهم على قيمرها، وخبزها. وفي الطرف الآخر بنية صغيرة صفت أمامها قناني الحليب ورتبت أوعية «القيمر» وأقراص الخبز والتفت بعباءتها وأتقنت الدعاية لبضاعتها تغري الشارين بمنطق عذب وألفاظ جميلة تتجلى فيها براءة الطفولة وسداجتها فتسمعها تهتف:

تعال خويا هذا خبز زين.

تعال هذا القيمر خويا.

ولم نر بُدأً من العودة للجلوس في المقهى، فوجدنا تجديدًا في فرشته.

فبعد أن كانت مقاعده مفروشة بالحصير فقط إذا بنا نراهم يفرشون فوق الحصير بسطاً صغيرة، ولكن الواقع أن ذاك الحصير كان خيراً من هذه البسط لأن الأقدار تظل أقل علوقاً به من البسط. وكنا قد شعرنا بحاجتنا إلى تناول الصبوح فكان علينا أن نختار بين «القيمر» وبين «الكاهي»، ففضل رفيقي «الكاهي» وقصد بنا إلى بائعه ودخلنا دكانه فما أن رأنا شاب من الجالسين حتى شعر بأننا غرباء عن البلدة، فقام عن مقعده هاشاً مرحباً مظهراً كل إكرام دون أن تربطنا به أية معرفة سابقة. وهكذا تبدو الشمائل العربية في سكان هذه البلدة على أفضل وجوها. ولا تختلف دكان «الكاهي» عن المقهى من حيث النظافة والأناقة، ولكن الذي يروقك هو هذه الرشاقة التي يعالج بها البائع «كاهيه»، وهذه اللباقة في رق العجين ودفعه بالفرن ثم تقطيعه وصب القطر عليه، فلا تستطيع إلا أن تتأمل فيه متعجباً من خفته وحركاته. ولو قدر لهذا الكاهي أن يباع في غير هذه الأماكن، وأن يقدم في مطاعم نظيفة متقنة لكان من أعذب الأطعمة وألطفها، ولكن كل شيء في هذا الدكان لا يفتح قابليتكم ولا يثير شهيتكم فتأكل كمن فرض عليه الأكل فرضاً وتسرع في الخروج ما استطعت إلى الإسراع سبيلاً.

وبعد خروجنا رحنا نتجول في الأسواق فبلغنا سوقاً قيل لنا إن اسمه «الصفاء» كانت المرأة هي وحدها التي تسيطر عليه. فهي هنا في هذا السوق التاجرة التي تباع كل شيء: تباع الرز والسمك والصوف والقرب والبيض والنفط والدجاج والبصل والفجل والعباءات، بل هي التي تباع حتى البقر... ووصلنا سوق اللحم فإذا المرأة هي أيضاً التي تصل وتجول هنا ولكن مشتريه لا بائعه، ولم نشاهد رجلاً واحداً يشتري اللحم بل كانت النساء هن الشاريات الوحيدات، وفي الأسواق الأخرى كنا نراهن بائعات شاريات.

وقد لاحظنا أن الناصرية تقوم على الضفة اليسرى من الفرات محرومة من التشجير مما يجعلها عرضة للغبار الهابي. وأما الضفة اليمنى فكلها

بساتين نخل وليس فيها من العمران سوى المحطة والثكنة والمطار وشركة النفط وإدارة الأنواء الجوية.

إلى سوق الشيوخ:

كان لا بد لنا في سبيل الوصول إلى سوق الشيوخ من أخذ سيارة من هذه السيارات الكبيرة التي كانت واسطة النقل الوحيدة في هذه المناطق، فاستقلت بنا واحدة منها من الناصرية في متوع الضحى، وعبرنا الفرات على الجسر الخشبي الرجراج وانطلقنا في أرض سبخة بيضاء، ليست في الواقع إلا صحراء قاحلة تحوطها من أطرافها مجموعات من النخيل. ولم نلبث أن صرنا بين النخيل والزروع، وصرنا نعبر على القرى القصبية المنتشرة في السهل ثم صارت تتبدل مشاهد الأرض من حولنا. فها هنا سباح إلى يميننا ونخيل إلى يسارنا، وها نحن نعود بين النخيل والمزارع.

والشيء الذي يلفت النظر، أن النخيل مهمل في هذه الأرض. فترى مثلاً هناك نخلتين، وهنالك نخلات، ووراءهما بستان حافل، ولا شك أن هاتين النخلتين وتلك النخلات ليست إلا بقية غابة مضت بها الأيام وتركت هذا الأثر الذي يدل على ازدهارها الخالي. وما زال الطريق يتعاقب على هذه الحال، فمن سباح إلى نخيل إلى مزارع إلى قرى قصبية وبالعكس، حتى أقبلنا على مخفر «الخضر» وهو مخفر أشبه ما يكون بالحصن الحصين. وكان يحرسه شرطي ويرفرف عليه علم عراقي، ثم لاحت إلى يميننا قبة على تل قيل لنا إن اسمها قبة «أم العباس»، ولما اجتزناها بدا لنا في عرض السهل نخيل سوق الشيوخ يغطي وجه الأفق. وكنا نسرع إليه فوق طريق مرتفع تحيط به مستنقعات واسعة كأنها البحيرات وكنا نرى البط الأسود يسبح فيها. ثم اقتربنا من قلب النخل حتى بدت لنا «السوق» وأول ما أبصرنا فيها بيوت القصب التي ظلت تسايرنا حتى هنا. ومع أنه كان بيننا

وبين انقضاء المطر أيام وأيام، فقد كانت الوحول في البلدة على صورة غريبة.

نزلنا من السيارة ودخلنا من أحد المداخل متجهين إلى قلب البلدة. فكان إلى يسارنا «السيف» محاطاً بسور من القصب وإلى يميننا بضعة بيوت. ومن طريق قصيرة نفذنا إلى ساحة الصفا وهي ساحة واسعة تبدو كمعرض لصنوف متنوعة من الحاجات لا يشترط في بائعيها أن يكونوا من أصحاب الدكاكين الثابتة، بل إن الكثيرين منهم من الذين ينقلون بضائعهم بأيديهم ويقصدون الساحة حتى إذا ما أمسى المساء كانت البضاعة قد نفدت، وما لا يكون قد نفذ يعودون به إلى بيوتهم. وقد رأيناهم نساء ورجالاً يشغلون الساحة ويفترشون وحولها فوق القش والحصران ومعظم البائعين من النساء، فهن هنا في ساحة الصفا كما في الناصرية سيدات التجارة. وتستدير حول الساحة مقاعد المقاهي ممتلئة بالجالسين من ضروب الناس. وفي الزاوية الجنوبية من شرقي الساحة يتفرع سوق يفضي إلى الأبنية الحديثة ويتصل بالشارع المؤدي إلى الشكنة. وفي الزاوية الشمالية تبدأ أسواق البلدة ومتاجرها، وأما في غربي الساحة فيبدأ شارع ينتهي إلى محلة الإسماعيلية وهي محلة معظم بيوتها من الطوب والقصب.

وإذا كانت وحول البلدة وإهمالها يشغلان تفكيرك، فإنك لتنسى كل ذلك حينما تلتقي بأبنائها الكرام الذين يتحلون بنزعات أدبية تسود جميع طبقاتهم. وفي عقيدتي أن سوق الشيوخ من هذه الناحية بلدة عجيبة حقاً فأنت أينما سرت ظفرت بأديب وشاعر.

شعراء في كل مكان:

فها نحن وقد انتهينا في أحد الأيام من ساحة الصفا وانتقلنا إلى داخل البلدة نقبل على دكان يهدر في خارجها موقد النفط وتمتد حولها حبال مثقلة بالأثواب، وتبدو في داخلها علب الأصباغ مصفوفة في كل جانب، وعلى جدرانها الأوتاد الموقرة بالعباءات من كل ما ثقل وزنه وقل ثمنه، أما

الدكان نفسها فضيقة واطئة لم تظفر جدرانها بنعمة الجص أو الكلس فضلاً عن الطين، بل برز آجرها وانكشفت شقوقها وانتثر ترابها ووقف في وسطها كهل إن دلّ مظهره الخارجي على شيء فإنما يدل على جفاف الطبع ونبو الذوق والانقطاع إلى مهنة الصباغة انقطاعاً لا يصله بأي شيء غيرها. فهو بثوبه الأسود ونظارته المائلة وعقاله الغليظ وكوفيته الدكناء وبهذا العود الضخم الذي يديم فيه تحريك قدر الأصباغ وبهاتين اليدين المسودتين اللتين لا ترتفعان عن القدر إلا لتمتدا إلى ثوب معلق أو عباءة مدلاة. هو بكل ذلك وبهذه الأكياس المنتفخة المنتشرة في أرض الدكان وبهذه الأغراض المبعثرة في أطرافها لا يمثل لك إلا واحداً من هؤلاء الكادحين الذين انقطعت كل صلة بينهم وبين الحياة العامة، اللهم إلا بمقدار ما يعود إلى عملهم الخاص وإنتاجهم المحدود. ولكن ما قولك إذا حييت هذا الصباغ وبدأت الحديث معه فإذا هو ينقلك إلى عالم آخر غير عالم الصباغة والألوان... وإذا ما حسبته فيه جفاف طبع ونبو ذوق ينقلب إلى حسن ذوق ورقة طبع، وإذا وراء هذه النظارة المائلة عينا شاعر وخلف هذا القباء الأسود قلب فنان، وفي هاتين اليدين الملطختين بنان أديب.

هذا هو عبد الحميد السنيد الصباغ الذي يعكف في النهار على عود غليظ يحرك به القدر الملتهب، والذي يحمل العباءات إلى قدر فيصبغها وينشرها على الحبال ويتنقل من العلب إلى الأثواب إلى القدر إلى الحبل ويمضي يومه في هذه الدكان الضيقة الواطئة حتى إذا خلا إلى نفسه استبدل القلم الدقيق، بالعود الغليظ. والورق اللطيف، بالثوب الصفيق. والدواة الهادئة، بالقدر المتضرم. وأخذ يكتب:

أصوغ من درر الألفاظ ما عجزت	عن مثله العرب الأمجاد والعجم
(لونت) فيها المعاني المنتقاة بأصبا	غ القريحة فازدانت بها الكلم
(صهرتهن) (بقدر) الفكر فانبعثت	نار الشعور لها من تحته ضرم
فالقدر والكوز والداغوش يشهد لي	والنيل والجوهر الألوان والوضم

هذا هو عبد الحميد السنيدي يعيد إلى أذهاننا ذكرى أولئك الشعراء المهنيين الذين كانوا ينظمون في مهنتهم مصورين حياتهم ومجتمعهم، كالخباز البلدي والسراج الوراق والجزار والحداد، وغيرهم ممن حفلت كتب الأدب بتتف من شعرهم وشيء من سيرهم.

وعبد الحميد لا يكثر من النظم في مهنته، بل ينصرف إلى المواضيع الأخرى التي ألفها الشعراء من مدح وغزل ورثاء وهجاء وحكم.

تركنا الشاعر الصباغ، وخلفنا دكان عبد الحميد السنيدي وموقده الوهاج، وأثوابه المعلقة وأكياسه المحشوة وعلبه المتناثرة ومشينا في شارع واسع مشقوق حديث ثم انتقلنا من الشارع الجديد إلى سوق مسقوف، وقفنا فيه أمام مكتبة للمطالعة يديرها شاب قصير القامة نحيف الجسم يرتدي الكوفية والعقال والقباء قدّمه إليّ رفيقي قائلاً الشاعر حمدي آل حمدي. وهكذا فلم نترك الشاعر إلّا لنصل إلى الشاعر. وإذا كان حمدي يعمل اليوم بعمل يتصل بموهبته الشعرية فقد كان إلى فترة خلت يعمل كاتب عرائض. ولكنه كان يستجيب إلى رغبة القريحة فينظم الشعر بين الحين والحين. وكم كان مظلوماً هذا الشاعر وهو يجلس إلى منضدته وأمامه أقلامه وقراطيسه مصغياً إلى ثرثرة الزبائن وسخافات طالبي الكتابة، وحبذا لو أنه كان قد نظم ما يصور تلك الحياة الجافة، وما أحسب أنه قد فعل.

ثم مشينا قليلاً وإذا برفيقي يستوقفني أمام دكان عطار ليس فيه ما يميزه عن غيره من أولئك العطارين الذين لا يهفون إلّا إلى حديث البيع والشراء، ولا يصغون إلّا إلى صوت الدرهم والبضاعة. وقد كنت أظن كل شيء إلّا أن يكون هذا العطار هو الآخر شاعراً... ولكنه كان شاعراً كزميله الآخرين. ذلك هو سالم الحسون. ومن دكان سالم الحسون مشينا في أسواق متداخلة كلها على نسق واحد من طغيان الوحول وانتشار المقاهي حتى انتهينا إلى سوق الخياطين، فوقف رفيقي وقدم إليّ خياطاً ينزوي وراء

ماكنته وأدواته ويتوارى خلف المخيط من كل نوع وقال لي: الشاعر جعفر حسين الشابندر. أهذا الخياط أيضاً شاعر؟ وهل في هذه الدكان ما يوحى الشعر ويحرك الخيال؟ وهل في هذه الحياة ما يهيج القريحة ويذكى الشاعرية؟ إنه شاعر كزملائه وكغيره من المغمورين الذين لا تكاد الحياة تشعر بهم، ولا يكاد يسمع لهم صوت ولا تتبين حركة. بل هو واحد من عشرات ينطوون على أنفسهم وراء متاعب الزمن، ومصاعب العيش، متطلعين إلى موكب الحياة الصاخب بنفوس حساسة وقلوب حية وشعور فياض، ولكنهم يكتبون الحس والحياة والشعور ويواجهون حقائق الدنيا الصلدة متخاذلين متقاعدين. وما أكثر ما في هذا الوادي من مواهب دفينه، وكنوز خفية، وما أكثر ما تجن هذه السهول من ذكاء وقاد وألمعيات فائقة.

يهجو بعضهم بعضاً:

أما هؤلاء الشعراء فإنهم، وقد حرموا الاتصال بالعالم الخارجي وحالت أعمالهم دون ارتباطهم بالحياة الأدبية وراء بلدتهم، فقد كونوا لهم من أنفسهم مجامع أدبية يتناشدون فيها أشعارهم، واستغلوا المناسبات لنظم قصائدهم فنظموا في المديح ونظموا في الرثاء، واتصل بعضهم بالصحف الإقليمية ونشر فيها، وعكفوا على لون طريف من الشعر لا يعدو في حقيقته هذا الهجاء الذي يقصد به المداعبة البحتة، فإذا عرضت لأحدهم حادثة اتخذوا منها موضوعاً شعرياً فمدح بعضهم بعضاً، وهجا بعضهم بعضاً. فمن ذلك مثلاً: أن أحدهم عبد الحميد السنيدي بنا داراً متواضعة فدعا زملاءه ودعا غيرهم معهم إلى الاحتفال بتدشينها، فأعدوا له القصائد المشتملة على المدح والتهنئة طوراً وعلى الهجاء والمداعبة طوراً آخر، واتفق أن الدار تقع بين جارين يدعى أحدهما ثقييل والآخر علقم فلم يفت سالماً الحسنون أن يشير إلى ذلك مستغلاً هذا الجوار للغمز من صاحب الدار، فقال في قصيدته:

يا طالب المعروف يمم بابها وبجانب الدهليز يا راجي ارتم
 فهناك تحسبك انتقلت فجاءة من هذه الدنيا لقعر جهنم
 قد شرفت قدراً بأقدس بقعة مذ شيدت بين الثقليل وعلقم
 ثم يختم القصيدة بهذا البيت الاعتذاري:

لكنها مني إليك دعاية يوحى بها فكري فيلفظها فمي
 ويقول شاعر آخر:

لم لا يكون مباركاً بنيانها وهي الحمى للعلم والآداب
 نطحت بهذا المجد السحاب فسمها في الناس إحدى ناطحات سحاب
 على أن الشاعرية في سوق الشيوخ لم تقتصر على هذه الطبقة وحدها،
 فهناك طبقة أخرى هي طبقة الموظفين الذين استطاعوا الوصول إلى وظائف
 «كتابية» بسيطة، فانتقلوا إلى صف الرجال الرسميين وجلسوا وراء المناضد
 يتقارعون بالشعر ويهجو بعضهم بعضاً ويمتازون بالإقذاع في الهجاء مما يعيد
 إلى الذهن تلك الصور الشعرية المرة التي كان يتقابل بها شعراء الأهاجي
 على أروع الأشكال وأمض الألوان ومعظم هذا الشعر لا يمكن نشره ولا
 يجوز ذكره، ومن هذه الطبقة الرسمية عبد الحسين جاسم الذي مرّ اسمه
 ولكنه على ما يظهر لم يشترك في معارك الهجاء، بل إن بطليها هما عبد
 الصاحب ليلو وخيون راشد، وهما كاتبان في القائمقامية يجلسان متقابلين
 إلى منضدتين قذرتين في غرفة واحدة، وحولهما ركامات الأوراق الرسمية
 مما لا يمت إلى شاعريتهما بصلة فيضيقان ذرعاً بالحياة وأهل الحياة.

إلى الجبايش:

كان في نيتي عندما جئت سوق الشيوخ أن أواصل السير منها إلى
 الجبايش بعد أن تردد اسمها على ذهني كثيراً وبعد أن حدثت عنها أحاديث
 شتى، وقد كان جميع المتحدثين عن (الجبايش) يتحدثون عنها وهم
 يقصدون الغض منها وتصويرها بالصورة المنفرة، ولكن هذا الغض وهذا

التنفير كانا هما الحافز الذي حفزني على أن أقصد الجبايش وأمتع النفس بما سمعته عن موقعها العجيب وحياتها النادرة.

فقد قيل لي إن الجبايش عبارة عن مجموعات من بيوت القش والبردي والقصب تقوم وسط الماء كجزائر صغيرة، وأن لكل بيت زورقاً ينقل أهله في زياراتهم وحاجاتهم، وأن الجبايشيين يعيشون عيشة أشبه بعيشة الأسماك فهم في مائهم منقطعون عن العالم إلا من يقصد أحياناً في القوارب إلى البلدان الأخرى، وإن أقصى بلدة يبلغونها هي سوق الشيوخ من جهة والقرنة من الجهة الثانية.

بل إن معلماً في سوق الشيوخ صورهم لنا بصورة الإنسان الأول الذي لم ير شيئاً من الحياة، فقد حدثنا أنه كان في مدرسته في الجبايش وإذا به يسمع في خارج المدرسة لغطاً وضجيجاً، وإذا بجبايشي يدخل عليه مسرعاً طالباً منه إخراج الأطفال ليشاركوا في هذه المشاهدة النادرة وليروا المنظر الذي لا يتسنى لهم بعد اليوم أن يروه ويبصروا الشيء العجيب الذي لم يبصره أبائهم من قبل. وأسرع المعلم فأخرج الأطفال وهو يحسب أن قبلة ذرية تعرض في الجبايش، وإذا لم تكن قبلة ذرية فهي من هذا القبيل مما يشتهي أبناء هذا الجيل أن يشاهدوه. ولما أطل بتلاميذه إذا بعجينة القرن العشرين التي أثارت الأهلين وحفزتهم إلى التسابق على رؤيتها هي الفرس منقولة في مركب مائي.

ويتندرون في سوق الشيوخ عن جبايشي هبط السوق وإذا به وجهاً لوجه أمام منظر مرعب: حيوان أسود اللون طويل الأذنين ممتد الأطراف كبير الفم، وإذا بهذا الحيوان يفغر فاه فتبرز أسنان وأضراس ضخمة، وإذا بهذا الفم ينفجر عن صوت يصم الأذان فما كان من الجبايشي إلا أن نجا بروحه ملقياً نفسه في الماء فراراً من هذا الحيوان المخيف، وما كان الحيوان المخيف إلا حماراً أسود.

ولم يكن المتحدثون عن الجبايش ينسون الحديث عن بعوضها الضخم وعيشها النكد. ولكن كل هذه الأحاديث عن مناخها السيء وعن حياتها القاسية كانت مما يدعوني إلى الرحيل إلى الجبايش لأشاهد (فينيسيا) العراق.. وما فينيسيا ومناظر فينيسيا أمام الجبايش التي إن صح ما توصف به كانت بلدة من أجمل بلدان الدنيا وموقعاً من أعجب مواقع الأرض.

وهل هناك مثل بلدة تؤلف بيوتها جزائر تعوم في الماء الدافق، وهل هناك أحسن من مساكن تقوم وسط البحيرة الروية؟ وإذا كانت الجبايش متأخرة العمران متقهقرة الحياة، فإن ذلك لن يخفض من جمالها ولن يحط من روعتها. وليس الذنب ذنبها إن لم تتحضر ولم تعرف العالم ولم يعرفها العالم، فها هي بطبيعتها الساحرة تدعو المعجبين بالطبيعة، وفي انزوائها تنادي الباحثين وتطلب الناهضين وتستصرخ العاملين^(١).

التصميم على الرحيل:

قلت إن نيتي كانت منصرفة إلى الوصول إلى الجبايش وعندما استطلعت أمر الوصول إليها قيل لي إن لها طريقين، فإما أن يأخذ المسافر على طريق سوق الشيوخ فيجتاز «هور الحمّار» وينفذ منه إلى الجبايش ومنها إلى المدينة فالقرنة. وإما أن يأخذ المسافر على طريق البصرة فالقرنة فالمدينة ويركب الماء إلى الجبايش، وقد عولت على سلوك الطريق الأول، فجئت سوق الشيوخ وفاتحت صديقاً هناك في أمر السفر إلى الجبايش، فتقرر أن نأخذ زورقاً يعبر بنا تلك البحيرة العظيمة «هور الحمّار» ويحط بنا على الجبايش، ولم يبق إلّا أن نعين يوم السفر. وقد اختلف الرواة في تحديد المسافة بين السوق والجبايش، فقال بعضهم إنها تستغرق عشر ساعات، ورفعها بعضهم إلى أكثر من ذلك وحطها بعضهم إلى الأقل، ولكنهم أجمعوا كلهم على صعوبة السفر وخطورته، واتفقوا على أنه سفر شاق مجهد. فلم يثني ذلك عن عزمي لا سيما وقد رأيت من صديقي تصميمًا

وعزماً. ولكن الصديق اقترح أنه ما دمنا لن نعود إلى السوق، فمن المستحب أن نرور بعض الأماكن المجاورة للسوق التي لا تخلو من متعة وجمال وسمى «العكيكة» وحدد صباح اليوم الثاني موعداً لارتحالنا إليها.

الخوف والقلق:

وفي الصباح الموعود كنا نقبل على الفرات فينادي صديقنا ملاحاً من ملاحي الزوارق المنتشرة هناك ويطلب إليه أن ينقلنا بزورقه إلى العكيكة، ثم يشير الصديق المضيف بأن نتبع الملاح، فتتبعه فيقف بنا أمام الزورق الذي سيحملنا إلى طيتنا.

وتطلعت إلى الزورق ورأيت اضطرابه فوق الماء، وتمايله في الريح، وأبصرت النهر يلعب به لعب الرجل بالنرد فهالني ما أرى، أعلى هذه الخشبات الصغيرة وفي هذه الأعواد الضعيفة سأرمي بنفسي الآن؟ وترددت بعض التردد، ولو كان شأني بيدي في تلك الساعات لعدت أدراجي ولكن شأني كان بيد صديقي، إذ بأي عذر أعذر له عن عدولي عن السفر. فأوكلت أمري إلى الله ونزلت إلى الزورق الصغير، وجلسنا في قعره مستسلمين لمشيئة القدر. وقد صدف أن كانت الريح عاصفة تعبث بالماء وتثيره مما زاد الموقف في نظري حرجاً ولكننا لم نسر إلا قليلاً حتى رأيت أن زوارق عديدة تنقل أناساً عديدين النقل نفسه فاطمأنت بعض الاطمئنان.

وشاء صديقنا أن يقص عليّ بعض قصص الزوارق، فأخبرني أن زورقاً كان يعبر النهر ناقلاً سكرًا في طريقه إلى العكيكة فارتطم بالشاطئ وانقلب بما فيه، فسألته: هل تحدث حوادث كثيرة من هذا القبيل؟ ولم يكن الصديق يعلم بما يخالجنني من القلق، بل لم يكن يخطر له القلق على بال لأنه معتاد على هذه الأسفار المائية فأجابني بدون اكتراث: كثيراً ما تحدث حوادث من هذا القبيل...

وأردت أن أطمئن إلى مهارة الملاح. وكان ملاحنا يافعاً في مقتبل

العمر فسألته عما إذا كان يمارس هذه المهنة منذ عهد بعيد؟ فأجاب سلباً وقال إنه لم يمض عليه فيها إلا وقت قريب، فجاء هذا الجواب ضغثاً على إبالة. وشئت أن أسري عن نفسي فحدثت الملاح الصغير وسألته عن اسمه فقال: اسمي نعيم ياسر. فتفاءلت بهذا الاسم وبما فيه من النعيم واليسر. ثم سألته هل تعلمت شيئاً من القراءة والكتابة؟ فأجاب بأنه أمي.

فتذكرت عند ذلك قصة النحوي الذي ركب زورقاً فسأل الملاح عما إذا كان قد تعلم النحو فلمّا علم أنه لم يتعلمه قال له: لقد ذهب نصف عمرك سدى. وصدف أن هبت عواصف كادت تقلب الزورق فصاح الملاح بالنحوي هل تعلمت السباحة؟ فقال النحوي: كلا لم أتعلمها، فقال الملاح: لقد ذهب كل عمرك سدى.

تذكرت هذه القصة حينما أجبني نعيم بأنه أمي. وقلت في نفسي لو شاء القدر أن يقابلنا وجهاً لوجه وأن يتعرض لزورقنا بالخطر فإن الوحيد الذي سينتفع بعلمه هو هذا الأمي وأما نحن فإننا لن ننتفع إلا بمقدار ما نحسن من علم السباحة وأنا في هذا العلم أمي...

فوق الماء:

سار زورق «نعيم ياسر» يمخر بنا عباب الماء معاكساً للنهر في مجراه، وملاحه يقوده ذات اليمين وذات اليسار. فهو طوراً يجذف فيه وطوراً يضرب بعصاه الطويلة الغليظة في قعر النهر ليدفع بها الزورق، إلى أن مال إلى الضفة وسار محاذياً لها ليكون أقل تعرضاً للخطر. وقد كان الزورق يتأرجح بنا تأرجحاً لقوة اندفاع الماء واصطحاب الموج واشتداد الريح. وكانت نفسي تتأرجح معه حيثما يتأرجح. على أن انشغالي بحال الزورق لم يلهني عن التطلع إلى مناظر الضفتين ومشاهدة ما فيهما من الناس والبناء والشجر. فالنخيل يغمر جانبي النهر ويمتد كثيفاً على أوسع المساحات، وكان القرويون يسرون جماعات وأفراداً مقبلين على السوق أو

ذاهبين منها ومتنقلين من قرية إلى قرية وكانت النساء منهم يحملن على رؤوسهن أمتعتهن الضخمة والزوارق تمر بنا ذاهبة وآيبة ناقلة القرويين بين قراهم. فهي هنا وسائط النقل التي يعتمد عليها الأهليون في التنقل بين البلاد. ولم يكن مرورها بنا يختلف من حيث الكثرة عن مرور السيارات وتتابعها في أي طريق بري كثير الطروق. وما زلنا نرسل الطرف في الماء والشجر والسماء ونمعن النظر فيما أبدع الله من الجمال الباهر وما حبا هذه البقاع من سحر الطبيعة وفتونها حتى أطلت علينا من قلب الماء بناية فخمة عرفنا فيها ثكنة «العكيكة». ثم تقدمنا حتى صرنا عند متفرع الماء حيث يقبل الفرات مجموعته فينشطر عند العكيكة إلى شطرين يمضي أحدهما إلى سوق الشيوخ ويمضي الآخر من جانب العكيكة فيشكل نهراً مستقلاً يطيف بالعكيكة من جانب ويطيف بها الفرات من الجانب الآخر فتغدو بينهما شبه جزيرة جميلة أي جمال.

وما زلنا نتقدم مبتعدين عن الضفة وموغلين في قلب الماء حتى صرنا في الصميم وأصبحنا في ساحة واسعة يتشعب فيها الماء في ثلاث شعب ضخمة، فعمود الفرات أمامنا ونهر العكيكة إلى يسارنا ونهر السوق وراءنا ونحن في الوسط نمد بأبصارنا فلا نرى إلا ماء لا نهاية له ونخيلاً متكاثفاً إلى أبعد مدى. وما أحسب هذا المنظر الطبيعي الرائع إلا من أندر المناظر التي يمكن أن يظفر بها أي بلد من البلاد. وكان اشتداد الريح قد أثار الموج تحتنا فكنا مضطرين أن نقاوم بزورقنا الصغير تدفق الماء الصاخب ونعاكس اندفاعه لنصل إلى شاطئ العكيكة فأعمل ملاحنا كل ما في ساعده من قوة وكل ما في عضلاته من نشاط ليجتاز بنا هذه المرحلة بعد أن بلغنا مركز الدائرة في ساحة الماء إلى أن وصلنا الضفة وخرجنا إلى اليابسة نازلين في شبه جزيرة العكيكة.

العكيكة:

وعندما طلعنا إلى العكيكة ذهبنا إلى ثكنتها الواسعة المبنية حديثاً،

ولم يكن على اليابسة من البناء غير الثكنة وغير المدرسة، وغير بيت مدير الناحية. وعندما مررنا بالثكنة رأينا كاتب الناحية محسن فرج. وعندما سمع عن إعجابنا الشديد بجمال العكيكة وحسن موقعها أنشد شعراً له في التذمر من العكيكة والسكنى.

وهكذا فلم نكد نخلف الشعر وراءنا في السوق، حتى كنا نلاقيه في هذه الضواحي الجميلة. وإذا كانت العكيكة قد منيت من السيد فرج بالهجاء فما ذلك إلا للوحشية التي يشعر بها الموظف فيها، فلا عمران ولا حياة اجتماعية، بل إن الموظف هنا ينقطع عن الناس والحضارة، ويكابد الوحدة والانفراد، فلا عجب أن يتضجر كاتب الناحية من العكيكة وأن يهجوها هذا الهجاء ولكنني كنت أود لو أنه تحدث لنا عن جمالها ووصف لنا رياضها الندية ومياهها الروية وسهولها الغنية، ولو أنه استمتع قليلاً بالطبيعة الغضة وسرى عن نفسه بمشاهد الأنهار والأشجار والأزهار. بل كنت أودّ لو أن شاعراً من شعراء سوق الشيوخ وهب العكيكة شيئاً من فيض قريحته وأوقف عليها بعض شاعريته فإن فيها ما يلهب الشاعرية ويثير القرائح، وإن فيها ما يحرك النفس إلى التغني بالحسن الطبيعي أي تغن.

أنا لا ألوم كاتب الناحية المتذمر، فإن الذي يهبط العكيكة سائحاً متنزهاً غير الذي يهبطها مقيماً مستقراً. ومن المؤكد أنه لو قدر لنا أن نمضي فيها من الوقت ما يمضي السيد فرج وأن نعمل فيها ما يعمل لتذمرنا تذمره ولشكونا شكواه. ولكنني آسف أن لا تظفر مناظر العكيكة ببيت من الشعر على كثرة ما يحيط بها من الشعراء، بل آسف أن لا تظفر سوق الشيوخ نفسها وأن لا يظفر فراتها بالقصائد الطوال في الإشادة بهذا النخيل السامق والماء الدافق والجو العابق، فإن في هذه الرباع من نضارة الأرض وازدهارها ما يستحق من شعراء السوق كل تكريم وتخليد. فمن هو الشاعر السوقي الذي سيطالعنا بقصيدة تصور لنا طبيعة السوق وكل ما فيها من زروع ومياه وأدواح وأكلاء؟ ومن هو الشاعر السوقي الذي سيجعل عنوان

قصيدته «العكيكة» ثم يفيض في الحديث عن هذه الأنهار المتفرعة المتشعبة وعن تلك الخمائل المتشابكة المتكاثفة؟

بل من هو هذا الشاعر الذي سيصف لنا (المشحوف) ومسراه في الماء ومرساه في الشاطئ، وسيتغنى بهذا الزروق الجميل الذي يلتصق كل الالتصاق بحياة الناس في هذه الربوع؟

إن (المشاحيف) التي تتجمع في الصباح على جانب النهر ثم تأخذ في الانتشار حاملة الناس إلى طياتهم. إن هذه المشاحيف الجميلة التي طالما شهدت القمر يتلأأ على صفحة الماء والربيع يزدهر على حوافي الغبراء والتي طالما تمايلت بالطربين الضاحكين واهتزت بالبائسين المكدودين، إن هذه المشاحيف يجب أن يكون نصيبها من شعراء سوق الشيوخ نصيب الإبل من شعراء الجاهلية، فيتحدثوا عنها حديث الشاعر الجاهلي عن ناقته ويطنبوا في التغني بها إطناب البدوي في التغني بفرسه، فمن هو الشاعر الذي سيخلد لنا «جندول» سوق الشيوخ بقصيدة عاطفية واقعية حساسة؟

العودة:

عندما أردنا العودة من العكيكة كنت كمن استيقظ من حلم جميل على حقيقة مرعبة، فما إن فكرت بأني سأعود إلى (المشحوف) وأنه سيقلني على غارب الماء من العكيكة إلى السوق. ما إن فكرت بذلك حتى عاودني القلق ولكنه قلق اليأس الذي لا حيلة له، فإذا صَحَّ أن نرجع ونحن في سوق الشيوخ عن السفر إلى العكيكة فنخلص بذلك من مخاطر المشحوف فكيف نفعل الآن ونحن في هذه اليابسة المحاطة بالماء ولا طريق لنا إلى هدفنا إلاّ ظهر الفرات في المشحوف. وكنت كلما خطونا خطوة إلى الضفة ازدادت تفكيراً وقلقاً. ولما وصلنا الضفة كانت مشحونة بالمشاحيف وصدف أن أرست على الشاطئ سفينة آلية من النوع الذي يسير بالمحركات (الموتور) وكانت زاخرة بالناس والأمتعة، فأسرعت للصديق عارضاً عليه أن نعود بها

لنجرب واسطة أخرى من وسائط النقل المائي، ووافق الصديق على الفكرة حاسباً أنني حقاً أريد تجربة واسطة جديدة وغير عالم أن الخوف من المشحوف هو الذي دعاني إلى هذا الاقتراح.

فصعدنا إلى ظهر السفينة وكان زاخرة بشتى الأمتعة القروية. فهنا قفة فيها بيض وخبز، وهناك صرة فيها قدور وأوانٍ نحاسية، وهناك قفة فيها تمر وهناك كيس فيه قمح إلى غير ذلك من أمثال هذه التي يسير بها القرويون من مختلف القرى. ومشت السفينة يدفعها محركها الصخاب ونحن وقوف على سطحها نستقبل بأجسامنا النسيم اللطيف وقد زایلنا الخوف وعاودنا الاطمئنان ووثقنا بأن مركبنا يستطيع أن يصمد للتيار، ولا ينقلب بنا في الأغوار، وهكذا حتى بلغنا السوق فكانت نزهة عذبة ورحلة جميلة.. وها أنذا في هذه الفترة التي أعكف فيها على قرطاسي مدوناً خواطري أتخيل تلك السويغات الرائعة على مشحوف نعيم ياسر، وعلى سطح ثكنة العكيكة، وفي ظهر المركب الآلي، ها أنذا أتذكر ذاك الملاح اليافع يقودنا في تلك الجنان الناضرة قيادة الحكيم الواثق بنفسه ويميل بنا من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين فيلهينا الإعجاب به عن المخاطر التي توهمنها، وتشغلنا لباقته عن المخاوف التي تخيلناها. ها أنذا أتصور تلك الفترات الجميلة التي مرت بنا بين السوق والعكيكة فأود لو كر الزمن كرة فأعادني إلى المشحوف النحيل فنقلني إلى النهر الظليل وسار بي في ذلك السبيل.

أين أنت يا نعيم ياسر؟ ترى أين طوح بك الزمن؟ إلا تزال تقود مشحوفك إلى العكيكة؟ إلا تزال تحمل الناس على ظهر الفرات؟

لقد مررنا بك كما مرّ بك العشرات وكما سيمر بك المئات. ولقد حملتنا كما حملت الكثيرين أمثالنا فلم نشغل ذهنك ولم نشر اهتمامك، ولم تفكر بنا لحظة واحدة، فما هو أن توارينا عنك حتى توارت عنك صورتنا وغاب ذكرنا.

أما نحن فإننا لم ننسك ولم ننس مشحوفك وكلما امتدت بنا الأيام
امتدت معها ذكراك في نفوسنا وتضخمت صورتك في أذهاننا وازددنا حيناً
إليك وعطفاً عليك.

إلى كرمة بني سعيد:

علم القارئ فيما سبق أن نيتي كانت منصرفة إلى السفر إلى
(الجبايش)، وأنا قررنا أن نقلنا إليها المشحوف بعد أن تعذر علينا إيجاد
غيره. ولكن سفرة العكيكة بدلت رأيي فصممت في قرارة نفسي على أن لا
أركب المشحوف إلى الجبايش مهما كان الأمر، وكنت كلما تذكرت
اضطراب المشحوف في الموج واضطراب قلبي معه خانتني الشجاعة
وخذلني الإقدام. وهكذا فقد تراءى لي شبح إخفاق الرحلة وفشل الوصول
إلى الجبايش، ولم أكن بحاجة لمن يثبط عزمي بعد أن لمست المشحوف
بيدي. ومع ذلك فقد كان المشبطون كثيرين فكان كل من يسمع بهذا السفر
ينهاها عن ركوب هذا المركب الخشن ويحدثنا عن المخاطر التي كثيراً ما
تعرض لها المسافرين في هور الحمار. وأخيراً قررنا الذهاب إلى (كرمة بني
سعيد) بالسيارة على أن ندرس هناك أمر السفر في النهر لأن (الكرمة) تقع
على أبواب الهور. فخرجنا من السوق عصراً نخترق سهلاً رحباً مغموراً
بالمستنقعات ومحاطاً من أطرافه بالنخيل على شكل أبدعت الطبيعة ترتيبه
وتنسيقه، ولقد كنا طول الطريق نمر بالقرويات عائدات من السوق وقد
حملن على رؤوسهن مختلف الحاجات وسرن بعباءتهن السوداء حافيات
الأقدام، فكن مثلاً للمرأة الكادحة التي تشاطر زوجها بؤس الحياة وشظفها
وتقاسمه عناءها وترحها. ولكن الطبيعة النسوية كانت تغلب عليهن فلا
يستطيع الإرهاق الذي يكابده أن ينسيهن أنهن نساء قبل كل شيء وأن الزينة
يجب أن تلازم المرأة وأن الحلي هي أوضح مظاهر الزينة. فكم هو طريف
أن نتطلع إلى هذه المرأة وقد حملت على رأسها حملاً ثقيلاً وغاص قدمها

الحافيان في التراب ولكنها مع ذلك تأبى أن تتخلى عن خلخال الفضة، وتأبى إلا أن تزين رجليها به.

إنها امرأة قبل كل شيء وبعد كل شيء، والزينة من لوازم المرأة حتى ولو كانت حافية القدمين مثقلة الرأس مرهقة الجسم...

كنا نقرب أحياناً من النخل فنمر بالقرى ونبصر بيوتها القصبية حتى صرنا في أبيات عشيرة (آل زياد) واجتازناها موغلين إلى مضارب عشيرة (المشيرية). وكنت ونحن نمر بهذه العشائر ونجتاز هذه المنازل أستعيد في ذاكرتي أحاديث البطولة وقصص البسالة التي أفاض بها الناس عن أبناء هذه الديار. فها هنا في هذه المزارع المتواضعة وتحت هذا القصب الضعيف تنزل أسود الحرب وفرسان الطعن والضرب. وها هنا في هذه الخيام تسكن أقوام ما عرفت الميادين أعظم منها شجاعة وأجرأ منها قلوباً وأثبت منها نفوساً. وها هنا في هذه الحقول تقيم الجماعات التي ثارت يوماً بأقوى قوة عسكرية فنكلت بها وأثخن ما شاء لها التنكيل والإثخان...

ثم بدت ثكنة (الكرمة) گرمة بني سعيد، ولاح الفرات لنا، فسرنا على ضفته حتى كنا في عشيرة (بني سعيد) فوقفنا أمام مقهى قصبي قائم على الضفة وترجلنا من سيارتنا فأبصرنا الثكنة قائمة على متفرع الفرات حيث يتشعب شعبتين تسمى إحداهما (شط أم نخلة) وتسمى الثانية (كرمة بني سعيد). وعندما أردنا عبور الكرمة كان لا بد لنا من مشحوف ينقلنا إلى العدو المقابل لأنه لا جسر يربط بين العدوتين. وهكذا انتقلنا في المشحوف، فإذا نحن أمام بيوت من القصب تتخلل النخل السامق وتنتشر هنا وهناك.

سرنا على محاذاة شط أم نخلة مارين قريباً من الثكنة فما كنا نبصر إلا ماء ونخيلاً يبدوان على أجمل مشهد وأعذب شكل.

بلاد الأهوار:

هذه هي بلاد الأهوار التي كانت كثيراً ما تطرق أسماعنا فنتخيلها الصورة الشوهاء، والطلعة النكراء، ونتمثلها الجحيم الذي ما بعده جحيم... لقد رأيناها فإذا هي قطعة من الجنان، ومشهد من النعيم، وإذا فيها من روائع خلق الله وبدائع صنعه ما لم يظفر بمثله كثير من البلاد. ولكن الإنسان الذي وهبه الله كل هذا الفضل وأسبغ عليه كل هذا الخير، ومهد له كل هذه الآلاء قدّر لها ولمن فيها هذه المرارة في العيش.



إلى تكريت

الرصافة والجسر والكرخ:

خلفنا شروق الرستمية وراءنا وتركنا ذاك الجو الصافي وقد تنفس صباحه عن النسائم العابقة والظلال الوارفة والمروج الضاحكة، وسرنا منطلقين في معسكر الرشيد، ثم كنا نجتاز محلة (رخيته) وشوارعها المنسقة الجميلة وقصورها العامرة الفخمة، ثم نعبر باب بغداد الشرقي فنصل إلى مدخل شارع الرشيد هذا الآتي الزاخر بجموع الناس والمركبات والسيارات، ثم نعطف إلى الجسر فنصل من الرصافة إلى الكرخ. والرصافة والجسر والكرخ أسماء عذبة على الأسماع حلوة في الشفاه تبعث في النفس هزة وفي الفؤاد انشراحاً، فكم كانت مجالاً لصائل ومقالاً لقائل وكم غناها شاعر طروب ومنشد أديب وكم تتالت عليها المواكب وحفلت فيها المرافق.

هذا دجلة الخالد يجري كما كان قبل مئات السنين، وهذه شطوطه ممراة حائئة وسهولة مخضوضبة زاهرة ونخيله سامق شاهق، فكم من ذكريات تنطوي ما بين هذه العدو وتلك العدو وكم من أحداث يضم هذا الثرى الريان.

هذه الرصافة وهذا الكرخ وهذا الجسر. ها هي تلوح للعين فيعود الذهن إلى الماضي البعيد فتتمثل فيه مواكب الفرسان ومجالس الندمان وتتجلى فيه بغداد عاصمة الدنيا وسيدة الدهر. وتترأى من وراء الأجيال بمجدها الباذخ وسلطانها الشامخ.

الماضي البعيد:

أخذنا في السهول نشق طريقاً مطلياً بالقار وعلى جانبيها البساتين، وقد عصفت بها الخريف فأذوى نضارتها فتناثرت أوراقها وبرزت جرداء عارية تمثل الكآبة والشجون، ثم كنا نمر بجانب الكاظمية ونسير محاذين للسكة الحديدية، ثم انقطع القار فكنا في طريق ترابية نتلفت في السهول الرحبة وقد خلت من الأشجار والبساتين إلا ما يلوح على حواشيها في الأفاصي من النخيل الكثيف. ومضت السيارة في هذه السهول التي لا آخر لها لا تلوي على شيء حتى كنا بعد سير طويل قطعنا فيه تسعين كيلو متراً أمام جسر (حربه) أو جسر المستنصر الذي بناه على نهر دجيل، ثم فاض النهر وردد التراب الجسر إلا بعضه فوقفنا عليه نستعرض الأجيال ونطوي القرون ونرجع إلى تلك العهود الغابرة وما فيها من أحداث وحوادث.

أهذا هو دجيل الشهير؟ الذي يقول فيه الشاعر:

أسال بالليل سـيل أم زيد في الليل لـيل
ذكرت أهل دجـيل وأين مني دجـيل

وأين الآن أمواهه الدفاقة تنشر الخصب والري على المروج والبساتين وتبعث الحياة في الأرض والناس؟ وأين الحقول على جانبيه ريانة مخضوضبة، والمحاجر حوالبه مورقة مونقة؟ أين الرياض والرياحين والأزاهير؟ بل أين الرواد تغص بهم الشطوط وتزخر بهم المناهل؟

أهذا هو دجيل؟ أخاديد تسفوها الرياح وحفر تسكنها الوحوش... لقد جف نهر دجيل وغار ماؤه فلم يبق منه في هذا السهل إلا بقايا هي خير شاهد على ما كان في هذه المربع من حياة أي حياة ونشاط أي نشاط وجمال أي جمال. وهذا الجسر الفخم يمثل أحسن تمثيل عظمة النهر وغزارة مائه ونشاط الحياة فيه.

لقد تلمسنا قطرة من الماء ونحن نعبر نهر دجيل فلم نجد؛ فهذا خندق

طويل جاف هو بقية مجرى النهر، وهذه قوائم الجسر مغموسة بالتراب، وهذا الجسر يغالب الدهر ويقاوم الزمن فينتصر ويبقى في هذا البر الأقرى رمزاً للحياة الماضية. فما أعظم ما يوحى جسر (حربه) للنفس من معان وما يثير فيها من شجون. وإذا كان نهر دجيل قد أصبح غوراً وهذه الجنان قد عادت صعيداً زلقاً وإذا كان الزمن القاسي قد مرّ بأوجع الأرزاء والنوائب وبعث أمر الأحداث والنكبات على هذه البقعة العربية الغالية، فغير فيها معالم الماضي المجيد وأحال المرباع إلى بلاقع، فإنك لتغتبط حين ترى اليوم أن الموات يحيا وأن الأرض تروى وأن الحياة أخذت تدب في هذا الجسم الجبار ليعيد سيرته الأولى. ولئن جف دجيل فقد تفجر الفرات وفار الثرثار. ولكن خوى جسر حربه فقد عمرت جسور بغداد أي عمران.

إلى تكريت:

تركنا جسر حربه وراءنا وعدنا نفوًز في السهول الجرداء، فنمر فيها على بقايا جداول وأقنية جافة. ويقول المؤرخون إن مجرى دجلة الأصلي أخذ بالتحول في أوائل عهد المستنصر بمشاريعه الإروائية، فكان منها نهر دجيل وجسر حربه وغيرهما، وإن السالك اليوم في هذه الأراضي ليرى بقايا تلك الأعمال الإنشائية ماثلة للعيان. وقد كنا نسير فنمر بين الحين والحين على قناة مردومة وجدول متهدم وترعة خربة حتى أشرقت لنا قبة سامراء وهاجة في الأفق وإلى جانبها الملوية صاعدة في الجو. ثم أخذت تنجلي لنا عن اليمين حتى كنا نسير على محاذاتها في الضفة الثانية من دجلة. ثم لمع النهر إلى يميننا وبان قصر العاشق أمامنا فلم نتوقف عليه، بل تركنا ذلك للإياب وأوغلنا في السير في سهول هي في الواقع صحارى جرداء وبواد قفراء، حتى بدت أعلام تكريت بعد ست ساعات من خروجنا من بغداد، فصرنا هنا بين ربوات واطئة وتلال منخفضة نشق فيها طريقاً حجرية يتناثر فيها الحصى والجنادل، حتى كنا نقبل على تكريت فنرى أول ما نرى منها مقبرتها وقبابها المنتشرة، ثم ندخل في زقاق عريض انعطفنا في نهايته إلى بناية حططنا رحالنا فيها.

مشاهد تكريت:

ثم خرجنا نجول في البلدة، فقصدنا إلى ما يسمى في تكريت بالجبل أو القلعة. وهو مكان تكريت القديمة المتهمة التي لم يبق منها إلا ركام التراب. فصعدنا في تل كبير يقع في شمال البلد فإذا خندق عظيم إلى غربه ربما كان مجرى النهر القديم، ووصلنا إلى قمة التل وأشرفنا على دجلة فبدت البلدة أمامنا على شاطئ النهر مبتدئة من الضفة ثم أخذت بالصعود، فرأيناها بيتاً بيتاً وكان ضحيجها يملأ الأذان فتمتزج فيه صيحات النساء بأصوات الرجال وصياح الديكة. وبالرغم من أن البلدة تبدو للنظر كبيرة الحجم إلا أن جميع مظاهرها قروية بحتة. وقد أبصرنا من قمة التل جبال (حمرين) تلوح نائية عن الأبصار في عرض السهول.

ثم تقدمنا فأشرفنا على دجلة من تحتنا والسهول منبسطة أمامه على مد البصر، ثم أخذنا بالانحدار من طرف التل الآخر نازلين في نفق يوصل إلى النهر حتى انتهينا إلى الضفة فسرنا على حافاتها في مسالك ضيقة تنحشر بين التل والنهر، ورأينا السقائين رجالاً ونساء ينقلون الماء، الرجال منهم على دوابهم والنساء على رؤوسهن. ثم درنا حول البلدة حتى انتهينا إلى تلال عند طرفها الجنوبي فصعدنا فيها فإذا أنقاض بنيان قديم يدل على امتداد تكريت القديمة واتساعها، وبعض هذه الأنقاض منبوش تظهر فيه بقايا الجدران وآثار الدور والقصور. ثم هبطنا من التلال وخرجنا إلى ظاهر البلد وكان الغروب قد أظلنا فتطلعنا فإذا هلال العيد يشرق علينا من علياء سمائه فهاجنا منظره وعاد بنا إلى ذكرى الأهل والأوطان. ولما دجا الليل خرجنا نطوف في البلدة فكنا نمر بجماعات الأطفال وهم يستقبلون العيد بأغانهم الحلوة وأناشيدهم العذبة ويصفقون له ويرقصون.

يا أطفال تكريت، غنوا للعيد ما شئتم واحتفوا له ما عشتم فما كنتم تدرون أنكم تثيرون سواجي الوجد وتوقظون غواني الشوق. ثم ذهبنا إلى منزل رئيس البلدية لتناول العشاء، فدخلنا داراً جميلة في صدرها إيوان

عميق مطلي بالجص أجزناه بين صفوف الجالسين إلى غرفة بجانبه تقوم على طول جدرانها أشكال أواوين معقودة الأعلى ذات طابقين على النسق المعروف في تلك النواحي وجميع الجدران مطلية بالجص الناصع البياض.

ويقوم الإيوان والغرفة على سرداب كبير عميق يؤوى إليه عند اشتداد الحر. ومن منزل رئيس البلدية قصدنا إلى مدرسة التفيض التي كانت قد أعدت حفلة سمر جميلة رقص فيها طلابها بالسيوف على أنغام (المطبق) رقصاً كله رجولة وقوة، وأنشدوا الأهازيج الشعبية والأغاني المحلية وغنوا «السويحلي» الجميل و(العتابا) الساحرة، وكم كان شاعرهم الشعبي حميد محمود مؤثراً عندما أنشد:

أريد أبكي وبكّي الطير وحداي وبكّي كل من فارق احباب
أجل أيها الشاعر لقد أبكيتنا حقاً فكنت صادقاً كل الصدق بشعرك
العذب.

الأربعون:

وفي الصباح خرجنا إلى مقام الأربعين لنشاهد احتفال الأهلين بالعيد، فمررنا بأطلال السور المتهدم واجتزنا بمقبرة البلدة فرأينا على شواهد القبور صوراً ونقوشاً غريبة، فأخبرنا بعض رفاقنا التكريتيين أن العادة هنا أن ينقشوا على شاهدة قبر الميت ما يشير إلى مهنته وطراز حياته. فهذا قبر منقوش عليه صورة «سدارة» فهي تشير إلى أن الميت من طبقة (الأفندية) لابس السدارات، وهذا قبر منقوش عليه صورة خنجر ومسدس فهي تشير إلى أن صاحبه كان من الشجعان حاملي الخناجر والمسدسات إلى غير ذلك من الصور والنقوش التي لا نعرف لها مثيلاً في غيرها من مقابر المسلمين.

وكان طريقنا إلى المقام يعج بالناس رجالاً ونساء وأطفالاً وكلهم بالملابس الزاهية والأثواب الملونة قاصدين إلى تمضية العيد في الأربعين. ولما بلغنا المقام رأينا الرحاب حوله ملأى بالأهلين، ورأينا حلقات الدبكة

عامرة زاخرة. وكما يفعل القرويون عندنا في احتشاداتهم في المواسم والأعياد في مقامات الأنبياء والأولياء طربين دابكين هازجين، كذلك يفعلون هنا. ففي كل مقام ومزار يجتمع الناس في الأعياد من شتى النواحي ويحتفلون بالعيد احتفالاتهم القروية المعتادة. وقد رأيناهم في الحلة ونواحيها يقصدون إلى مقام النبي أيوب وها هم يقصدون إلى مقام الأربعين وسنراهم غداً يقصدون مقام السيد محمد ﷺ في (بلد) ونواحيها.

أما مقام الأربعين فهو بقايا غرف وسرايب متهدمة يظهر أنها قديمة العهد وتقوم في وسطه قبتان بسيطتان وتحت إحدى القبتين غرفة فيها قبر ضخم ذو ارتفاع عال، قيل لنا إنه قبر من يسمى عمر بن جنيد. أما القبة الثانية فتحتها غرفة لا قبور فيها.

وقد كنا نحسب أن للأربعين مقامات عندنا في بلاد الشام فقط، فإذا بنا نجد لهم هنا مقامات أيضاً ففي دمشق في جبل قاسيون مقام للأربعين وفي صيدا وبيروت، وههنا في تكريت وكذلك في الموصل وهيت ولعل في غيرها أيضاً... فمن هم هؤلاء الأربعون الخالدون الذين تركوا لهم في كل مدينة مقاماً ومزاراً؟

بقايا سامراء:

تركنا تكريت عند الضحى وأخذنا في طريق صحراوية عائدين نقصد سامراء حتى بلغنا قصر المعشوق الذي يقول فيه البحري:

لا زال معشوقك يسقى الحيا	من كل داني المزن واهي الخروق
فما خلونا مذر رأيناه من	فتح جديد وزمان أنيق
أشرف نظاراً إلى ملتقى	دجلة يلقاها بوجه طليق
وطالع الشمس على موعد	يمثل ضوء الشمس عند الشروق

فترجلنا من السيارة ومشينا إلى رابية يقوم عليها القصر فاجتزنا بقايا نهر الإسحافي الذي كان يجري تحت القصر، ثم صعدنا في التل فإذا نحن

أمام أطلال دوارس لصرح كان شامخاً مشمخراً ولا تزال بعض أركانه وجدره قائمة على ما كان عليه من فخامة وعظمة، وهو يمتد طويلاً على مسافة ١٣٠ متراً وعرض ٦ متراً، ولا تزال سراديبه العميقة عامرة ماثلة. وقد أشرفنا ونحن في القصر على ربوات ووهدات وفجوات وأخاديد هي أنقاض المدينة العظيمة الدائرة تلوح في هذه السهول قفراء خالية. فكم كانت هذه الأطلال مجمعاً حاشداً يغص بالجنود ويضيق بالوفود، وكم جالت في هذه الميادين مواكب الفرسان وخطرت صفوف الأجناد.

هذا قصر المعشوق نقف عليه مطلين على سامراء، فإذا نحن في خرائب وأنقاض شوهها الزمن لا ترى عيوننا حوالها إلا ركامات منتشرة على مد البصر تبرز خلالها بقايا القصور. فأين سامراء الزاهرة؟ وأين قصورها العامرة؟ لقد طواها هذا الثرى في أحشائه وأطبقت عليها هذه الأرض فها هي أثر بعد عين. ففي هذه الربوات الهامدة كانت تنبض الحياة جياشة صاخبة، وفي هذه الفجوات الخامدة كانت تزخر الدنيا ضاحكة متألقة، وتحت موطن كل قدم منا كان مجلس الأمير وندي لرئيس وم حفل لسمار ومجمع الجلاس، فما أروع الدهر وما أعظم عبر الحياة.

أيها الشاعر الجاهلي، إنني وأنا على أطلال سامراء أحييك وأترنم بشعرك وأعرف أي حس كان يقودك وأنت تقف على بقايا الطلول ورسوم المنازل تسألها عن الظاعنين وتستعيد ذكريات الراحلين. فليس كشعرك شعر يهز النفوس ويثير القلوب، وليس كقصائدك قصائد صادقة الأداء صادقة الشعور صادقة العاطفة.

إلى سامراء:

تركنا المعشوق، الذي بدلت الأيام اسمه إلى العاشق، وراءنا وسرنا إلى دجلة لنعبر إلى الضفة الثانية فوصلنا الجسر الذي نصب حديثاً هناك وكانت واسطة العبور قبله الزوارق. وصادف وصولنا موعد وصول قطار بغداد فإذا بالناس منتشرون على طول الطريق من المحطة إلى الجسر وهم

قاصدون سامراء للترويح عن النفس. وعبرنا الجسر فإذا هو مزدحم أيضاً وإذا بسامراء تعج عجيجاً بالوافدين ولا بدع فالأيام أيام عطلة وعيد، وسامراء منتجع القاصدين لقداسة مراقدها وجليل آثارها وعذوبة هوائها وطيب مناخها.

وقد قمنا نجول في البلدة فزرنا المقام الذي يضم رفااتي الإمامين علي الهادي والحسن العسكري عليهما السلام. ثم انتقلنا إلى الآثار فرأينا الملوحة والمسجد الجامع وقصور الخلفاء وسور أشناس وبركة المتوكل الشهيرة فإذا هي الآن حفرة مشوهة لا الأنسات تلوح في مغانيها ولا وفود الماء تنصب فيها ولا الفضة البيضاء تجري في مجاريها:

محل على القاطول أخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
تغير حسن الجعفري وأنسه وقوَّض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة فعادت سواء دوره ومقابره

سامراء:

تقع سامراء بشمال مدينة بغداد على بعد نحو ١٣٠ كيلومتراً على الضفة اليسرى من نهر دجلة. وهي قضاء تابع إلى لواء بغداد من الناحية الإدارية ومبنية على أطلال مدينة «سر من رأى» العباسية.

أسست مدينة سامراء بعهد الخليفة العباسي المعتصم بن هارون الرشيد سنة ٢٢١هـ - ٨٣٦م. وهو ثامن خلفاء بني العباس ليجعلها عاصمة جديدة، ثم وسعها ابنه الواثق وأوصلها إلى أقصى اتساعها المتوكل إلا أن المدينة تركت بعد ذلك وأعاد المعتمد مقر الخلافة إلى بغداد، ولم يكن قد مرَّ عليها أكثر من أربع وخمسين سنة ملك خلالها ثمانية من خلفاء بني العباس وهم: المعتصم، والواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين، والمعتز، والمهتدي، والمعتمد.

ولا يعرف مدينة اتسع عمرانها في بضع سنوات كما اتسع عمران

مدينة سامراء حتى امتد إلى مسافة ٣٥ كيلومتراً على ضفتي نهر دجلة.
قال ياقوت الحموي: «صارت أعظم بلاد الله»، وقال القزويني إنه
«لم يكن في الأرض أحسن ولا أجمل ولا أوسع ملكاً منها».

ومدينة سامراء الحالية مبنية على أطلال مدينة «سر من رأى» القديمة
يبلغ طولها نحو كيلومترين وعرضها نحو كيلو متر ونصف. وإذا رغب
المسافر زيارة هذا البلد فيستطيع أن يقطع المسافة إليه أما بالقطار فيصلها
بساعتين أو بالسيارة بساعة ونصف. والناظر لمدينة سامراء يرى هناك قبتين
إحدهما مغشاة بالذهب والثانية مغشاة بالكاشي الأزرق الملون.

أما القبة الزرقاء فيقع تحتها الجامع الكبير، وسرداب بيت الأئمة.
وهي مستديرة الشكل يبلغ محيطها ٤٥ متراً و٣٢ سنتماً، أما قطرها فيبلغ
١٥ متراً و١١ سنتماً.

أما القبة الذهبية فيقع تحتها ضريح الإمامين علي الهادي وولده
الحسن العسكري عليه السلام. كما يوجد معهما في الضريح جعفر بن علي الهادي
وأخوه حسين والشريفة حكيمه بنت محمد الجواد والشريفة نرجس زوجة
الإمام الحسن العسكري وغيرهم من آل البيت عليهم السلام.

والقبة الذهبية تقع في وسط الصحن، والصحن هذا يكون على شكل
مربع تقريباً حيث يبلغ طوله من الجنوب إلى الشمال ١٤٦ متراً وعرضه من
الشرق إلى الغرب ١٣٣ متراً من جهة شمال الصحن أما عرضه من جهة
الجنوب فيبلغ ١١٥ متراً. وفي هذا الصحن تقع قبة الإمامين الهادي
والعسكري عليهم السلام، وله خمسة أبواب والروضة مستطيلة الشكل حيث يبلغ
طولها من الشمال إلى الجنوب ٥٣ متراً وعرضها من الشرق إلى الغرب ٣٧
متراً وارتفاعها ١١ متراً، وفوق سطح الروضة نطاق مستدير يبلغ ارتفاعه
متراً واحداً وهو من الإسمنت المسلح حيث تجلس القبة فوقه ويبلغ
ارتفاعها ٤٦ متراً، وباب الروضة متجه نحو القبلة فإذا دخل الزائر إلى
الحضرة يرى مقدمة الباب وهو مطلي بالذهب وفي وسطه بعض الآيات من

سورة الزمر وقد وضع هذا الذهب سنة ١٣٨٢هـ. كما يرى مصراعاً الباب الذهبي المطعم بالمينة الزرقاء الجميلة المنقوشة على شكل بديع جداً كما أنهما مغلفان بالزجاج الممتاز فإذا اجتاز الزائر هذا يرى باين آخرين ذهبيين على شكل نفيس، ويكون قد دخل إلى رواق الحضرة الذي يطوق القبة على شكل مربع حيث يبلغ عرض الرواق وطوله ٣١ متراً، ويفصل بين القبة والرواق فراغ يبلغ ٣ أمتار. وفي شمال الرواق بهو كبير مستطيل الشكل يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ٣٣ متراً وعرضه ١٠ أمتار وله أربعة عشر شباكاً من الحديد. وهذا البهو خاص لصلاة النساء. وفي هذا الرواق ثلاثة أبواب تؤدي إلى داخل القبة باب من الجنوب وباب من الشرق وباب من الشمال. وهناك شباك من جهة الغرب بين الرواق والقبة، أما داخل القبة فمكتوب عليها بالكاشي الأزرق سورة (الدهر) وبعض السور الأخرى، كما مكتوب فيها بعض الأحاديث النبوية الخاصة بآل البيت عليهم السلام.

إن قبة الإمامين عليهما السلام مطلية بالذهب الذي تبرع به السلطان ناصر الدين شاه القاجاري وذلك سنة ١٢٨٥هـ كما هو مكتوب على القبة نفسها، وهذه القبة من أكبر قباب الأئمة في جميع أنحاء العالم الإسلامي حيث يبلغ محيطها ٦٨ متراً وقطرها ٢٢ متراً و٤٣ سنتماً، وبالجهة الجنوبية من المقام تقع منارتان مغشأتان بالكاشي الأزرق يبلغ ارتفاع كل واحدة منهما من الأرض إلى فوق ٣٦ متراً وأما من سطح المقام فيبلغ ٢٥ متراً، وفي داخل الصحن يوجد ٤٥ إيواناً من الغرب، و٩ من الجنوب و٢٠ من الشرق.

إلى بلدة «بلد»:

خرجنا في الصباح من سامراء أيام العيد نتحي بلدة (بلد) التي سميت حديثاً (دجيل)، فلما شارفناها رأيناها مغمورة بالرياض ورأينا الأشجار تحوطها من كل جانب، ثم كنا نقبل عليها فندخل في طريق يخترق البساتين

والحدائق. ثم خرجنا إلى جادة طويلة على جانبيها الأشجار، فسرنا بين بيوت البلدة ودروبها.

وبعدما تجولنا فيها قليلاً خرجنا من بين البساتين المكتظة إلى سهول جرداء. وكان اليوم يوماً عاصف الريح، وكانت الطريق غاصة بالسيارات الزاهية والآتية من مقام السيد محمد ﷺ فكنا نستقبل غباراً عظيماً يهيج علينا من كل ناحية حتى ما نكاد نبصر طريقنا، إلى أن كنا في مقام السيد محمد ﷺ فرأينا الساحات حوله تزخر بالخلق نساء ورجالاً وأطفالاً جاؤوا من كل ناحية يحتفلون بالعيد فعقدوا حلقات الدبكة وراحوا يهزجون ويقفزون. وأخذ الفرسان يتبارون على صهوات خيولهم في السهول.

والريح في كل ذلك معتكرة لا تهدأ ولا تسكن، فلم نطق المكث وأسرعنا إلى داخل المقام فإذا صحن واسع في وسطه قبة خضراء تعلو حجرة مزينة بقطع من المرايا الصغيرة. وفي وسطها قبر محاط بقفص نحاسي تعلوه بعض الأعلام والقطع المزركشة وتدور حول الصحن أروقة وغرف ذات طابقين يأوي إليها الزائرون. وقد كان الصحن كما كانت الحضرة مملوءة بالناس فكنا نزاحم بالمناكب لنشق لنا طريقاً في الدخول والخروج. ولما خرجنا من الحضرة هرولنا إلى السيارة مسرعين هرباً من هذا القتام العنيف الذي لم يستطع أن يكسر من حدة الجماهير الحاشدة ولا أن يضعف من حماسها، فكان التراب الهابي يلفح الوجوه ويدخل في الأذان والأفواه ويكسو الأجسام حلاًلاً قاتمة. كل ذلك (والمطبق) تشق أصواته أجواز الفضاء والدبكات تتماوج حلقاتها والحلبات تعدو أفراسها والباعة تعلو أصواتها والناس يروحون ويجيئون كأنهم ينشقون أعراف الزهر وأريج الورد لا غبار السهول وتراب الأرض.

أنواع من الناس:

تركنا الناس في عيدهم وسرنا في أراض عارية، فكنا نلتقي بجموع القرويين صادرين وارين عن المقام وإليه تقل بعضهم السيارات وبعضهم

الخيول والحمير، ويمشي بعضهم راجلاً حتى كنا في محطة بلد. وهي المحطة التي يقف عليها قطار بغداد - الموصل فدخلنا فيها مقهى بسيطاً صفت فيه مقاعد خشبية متداعية، فأخذنا مجالسنا فيه تحت سقف من الحصر وبين جدران طينية شاحبة. وكان المقهى مكتظاً بالناس على اختلاف أشكالهم. فها هنا جنود يتساجلون. وها هنا طلاب يتحدثون. وهناك تجار ووجهاء ومزارعون، فترى السدرة العسكرية إلى جانب الأخرى المدنية، والعمامة الصفراء والكوفية والعقال والبنطلون إلى جانب القنباز، والسترة إلى جانب العباءة، والعمامة البيضاء إلى جانب العمامة الخضراء، فتتعالى من جوانب المقهى أصوات متنافرة متباينة فهناك شبه عراق وهناك مسامرات وهناك صيحات. وتمر في هذه الأثناء سيارة فيجلس ركبها في المقهى أو تسير سيارة فيغادره ركبها.

وبعد جلسة قصيرة في المقهى قمنا متجهين إلى (سميكة). ولما أقبلنا عليها رأيناها محاطة بالبساتين فلا يبدو من بيوتها شيء، ثم دخلنا بين بساتينها الكثيفة في طرق ملتوية تقوم على جوانبها جدران عالية من الطين اليابس حتى أطللنا على البلدة فسرنا في طريق طويل تنتشر على حافته البيوت وتزينه صفوف من النخيل، ورأينا نهراً جافاً قيل لنا إن الماء لا يجري فيه إلا أيام الفيضان العالي وفي غيره تروي البلدة من مياه الآبار.

وبعد قليل قمنا إلى سيارتنا عائدين إلى بغداد في تلك السهول الفيح التي تنطوي على ما يهز المشاعر ويثير العواطف من ذكريات حوافل واماض زاخر.

إلى البصرة:

أفقنا في الساعة السادسة صباحاً ونحن في صحراء رملية مترامية الأطراف يجتازها بنا القطار هابطاً من بغداد ويحط على مواقف متعاقبة لم نكن نرى حولها عمراناً ولا حياة، حتى كانت الساعة قد بلغت منتصف

العاشرة، فلاح لنا نخيل البصرة الكثيف ثم أخذت تبدو معالم البصرة وتتجلى أمام العيون إلى أن كنا نقبل على (المعقل)، فنزلنا من القطار لننتقل إلى المدينة العظيمة التي يثير اسمها في النفوس شتى الأحاسيس والذكريات. ولم نكن نترك القطار حتى تعالت صيحات سائقي السيارات ينادون: «بصرة - عشار». إذ إن البصرة اليوم هي مدينتان البصرة القديمة ويطلق عليها اسم البصرة، والبصرة الحديثة ويطلق عليها اسم العشار، وهما منفصلتان يربط بينهما طريق طويل. فاستقلت بنا سيارة من سيارات العشار ومضت من المعقل سالكة بين بنايات حديثة العهد تقوم على جانبي الشارع، ثم انقطعت البنايات وصرنا بين بساتين النخيل نشقها بالشارع القاري الجميل حتى كنا في قرية (الجبيلة) القائمة بيوتها القصيبة على جانبي الطريق. وهذه القرى القصيبة من أطراف المتناقضات في مدن العراق ففي صميم بغداد تنتشر بيوت القصب مجاورة لأرقى البنايات وأفخم العمران. وعلى أبواب المعقل تقوم ضاحية قصيبة إلى جانب القصور. وفي طريق العشار نجتاز بالقصب هنا وهناك. إنها الحياة المتناقضة المختلفة المناظر المتنوعة الصور تراها حيثما سرت.

في مداخل البصرة:

وبعد (الجبيلة) كنا في نخيل متصل تتخلله بيوت قصيبة وتشقه جداول متشابكة يتحكم فيها المد والجزر الذي اشتهرت به البصرة أيما اشتهار. ثم طلّعنا على أوائل المدينة فاجتزنا بيوتاً بسيطة في شارع يشاطرها البساطة قيل لنا إنه شارع (دينار). وكنا ونحن نعبر مداخل المدينة نتلفت فلا نبصر إلا مظاهر قروية لا تتفق في شيء مع شهرة هذا البلد، بل كانت في الواقع خيبة أمل لمن يتخيل البصرة مدينة التاريخ وثغر العراق.

وأخيراً حطت بنا السيارة في ساحة (أم البروم). وإذا كان لي أن أتحدث عن هذه الساحة فيكفي أن أسميها للقارئ وأن أقول له إن كل ما فيها مستوحى من هذا الاسم العجيب. أما من هي هذه الأم التي نسبت إليها

هذه الساحة وأما ما هي هذه (البروم) التي كُنت بها هذه الأم وأما ما هي تلك المناسبة التي أطلق بها هذا الاسم على الساحة، فشيء لم يصل إليه علمي على الرغم من إلحافي في السؤال!!

ومن ساحة (أم البروم) سرنا في أسواق كانت مضرية إضراباً عاماً إذ إننا في اليوم الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة ١٩٤٦، وهذا اليوم هو ذكرى وعد بلفور الذي أعلنت فيه البلاد العربية الإضراب العام فاستجابت البصرة لدعوة الإضراب فأغلق كل شيء فيها وتعطلت وسائل النقل. ولولا أن الشرطة حجزت عدداً محدوداً من السيارات لنقل الناس من المعقل إلى البصرة لعجزنا عن الانتقال. وما زلنا نتجول في الأسواق وننعطف في الأزقة حتى وصلنا شارع الملكة ثم عبرنا جسراً بسيطاً إلى ساحة فيها تمثال أسد بابل فكان إلى يسارنا مبدأ شارع (الكورنيش)، فسرنا إلى اليمين على ضفة النهر في شارع الفرزدق، وفي هذا الشارع بدأ التبدل في المظاهر العامة فبعد أن كنا نجتاز شوارع مهشمة وأزقة غير نظيفة صرنا الآن في شارع نظيف سليم ولكنه مع الأسف مشوه بما يلقي على أجراف النهر من أقدار وقمامات. ولقد كان من الوفاء للفرزدق أن تسمى المدينة باسمه شارعاً من أعظم شوارعها يذكر الزائر بشاعر البصرة العظيم الذي غنى الحياة روائعه الخالدات وكان أمة وحده في دنيا الشعر والفن... ما أعظم ما تثيره البصرة من الأحاسيس حينما يتصور السائح أنه في المدينة التي كانت يوماً مسرحاً لحوادث من أدق حوادث التاريخ الإسلامي والتي اقترن اسمها بشتى الأمجاد وشتى الأرزاء. وحينما يتخيل المسافر أنه في البلد الذي كان حيناً مدرسة جامعة يؤخذ عنها العلم والأدب وتنسب إليها الثقافات وتنمى إليها الدراسات.

في شوارع البصرة:

وما أعذب ما يوحى شارع الفرزدق من ذكريات حينما تمر بالذهن أصدية الشعر متجاوبة في هذا الأفق المديد، فتتمثل المربد غاصاً

بالشاعرين، والفرزدق هاتفاً بالسامعين، فتعود إلينا البصرة بماضيها الزاخر وتاريخها العامر. ولم تكن المدينة وفية للفرزدق وحده، بل كانت وفية لكثير من أعلامها الغابرين فقد سمعت فيما مرّ أنها سمت شارعاً باسم (دينار)، كما رأينا شارعاً باسم أبي الأسود الدؤلي. ولعلّ هناك غير ذلك مما لم نره ولم نسمع به لأن جولتنا في البصرة كانت قصيرة وإقامتنا فيها قليلة صرفتنا عن التعرف إلى كثير من محاسنها ومفاتها.

وإذا كنت قد سجلت بعض ما رأيت مما لا تستحبه فيها العين فإني لم أتعمد ذلك بل كانت المصادفة وحدها هي المتحكمة، فوقع نظرنا أول ما وقع على ما لم نكن ننتظره في المدينة التي شد ما شغلت خيالنا وملاّت أذهاننا. وما كان لي إلّا أن أكون صادقاً في التصوير غير كاذب في الرواية وإلّا ففي البصرة من جمال الطبيعة ما يزري بكل مكان، وفيها من المحامد ما تفوق به كل بلد، ولكن ضيق الوقت أعجلنا عن الاستزادة منها، فقضينا بضع ساعات في الاستراحة من تعب الطريق. ولما جاء العصر كنا نشد الرحال للرحيل عن البصرة إلى ملتقى الرافدين في القرنة، فالمعذرة إلى أصدقائي البصريين.

إلى القرنة:

وخرجنا من البصرة عصراً في السيارة عائدين من شارع دينار المهشم ذي الأخاديد والحفر، ثم اتصلنا من شارع دينار بالشارع الآخر الصقيل الجميل الذي تدرج فيه السيارات مرحة لا تعيقها نقرة ولا تصدمها حفرة. وهكذا الحظوظ تنزل بالشوارع والبنيان كما تنزل بالإنسان والحيوان. وبعد قليل كنا نترك طريق المعقل وننحرف إلى اليسار في طريق قاري يخترق السهول الرحبة التي كانت تمتد إلى أقصى البصر ثم كان السواد يطلع علينا في الأبعاد فيسد الأرض الفضاء. وكنا نستقبله جارين إليه فيزداد أمامنا وضوحاً وجلاءً. وبعد خمس عشرة دقيقة انقطع القار وصرنا في طريق محطم يرطم السيارة ويهزها هزاً عنيفاً دراكاً، وكانت السهول من حوالينا

تشير في نفوسنا الإشفاق على ما كان قد نالها من نكبات الفيضان وأرزائه. فبالرغم من طول المدة المنقضية على الفيضان فإن آثاره الباقية لا تزال تشير إلى ما كان عليه من شر مريع، ثم صرنا في قلب السواد نشق النخيل ونجتاز الزروع موغلين في هذه السهول الجميلة التي لا نهاية لها.

وبعد ثلث ساعة كنا نعبر جسراً خشبياً على نهر «القرمة» (قرمة علي) وهي فرع كبير من فروع الفرات يتشعب من هور الحمار ويصب في شط العرب. واستمر طريقنا نخيلاً متصلاً وقرى قصبية ممتدة حتى كنا نعبر جسراً على نهر (الماجدية) وكان النهر جافاً لأن الماء كان في حالة الجزر. وكنا كلما تقدمنا في السير ازداد الطريق تلفاً وخراباً. وبعد ساعة كان شط العرب يلمع إلى يميننا ثم يختفي في المنعطفات ثم يعود فيطلع وهكذا دواليك. وبعد ساعة وثلث الساعة كنا نعبر نهر الشافي المتفرع من الفرات، وكان الليل يمشي إلينا ويبدأ ثم عمنا الظلام، وكنا قد أمسينا في نخيل القرنة، وما هو أن تلالاً أمامنا الأنوار حتى أيقنا أنا صرنا على مقربة من ملتقى الرافدين، وأنا سندخل «القرنة» بعد قليل.



استئذان في الانصراف رجاء ودعاء... وتقرير ختامي

محمد حسنين هيكل

(١)

(عالم الكلمة والفعل)

١٩٤٢ - ١٩٧٣

لقد كان يرد على بالي منذ سنوات أن الوقت يقترب من لحظة يمكن فيها لمحارب قديم أن يستأذن في الانصراف، وظني أن هذه اللحظة حل موعدها بالنسبة لي، ففي يوم من أيام هذا الشهر (سبتمبر ٢٠٠٣) استوفيت عامي الثمانين وذلك قول شهادة الميلاد وهو دقيق - يومئ بحمد الله إلى عمر طويل مديد - لكن هناك مع ذلك قولاً آخر أكثر صواباً هو حساب زمان العمل على مساحة العمر، والحقيقة أنه في حالي تواصل دون انقطاع لأكثر من ستين سنة (قاربة اثنتين وستين) لأن تجربتي معه بدأت بالتحديد يوم ٨ فبراير ١٩٤٢ حين رأى أستاذنا في مادة «جمع الأخبار» أن يعرض على أربعة من تلاميذه - (تكرمت المقادير وكنت أحدهم) - فرصة التدريب العملي تحت إشرافه في جريدة الإيجيبتيان جازيت وهو يومها مدير تحريرها، وهي وقتها - وبسبب ظروف الحرب وزحام الجيوش - أوسع الجرائد الصادرة في مصر انتشاراً (رغم لغتها الإنجليزية). وكانت فكرة هذا

الأستاذ وهو «سكوت واطسن» - أن التدريب العملي يعطي تلاميذه إمكانية الجمع بين الدراسة والممارسة، وذلك تأهيل ناجز ونافع. وكان الرجل خبيراً عارفاً، فقد كان قبل التدريس مراسلاً صحفياً، غطى الحرب الأهلية في إسبانيا (١٩٣٦ - ١٩٣٩)، وفي تلك المهمة زامل أسماء علت ولعت في آفاق النجوم (من طراز «ارنست همنجواي» و«جورج أورويل» و«آرثر كوستلر» و«أندريه مالرو» وغيرهم). ولم نكن وقتها ندرك ما فيه الكفاية عن هؤلاء الرجال ولا عن المعركة الإنسانية الكبرى التي نبهوا العالم إليها خبراً ورأياً، لكن شخصية أستاذنا وما تميزت به من الحماسة المشبوبة بالنار تكفلت بتعويض النقص في معارفنا حتى أتيح لنا فيما بعد أن نستوعب تلك الرابطة الدقيقة العميقة بين الحرف والموقف.

وعلى أية حال فإنه من ٨ فبراير ١٩٤٢ - وحتى سبتمبر ٢٠٠٣ - مشت الدراسة والممارسة بسرعة ومسافة فلكية باعتبار متغيرات العصور والعلوم وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

وكان تقديري أن أي حياة - عمراً وعملاً - لها فترة صلاحية بدنية وعقلية، وأنه من الصواب أن يقر كل إنسان بهذه الحقيقة ويعطيها بالحس - قبل النص - واجبها واحترامها، ثم إنه من اللائق أن يجيء مثل هذا الإقرار قبولاً ورضاً وليس إكراهاً وقسراً، كما يستحسن أن يتوافق مع أوانه فلا ينتظر المعنى به حتى تتطوع مصارحة مخلصه، أو تدارى مجاملة مشفقة، لأن انتظار المصارحة مؤلم، وغطاء المجاملة مهين.

وكذلك حاولت من سنوات أن أنبه نفسي - بين وقت وآخر - إلى مزالق الانتظار، وضمن ما فعلت أنني وضعت حدوداً لما أكتب بأفضلية أن يتساءل الناس «لماذا لا يكتب هذا الرجل - أكثر» بدلاً من أن يكون سؤالهم: «لماذا يكتب هذا الرجل - أصلاً»، وعلى نفس المنوال فإن ما يساورني الآن يتلخص في أفضلية أن يتساءل الناس «لماذا يستأذن هذا الرجل في الانصراف متعجلاً». بدلاً من أن يكون سؤالهم «لماذا يتلكأ هذا الرجل متثاقلاً».

وللحق - وذلك اعتراف بالفضل واعتزاز بأصحابه - فإن كثيرين تكرموا بجهدهم في تحويلي عما رأوه اتجاهي راغبين إقناعي بأني ما زلت - جسداً وفكراً - قادراً على الاستمرار مع إشارات عطوف إلى أنه ليس من حق محاربه أن يلقي سلاحه مهما تكن الأسباب، ولا في من حق كاتب أن يتخلى عن قلمه مادام استطاع، وكان جوابي - مقدراً وليس معانداً - إن عدد السنين حقيقة حساب، ودوران أي عجلة طوال الوقت طاقة مستنفدة، مؤثرة على صلب معدنها ذاته ولو تعطل الناس مع حاصل الجمع، أو تمنوا لو تتحمل المعادن إلى الأبد، فذلك ليس من شأنه إلغاء قواعد الحساب، أو تعطيل قوانين إجهاد المواد واستهلاكها.



ومن باب الدقة - فإن هاجس الانصراف - حتى بدون استئذان - ومض لأول مرة في خواطري مساء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ في غرفة نوم «جمال عبد الناصر» نفسه، وكان ذلك الصديق الكبير أمامي على فراش نومه، وقد تحول في دقائق إلى فراش موته.

ولم يكن سبب ما لمع - برقاً - في خواطري مجرد التفجع والأسى وكان هناك منه كثير - لكن السبب أنني وقد أدركت هول ما جرى بعد فترة من العجز عن التصديق - تلفت حولي ولمحت - أو خيل إلي أنني لمحت - ما أثار عندي ظنوناً غامضة.

كنا في غرفة النوم - أو الموت - سبعة رجال بالعدد من حول جثمان الراحل الكبير الذي تقدم نحوه كبير أطبائه، وسحب الملاءة على وجهه في حركة بدت وكأنها فعل رمزي يقطع بالنهاية - مهما كان العجز عن تصديقها.

وتردد الكلام همساً في الغرفة من الإجراءات والترتيبات لهذه الليلة الحزينة وما بعدها، ولمحت في عيون البعض تعبيرات أو إشارات توحى -

ربما - بنذر غير محددة في أجواء هذه اللحظة لكنها بعد مفاجأة الأحزان قد تصبح خطيرة!

ومن الإنصاف أن ما لمحتة في العيون والإيحاءات لم يكن ظاهراً بوسواس طمع في إرث سلطة، أو على موقع بل لعل «العام». أو ما يبدو عاماً - بدا طاغياً على «الخاص» - أو ما يبدو خاصاً - لأن المنطق الظاهر كان شدة الحرص على الرجل الكبير الراحل والعزم على تكملة مسيرته كهدف مقدس يتسابق الجميع عليها. وفاء بأحقية يستشعرها كل منهم. ويرى نفسه أهلاً لها بمسؤولية وظيفة أو قرب اتصال، لكن البشر هم البشر وفي أعماق نفوسهم فإن شدة الحرص والتفكير بأفعال التفضيل تحرض أصحابها وتدفعهم إلى سباق يعتقد كل منهم - فيه - أنه الأجدر والأولى - وهنا موضع الالتباس وربما الاشتباك.



والواقع أن طرقات العيون وإيحاءاتها مما خيل إليّ أنني لمحتة راحت تفصح عن نفسها أكثر. حين نزلنا إلى صالون بيت «جمال عبد الناصر» نستكمل كلامنا تاركين الراحل الكبير لأسرته تحيط فراشه - في وداع أخير.

وفي صالون الدور الأول من البيت انضم إلينا - نحن السبعة الذين وقفنا حوله لحظة النهاية - تسعة أو عشرة رجال على الأكثر في يدهم مفاتيح السلطة والقرار في البلد، واستؤنف الكلام عن الإجراءات والترتيبات - وعن غد وبعد غد - وما يجري ويكون، وراحت وساوسي تتنبه، مهموماً بأن ما أرى وأسمع قد يكون نذير احتكاك قادم حتى وإن حاول البعض تفاديه، أو كبته حتى لا يأخذ وزر الفتنة على نفسه. أو على الأقل كي لا يكون بادئاً بها في ظرف لا يتحمل المجازفة.

وخطر ببالي أن صداقتي الحميمة لجمال عبد الناصر وحماستي لمبادئ مشروعه - مرتبطة - على نحو ما - بثقة مباشرة فيه والآن وقد غاب

فإن علي أن أراجع وبحزم. وبدا لي، دون ظل من شك أنني لا أريد أن أكون طرفاً في صراع، فالسلطة من البداية ليست حلمي ولا بين مطالبتي ومع احترامي لبعض من أرى حولي وعلاقة ود بيني وبين معظمهم. فإن النقطة الحرجة في الموقف أن درجة قربي من «جمال عبد الناصر» لا تسمح بحياد، فضلاً عن أن الحياد قرب مصائر الأوطان هرب أو تهرب، ومن ناحية أخرى فلم يكن سراً أيامها أن علاقتي ببعض أطراف السلطة مشدودة - وخلافتي مع الاتحاد الاشتراكي وتنظيمه الطليعي متوترة. وحساسيتي من تصرفات أجهزة الأمن والتأمين - كما هي في كل العصور - جزءاً من التكوين المهني والنفسي لصحفي يتمنى الحرص على تخوم مهنته وتلك أمور تترتب عليها نتائج في أجواء صراع على السلطة لأن الاستقطاب عندها يكون حاداً وعنيفاً - يفرض: إما انحيازاً غير مقنع إلى طرف، أو عداً لا مبرر له مع طرف آخر، وعليه فأمامي أحد موقفين: إما الانصراف فور تشييع الراحل الكبير إلى مرقده الأخير. وإما الانسياق إلى صراع لا أريده، بوسائل لا أملكها - ولا أريد امتلاكها.

وغداة تشييع الجثمان بعثت لرئيس الجمهورية بالنيابة - «أنور السادات» - كتاب استقالتني من الوزارة، وكانت تلك خطوة أولى على طريق الانصراف (حتى من الأهرام) وعندما تقابلنا في المساء (من السابعة إلى الثالثة بعد منتصف الليل) - فتح لي «أنور السادات» قلبه بغير تحفظات صريحاً مع نفسه ومع الحقيقة ومع الظروف والملابسات (ولا أزيد). وخرجت من قصر العروبة أستقبل نسائم فجر (٣ أكتوبر ١٩٧٠) - شبه مقتنع بأنه ليس وقت الانصراف من الساحة بعد. مستأذناً أو بغير استئذان (فقد وافق الرئيس المرشح «أنور السادات» على ما طلبت بشأن الوزارة وكان يعرف قبل غيره أنها تكليف مؤقت لمهمة معينة - ولأجل محدد - سنة لا تزيد. في ظرف رآه «جمال عبد الناصر» مهياً لاختراق سياسي يتوازى مع الذروة في حرب الاستنزاف، وعليه فقد وافق «أنور السادات»

على نص استقالتي وكتب بخط يده رداً بالغ الرقة واللفظ عليه، لكنه اشترط بقائي في مجلس وزرائه إلى ما بعده الاستفتاء على رئاسته حتى لا يقول الناس إن أقرب أصدقاء «جمال عبد الناصر» لم يطق الصبر يوماً عليه». وكان الرجل في ذلك سمحاً محباً ومقبلاً. ولم يطل الحديث بيننا عن الأهرام. فقد كان قوله الفصل «إن ذلك هو المستحيل ذاته لأن الأوضاع كما أرى والاحتمالات كما أقدر، ثم إن البلد في حالة حرب. هي بضرورتها أكبر من موقف أي رجل ومن رؤيته لدوره ومن آرائه واجتهاداته!».

وكنت وقتها في السابعة والأربعين.



ومرت سنوات عصيبة تفجر فيها صراع مراكز القوى (وكان مثل عواصف الخماسين ثار أوائل صيف ثم انصرف) وتعقدت الصلات مع الاتحاد السوفيتي (فقد استحكم التوتر - وكان يمكن تفاديه) وتشابكت العلاقات مع الولايات المتحدة (وكان متاحاً إدارتها باقتدار يستغني عن «الرهان»). وكان الأهم من ذلك كله أن شمس أكتوبر ١٩٧٣ طلعت أخيراً وعلت وسطعت!

وفي تلك الظروف وقفت بكل جوارحي إلى جوار «أنور السادات» وليس في سمعي غير النداء الغلاب للمعركة محاولاً - ومدعواً إلى خدمة التخطيط الإعلامي لها والتحضير السياسي قبلها وأثناءها وبعدها، وبلغ اعتزازي مداه حين عهد إليّ «أنور السادات» بكتابة التوجه الإستراتيجي الصادر عنه بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية - إلى القائد العام المشير «أحمد إسماعيل علي». يبلغه رسمياً ومعه هيئة أركان الحرب بالمطلب الإستراتيجي المراد تحقيقه بقوة السلاح ابتداء من الساعة الثانية بعد ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣، ومرت الأيام والساعات مشحونة،

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ - انطلق الشباب والرجال على جسور العبور.



كان التوجيه الإستراتيجي من صفحتين اثنتين بدأ بتحليل الوضع في المنطقة مع استمرار حالة اللاسلم واللاحرب ووجود أراض عربية محتلة، وضغوط تعبئة عامة وكاملة للموارد والبشر بلغت مداها، ثم انتقل إلى عرض للظروف الدولية والإقليمية وما تسمح به وما لا تسمح، ثم ينتقل التوجيه مباشرة إلى تحديد الهدف الذي كلفت القوات المسلحة بتحقيقه وهو:

[كسر نظرية «الأمن الإسرائيلي» التي اعتمدت عليها الدولة الصهيونية منذ قيامها والتي تمكنها من الاعتماد على تفوق عسكري تعتبره رادعاً في حد ذاته وعليه فإنه مع كسر نظرية «الأمن الإسرائيلي» بفعل عمل عسكري مسلح لديه الحافز والوسائل مع الخبرة والعلم. يتحقق ميزان قوة مختلف يكون مدخلاً إلى صراع إرادات شامل - سياسي وعسكري يمكن الاستناد إليه في مواصلة تحرير الأراضي العربية المحتلة، والعودة إلى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧ وفق شرعية قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن].

ثم ينتقل التوجيه الإستراتيجي في فقرة تالية - إلى تأكيد ثقة القائد الأعلى للقوات المسلحة والتي سبق له اعتمادها ووضع توقيعه عليها. تاركاً لقيادة القوات حرية التصرف الميداني مخولة بكل الصلاحيات التي تكفل لها إدارة العمليات بأعلى كفاءة.



وكانت هناك - يوم صدور التوجيه الإستراتيجي ثلاث خطط محددة:

■ أولاهها: الخطة جرانيت (١) وهدفها عبور قناة السويس بقوة خمس فرق من المشاة والمدرعات تعمل تشكيلاتها تحت إمرة ثلاثة من قواد الجيوش يختص كل منهم بمنطقة على الخط الطويل الممتد من

بورسعيد إلى السويس، والمهمة للثلاثة عبور قناة السويس بقوة السلاح والتمسك بثلاثة رؤوس كباري عرضها عشرة كيلومترات على الأقل كي تظل في حماية حائط الصواريخ حتى تسيطر على رؤوس الكباري التي تبدأ منها الطرق الرئيسية الثلاثة: الجنوبي والأوسط والساحلي.

■ والخطة الثانية: هي جرانيت (٢) وهدفها التقدم بعد إتمام السيطرة على رؤوس الكباري في ظرف ثلاثة أيام إلى احتلال مضائق سيناء والسيطرة عليها (بالذات مضيق الجدي) والتمسك بها تحت أي هجمات مضادة لأن ذلك يستنزف القوات الإسرائيلية من ناحية ويطردها إلى مناطق مكشوفة تماماً وفي الغالب يفرض عليها التراجع إلى خط «أم كتاف» على الحدود بين مصر وفلسطين.

■ وأما الخطة الثالثة: وقد أطلق عليها الاسم الرمزي (الخطة ٢٠٠٠) فهي مجهزة لاحتمال قيام القوات الإسرائيلية الخاصة باختراق قناة السويس في اتجاه معاكس (من الشرق إلى الغرب) بقصد النفاذ وراء الجيوش المصرية الثلاثة والقيام بعمليات «كوماندوز» لمهاجمة وتدمير أو شل فاعلية قواعد الصواريخ من طراز سام (٢) وسام (٦) وحرمان قوات العبور من حمايتها.

ومن الغريب أن تفاصيل هذه الخطة تكاد تشير بالتحديد لمنطقة «الدفرسوار» وتعهد إلى احتياطي القيادة العامة وهو فرقتين من المشاة الميكانيكية المتحركة تظلان غربي القناة، ولا تشاركان - في العبور لتكون لهما حرية الحركة في أي لحظة إزاء أي مفاجأة.

(وهذه الخطة كانت وراءها قصة تقارب الخيال ولعلها تستحق أن تحكى ذات يوم بتفاصيلها وأبطالها).

وقد تم وضع الخطط الثلاث قبل رحيل «جمال عبد الناصر» وصدق بتوقيعه على أولائها، ثم وقع خلفه «أنور السادات» على جرانيت (٢)

والخطة (٢٠٠٠). عندما قدمهما إليه الفريق محمد فوزي وزير الدفاع وقتها في شهر مارس ١٩٧١.

ومن الإنصاف أن يقال إن هذه الخطط وبالذات جرانيت (١) و(٢) لحقت بها زيادات وتعديلات في السنوات ما بين ١٩٧٠ - ١٩٧٣ وأن هذه الزيادات والتعديلات رفعت مستواها ودعمتها بخبرات مستجدة وقفزات كبيرة بتكنولوجيا السلاح، خصوصاً في استخدامات الصواريخ، والفضل عائد إلى الرجال الذين تولوا وزارة الدفاع في تلك السنوات، ورؤساء أركان الحرب وقادة الأسلحة والتشكيلات، مما أضاف إلى فكرة الخطة وتفصيلها، وغير أحياناً أسماءها وجعلها علامة بارزة في التاريخ العسكري.



وليس هناك أدنى شك في أن الساعات المجيدة من الثانية بعد الظهر إلى السابعة مساء حققت الهدف الإستراتيجي المطلوب، فقد كانت الدبابات السورية تندفع بقوة عبر الجولان نحو بحيرة طبرية، كما كانت جسور العبور على الجبهة المصرية مشهد عز في التاريخ العربي المعاصر.

ولعشرة أيام متواصلة كانت القوات العربية على الجبهتين تعطي بجود وسخاء أفضل ما عندها كفاءة وشجاعة ودماءً. وبالفعل تغيرت الموازين!



وطوال أيام الحرب من ٦ وحتى ٣٠ أكتوبر كنت مع الرئيس «السادات» كل مساء وحتى قرب منتصف الليل في قصر الطاهرة وكان يقيم فيه أيامها ومعه مكتب اتصال يحتل «بدروم» الدور الغاطس تحت الأرض.

وكتبت له خطابه الذي ألقاه في مجلس الشعب يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣، وعندما عاد بعد إلقائه اتصلت به من الأهرام أبلغه بما أعلنته رئيسة وزراء إسرائيل من أن جيش الدفاع (الإسرائيلي) يواصل عملياته ويتقدم

غرب القناة (وكانت تلك أولى أنباء عن الثغرة) وطلب أن أنتظره على التليفون دقيقة يتصل فيها بالمشير «أحمد إسماعيل»، وعاد إليّ ومعه طمأنينة لم أحسبها كافية، وطلب إليّ أن أتصل بنفسي بـ «أحمد إسماعيل» وأسمع منه وفعلت، ومرة أخرى عاودني الشعور نفسه.

وفي يوم ١٧ أكتوبر حضرت معه لقاء واحداً ضمن ثلاثة لقاءات أجراها مع رئيس الوزراء السوفيتي «إليكس كوسيجين» وكان قد جاء في زيارة سرية للقاهرة ولم يكن ما سمعته مشجعاً.



ومساء ٢٠ يناير ظهر الخلاف بيننا علنياً في موضوع قبول قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ فقد أبديت تحفظات عليه في حضور المهندس «سيد مرعي»، والسيد «حافظ إسماعيل»، والدكتور «أشرف مروان» وطرحت تعديلات على نص القرار - لم يقبل بها.

وطرحت أهمية التشاور مع سوريا قبل موافقة مصر عليه، وكان رأيه أن السوفييت سوف يقومون بإخطارهم - وعلقت بأنهم كانوا شركاء لنا في الحرب ولم يكونوا شركاء السوفييت - ولم يقتنع.

ورجوته كخط دفاع مأمون أن ينتظر حتى يجيء المراقبون الدوليون لضبط خطوط وقف إطلاق النار، خصوصاً أن فريقاً منهم جاهز في «قبرص» ووصله إلى هنا مسألة ساعات، مع تذكيره بتجربة أن الإسرائيليين لن يحترموا قراراً من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، بل سوف يستغلونه إلى أبعد مدى يستطيعون الوصول إليه.

ورد عليّ أمام الجميع: «بأن لديه تعهداً أمريكياً مكتوباً بتوقيع نيكسون» وهذا بمستواه أنفع وأجدى ألف مرة من «أمم متحدة لا تحل ولا تربط!».

وقلت ما مؤداه: «إنني مشارك لسنوات طويلة في اتصالات ومحادثات

مع إدارات أمريكية متعاقبة منذ سبتمبر ١٩٥٢، وبالتالي فقد خبرت مراوغات السياسة الأمريكية وتعلمت أن أسمع - ثم أبحث - ثم أشك، ثم أكتشف أن الكلام في الخطاب الأمريكي شيء والفعل نقيضه إذا لم يحاذر من يعنيه الأمر!.

وردّ بما ملخصه:

[إن الاتصالات هذه المرة على مستوى آخر غير مسبق! - فهي بينه وبين الرئيس «نيكسون» (رئيس الولايات المتحدة وقتها) وهي تحتوي على تعهدات مكتوبة موقعة بإمضاء رئيس أكبر وأقوى دولة في العالم]. وأضاف مؤكداً: «إن الاتصالات هذه المرة تختلف في كل شيء عن كل ما سبقها». (ولم أكن أعرف شيئاً عن هذه الاتصالات حتى عثرت على نصوصها في واشنطن بعد خمس عشرة سنة!).



وعدت مرة أخرى عارفاً أنني أضغط على الرجل إلى درجة تقارب الإلحاح، فأشرت إلى سابق تجارب إسرائيل مع العرب في استغلال قرارات وقف إطلاق النار بعد صدورها، متجاهلة نداءات دولية وحججاً واتهامات توجه إليها بالغش والتدليس، ولكنها تظل متمسكة بما خطفته أو نسلته في حماية قرار دولي أطاعه العرب وأصرت هي على عصيانه، ورد الرئيس «السادات» بلهجة واثقة: [اطمئن - قلت لك هذه المرة مختلفة لأن رئيس الولايات المتحدة بنفسه يدير الأزمة - وقد كتب إليّ بما يبدد شكوكك وشكوك غيرك يبلغني أن طائرات الاستطلاع من طراز «يو - تو» التابعة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية سوف تحلق فوق خطوط القتال طوال اليوم حتى تصور المواقع على الجانبين، وتكشف وتحدد أي الطرفين يغش وأيهما يلتزم. وإذن فإسرائيل لا تستطيع التلاعب، وإذا حاولت فهناك لأول مرة من يستطيع أن يشكمها ويضعها في مكانها في «الصندوق!»].

وواصلت الجدل معه شاعراً أنها الفرصة الأخيرة.

شرحت له مخاوفي من احتمال انفراط عمل عربي مشترك وصل إلى درجة من التعبئة يمكن البناء عليها لإعادة بناء نظام عربي قادر يجعل الأمة بالفعل كما قال هو قبل أيام «القوة السادسة في العالم». ورد وفي صوته نبرة تصديق: «بأنه لا بد أن أعرف أنه يختلف عن «جمال» (عبد الناصر) فهو لا يريد إقامة إمبراطورية، ومطلبه أن يستريح هو ويستريح الناس من عناء الحروب لبدءوا عهداً من الرخاء يراه مقبلاً».

ومع أن ذلك الخلط بين عمل عربي مشترك ومطلب إمبراطوري مصري - روعني فقد مضيت أجادل «بأننا مازلنا وسط حرب لم تنته بعد». ووجه نظره إليّ قائلاً وهو يضحك بطريقته الشهيرة ما نصه: «سجل عندك - هذه آخر الحروب».

ثم استطرد بما مؤداه أنني ما زلت أتكلم على «قديمه» ولم أستوعب بعد أنها «حاجة» جديدة.

ونزل عليّ وجوم، والغريب في الأمر أنني كنت ما زلت قادراً على فهم جزء من مشاعره:

- كان عبء قرار الحرب عليه ثقيلاً.

- وكانت أيام القتال بالنسبة له شاغلاً ملحاً.

- ثم إن الرجل في النهاية سمع مني كل ما قلته دون أن يعلو صوته، كما فعل مثلاً مع السيد «حافظ إسماعيل» الذي حاول لفت نظره «إلى خشيته من أن يكون العسكريون قد نقلوا إليه أخباراً متشائمة». وردّ عليه الرئيس «السادات» بعنف أخرج الرجل المهذب والمنضبط.



وفوق ذلك فقد انهمرت على الرئيس السادات في تلك الفترة رسائل ثلاث من ملوك المنطقة، وكأنها تعزز تعهدات «نيكسون».

وكنت رأيت بعض الرسائل الواردة إليه من الملوك الثلاثة واستأذنته في صور منها - وأذن.

كانت رسائل الملوك الثلاثة التي انهمرت عليه فجأة - كثيرة:

- رسائل من «محمد رضا بهلوي» شاه إيران وفي إحداها يقول: «إن ما تحقق في ميدان القتال يكفي، وإن التماذي بعد ذلك خطر، وأنه في محادثة تليفونية مع الرئيس «نيكسون» فهم منه أن أميركا لن تسمح بانتصار عربي بالسلاح السوفيتي، لأن تلك مسألة تتصل بالاستراتيجية العالمية وإدارة الحرب الباردة.

ثم يقول الشاه «إن أي انتصار كبير على فرض إمكان تحقيقه يمكن أن يكون دافعاً إلى مطالب شعبية يصعب الوفاء بها لأن شهية «الدهماء» Rif Raf (حسب وصفه) سوف تطالب بمكاسب لا تقابلها موارد، وذلك أقرب طريق إلى القلاقل الداخلية. وحتى إلى العصيان والثورة!».

- رسائل من «الحسن الثاني» ملك المغرب وفي إحداها يقول الملك: إن معلوماته تؤكد له أن «الجماعة» في تل أبيب (يقصد القيادة الإسرائيلية) تعلموا درساً، وأنه يعرف عن يقين وعن طريق «الحزب الملكي» من المهاجرين اليهود المغاربة من رعاياه - وبعضهم في مواقع السلطة - أنهم في إسرائيل جاهزون لسلام حقيقي على أساس انسحاب إلى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧.

- ورسائل معظمها شفهي من «فيصل بن عبد العزيز» ملك السعودية حملها إليه السيد «كمال أدهم» (مدير مخابراته وأهم مستشاريه). لكن الملك في رسائله يلمح ولا يصرح وهو في كل رسالة خصوصاً إذا كانت مكتوبة «يترك القرار لحكمة الرئيس واثقاً في حكمته وحسن تدبيره».

وكان قصارى ما أفصح به الملك «فيصل» عن فكره هو استشهاده بالآية الكريمة التي تقول ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقد وصلت هذه الرسالة في يوم وصول هنري كيسنجر نفسه إلى القاهرة.

وكنت أستشعر مدى تأثير رسائل الملوك الثلاثة على الرئيس «السادات».

وفي نهاية ليلة طويلة وعصيبة خرجت من قصر الطاهرة شاعراً بأننا على أبواب أزمة في علاقاتنا - هي بالتأكيد الأعمق.



وعندما وصل «هنري كيسنجر» إلى القاهرة أول مرة يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣، وطلب أن يقابلني حاولت أن أعتذر بواسطة السفير «أشرف غربال» وهو وقتها المستشار الصحفي لرئيس الجمهورية، خصوصاً بعد أن قرأت نص مشروع النقاط الست التي عرضها على الرئيس «السادات» ونالت موافقته في لقائهما الأول، وبالفعل اعتذرت عن غداء أقامه له السيد «حافظ إسماعيل» (مستشار الرئيس للأمن القومي وقتها). في نادي «التحرير» لكن السفير «أشرف غربال» عاد إليّ بعد قليل يبلغني أن الرئيس «السادات» يطلب مني أن أقابل «كيسنجر»، واتصلت بالرئيس ولكنه كان قاطعاً «لأننا في هذه اللحظة يجب أن نكون صفاً واحداً وكلمة واحدة».

وحضرت بالفعل حفل عشاء في بيت الصديق العزيز الراحل «إسماعيل فهمي» (وزير الخارجية وقتها)، وكان العشاء تكريماً لـ «كيسنجر» واتفقنا على أن يغادر وزير الخارجية الأمريكية حفل العشاء في الساعة العاشرة وألحق به بعد ربع ساعة إلى جناحه في الدور الثاني عشر من فندق هيلتون النيل حيث يقيم والوفد المرافق له، وجلسنا لحديث طويل دام ساعتين ونصف الساعة.

وصباح اليوم التالي اتصلت بالرئيس «السادات» وذهبت إليه في الساعة الحادية عشرة صباحاً وكان لا يزال في سريره بعد حمام ساخن وهو بعد الحمام يرتدي «البرنس» الأبيض وفوقه غطاء أبيض مطرز باللون نفسه.

وحاولت أن أروي له من أوراق كتبتها تفصيل ما دار بين «كيسنجر»

وبيني وأهمه مخاوفي أن مشروعه لحل الأزمة خطير (خطوة بعد خطوة - والبلاد العربية المعنية واحدة - بعد واحدة - وأية مفاوضات لابد أن تجري تحت إشراف أمريكي لا دور فيها للاتحاد السوفيتي ولا لأوروبا إلا عندما يحل دور المراسم والتشريفات) - وأبدت أن «كيسنجر» نفسه يصعب الاعتماد عليه لأنه بالضرورة منحاز، وانحيازه طائفي وفكري وسياسي محكوم بصراع الحرب الباردة وليس بسلام عادل في صراع الشرق الأوسط.

وكان رد الرئيس «السادات» «أن «كيسنجر» هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن ينجز المهمة، فهو الساحر الذي أنهى حرب فيتنام وفتح باب الصين والذي لا يتفاوض حتى في الاتحاد السوفيتي إلا مع الزعيم «ليونيد بريجنيف» ولا أحد غيره». ثم إن كون «كيسنجر» يهودياً يجعله مهياً للضغط على إسرائيل إذا اقتنع، وهو (أي الرئيس السادات) واثق من قدرته على إقناعه وفي ذهنه تصور كامل لما ينوي أن يعرضه عليه. (ولم يدخل في التفاصيل).

وخرجت من قصر الطاهرة يومها شاعراً أنها نهاية النهاية وعليّ أن أحدد موقفي.

وكتبت مجموعة مقالات كنت أعرف مسبقاً أنها لن ترضيه (وقد صدرت فيما بعد على شكل كتاب بعنوان «عند مفترق الطرق»).

وكانت بالفعل مفترق طرق - أقولها بشيء من الحزن مازال معي حتى الآن يقيناً بأن فرصة لا مثيل لها ضاعت، وهي لا تلحق به مظنة الخيانة، (كما يزعم البعض) لكنها - بالقطع - تكشف أن الرجل تعامل مع المجهول مراهناتاً على تصوراته الخاصة في ظروف لا تحتملها الحقائق يومها، ولا التقويم الموضوعي للمواقف، وكانت مخاوفي غالبية.



وفي الوقت نفسه فقد داخلني إحساس قوي بأن هذه التوجهات الجديدة تضع «شرعية أكتوبر» على طريق صدام مع «شرعية يوليو»، ومع أن «يوليو» كانت في حاجة إلى مراجعة فإن الصدام يصعب اعتباره مراجعة، وقلت ذلك بنفسني للرئيس «السادات» عندما شاء بسماحته أن يعاود الاتصال بي وقد فعل ذلك فجأة صباح يوم في أكتوبر ١٩٧٤ بعد قطيعة تسعة شهور، وبعد أسابيع وصل إلى حد أن عرض عليّ منصب نائب رئيس الوزراء في وزارة السيد «ممدوح سالم». وكذلك قلت بنفسني للسيد «ممدوح سالم» في مكتبه في وزارة الداخلية. ما مؤداه إنني أرى أمامي شرعيتين متصادمتين دون أن أقتنع بمبرر أو سبب، وكنت أتصور أنه يمكن البناء على الإيجابي لشرعية سابقة يضاف إلى منجزات شرعية لاحقة، وذلك يصحح ويرفع ولا ينقض أو يزيح، وأنه إذا كان هناك تصادم بالفعل بين شرعيتين فإن اختياري معروف وموقعي محدد، كانت شرعية أكتوبر تملك انتصاراً لاشك فيه، ولكنها في الوقت نفسه تملك الاستناد عليّ إلى ما لا يقبل الجدل من شرعية يوليو (الثورة - تأميم قناة السويس - بناء السد العالي - مشروعات التصنيع - الحقوق الاجتماعية للعمال والفلاحين وهم أغلبية الشعب حتى بالعدد إلى جانب إخراج الاستعمار البريطاني والفرنسي من شرق العالم وغربه، وإيقاظ مشاعر أمة وتحريك إرادتها).

ولم يكن أمامي غير أن أقف وراء ما اقتنعت به - صواباً كان أو خطأ - لأن الخلاف لم يعد مجرد تباين في وجهات النظر، وإنما كان «مفترق طرق» حقيقياً ونهائياً - لا دخل فيه لعامل ذاتي - لأن الرجل على المستوى الإنساني كان شخصية جذابة ومشيرة.

وفي الحقيقة والواقع أن موضوع الخلاف بيننا صدر عن رؤى مغايرة وأحياناً متناقضة.



■ كان اعتقادي - ولا يزال - أن أي إنجاز عسكري عظيم يتحول استعراض بطولي بالدم والنار - ما لم تستطع كفاءة السياسة تعزيز وتوظيف فعل السلاح، ومن ناحيته فإن «أنور السادات» بحقه الرئاسي وشجاعته في اتخاذ قرار القتال تصرف باعتقاد أن ما تحقق في الميدان يعطيه فرصة مناورة أوسع - ومع الولايات المتحدة الأمريكية بالذات وفي حسابه أنها تملك مفاتيح الحل أو ٩٩٪ من الأوراق كما أعلن أيامها.

■ وكان خوفي - وإلى الآن - أن الأمة بكاملها، وشعوب الدنيا حتى بمشاعرهم - أضافت إلى تلك المعركة من مواردها وجهودها وأعصابها واهتمامها ما لا تسهل تعبئته مرة أخرى وعليه فإن الصمت «مستحيل» خصوصاً إذا جاء من رجل شئت له الظروف أن يكون في قلب الوقائع - مشاركاً وليس متفرجاً - يهيمه الحصول على خبر أو الانفراد بسبق!

■ وكان الأصعب والأقسى شعور جازم وملح بأن طريقة إدارة العملية السياسية بعد المعركة العسكرية سوف تضبط أحوال المنطقة وتمسك بتوازناتها لخمسین سنة قادمة على الأقل، لأن أطراف الصراع أعطوا قصارهم ووصلوا إلى الحافة فإذا استطاع أحدهم في لحظة حرجة دفع الآخرين إلى السفح - فقد سيطر على الساحة وأملى ارادته على المستقبل!

■ وكان قلقي أن إدارة العملية السياسية بعد القتال سوف تكون معياراً متوازناً - سياسياً وأخلاقياً - لكرامة السياسة المصرية وتوازن خطها فليس يعقل أن يكون سلاح الحرب - بما تحقق من نصر عالمياً (سوفيتياً - أوروبياً) بنسبة ٩٩٪، ثم تسلم أوراق الحل السياسي بعده بنسبة ٩٩٪ إلى مشيئة أمريكية - تتسدد وتستولي.

■ وأخيراً - كان جزعي أن نفس طريقة إدارة العملية السياسية خصوصاً إذا تنازلت إلى حل منفرد بين مصر وإسرائيل سوف تؤدي إلى عواقب

بعيدة المدى من النواحي الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وربما يتحقق مطلب عزل مصر في ركن معزول من شمال شرق أفريقيا - وتنفرد إسرائيل بالمشرق العربي لتصبح القوة الرئيسية في غرب آسيا، وذلك هو المطلب البعيد المدى للفكرة الصهيونية وأصدقائها.



ومن الأمانة أن أذكر في هذا الموضع أن «عبد المنعم رياض» (شهيد مصر الشجاع) - ذلك الجندي المتميز الذي تولى الإشراف على رسم الإطار الأولي لخطة أكتوبر ١٩٧٣ - رأى - ولعلها الرؤيا ومبكراً جداً - جوهر الحقائق السياسية الكامنة في الأزمة - واستوعب شروطها الواجبة ومازال صوته في سمعي - ونحن نمشي بعد الظهر ذات يوم في الغابات المحيطة بقصر «زيدوفا» قرب موسكو - يقول ما مؤداه: «إن المعركة القادمة - مهما كانت حدود ميدان القتال - ليست معركة العودة إلى «سيناء» أو «الجولان» وإنما هي معركة المستقبل»، ويضيف: «إنها ليست معركة في المكان المحدود وإنما معركة في الزمان غير المحدود». وكان «عبد المنعم رياض» شبه ملهم فيما قال - ولمن شاء أن يستوثق كيف كان ذلك الجند المستنير بعيد النظر - أن يقرأ الكتاب الأخير لم «هنري كيسنجر» وهو بكامله نصوص حرفية لتسجيلات صوتية للأحاديث التليفونية التي أجراها وزير الخارجية الأمريكية أيام حرب أكتوبر ١٩٧٣.



وقيمة هذا الكتاب أنه وثيقة أصلية سجلت في الثانية واللحظة (حتى بالنكات والشتائم) - وهي تزيح الستار بالطول والعرض عن حقيقة ما جرى - وليس لديّ مجال لشك في أن هذه الوثيقة وما فيها مما سقط عنه حجاب السرية أخيراً قبل أسابيع - هي الكلمة الأخيرة النهائية والحاسمة في قضية

السلاح والسياسة - أكتوبر ١٩٧٣، على أنه من سوء الحظ أن «عبد المنعم رياض» رحل قبل أن يجيء الظرف الذي تحسب له مبكراً - دون أن يعيش ويتأكد من صدق ما رأى بالبصر والبصيرة من أمر تلك العلاقة بين السياسة والسلاح!

(وعلى الهامش فإن أي قارئ مدقق للكتاب الوثيقة سوف تلفت نظره محادثة تليفونية مسجلة بين وزير الخارجية «هنري كيسنجر» ووزير الدفاع «جيمس شيلزنجر» دارت وفي الساعات الأولى التي تأكد فيها نجاح الهجوم المصري والسوري (٦ أكتوبر ١٩٧٣) بأكثر مما كان متصوراً أو متوقفاً أو محسوباً.

الساعة ١: ٣٠ بعد الظهر الأحد ٧ أكتوبر ١٩٧٣ صفحة ٩٥:

كيسنجر: لقد كنت على اتصال بالرئيس طول الوقت لأننا تلقينا طلبات عاجلة من الإسرائيليين تطلب ذخائر ومعدات عسكرية كثيرة منها ٤٠ طائرة فانتوم.

وأعرف أن ذلك صعب في هذه اللحظة - لكن الرأي أن نساعدهم بكل وسيلة على استيعاب الهجوم عليهم والرد المضاد حتى يستعيدوا زمام المبادرة ويعطوننا الفرصة لعمل سياسي لصالحهم.

شيلزنجر: هنري.. إنهم مهتمون جداً على الفور بصواريخ «سايد ويندر».

كيسنجر: هل ترى أن وزارة الدفاع تستطيع أن تتولى هذا الأمر بسرعة دون أن يتسرب شيء.

شيلزنجر: أظن أننا نستطيع.

كيسنجر: لقد فعلناها سنة ٦٧.

ثم يعود الحديث فيتكرر على صفحة ٩١ ويرد نص المحادثة التالية بين هنري كيسنجر وزير الخارجية وجيمس شيلزنجر وزير الدفاع.

يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣ الساعة ٤٥:٣ بعد الظهر:

كيسنجر: تكلمت مع الرئيس الآن «صدمة الهجوم المصري - السوري» عن ضرورة إمداد إسرائيل بكل ما تحتاجه أياً كان بدون أن يكتشف أحد حقيقة ما نقوم به.

شيلزنجر: لا أستطيع أن أضمن ذلك في الظروف الراهنة، لأن الجميع متنبهون.

كيسنجر: ولكننا فعلنا ذلك سنة ٦٧، ولم يستطع أحد أن يكشف السر حتى الآن، وعلى فرض أنهم عرفوا فذلك لا يهم لأن إسرائيل في خطر.

شيلزنجر: هل أنت مستعد لاستعمال حاملات الطائرات؟!

كيسنجر: ليس هذه الساعة ولكن مجموعة الحاملات لديها الأمر بأن تتحرك نحو شرق البحر الأبيض.



ومع أنني عشت - بعد عبد المنعم رياض - لأرى - وأختلف وأبتعد، فقد ظلت تحكمني في هذا الموقف وغيره - وقبلة وبعده - قاعدة لا تقبل التجاوز ملخصها أنه:

«من حقي ومن حق غيري أن نطرح آراءنا وندافع عنها، لكن الكلمة الأخيرة بالتأكيد ملك المسؤول الشرعي المكلف بها، فإذا وصلت الخلافات إلى درجة لا تحتمل فليس أمام أي صاحب رأي إلا أن يقف ويرفع صوته ليسمع، ويرفع يده ليبين مكانه».

وكذلك رفعت صوتي ورفعت يدي وتركت موقعي في الأهرام دون أن يخطر ببالي هاجس الانصراف من الساحة، بل كان العكس هو الصحيح، فقد وجدت نفسي أواصل الكتابة خارج مصر في مواجهة حسبتها قدراً مقدوراً، موضوعها دور السياسة بعد السلاح في حرب أكتوبر ١٩٧٣ وكنت أقدر أنني سوف أتعرض لحملات جامحة.

وعاهدت نفسي من وقتها وإلى الآن ألا أرد على أحد مهما كان القول، وأياً كان القائل، وكثيراً ما ذكرت نفسي تلك الأيام وبعدها - بحكاية رواها لي السير «أنتوني ناتنج» وزير الدولة البريطاني الأسبق، الذي استقال من وزارة «أنتوني إيدن» إبان حرب السويس ١٩٥٦، احتجاجاً على تورط رئيس الوزراء «أنتوني إيدن» - الذي خلف «تشرشل» على رئاسة المحافظين ورئاسة الوزارة - في مؤامرة سرية للعدوان الثلاثي على مصر، شريكاً فيها لرئيس وزراء فرنسا «جي مولييه» ورئيس وزراء إسرائيل «دافيد بن جوريون»!

كان «ناتنج» عند أول الحكاية التي سمعتها منه - سياسياً صاعداً وعضواً مستجداً في مجلس العموم، ورأى أن يذهب لمقابلة الزعيم البريطاني «ونستون تشرشل» وهو يعرفه صديقاً لوالده اللورد «ناتنج الكبير» وظيفاً على قلعة الأسرة في إسكتلندا - وكان غرض النائب الشاب الصاعد أن يسمع من صديق الأسرة الأسطوري نصيحة تنفع مستقبله.

ورد «تشرشل» بأنه سوف يجيب بلغة الطير، عارفاً أن والده اللورد (ناتنج) من هواة مراقبة الطيور، وتكلم السياسي المجرب العجوز قائلاً لطالب النصيحة الشاب:

«استغل كل طاقتك وإرادتك حتى تقوى جناحك ليحملك إلى الفضاء العالي، حيث تحلق النسور - هناك الحرية وهناك الخطر - إذا لم تستطع فلا تسمح لنفسك تحت أي ظرف بطلب الأمان في قفص ببغاء تنطق برطانة يدربونك عليها (في الحزب)، ثم يكون دورك أن تكررهما وتعيدها كلما مروا عليك، وطلبوا منك أن «ترقص وتغني» حتى يراك السيد (زعيم الحزب) ورفاقه، وربما أبنائه أيضاً. وقد يصفقون لك، ويضحكون، ثم يتركوك حيث أنت ويذهبون ومعهم بسمه من تسلٍ وتلهٍ.

وفي حكاية «ناتنج» أن «تشرشل» نظر إليه في عينه بعد أن أنهى «درسه»، ثم صاح فيه «نسر إذا استطعت - ببغاء أبداً مهما تحملت!».

وأقر بأن تلك الحكاية التي رواها لي «أنتوني ناتنج» عادت من حافظتي الى ذاكرتي في مواجهة ما تعرضت له من حملات تلك السنوات من السبعينيات، ولعلها كانت مؤثرة عليّ حين اخترت الصمت عزوفاً عن مشادات وجدتها إهداراً للحبر بلا معني، واستهلاكاً للورق دون جدوى! واكتفيت بأن قلت كلمتي ومشيت، وخطاي على الأرض - لا فضاء النسر، ولا قفص البيغاء.

وكانت تلك مرحلة أخرى من العمر، وكنت وقتها في الخمسين!

(٢)

(عالم الحركة والإنسان)

أسباب متعددة.. وسؤال عما بعد؟!

لعلّ هذا الموضوع من سياق هذا الحديد مناسب لعرض كشف حساب يتصل بجانب آخر من تلك المرحلة:

- عندما بدأت التدريب العملي مع الدراسة النظرية - رقيقاً لثلاثة من الزملاء غيري في جريدة «الإجيشيان جازيت» - قررت إدارة التحرير أن تصرف لكل منا بدل انتقال قدره جنيه واحد كل أسبوع - أي أربعة جنيهات في الشهر.

- وعندما عدت إلى الجازيت بعد الاشتراك في تغطية معارك العلمين - بعين وطنية لحرب عالمية تجري على تراب مصري - تحول بدل الانتقال الأسبوعي إلى مرتب شهري مقداره اثنا عشر جنيهاً في الشهر ثم زاد إلى ثمانية عشر جنيهاً في الشهر أوائل سنة ١٩٤٥.

- وعندما التحقت بالعمل في «آخر ساعة» مع الأستاذ «محمد التابعي» كان المرتب الذي تحدد لي خمسة وثلاثين جنيهاً في الشهر.

- وعندما انتقلت مع «آخر ساعة» إلى «أخبار اليوم» ١٩٤٦، وقد أصبحت سكرتيراً لتحريرها تحدد مرتبي بـ: خمسة وأربعين جنيهاً في الشهر.

- وعندما عملت مراسلاً متجولاً لأخبار اليوم مسؤولاً عن تغطية الشرق الأوسط وتقلباته - وفيها قضية فلسطين - والحروب الأهلية في إيران والبلقان والانقلابات السورية وعمليات العنف التي غطت وجه المنطقة بالدم - عدت لأجد مرتبي مائة جنيه في الشهر.

- وعندما أصبحت رئيساً لتحرير «آخر ساعة» أواخر سنة ١٩٥١ جرى تعديل مرتبي ليصبح مائتي جنيه في الشهر مع نسبة في أرباح المجلة توازي ٤٪ مما يتحقق لها بعلمي فيها.

- وفي مايو ١٩٥٢ أضيفت إلى عهدي مهمة إدارة تحرير جريدة «أخبار اليوم» وأعلن رسمياً عن رئاستي لتحرير «آخر ساعة»، ووصل مرتبي إلى ٣٦٠ جنيهاً في الشهر.



(في نهاية ١١ سنة من العمل في أخبار اليوم استحققت لي مكافأة نهاية خدمة ٧٤٤٢ جنيهاً مصرياً).

- وعندما عرض عليّ أول عقد لرئاسة تحرير «الأهرام» سنة ١٩٥٦ - سرى تنفيذه بعد عام - وضعت إمضائي عليه مقتنعاً (لأسباب ليس هذا أوانها)، وكان العقد بمرتب قدره ستة آلاف جنيه في السنة تضاف إليها حصة في أرباحه مقدارها ٢,٢٥٪ إذا استطاع جهدي تعويض خسائر عشر سنوات سابقة.



ولم يكن «جمال عبد الناصر» متحمساً لانتقالي إلى «الأهرام»، بل كانت الأفضلية عنده أن أقبل رئاسة تحرير «الجمهورية» بأحقية أنها جريدة الثورة التي صدر امتيازها باسمه، ولم أتحمس للعمل في جريدة ثورة، وإنما كانت حماسي لجريدة طبيعية - لها أصحاب ولها قراء.



- وعندما أعلنت القوانين الاشتراكية وضمنها ربط الحد الأعلى للمرتبات بخمسة آلاف جنيه سنوياً نقص مرتبي ألف جنيه في السنة وذابت تلك النسبة المقررة لي في أرباح «الأهرام»، وكانت قد بدأت تعطي ما دعاني إلى توظيف، حصتي منها في شراء مجموعة أسهم في الشركة المالكة للأهرام، لكن قانون تنظيم الصحافة جعل من هذه الأسهم صكوكاً تذكارية - أتأملها الآن بعض المرات - وأتبسم!

- وعليه فإنني لمدة خدمة طالت في «الأهرام» سبع عشرة سنة كنت أتقاضى خمسة آلاف جنيه مصري في السنة تحول إلى حسابي كل شهر في البنك الأهلي (الفرع الرئيسي) بما صافيه ٢٨٦ جنيهاً و ٤٥٠ مليماً (بعد الاستقطاعات القانونية وضريبة كسب العمل).

(وكان ذلك المبلغ أجر خمس مسؤوليات أقوم بها في نفس الوقت: رئيس مجلس إدارة - رئيس تحرير - مخبر سياسي موثق المصادر - كاتب مقال أسبوعي «بصراحة» - وأخيراً مسؤول عن مشروع تجديد الأهرام).

ومن باب استيفاء كشف الحساب فإن مقالتي الأسبوعي «بصراحة» ترتبت على نشره في الخارج حقوق أضافت إلى دخلي وكنت قد عهدت إلى إحدى وكالات الأنباء المصرية (وكالة أنباء الشرق الأوسط) بعقوده تاركاً لها متابعة التوزيع والتحصيل مقابل نسبة قدرها ٢٠٪، ولولا مدخول هذه الحقوق لما تيسر لي التوفيق بين المطالب والضرورات.

ويقتضي الإنصاف بيان أن مرتبي ظل يقيد لحسابي في البنك الأهلي لأكثر من سنة بعد أن تركت خدمة الأهرام، ثم توقف التحويل حين أحلت إلى التقاعد (يونيو ١٩٧٥) بقرار من الرئيس «السادات» الذي نفذ صبره، وكانت تلك نهاية أي حساب لي في خدمة «الأهرام».

(وقد اعتبرت أن مرتب تلك السنة - التي وصلني أجراها دون عمل - مكافأة لنهاية الخدمة وأغلقت دفاتر تلك المرحلة مستريحاً وراضياً).



هكذا مع أوائل السبعينيات، وعند منتصف العمر وجدت نفسي أمام ضرورة الاختيار من جديد وكأنها نقطة الصفر، أعود إليها في قرار عملي ومستقبلي. ولم يخطر على بالي من قبل أن ذلك الذي واجهته سنوات الصبا الباكر سوف يعود ليفرض نفسه عليّ بعد ثلاثين سنة!

وكان جلياً في أعماقي أن حقي في الاختيار محدد. ولا أقول محدوداً! ومجاله بالتأكيد تلك المهنة التي تعلمتها ومارستها ووجدت لنفسي فيه موضعاً وموقعاً.

ولم يكن في أحلامي جناح النسر في فضائه - ولا كان في حسابه قفص البغاء وأسلاكه!



■ كان مستحيلاً.. بعد ما جرى، أن أجد عملاً أو مستقبلاً في مؤسسات الصحافة المصرية - ولا كنت أريد.

وكان صعباً عليّ - لاعتبارات متداخلة - أن أقبل عرضاً خارج مصر يجيء من العالم العربي، وقد تلقيت بالفعل عروضاً محددة: أولها: من دولة خليجية كريمة سألتني إذا كنت مستعداً لقبول منصب مستشاراً «فوق العادة» للأمير - وشكرت عارفاً بالجميل - وكان الثاني: عرضاً من مجلس قيادة الثورة الليبي حمّله إليّ أحد أعضائه البارزين (الرائد عبد السلام جلود نائب رئيسه وقتها) والاقتراح أن أقوم على إنشاء مشروع صحفي كبير في بيروت، يتوافر له كل ما أطلبه من موارد وأديره بأقصى قدر أتمناه من الحرية.

ومرة أخرى شكرته عارفاً بالجميل، ولم يكن في موقفني شيء من البطر أو التكبر، وأنه كان في حسابي اعتباران:

- أنني بعد علاقة من نوع خاص مع جمال عبد الناصر - ودور بلغ درجة معينة في الأهرام - لا أملك غير أن أكون صارماً مع نفسي مهما يكن (دون أن يكون ذلك جناح نسر).

- أنني لا أستطيع نفسياً أو فكرياً أن أؤقلم نفسي مع حياة أو عمل (أو قبر) خارج وطني الصغير - كما أن دور اللاجئ السياسي لا يستهويني.
- لأنه مهما تصلح النية ويستقم القصد - اعتماد طرف على طرف آخر - وفي وضع غير متكافئ مستشار في خدمة أمير - أو صحفي في خدمة دولة (وذلك قفص البيغاء أرادوا أو لم أرد).

وفي الحقيقة فقد كانت تصوراتي تحوم هناك عبر البحر في اتجاه الشمال حيث الصحافة الأوروبية. وبالذات الإنجليزية، فقد كان هناك قارئ سبق له الاطلاع على كثير مما نقلته وكالات الأنباء مما كتبت، أو تحقيقات عديدة عن دور أقوم به في السياسة العربية أو حوارات أجريتها مع كثيرين في زمن كان يوصف بأنه عصر العمالة.

ومرة أخرى تدخلت المقادير، احتك حجر بحجر ولمعت شرارة.



ومن دواعي الحمد والشكر - أن خلافي مع الرئيس «السادات» وما أعقبه تصادف بالتوافق وبالضبط - مع مناخ أصبح الشرق الأوسط فيه مناط اهتمام العالم وبؤرة النار في قلبه، وكذلك التفتت الدنيا ناحية المنطقة تريد أن تعرف وتتابع وتتقصى وتستوعب، وراحت دور النشر في العواصم الكبرى (لندن وباريس ونيويورك وطوكيو وبرلين وغيرها) تتصل بصحفي ظنت أنه يقدر على عرض الشرق الأوسط أمام قراء سمعوا عنه واطلعوا على أعماله، وينتظرون منه أن يكتب لهم من الداخل وليس من الخارج، وبالعُمق وليس بالوصف.

وحين اقتربت من مجال النشر الدولي - مبكراً - لم تكن لديّ مشكلة مع الصحافة يومية أو أسبوعية. فذلك ميدان جربت نفسي فيه واختبرته وأعرف - إلى حد ما - دخائله، وأما عالم الكتب فغريب عليّ في معظمه - ولم يقصر أحد في تبصيري، وكان بين الناصحين اللورد «مايكل

هارتويل» صاحب دار «التلغراف»، والسير «دنيس هاميلتون» رئيس مجلس إدارة «التيمس» وكلاهما صديق قديم من دنيا الصحافة، وكلاهما لديه اهتمام بمشروع كتابي الأول عن «ساسة وثوار» صنعوا روح الخمسينيات والستينيات. وكلاهما يعرف أن مشروع كتابي فيه فصول عن السويس وهي - وقتها وحتى الآن - قضية حية نابضة.

لكن كلاهما - «هارتويل» و«هاميلتون»، كان مهتماً بحقوق النشر الصحفي وحدها، وأما الكتاب فمسألة أخرى في اختصاص دور نشر لديها خبرة السوق، وبالفعل وصل النص إلى السير «ويليام كولينز» (صاحب دار كولينز) - وبدوره فإن السير «ويليام» طلب إلى مدير النشر في مؤسسته «روبرت كنيبل» أن يقرأه وأن ينسخ من أصله صوراً لثلاثة قراء غيره: أستاذ متخصص في الشرق الأوسط من جامعة «أوكسفورد» (يراجع التأصيل المعرفي في النص - مع اعتبار اختلاف المرجعيات)، وسفير بريطاني سابق خدم في المنطقة (يراجع السرد ويستوثق من الوقائع - مع اعتبار اختلاف المواقف)، وقارئ عادي (تقاس عليه ما يسمونه «جاذبية القراءة» - لأن الكتاب في النهاية عرض وطلب)، وكان داعي التدقيق أن مشروع كتابي حالة سابقة من نوعها في الكتب السياسية المنشورة والمعروضة تحت نظر القارئ في الغرب، فمن قبل كانت أغلب أنواع الكتب من وراء البحار - ثلاثة:

- أدب يترجم عن لغات آسيوية أو أفريقية ليعطي صوراً حية ومشوقة لحياة وثقافة مجتمعات غريبة. ويستحسن أن يقع الاختيار على ما هو مثير للخيال وأسطوري.
- أو أعمال يقصد منها انتقاء عينات لكتابات صدرت في لغات بعيدة ويكون الإطلاع عليها مفيداً، وتلك في العادة كميات محددة الطبع محصورة الانتشار.
- وإما كتب يتولى مسؤوليتها بالكامل أصحابها وعلى حسابهم الخاص -

دعوة لقضايا أو شرحاً لأحوال بلاد - وذلك أيضاً ميدان ضيق - ولجمهور لا يجذبه التبشير.

وكان سياسة الهند أكثر من برع في هذا النوع التبشيري من الكتب (ولعل المادة الوحيدة التي كانت معروضة أمام الناس على أوسع نطاق هي ما كتبه «غاندي» أو «نهر» عن الهند باعتبار نفاذ سحر هذا البلد في الوعي والوجدان الأوروبي بعموم والإنجليزي بخصوص).



ولم أكن على علم بتفاصيل ما جرى «للنص» وربما تخرج بعضهم بظن أنني - مع تجربة «معروفة» ورائي - لن أقبل بشبه «امتحان دخول» من أول وجديد! ولم يكن ذلك منطقي مادمت أقرب من ميدان لم أتعرف إلى قواعده - إلا إذا كنت أريد أن أعتمد على صداقات ووساطات، وذلك لا ينفع، ومجرد التفكير فيه أذى للنفس قبل الآخرين!

- ثم حدث أن مدير النشر في دار «كولينز» «روبرت كنيتل» اتصل ببلغني أنهم الآن جاهزون للانطلاق وأنهم واثقون في الكتاب وشبه متأكدين، وأن الميزانية التقديرية الأولى لنشره وقع رصدها في إطار خمسة ملايين جنيه إسترليني، وضمنها حملة إعلانية تتكلف نصف مليون جنيه إسترليني تسبق النشر وتواكبه، وسألني «كنيتل» فجأة: «إذا كنت مستعداً لحضور معرض فرانكفورت بعد شهر - لأن دور النشر في العالم قاطبة تلتقي هناك، وهناك أيضاً تطرح مشروعات الكتب المستعدة لموسم النشر القادم، وهناك في نهاية المطاف يقبل الناشرون على طلب حقوق كتب يتوقعون رواجها أو يمتنعون». وأضاف «كنيتل» ما مؤداه: «إذا استطعت أن تعرض كتابك أمام ثلاثة آلاف ناشر وفهموا عنك تكون تلك مسألة أخرى - لنا ولك - ومع أنني عرفت أن ما يهكم هو النشر بالدرجة الأولى - فإن علينا جميعاً أن نسلم أن النشر «بيع» بصرف النظر عن أي شيء يقوله أي كاتب».

وحضرت معرض فرانكفورت وتحديث مرات أمام مئات من الناشرين وشاركت في مناقشات واسعة، وبعد يومين مرّ عليّ «روبرت كنيبل» - يقول لي (إن أكبر دور النشر في العالم تسابقت على حقوق الكتاب «فلاماريون» في فرنسا - «مولدن» في ألمانيا - «أساهي» في اليابان - إلى جانب «كولينز» في لندن ونيويورك). وسئلت قبل أن أغادر فرانكفورت إلى أين أريد تحويل نصيبي من مقدم العقود التي جرى الاتفاق عليها في اليوم الأخير من المعرض، وأجبت - دون تلعثم - «إلى الفرع الرئيسي للبنك الأهلي بالقاهرة» وعندما عدت وجدت في انتظاري جائزة وغرامة:

الجائزة: تحويل بمقدار مائة ألف جنيه إسترليني تمت إضافته إلى حسابي كدفعة مسبقة من حساب مقدم العقود.

والغرامة: أن وزير الاقتصاد وقتها - الصديق الدكتور «حسن عباس زكي» - أطال الله عمره - طبق عليّ قواعد التعامل بالنقد الأجنبي - وكان ذلك بالطبع قبل أن تهل بركات الانفتاح ويتسع فردوسه الموعود - فقام بتحويل الإسترليني إلى الجنيه المصري بسعر سبعة وتسعين قرشاً ونصف قرش مصري لكل جنيه إسترليني.

ولم أفتح فمي بكلمة فقد وجدت عندي في النهاية أكثر مما توقعت وأوسع مما احتجت!

وهكذا فإنه في اللحظة التي وقع فيها الحظر على ما أكتب هنا - سقطت الحواجز أمامي هناك، وبقيت في وطني لم أغادره، لكن كتبتي ومقالاتي راحت تنشر بإيقاع متسارع في عشرات العواصم (أحد عشر كتاباً لكبريات دور النشر الدولي، وأكثر من أربعمئة مقال وتحقيق وتقرير إخباري احتل بعضها الصفحة الأولى في جرائد بوزن وحجم «الصنڊاي تيمس» و«التيمس» و«الصنڊاي تلجراف») وكانت تلك حقبة حافلة غطت بقية السبعينيات ومطالع الثمانينيات ومعظم التسعينيات.



وبرغم ذلك - أو ربما بسببه - فإن الرياح الهوج واصلت هبوبها، ذلك أن ما كنت أكتبه في صحافة العالم خارج مصر كان يعود بالطبع إليها - وكان لعودته أصداءً مشوشة بعض الأحيان أو مبتورة ناقصة في أحيان أخرى، ومع تصاعد تيارات صدام وعنف دفعت مصر إلى أجواء غاضبة، فإن الرئيس «السادات» أضاف بعضها إلى مسؤوليتي، وكذلك تقرر منعي من السفر وسحب جوازي وإحالتي للتحقيق أمام المدعي الاشتراكي الأستاذ «أنور حبيب» الذي أدار استجوابي بنفسه ومعه المستشار «عبد الرحيم نافع» والمستشار (الصديق فيما بعد) «أحمد سمير سامي»، ولم يصل التحقيق إلى نتيجة لأن موضوعه كان تفتيشاً في التفكير والضمير عن آراء ومواقف، والمطلوبة منه إثبات أن ما أكتبه خارج مصر - مقيماً فيها ومحكوماً بقوانينها العادية والطائرة - يسيء إلى سمعتها ويشوه صورتها - ويستوجب إجراء - وإلى جانب ذلك فقد وجدني معرضاً لتصرفات الأجهزة الظاهرة والخفية للسلطة وحتى للمزاج النفسي للبعض من أصحابها، وكان الأغرب صدور قانون «العيب»، وهو قانون لم تعرف له سابقة لدرجة أن مستشاري مجلس الدولة - تندرأ - أطلقوا عليه وصف قانون «هيكل»، وكان ظاهراً أن القانون جرى تفصيله على مقاس بعض الناس كنت بينهم.

(والشاهد هنا أن ديني كبير لصحافة العالم - خصوصاً في الغرب - فقد وقفت معي بكاملها مدافعة ومناصرة برابط التضامن المهني على الأقل، ولم يكن ذلك مهماً في حد ذاته، وإنما المهم أن الإعلام الخارجي - أيامها - كان مسرح التأثير الأكبر للرئيس «السادات»، وكان الرئيس «السادات» بالفعل من ألمع النجوم في تلك السماء، وتنبه الرجل بذكائه إلى أنه يجازف في الساحة الأوسع لنفوذه - وكذلك توقف في منتصف الطريق).



وتشرفت بأن المحامي الذي حضر التحقيق معي كان ذلك الرجل الصلب المستشار «ممتاز نصار» - الذي تمكن من الحصول على تسجيل

كامل لوقائع التحقيق نشرته في كتاب ظهر في حياة الرئيس «السادات»، وأثاره النشر واستفزه، (وكان للأمانة معذوراً فقد كانت الجهات الداخلية كلها تضغط عليه ثم إن مبادرته الجريئة تعثرت بين غرور إسرائيل وإهمال أمريكي) - ولم تمض شهور حتى وجدت نفسي (سبتمبر ١٩٨١) في إحدى زنانات سجن طرة ضمن حملة الاعتقالات المشهورة التي طالت كثيرين غيري من رجال ونساء مصر - ذلك الخريف الغاضب والحزين!

وبعد خروجنا جميعاً من المعتقل (أواخر نوفمبر ١٩٨١) عاودني هاجس الاستئذان في الانصراف مرة أخرى، فتلك نهاية مرحلة تواجدت فيها بالضرورة المهنية والاختيار السياسي وهي في الوقت نفسه بداية مرحلة أخرى مختلفة، ثم إنني بالعمر قريب من سن الستين وذلك هو التوقيت الطبيعي والقانوني لخروج الناس من الخدمة العاملة تلك الأيام، ثم تذكرت - ولعله هواي! - أن اختراقات الطب الحديث (في مجال المضادات الحيوية بالذات) نجحت وأزاحت التوقيت المقرر لنهاية الخدمة إلى الوراء ما بين خمسة أعوام إلى عشرة، أي أنها مدت أجل الصلاحية للعمل وأفسحت وأضاف.

وربما جاز القول إن تجربتي الطويلة تلك - دراسة لم تنقطع وممارسة لم تتوقف - انقسمت إلى نصفين شبه متساويين كل منهما ثلاثون سنة:

- والنصف الأول: مرحلة العمل داخل مؤسسات الصحافة المصرية والانتشار منها إلى الإقليم والوصول منه إلى أبعد والداعي أن ما كان يحدث عندنا ملاً صراعات الخمسينيات والستينيات وبداية السبعينيات من القرن العشرين وفاض، وعليه فقد كان الكل يأخذ عنا ويسمع مباشرة منا.

- وأما النصف الثاني: فهو مرحلة الكتابة والنشر من مكتب مستقل محدود - مفتوح في الوقت نفسه بلا حدود على الدنيا الأوسع باللغة العالمية المعتمدة - (الإنجليزية) ولجماهيرها عبر القارات، وقد انهمكت فيما

أؤديه وظننت - ولعلي لم أخطئ - أن دخول كاتب عربي إلى مجال النشر الدولي صالح شخصي ولعله - أيضاً - إضافة عامة!

وهكذا فإن المرحلتين معاً - داخل المؤسسات الصحفية المصرية - وخارجها من مكتبي - صنعتا دورة كاملة لأن تلك التجربة - الدراسة والممارسة - لأكثر من ستين سنة مقسومة على نصفين تحولت بشكل ما إلى طريق في اتجاهين عبر جسر - وفوق ضفاف وشطآن.

وفي الحاليتين فإن مجمل الظروف أتاح لي ذهاباً وإياباً عبر الجسر وحول الضفاف والشطآن - فرصاً نادرة تواصلت من أواخر الحرب العالمية - حتى بلغت نهاية الحرب الباردة أي أنها غطت كل النصف الثاني من القرن العشرين. والحاصل أنها منحنتني إمكانية التعرف مباشرة على صناع العالم الحديث، وواضعي الإستراتيجيات العليا من رجال الدولة العظام، وصناع السياسة وقادة الحرب، وأعلام الفكر والأدب، وأساطين الصناعة والتكنولوجيا والمال.

ثم إنني تحت الأفق نفسه - على الجسر وحول الشطآن والضفاف - تقابلت وجهاً لوجه مع أفكار العصر الكبرى، وطموحاته وأحلامه ومشروعاته، وحروبه وصراعاته وأزماته، وأتيح لي أن أرى وأسمع، وفي كثير من المرات أعيش الدخائل مما كان يجري بل وأشارك بقسط ما في وقائعها.

وعلى موعد غروب القرن العشرين عاودني الإحساس بأنني عشت مع ذلك القرن العظيم أكثر من ثلاثة أرباعه دارساً ممارساً وعلى فرض أنه بقي عندي ما يمكن أو يصح قوله - فإن اللائق - هذه اللحظة - أن أتنبه وأتذكر، وإلا وقع الانحدار بمجرد الاستمرار - إما إلى خطأ في قواعد الحساب وإما إلى إنكار فعل الطبيعة.



وعندما تغيرت الظروف في مصر - أوائل الثمانينيات - تلقيت دعوات كريمة إلى ظهور في الصحافة المصرية وترددت وإحساسي: أن الأزمنة تغيرت كما أنني تغيرت.

وتبدى لي كذلك: أن عودة إلى الصحافة المصرية - أو نوعاً منها - محاولة للتكرار لا اتmanها، فالتاريخ كما تذكر مقولة شهيرة - لا يكرر نفسه وإذا فعل فهو في المرة الأولى مشهد محترم - أو يمكن أن يكون محترماً - وأما في المرة الثانية فهو استعادة هزلية - أو يمكن أن تكون هزلية - لشيء كان.

وتبدى لي من قبل ومن بعد: أنني رجل يحمل على كتفيه بعضاً من حمولات مراحل سبقت وكلها مؤثرة عليّ أردته أو لم أرد.



وفي استطراد يبدو خارج السياق أقول «بصراحة» إن عقدة الموقف - أنه لم تكن فوق كتفي حمولات أريد انتهاز أول فرصة لألقي بها على الأرض كي أتخفف وأجري ملتحقاً بالقبائل التي شدت رحالها نحو مراعي الشتاء.

وإنما كان اعتقادي أن حمولة أي إنسان (أو غير إنسان) - ثقلان على جانبيين متوازنين ومتوازنين:

- ثقل من التجربة الذاتية وكيف تعامل صاحبها مع الدنيا والناس وتصرف.
- وثقل آخر من الزمان الذي عاشه صاحب التجربة وشارك في مصنعه حتى بمجرد أنه كائن حي.

وكان لي تصور لنوع حمولتي وحجمها على الناحيتين:

* الحمولة التي تشمل التجربة الشخصية - وزنها سهل وخفيف وأمرها متروك لمن يعنيه الأمر ويهمه!

* والحمولة التي تشمل تعاملتي مع الحياة والزمن - قضية معقدة لأنها حق

مشاع لكل الناس موصولة بحركة التاريخ ومتجاوزة لحدود الأفراد. وعلى هذه الناحية الثانية (الموصولة بحركة التاريخ) فإني - وبدون تلثم - لم أخف أبداً - ولا أخفي الآن - يقيني بأن تلك التجربة التي بدأت شرعيتها في مصر فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وشقت طريقها في مصر والإقليم والعالم حتى ظهر ٦ أكتوبر ١٩٧٣ - كانت ظاهرة عظيمة في قرن عظيم - وكانت شرعية يوليو «بالإعارة» هي التي غطت رئاسة «أنور السادات» وعندما حقق الرجل ذاته بقرار الحرب - ٦ أكتوبر ١٩٧٣ - فإن «شرعية يوليو» انسحبت لتحل محلها «شرعية أكتوبر» - وذلك حقه واستحقاقه.



وكانت «شرعية يوليو» - وذلك رأيي - تجربة إنسانية بالغة الحيوية والطموح وهي بالتأكيد أهم تجارب العرب في العصور الحديثة وأبعدها أثراً وذكرًا - على أنها تظل تجربة إنسانية بكل ما يرد على الإنسان من أعراض القوة والضعف، والتقدم والتراجع والطموح والإحباط، وهي في كل الأحوال عصر يستحق أن يدرس باحترام ويحقق أداؤه بعدل ويحاسب - ويحاكم! - إذا اقتضى الأمر - وفق قوانين زمانه، وهويته ومرجعياته وشرعيته، وليس وفق قوانين زمان مختلف - ومرجعيات وهويات وشرعيات يحتاج أمرها إلى كلام - وقضاة لا يخفون أنهم أعداء وكارهون!

ولم يفهم «بعضهم» أن الماضي يحاسب ولا يعاقب، فعقاب الماضي ظالم بأثر رجعي لأنه يصبح حينئذ عبئاً على الحاضر والمستقبل لأنه ينزل بعد الأوان بالعقاب على جيل وأجيال بعده يهز أملها في الغد مؤرقاً للضماير بغير ذنب، ومضيقاً للثقة في المستقبل بتكلفة نفسية - باهظة التكاليف!



ومن المدهش أن وجه الحقيقة يتبدى بعد ثلاثين سنة من الضباب الكثيف فالشواهد هذه اللحظة تنبئ بأن: جموح القوة الأمريكية بغير فهم،

لم يكن ممكناً التعويل عليه بدون تحفظ - وأن جنون السلاح الإسرائيلي بغير رادع، لم يكن مهياً لصنع السلام في أي ظرف - وجوع الثراء العربي أكد لسوء الحظ - أنه لا يعرف كفاية أو شبعاً، وبالتالي فإنه لم يكن قادراً - بعد - على دور قاطرة التنمية وتوفير فرص العمل في المجتمعات العربية - وأن حالة الانفراط التي أصابت الرابط العربي المشترك لم تؤد إلى خلاص الأوطان العربية أو عزتها، وإنما وصلت بها إلى حالة من الاستباحة الكاملة لاستقلالها بل ولوجودها من الأساس.

وتلك كلها أمور تستحق التأمل والدرس أمام إعصارات - لا يستعاد بعده ما كان قبله، وإنما تستدعي لصدده كل ملكات الأمة والمخزون من إرادتها والتميقظ من فكرها وعلمها.

وفي المحصلة (ومع الاعتذار عن هذه الوقفة الاعتراضية) - فإن هذا الجانب من حمولتي ليس حنياً للذكريات وإنما بالدرجة الأولى محاولة لإعادة الفحص والدرس لمرحلة لا تنسى على هدى تقدم لا يتوقف.

ومن تلك الأسباب مجتمعة ترددت حين انفتح أمامي الباب لنوع من العودة إلى القارئ المصري - وعلى منابر التقليدية.



ومن باب أداء الحق لأصحابه فقد كان الأستاذ «مكرم محمد أحمد» أول من بادر إلى محاولة لفتح باب نوع من العودة أمامي، وبالفعل كتبت لمجلة «المصور» مجموعة من ست مقالات عرضت فيها تصوري للممكن والمطلوب في مرحلة مستجدة، وطلبت من الأستاذ «مكرم» عارفاً طبيعته ودقته - مقدراً لالتزامه المهني وتمسكه - ألا ينفرد في هذه المقالات الستة بقرار ورجوته ملحاً ومخلصاً أن يراجع قبل أن ينشر، وحدث بعد أسبوعين أن مجموعة المقالات الستة التي كتبها للمصور عادت إليّ يحملها الدكتور «أسامة الباز» مصحوبة برسالة شفوية رقيقة تقبلتها برضا واحترام، وملخص

الرسالة «أن ما كتبته في المقالات الستة يسبب إحراجاً في الوقت الحاضر ثم إن الأمر متروك لي» - وكان ردي دون تحفظ أنني آخر من يخطر له إحراج نظام لا يزال يحاول - أوائل سنة ١٩٨٣ - تثبيت أوضاعه واستجماع خطوطه للقيام على مسؤولية الوطن في ظرف دام ومحتقن وأزحت المقالات الستة جانباً لم أنشرها لا في مصر - ولا خارجها - حتى بعد مرور عشرين سنة!

ومرت سنوات ثم زارني الصديق الأستاذ «إبراهيم سعدة» بتحفضه الدائم وجسارته الشهيرة طالباً أن أكتب في «أخبار اليوم»، وضعفت أمامه وكتبت مقالين لمست بنفسني ما جرى بعدهما وخفت على رئيس تحرير «أخبار اليوم» وأعفيته من نشر المقال الثالث راجياً مصرّاً - ومن باب القلق عليه.

وأخيراً توصل الأخ والصديق الأستاذ «إبراهيم نافع» - بهدوء وصبر إلى الصيغة الموفقة، فقد تفاوض مباشرة مع دور النشر التي تصدر عنها كتيبي في لندن ويحصل على حقوق الطبعة العربية الأولى لستة كتب توالى ظهورها عن الأهرام (وكان ذلك تلاقياً حتى على الورق بالكلمات - مع أسرة عشت معها أكثر من سبعة عشر عاماً - ولا تزال - عبر طول السنين - عزيزة علي وغالية).

- ومشت عقارب الساعة حتى وصلت إلى دار الشروق تتحمل مسؤولية ما أكتب وتضعه بانتظام - بين أغلفة كتب تصل إلى قارئها كما يصح أن يصل الكتاب!

ولم أكن أتمنى أكثر من ذلك، فقد كان قصارى ما أبتغيه في مصر نافذة - لا ساحة ولا شرفة - وإنما طاقة في جدار أطل منها على ما يجري وأتابع مهتماً ومعنياً، متحدثاً بين الحين والآخر برأي في جريدة مما راح يصدر سواء عن الأحزاب معتمداً على رخصتها - أو مستقلاً يصدره زملاء وأصدقاء لديهم الموهبة والطموح يكافحون في ظروف اقتصادية لاجتذاب

قارئ يتزايد إحساسه بالملل! - إلى جانب محاضرة سنوية واحدة في منتدى عام (مثل معرض الكتاب السنوي - أو جامعة القاهرة - أو الجامعة الأمريكية) وكان ذلك يكفيني وبالقدر الذي حسبته متوازناً.

لكن العوائق راحت تظهر على الطرقات واحداً بعد واحد.



وفي سبتمبر ١٩٩٩ - دق جرس له رنين فقد وقع في أثناء مراجعة طبية دورية أن «علي هيكل» أكبر أبنائي وأقرب أطبائي - (وهو أستاذ في كلية الطب بجامعة القاهرة) - اكتشف وجوداً ملحوظاً لخلايا مربية (سرطانية بطبيعتها). ومع أن نشاطها «الآن» ضعيف ومحصور فإن أحداً لا يستطيع ضمان ألا تشتد ضراوتها وتزيد سرعتها وتنفلت منتشرة وقرر «علي» أن يتوسع في الفحص، وإذا بؤرة خطيرة أخرى تظهر على صور الأشعة. والتقى لفيف من الأطباء بينهم الصديق والعميد الدكتور «محمد عبد الوهاب» والجراح الكبير الدكتور «إسماعيل شكري» والمنظم الطبي البارع الدكتور «حاتم الجبلي» والدكتور «عمرو مسعود» - وجلست أمامهم وإذا بالإجماع أن الموضوع الأول للخطر يحتاج إلى علاج بالإشعاع - في حين يحتاج الموضوع الثاني إلى مبضع جراح، وكان هناك اتفاق على أن الجراحة أولى بالسبق، والإشعاع عليه الدور بعد أسابيع، والولايات المتحدة الأمريكية يتحتم أن تكون مقصدي وبسرعة وسألت إذا كانت هناك بدائل أخرى في مصر أو قريباً منها ولم يقبل «محمد عبد الوهاب» وردّاً بأنه: «إذا كان الأكثر تقدماً في إطار ما أقدر عليه - فلماذا القبول بغيره في شأن يتعلق بالصحة».

وأضاف: «أن الجراحة الشائعة عموماً في مثل هذه الحالات تختصر الطريق باستئصال الكلية لكن هناك أستاذاً أمريكياً استطاع تحقيق اختراق مهم يركز على الكشط والتطهير، ومع أنها جراحة متناهية في الدقة إلا أنها تساوي المخاطرة فهي في حال نجاحها - تحتفظ بالكلية شبه سليمة قادرة

على أداء وظائفها - وفي دقائق تلاقى الآراء على الدكتور «أندرو نوفيك» الجراح المشهود له عالمياً في هذا التخصص، ثم تلت ذلك إشارات إلى الدكتور «باتريك كوبليان» أستاذ الإشعاع الذي لفت الأنظار في الولايات المتحدة - يتولى الجزء الثاني من العلاج، ولحسن الحظ كان الرجلان - وقتها - يعملان في مركز طبي واحد هو مؤسسة «كليفلاند» ذائعة الصيت في ولاية «أوهايو».



ووصلت إلى «كليفلاند» - نوفمبر ١٩٩٩ - وجدت في انتظاري على مدخل مطارها الدكتور «فوزي إسطفانوس» وهو أحد أساطين تلك المؤسسة الكبرى، وكان الدكتور «فوزي» يحمل معه جدولاً لمواعيدي جاهزة.

وحين التقيت الدكتور «نوفيك» - ومعه مساعده المصري المتميز الدكتور «عمرو فرجاني» - لفحص يسبق الجراحة فاجأني الدكتور «نوفيك» بأسماء كثيرين اتصلوا به أو بمكتبه يسألون ويوصون وكان بينهم «رئيس دولة» سبق للدكتور «نوفيك» أن عالجه، وتفضل ذلك الرئيس فاتصل يقول للطبيب: «إن مريضه الجديد رجل يحب أن يفهم كل شيء بالعقل قبل أي تصرف بالفعل»، وكذلك تصور الدكتور «نوفيك» أن عليه تقديم شرح واف عن الأحوال والاحتمالات، واستمعت إليه صامتاً لدقائق، ثم رجوته ألا يحير نفسه في كل ما بلغه من قبل وقلت بعفوية: «أنه يتعامل مع رجل لم يعد في الأربعين أو الخمسين وإنما رجلاً تجاوز الخامسة والسبعين وأي عاقل يبلغ هذه السن بأمان، لا يحق له نسيان أن المجهول المحيط به - عليه غوائل تنتظر والسؤال في شأنها لا يكون بـ: هل ولكن بـ: متى! ثم أي الغوائل الكامنة في المجهول تسبق غيرها إلى المعلوم؟!

واستفسر الدكتور «نوفيك» متحيراً: «أهي روح الشرق» - وقلت: «بل حقيقة الحياة»، ثم أضفت: «إنني رجل محب لهذه الحياة ومغرم بها - وفي

الوقت نفسه متصلح ومتفاهم مع ما بعدها، فهذه الحياة أعطتني أحلى وأغلى ما عندها ومن الحق أن أدرك أن ما بعدها موصول بها - اتصال النهار مع الليل!».



وعلى أي حال فإنني خرجت من هذه التجربة سنة ١٩٩٩ شاكرًا وحامدًا، فقد كان الخطر سخياً معي (بزيارتين في الوقت نفسه) - لكن الطب الحديث كان رفيقاً بي (فخرجت سليماً في الحاليتين حتى الآن، وتحفظي لأنني أتذكر تعبيراً فرنسياً شائعاً بأنه لا مرتين بغير ثالثة!)، وقد ظل يقيني في الأول والآخر أنها عناية الله فوق الخطر وفوق العلم!

على أنه عقب تلك التجربة عاودني مرة أخرى هاجس الاستئذان في الانصراف، لكنني اعتبرته على نحو ما في تلك الظروف - تنكراً وربما جحوداً!



ثم حدث في تلك الفترة - أواخر ٢٠٠٠ - أن لاحظت أمامي إشارة تحذير حمراء، فقد غبت عن مصر وقت إجراء الجراحة أكثر من شهر، ثم عدت وغبت عنها في طلب العلاج بالإشعاع قرابة الشهرين، ويوماً بعد يوم - بعد عودتي - لاحظت اختفاء بعض من أوراقتي ومحفوظاتي في مصر، وكان اللافت أن بين ما اختفى عشرات من كتيبي وعشرات، ومع أنه كان في استطاعتي أن أفهم لماذا تمتد يد إلى الأوراق والملفات - إلا أن اختفاء الكتب حيرني - وأزعجني الموضوع في مجمله - ومع أنه لم يكن في هذه الأوراق والمحفوظات والكتب - شيء فريد أو خطير - فإن ما حدث كان غليظاً - ودعوت اثنين من خبراء الأمن المصريين، رجوتهما بحث الأمر، ثم جلست أستمع ساعتين ونصف الساعة، وخلصت إلى أن الخيارات أمامي محدودة، لأن الواقعة كما هو ظاهر ليست جنائية وإنما

شيئاً آخر لا يجدي معه ضيق الصدر أو نفاد الصبر، ثم إن مجال الظنون فيه واسع خصوصاً والتجربة السياسية التي عشتها لا تزال تهتم كثيرين في العالم الخارجي كما في الإقليم - أو ربما!

ولكن شاغلي لم يكن هم ذلك الذي اختفى من ملفاتي وأوراقتي وكتبي في الظلام، وإنما ثقل ذلك الإحساس الغليظ بيد مجهولة تمتد خلصة إلى أدراج المكتب أو رفوف الحفظ - ثم تنزع أو تقطع أو ترفع!
وتدافعت إلى ذهني أسئلة كثيرة.



ثم انقضت مفاجأة أحداث ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة وما ترتب عليها (بل وما سبقها منذ استولت المجموعة الإمبراطورية الجديدة على سلطة القرار في البيت الأبيض). -وأخذتني عن كل هم آخر، فقد بدا المشهد الدولي للجميع وكأنه تساقط كتل ضخمة من جبل مهول مسه جنون زلزال - ثم راح الأعتى من هذه الكتل يتدحرج متدافعاً منقضاً على العالم العربي وأحسست أن الحاجة إلى الاستئذان في البقاء أشد إلحاحاً من خاطر الاستئذان في الانصراف، وتبدى لي أن المشاركة في البحث عن رؤية مشتركة للمستقبل القادم أولى وأحق بصرف النظر عن اختفاء أوراق وملفات وكتب تخص زمانها الذي يضيع - وإن لم يضع!

وحاولت شيئاً من تلك المشاركة خلال مجلة «وجهات نظر» (التي طرحت نفسها منبراً رصيناً يحاول أن يستكشف ويستطلع، وشجعني أن مقالات فيها تنشر في الوقت نفسه بعدد من صحف العالم العربي)، ثم طراً أنني من الرغبة في توسيع نطاق البحث عن رؤية مشتركة - قبلت الظهور - بعد تردد - على شاشة قناة تليفزيونية مصرية (دريم) - وتقديرى - بغير تزيد - أن يكون ذلك مرة واحدة كل ثلاثة أشهر والرجاء استشارة حوار يتصل في مصر ويتواصل عبر أوطان الأمة. ومنتهى القصد أن يساعد مثل هذا الحوار

على تخفيف الشعور بالإحباط والركود والعجز، ويشد إلى مشاركة واسعة في البحث - والكشف بحيث تتمكن رؤية حرة ومفتوحة من تجاوز مناطق الشك والخلط والعصبية، وكان اعتقادي - دوماً - أن الخطوة الأولى في أي حوار هي إعادة بناء موضوع الحقيقة بأقصى دقة مستطاعة - لأن أي اختلاف في الرأي مضيعة للجهد - إذا لم يكن الموضوع عند المنبع واضحاً محدداً ومتفقاً عليه، وموصولاً بالوقائع والدخائل، وليس بالحكايات والحواديت!

وبدا لوهلة أن بعض ما آمل فيه - ويأمل فيه غيري - قابل للتحقيق، فقد سرى صوت الحوار مسموعاً، ثم إن هذا الصوت أخذ يعلو طبقة فوق طبقة.

وكان ظني أن رجلاً - في مثل سني - يقر ويعترف أن مستقبله وراءه - وإقراره مصدق عليه بختم السنين وعددها - لم يتبق له غير أداء الحق العام بل ولربما كان عليه أن يوجه إلى نفسه - وبحزم - ذلك السؤال الذي أجراه «شكسبير» على لسان أحد شخصوه: «إذا لم أتكلم أنا - فمن - وإذا لم أتكلم الآن - فمتى».

وكانت تلك مبالغة في التفاؤل - ربما!

أي أنه بحقائق الأشياء فإن الاعتراض على الحوار - كان وارداً في المناخ السائد، وبالتالي فإنه عندما وقع لم يكن صاعقة منقضة - لكن الأسلوب الذي تم به الاعتراض - بدا داعياً للاستغراب فيما يعنيه ويدل عليه، وكان أسفي أنني لم أدفع ضريبة ما قلت بما يحتمله من صواب أو خطأ، وإنما دفع غيري وجاء الدفع في موضع الوجد (ومرة أخرى لا أزيد)!



وسمعت دعوات مخلصة لنقل الحوار الذي توقف إلى خارج مصر لأنه «موقف» و«قضية» - والمنطق أنني قادر على الوصول إلى العالم العربي

والعالم الخارجي حتى أقاصيه، ثم إن لي سابق تجربة وخبرة في ذلك من قبل أيام الخلاف مع الرئيس «السادات» بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ حول قضية السلاح والسياسة، ولم أكن نسيت تلك الموقعة لكنني ذكرت نفسي بأن المسألة هذه المرة لها تكييف آخر، ففي المرة السابقة كان نقل الخلاف بمواصلة الكتابة خارج مصر - مقبولاً لأن موضوعه يهم محيطاً أوسع: أوله العالم العربي في صراعه مع إسرائيل - ويليه العالم الخارجي في عموم اهتمامه بسلام الشرق الأوسط.

وأما هذه المرة فإن موضوع الخلاف أحوال مصر وأوضاعها ورؤاها ومواقفها وخياراتها وسياساتها في الداخل والخارج، وإذا جرى اعتراض الحوار - بالخلاف - فوق أرضها فإن نقله خارجها ثقيل - على الأقل بالنسبة لي - وإذا عصيت مشاعري - فإن الأبواب المفتوحة على مصراعيها في العالم العربي والعالم الخارجي تدعوني إلى قول ما أريد وتحتفي به - ربما تتبدى أمامي حواجز معنوية أتردد قبل القفز عليها اعتباراً لكبرياء وطن وولاء مواطن.

وكذلك راحت الأسباب تتراكم وتتداخل ويمتزج بعضها ببعض حاضرة طول الوقت ومؤثرة! - وبقي في النهاية سؤال: «إذا كان الصمت حاضراً والكلام غائباً ومجمل الظروف ما سبق وما لحق، والأحوال المصرية والعربية ما أرى ويرى الناس - إذن ف: إلى متى - وإلى أين؟!»

ومع أنني لا أكف عن تذكير نفسي بحكمة عربية شهيرة تقول: لعل لهم عذراً وأنت تلوم - كما أعترف أيضاً بـ: «أن حبال الصبر تقصر مع طول العمر!» - فإنني - متمسكاً بحدود لا أتجاوزها - لا أملك أن أقنع إلا بما أراه مقنعاً - ولا أقدر على مغالطة نفسي فيما أقرأ وأسمع وأعرف، أو أصل إلى موقف لا يعود فيه عندي غير العجز والإيحاء بالإشارة إلى أنه «في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء!».

ويقتضي الواجب - مرة أخرى - تكرار أنه ليس سبباً واحداً، وإنما

جملة أسباب تداخل فيها الخاص والعام، والسابق واللاحق، والمأمول والواقع، والكبير والصغير، والمعقول، وكذلك اللامعقول!



وتحدثت في الأمر مع الأقربين وتفهم بعضهم كما أن بعضهم كانت له تحفظات:

- وكان رأي حبيبة القلب والعقل ونور الطريق والضمير في حياتي أن الاستئذان في الانصراف مفهوم ومعقول، لكنه قرار مرة واحدة، وذلك يدعو إلى إطالة التفكير - وكان القول صدقاً.
- وكان هناك رأي عزيز وغال يسأل عن داعي الاستئذان في مطلب هو في النهاية ملكي حين أشاء، وكان جوابي أن أي شخص يعطيه الناس مساحة من وقتهم - مدين لهم بقيمتها وليس بمجرد حجمها، وبالتالي فإن عليه واجب الاستئذان.
- وأخيراً كان هنالك رأي حنون وحريص يخشى أن التوقف عن العمل هو في العادة بداية عزوف عن الحياة، وحاولت أن أشرح أن الانصراف نيتي وليس الاختفاء، بمعنى أنه الابتعاد وليس الغياب، فما زال لدي ما أريد أدائه ضمن جدول أعمال يكفيني - حتى وإن ظهر على شكل ملفات خام أصلية وأصيلة، أو قد أفكر فيما هو معروض عليّ كحلقات تليفزيونية مصورة موثقة أتحدث فيها وفي الإطار وثنائق أصلية تعزز ما أقول، وأملّي أن بعض ما عندي - إذا استطعت - قد يضيف ويغطي ثغرات مازالت مثل ثقب الفضاء مجهولة في حياة الوطن والأمة، ومعظمها متصل بمرحلة كان للعرب خلالها دور فاعل في العالم والتاريخ، وظني أنه ربما يكون من شيء أقدمه فائدة لزمان قادم ولجيل لم يولد بعد - لعل هذا الجيل يتجاسر ويستدعي كامل همته، ويقبل على المراجعة والفرز دون رهبة من أباطرة السيطرة وقهرهم، وغارات أمراء

الانتقام وحرابهم، وطالبي الثأر يطاردون الماضي دون أن يخطر لهم
أنهم شردوا خارج التاريخ إلى التيه في قفار موحشة!

يزيد على ذلك أن الانصراف ليس سقوطاً في بئر الغيوبة - ولا سجنًا
في قبو قلعة نائية وحول الرأس والرقبة قناع من حديد وحول الأيدي أغلال
من صلب وفي الأقدام أساور تمسكها سلاسل محبوكة تجرح وتدمي إذا
تحرك الأسير!

أي أنه لا يزال - على نحو ما - جهد الدارس الممارس ولكن من
ركن ناء بعيد - هناك على طرف قصي.



وفي خاتمة المطاف فقد استقر عندي أن الاستئذان في الانصراف
وجب.

وكذلك أتصلت بناشري في لندن ونيويورك أعذر عن كتاب ثالث
اتفقت معهم (مبدئياً) عليه، فقد كان اتفاقي الأصلي مع «هاربر كولينز»
شاملاً لثلاثة كتب، ظهر منها اثنان (أوهام القوة والنصر والمفاوضات
السرية بين العرب وإسرائيل) - وكان الثالث الباقي عندي عن «الإسلام
السياسي» وقد اختار له «أدي بيل» (رئيس مجلس إدارة «هاربر كولينز»
وقتها) عبارة «السيف والهلال» رمزاً مؤقتاً أعمل تحته حتى أستقر عليه أو
على عنوان غيره في اللحظة الأخيرة قبل موعد النشر - وفي نفس الوقت
أتصلت بعدد من الصحف الأوروبية - بينها «الجارديان» البريطانية - بأنه
الشكر والعرفان وكفى، وكذلك أبلغت رئيس تحرير مجموعة «يموري
شينبون» اليابانية - وكنت أكتب لها مقالاً منتظماً - (بلغ عدد الصحف
المشتركة فيه أكثر من ثلاثة آلاف صحيفة منتشرة في بلدان شرق آسيا وغرب
أمريكا) - أن يقبل اعتذاري عن عقد متجدد تفضل وأرسله إليّ.

وأخيراً اعتذرت عن محاضرتين كنت قبلت الدعوة إليهما مبدئياً:

واحدة في الجامعة الأمريكية مرة أخرى (!) لافتتاح الموسم الثقافي الجديد والثانية في مركز الدراسات الفلسطينية في بيروت - ديسمبر المقبل - لتكريم مفكر عربي بارز رحل قبل سنوات تاركاً تراثاً فكرياً متميزاً وهو الدكتور «قسطنطين زريق» أستاذ التاريخ العتيد في الجامعة الأمريكية في بيروت.



وطوال ذلك كله كان بعض القريبين من عملي يتابعون ما أفعل وفي ملامحهم تعبير عن الدهشة - محاولين برقة ألا يثقلوا أو يتطفلوا! - وكان هؤلاء يرونني بينهم كل يوم وظنهم - بعيون الرضا - أن لدي كفاية من صلاحية البدن والفكر تكفل الاستمرار سنوات قادمة (يعلمها الله). وكان ردي أن تلك في كل الأحوال بشارة خير وبركة، لكن صلب الموضوع أنه لا يحق لأحد تجاهل المؤشرات التي تقول بها قواعد الحساب وأحكام الطبيعة، وكنت أضيف: «أنني لا أرى بأساً في انتقال رجل من ومض الضوء إلى ظل الغروب (وليس عتمة الليل) - ومن متن الحياة العامة إلى هامشها (وليس الفراغ بعد الهامش) - في توقيت يترك عنده بقايا أسباب تعينه وتقويه لأن استمرار الحياة في حد ذاته منحة تستحق التكريم وتستوجب الاحترام».

ومن صدق تكريم الحياة ووجوب احترامها - أن الناس لا يصح لهم أن يتسمروا - حيث هم حتى آخر قطرة زيت في المشكاة، وإنما الأفضل أن تظل لديهم بقايا همة تسمح لهم - بعيداً عن الزحام - بالنظر إلى حركة التقدم الإنساني العظيمة، ومتابعة حيوية التاريخ الهائلة قادرين على ذلك بأشواق تيسرها بقية من عافية وعقل - تحفظ لهم صلة ممكنة بعصور مذهلة (ومتوحشة!) تقوم الآن فعلاً على تغيير الدنيا شكلاً وموضوعاً - روحاً وحركة.

وأضيف في النهاية: «أن مساحة البعد تمنح صاحبها فرصة أوسع

للتفكر والتأمل ، والنظر إلى الوراء في أناة وروية ، والنظر إلى الأمام بعقل وقلب مازال فيهما حس ونبض - خصوصاً من رجل كان له حظ موفور مع الدنيا والناس ، وذلك في حد ذاته يكفي وزيادة لمدد من الطاقة له سحر التجدد ولمسة من الحيوية - وربما الشباب - حتى عند الثمانين».





من محمد حسنين هيكل

صباح ٢٢ أفريل ١٩٩٦

للمند

صباح الخير

ملا نند

لا تقرأ الا في بيتك

او في بيتك او في بيتك (او في بيتك)

(ن) في بيتك او في بيتك او في بيتك

او في بيتك او في بيتك او في بيتك

ن او في بيتك او في بيتك

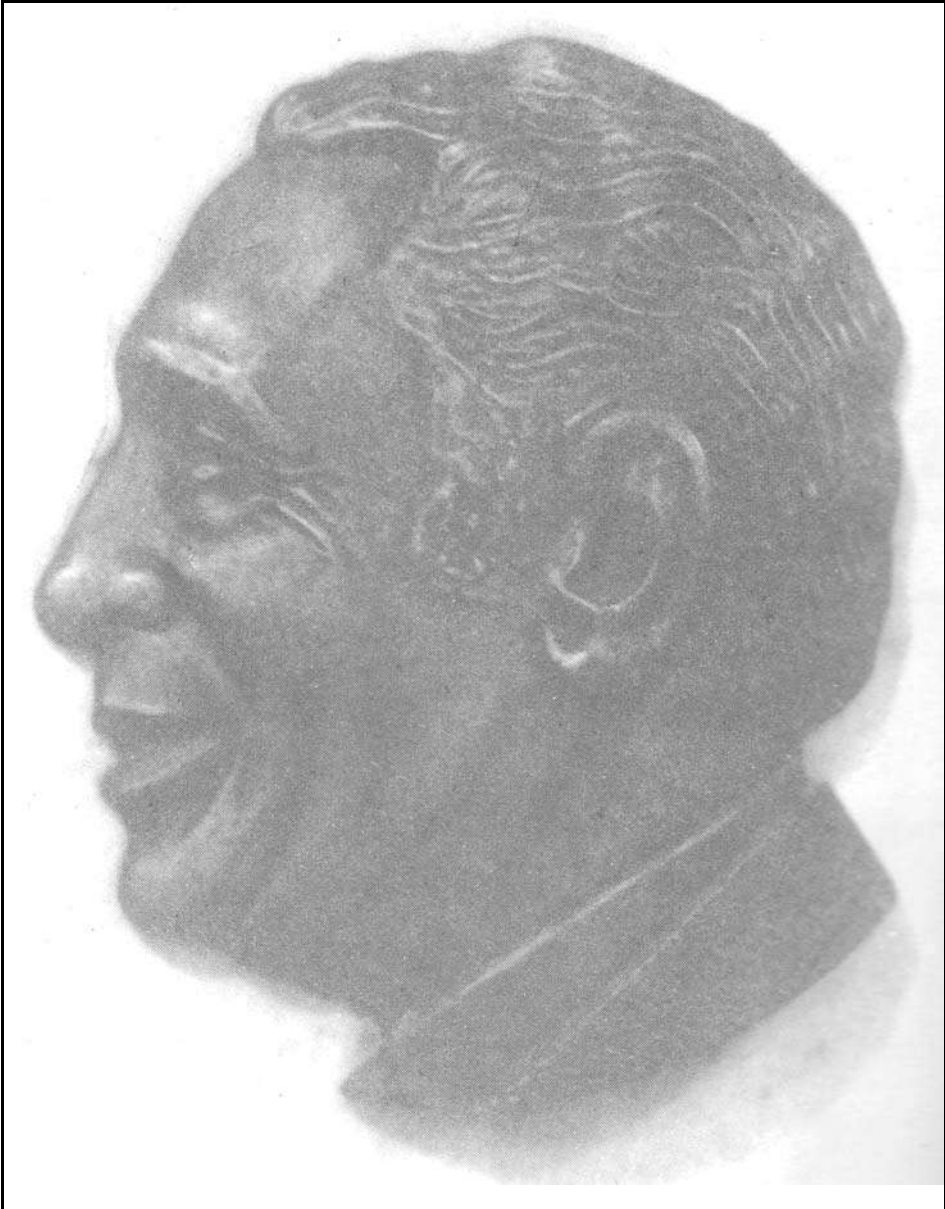
رسم كذا

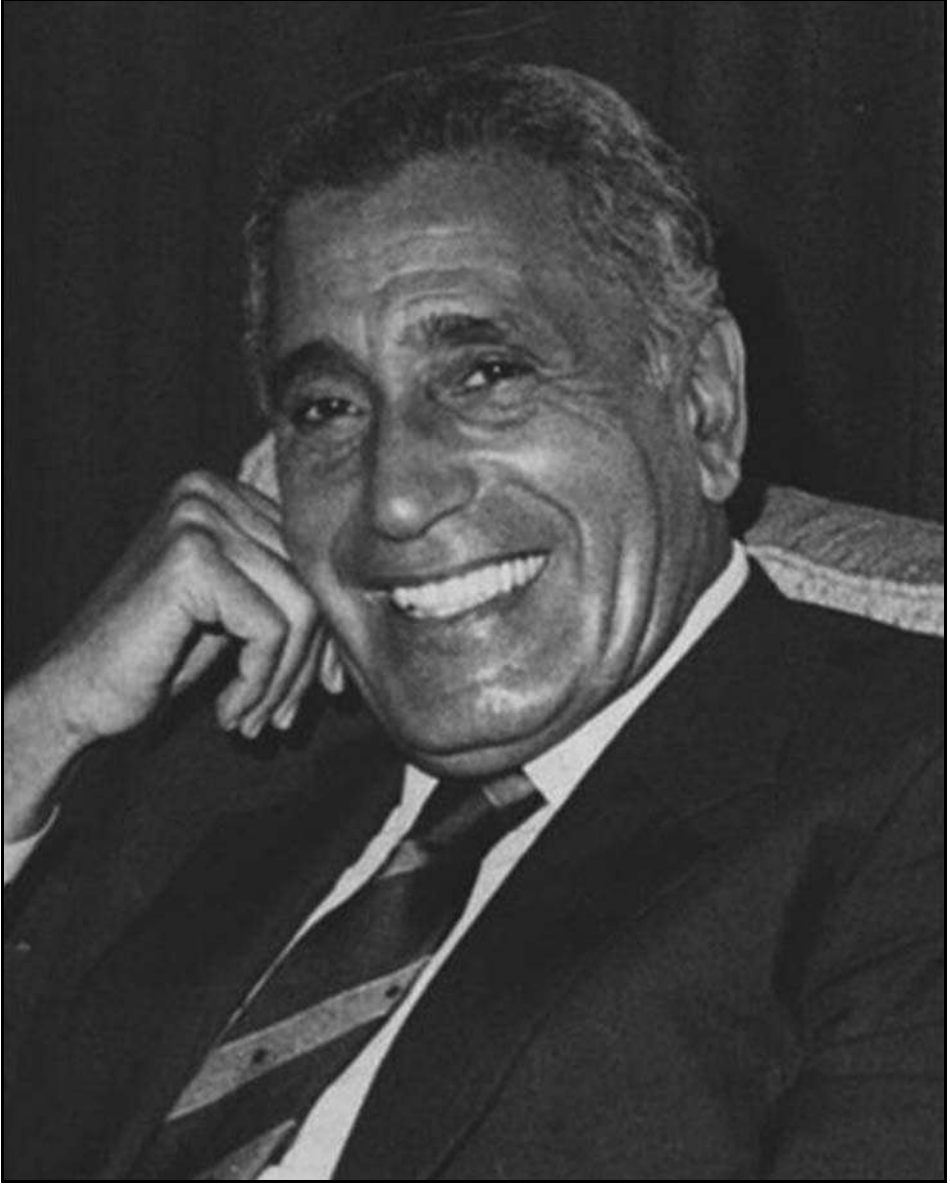
١











دعوة

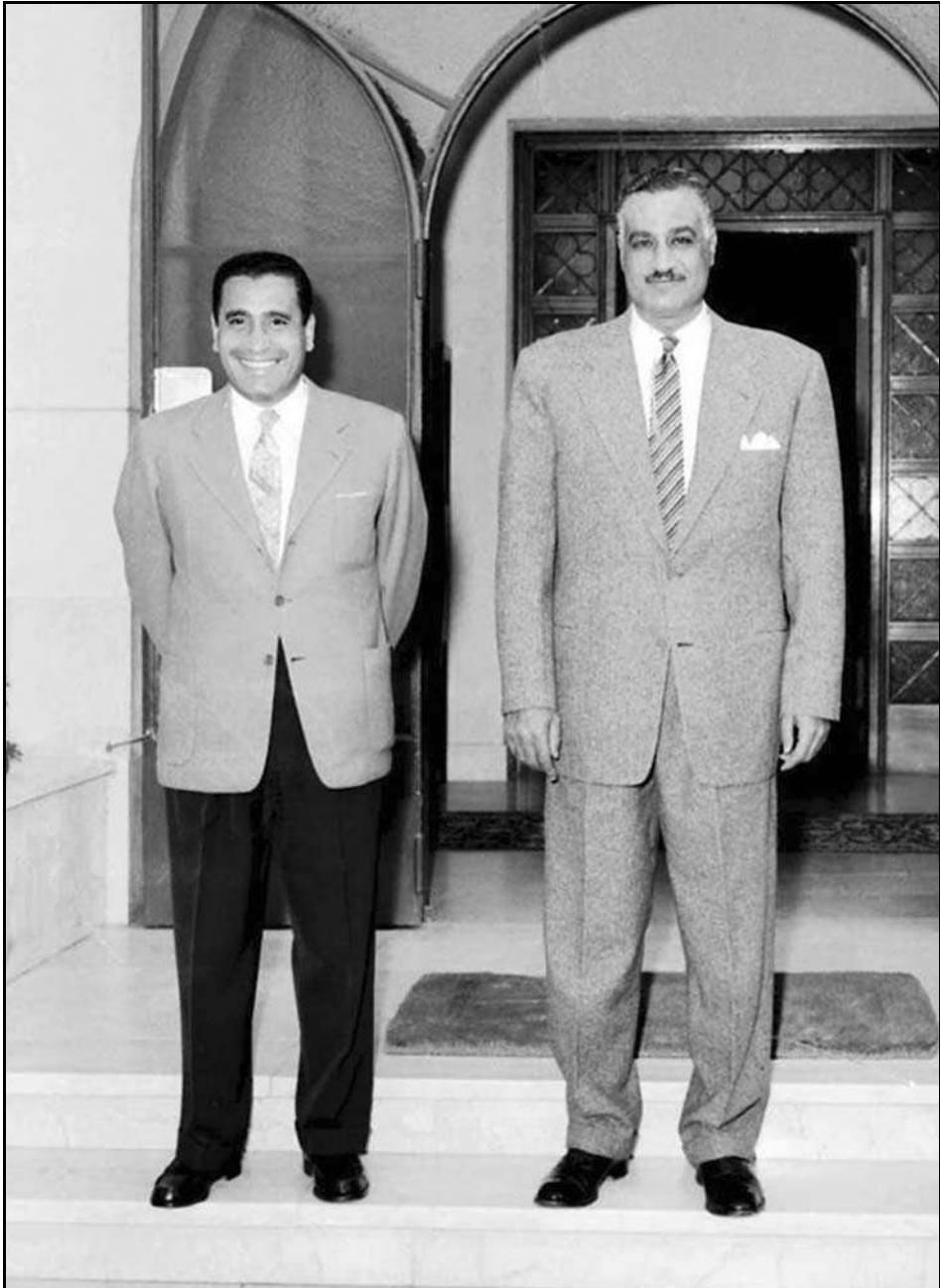
يعقد مجلس الشعر باف الثقافي
ندوته النصف شهرية
حول الكاتب المصري الكبير الاستاذ محمد حسنين هيكل
صفحات. مشرقة من تاريخه الصحفي
والتي يلقيها الشيخ سليم الجبوري
يوم الجمعة ١١/٩ الساعة الخامسة عصرا
العنوان كراة خارج الفرع المقابل لمعمل الجلود
والدعوة عامة للجميع.

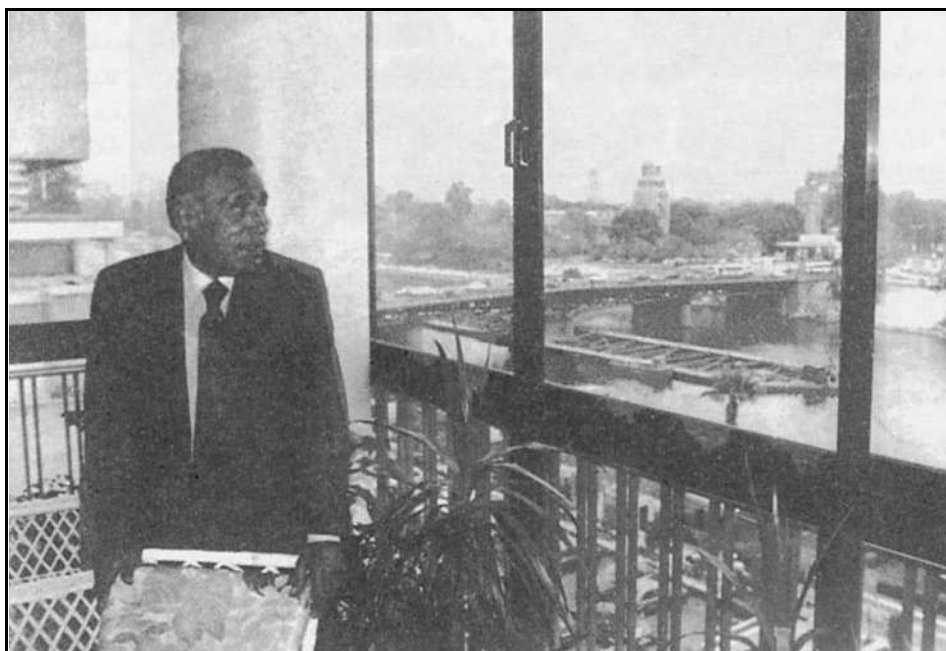
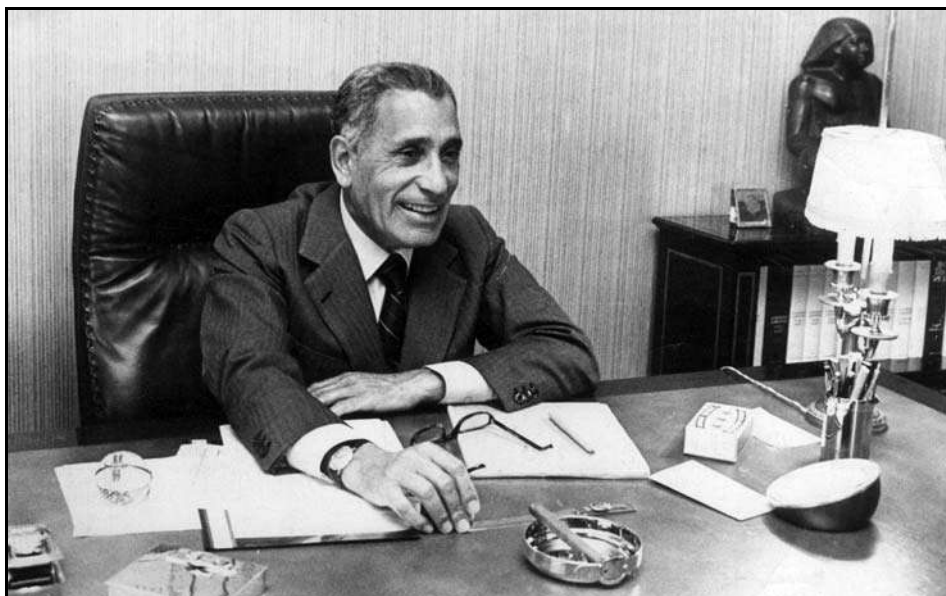






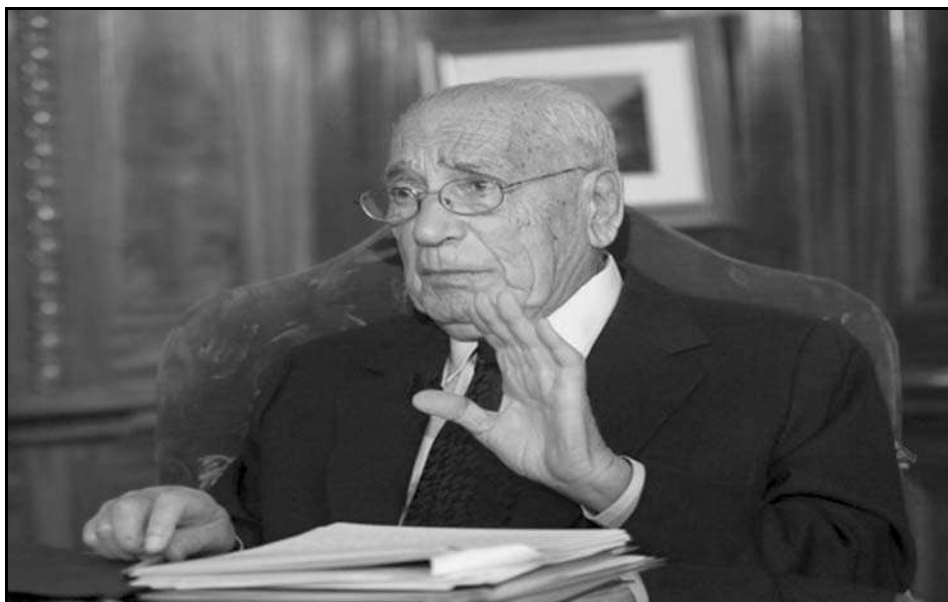
















المخطوطات العربية في العالم تطور فهرسة المخطوطات في العراق

بقلم/ كوركيس عواد

حاولنا غير مرة، الإلمام بما تحتضنه مكتبات العراق من مخطوطات، فترأى لنا من خلال ذلك، أن الأمر لا يتم إلا بتعيين مظان هذه المخطوطات أولاً، وبفهرسة مجاميع تلك المخطوطات ثانياً. وكانت أول محاولة جرت لنا في هذا السبيل، نبذة نشرناها قبل نحو من ربع قرن، وسميناها به (فهارس المخطوطات في العراق)^(١).

وبعد نحو من خمسة عشر عاماً، عدنا إلى هذا الموضوع بالزيادة والتنقيح، فنشرنا مقالة ثانية بذلك العنوان نفسه^(٢).

وها نحن أولاء اليوم - وقد خطا فن الفهرسة في العراق خطوات واسعة في السنوات الأخيرة - نعاود النظر في هذا الموضوع، بما يتناسب وتقدم الفهرسة على أيدي جماعة من المعنيين بهذا الفن، وبازدياد عدد المكتبات في ربوعه، واتساع آفاق الثقافة بين أبنائه.

ولا أدلّ على تلك العناية البالغة، من أن أنوّه بالنشرات الكثيرة المختلفة المناحي، التي أصدرتها طائفة من مكتبات العراق في أثناء السنوات العشر الماضية، كمطبوعات كل من المكتبة المركزية بجامعة بغداد، والجامعة المستنصرية، وجامعة البصرة، ومكتبة المتحف العراقي، ومكتبة الأوقاف العامة، والمكتبة الوطنية ببغداد، وغيرها.

اشتهرت بلدان العراق في الأزمنة القديمة التي سبقت عصر الميلاد مكتبات كانت تزخر بها المعابد والقصور ودور السجلات، وذلك في عهود السومريين والبابليين والأشوريين وغيرهم من الدول الغابرة التي حكمت بعض أنحائه. أما في الحقبة الممتدة بين بدء التاريخ الميلادي وظهور الإسلام، فقد كانت هنالك مكتبات كثيرة كانت ترى في الغالب في المدارس والمعابد والديارات.

وبعد انتشار صناعة الورق في العراق في العصور الإسلامية، ازداد عدد المخطوطات بسبب ازدهار الحركة الفكرية وكثرة العلماء والمؤلفين، فاهتم الناس بجمع الكتب، فكثر الخزائن الحافلة بالمخطوطات ولاسيما في المساجد والمدارس وسائر معاهد العلم. كما عني كثير من الناس بتكوين خزائن خاصة بهم، كانوا يختزنونها في بيوتهم، ويتنافسون في استجماع أمهات التصانيف، ويغالون في اقتنائها، ويبدلون الغالي والنفيس في سبيل إحرازها^(٣).

ثم أصاب العراق نكبات، فقل العلماء وقلت العناية بجمع الكتب، ولكنها لم تعد، فقد بقي عدد من العلماء يؤلفون ويجمعون الكتب، وظلت في كثير من الجوامع مكتبات موقوفة ولكنها قليلة.

أما في يومنا هذا، فإننا نجد في سائر أنحاء العراق، مكتبات كثيرة العدد زاخرة بالكتب، ومن تلك المكتبات، ما كان عاماً يؤمه المطالعون من أي صنف كانوا، ومنها ما كان مرتبطاً بالجامعات والكليات والمجامع والمعاهد والمؤسسات العلمية ودواوين الدولة. ومنها ما يخص أفراداً من العلماء والباحثين ومحبي الكتب، ولا تخلو طائفة حسنة من هذه المكتبات العامة والخاصة من مخطوطات قيمة، فيها النادر والنفيس والقديم والجدير بالتحقيق والنشر.

ومن يتتبع شؤون المخطوطات في العراق، يجد أن العناية بفهرستها أخذت تزداد سنة بعد أخرى، حتى صار في مقدورنا أن نعثر على جملة

صالحة من فهارس تلك المخطوطات، ومع ذلك، ما زلنا نجد في ديار العراق مكتبات ذات مخطوطات جمة تنتظر من يعنى بفهرستها وتعريف مكنوناتها للناس.

إن فهرسة المخطوطات العربية قد سارت بخطى سريعة واسعة في سائر أنحاء العالم؛ فإن كثيراً من العلماء والباحثين - شرقيين ومشرقيين - قد أولوا هذا الأمر بالغ عنايتهم، حتى وضعوا جمهرة كبيرة من المخطوطات التي ترى اليوم في القاهرة وإستانبول ودمشق وبغداد والموصل وحلب والإسكندرية ودمياط والنجف وتطوان والرباط وفاس وتونس والجزائر وبيروت والقدس وطور سينا وصنعاء ومشهد وطشقند وبانكيبور وغيرها من بلدان الشرق العربي والإسلامي.

كما وضعوا مجاميع واسعة النطاق مما في البلدان الأوربية من مخطوطات، وخصوصاً في برلين وباريس ولندن ولينغراد وأكسفرد وكمبرج وليدن ولبسج وغوطا وفينا والفاتيكان والأسكوريال ودبلن وأبسالة. هذا فضلاً عن بعض المدن الأميركية كمدينة يرنستن ونيوهافن وكليفلند وواشنطن.

إن الفهارس التي وضعت في صفة مخطوطات خزائن الشرق والغرب تعد من أنفس المراجع وأوثقها في الوقوف على دفائن تلك الخزائن.

ولقد عنى جماعة من أفاضل الباحثين، بوضع دليل أو (فهرس عام) لهذه الفهارس التي تصف خاصة المخطوطات العربية المنبثة في أقطار المعمورة، أولهم الدكتور يوسف أسعد داغر. فقد صنف كتاباً حافلاً، عنوانه (فهارس المكتبة العربية في الخافقين). وطبعه في بيروت سنة ١٩٤٧ في ٢٠٢ ص (٤).

وتلاه المستشرقان الفرنسيان جورج فايدا ومادلين دورانتية، فنشرا فهرساً ضم بين دفتيه أسماء ما صنف من فهارس وأثبات للمخطوطات العربية شرقاً وغرباً، وطبعاه في باريس سنة ١٩٤٩ (٥).

وأعقبهم المستشرق الهولندي هويسمان، فوضع فهرساً واسع النطاق، أكمل من سابقه. وطبعه في ليدن سنة ١٩٦٧^(٦).

ولابد من أن ننوه في هذا الصدد بثلاثة مؤلفات عظيمة الشأن، تدخل هذا المدخل، أعني أن مؤلفيها قد ذكروا في تضاعيف مصنفاتهم، طائفة كبيرة من مخطوطات العراق، وإن كان ما ذكروه قد تشتت وتناثر في مختلف صفحات مؤلفاتهم. هذه الكتب الثلاثة هي:

١ - تاريخ الأدب العربي^(٧) تأليف المستشرق الألماني كارل بروكلمان، المتوفى سنة ١٩٥٦.

طبع متن الكتاب ثانية في مجلدين (ليدن ١٩٤٣ - ١٩٤٩). وطبع (الذيل) عليه في ثلاثة مجلدات ضخام (ليدن ١٩٣٧ - ١٩٤٢).

٢ - الذريعة إلى تصانيف الشيعة: تأليف الشيخ آغا بزرك الطهراني، المتوفى سنة ١٩٧٠، وقد طبع منه عشرون جزءاً تقع في ثلاثة وعشرين مجلداً. (النجف - طهران ١٩٣٦ - ١٩٦٩)، ولم يكمل طبعه.

٣ - تاريخ الآداب العربية^(٨) تأليف العالم التركي فؤاد سزكين: صدر مجلده الأول في ليدن سنة ١٩٦٧، ويشتمل على علوم القرآن والحديث والتاريخ والفقه والعقائد والتصوف.

لقد حاولنا في هذا البحث، أن نستقصي ذكر ما ألف من (فهارس) المخطوطات التي تحوزها مكتبات العراق. فأصبنا منها بالبحث المتواصل، شيئاً لا يستهان به. ورأينا، تسهياً لرجوع القارئ، أن نبوّب بحثنا هذا، على وفق السياقة الهجائية لمظان تلك المخطوطات المفهرسة.

والمواطن العراقية التي تدخر جانباً من هذه المخطوطات، هي: البصرة وبغداد وتلكيف ودير السيدة ودير مار بهنام ودير مارمطي، زاخو، سامراء، عقرة، قرّة قوش، الكاظمية، كربلاء، كركوك، مندلي، الموصل، النجف.

البصرة

تزخر مدينة البصرة بجملة مكنتات عامة وخاصة، ولا يخلو بعضها من مخطوطات، وقد اشتهرت من بينها بمخطوطاتها:

المكتبة العباسية:

وهي خزانة أسرة باش أعيان العباسي المعروفة. تعد من أوسع مكنتات البصرة وأبعدها شهرة. فيها نحو من (١٥٠٠) مخطوط، لم يصدر في وصفها جميعاً فهرس كامل، وإنما نشر بعض الباحثين نبذاً ومقالات في التعريف بجملة صالحة من تلك المخطوطات وهذا ما وقفنا عليه منها:

أشارت مجلة العرفان^(٩) إلى ست من نفائس مخطوطات هذه المكتبة. وصف علي الخاقاني في خمس مقالات نشرها في مجلة الغري^(١٠). (٤١) مجلداً من مخطوطات هذه المكتبة.

في مقالنا الموسوم (مدينة البصرة: مكنتاتها ومخطوطاتها)، المنشورة سنة ١٩٥٥^(١١). نوهنا بسبع عشرة مخطوطة تحرزها هذه المكتبة.

أعاد علي الخاقاني الاهتمام بمخطوطات هذه المكتبة، فأمضى في أراجائها أكثر من شهرين، عرف في أثنائها مما وقف عليه من مخطوطات، وهي تناهز (١٥٠٠) مخطوط بين كبير وصغير، منها ما قد طبع ومنها ما لم يطبع، وقام من هذه الدراسة كتاب يقع في ٣٢٢ صفحة كبيرة، طبع منه قسمان تضمننا وصف ٧٩١ مخطوطة^(١٢).

نوه مصطفى مرتضى الموسوي، بثمانى عشرة مخطوطة من هذه المكتبة، في جملة ما صورته اليونسكو من مكنتات العراق^(١٣).

مكتبة محمد أحمد المحامي:

كان في هذه المكتبة مجموعة من المخطوطات العربية والفارسية، عندي فيها فهرس مخطوط تاريخه ٢٠ آذار ١٩٦٣، منقول عن نسخة مكتوبة

بالآلة الكاتبة لدى الأستاذ حسين الشيخ خزعل. ويتضمن التنويه بـ (٤٩٤) مخطوطة، منها (٤٠٠) مخطوطة عربية و(٩٤) فارسية.

وكنا قد نوهنا بست عشرة مخطوطة في مقالنا المذكور آنفاً^(١٤).

وقد اقتنت جامعة البصرة هذه المجموعة الخطية، وضمتها إلى مكتبتها المركزية^(١٥).

وأشار مصطفى مرتضى الموسوي إلى (١٤) مخطوطة من هذه المكتبة، وهي مما صورتها أيضاً اليونسكو^(١٦).

المكتبة المركزية لجامعة البصرة:

فيها أيضاً (٦٣) مخطوطة، وضعها صباح محمد علي كاظم، في فهرست طبعته المكتبة بالرونيو^(١٧).

وذكر مصطفى مرتضى الموسوي (١٢) مخطوطة صورت من هذه المكتبة^(١٨).

مكتبة آل القزويني:

أنشأها السيد محمد مهدي الكاظمي القزويني، المتوفى سنة ١٩٣٩. وقد آلت إلى ولده السيد أمير محمد مهدي القزويني، فيها نحو من مئة مخطوطة، ذكرنا منها (٢٥) مخطوطة في بحثنا المشار إليه عن مكتبات البصرة^(١٩).

مكتبة اللواء المركزية العامة بالبصرة:

فيها شيء من المخطوطات، نوه مصطفى مرتضى الموسوي بثلاث منها^(٢٠).

بغداد

لا ريب أن مدينة بغداد، أغنى مدن العراق بمكتباتها المختلفة، وبالثروة الخطية العظيمة التي تحرزها تلك المكتبات. وسنتناول بالبحث

مجاميعها المخطوطة التي وضع لها فهرس وأثبتات. وقد صنفنا تلك المجاميع الخطية إلى صنفين أساسيين.

الأول: المخطوطات العائدة إلى المكتبات العامة وشبه العامة والتابعة لسائر المؤسسات العلمية والثقافية والدينية.

الثاني: المخطوطات العائدة إلى المكتبات الخاصة. وهي التي تحرزها جماعة من الناس المعنيين بشؤون المخطوطات، المكلفين باستجماعها.

وقد رتبنا مجاميع كلا الصنفين على وفق السياق الهجائي لأسماء أصحابها.

أولاً: فهرس مخطوطات المكتبات العامة وما إليها:

مكتبة الآثار:

وتعرف بـ «مكتبة المتحف العراقي» التابعة لمديرية الآثار العامة. بلغ مجموع ما فيها اليوم من مخطوطات (٦٤٨٢) مخطوطة، بينها نوادر ونفائس مختلفة. ويدخل في ضمنها، مجموعة مخطوطات مكتبة كل من الأب أنستانس ماري الكرمللي، ويعقوب سركيس، ورشيد عالي الكيلاني، والملا صابر، وأحمد نيازي، وغيرهم ممن آلت مكتباتهم إلى هذه المكتبة. هذا إلى ما اقتنته الآثار من مخطوطات طوال السنوات الأربعين الماضية، وإلى ما توارد إليها من هدايا وهبات خطية متفرقة.

ولم يتأت نشر فهرس كاملة تستوعب ذكر مخطوطاتها كافة، على أن لهذه المخطوطات جميعاً سجلاً عاماً مخطوطاً، هذا إلى فهرس مكتوب على بطاقات ومصنف وفقاً لأسماء المؤلفين، ولعناوين الكتب، وللموضوعات.

أما المنشور من «فهارس» و«أثبتات» جزئية لمخطوطات هذه المكتبة، في وسعنا التنويه به في ما يأتي:

فهرس المخطوطات العربية في مكتبة المتحف العراقي ببغداد: من تأليفنا. صدر منه الأجزاء الآتية:

أولاً: المخطوطات التاريخية: نشرناه في مجلة «سومر» (١٣)، ١٩٥٧ (ص ٤٠ - ٨٢). ثم أفردناه في رسالة.. (مطبعة الرابطة - بغداد ١٩٥٧، ٤٤ ص)، وقد وصفنا فيه (٢٠٤) مخطوطات تبحث في التاريخ والأخبار والتراجم والسير.

ثانياً: المخطوطات الأدبية: نشرناه في سومر [١٤ (١٩٥٨) ص ١٢٧ - ١٧٩]. ثم أفردناه في رسالة على غرار سابقه. (مطبعة الرابطة ببغداد ١٩٥٨، ٥٣ ص). وصفنا فيه (٢٨١) مخطوطة تتناول دواوين الشعر والمجاميع الشعرية وسائر كتب الأدب المنشور.

ثالثاً: مخطوطات الطب والصيدلة والبيطرة: نشرناه أيضاً في [سومر ١٥ (١٩٥٩) ص ٢٥ - ٥٢]. ثم أفردناه في رسالة كالقسمين السابقين. (مطبعة الرابطة - بغداد ١٩٥٩، ٢٨ ص). وقد وضعنا فيه (١١٧) مخطوطة في الطب والتشريح والمواد الطبية والبيطرة.

فمجموع ما فهرسناه في هذه الأقسام الثلاثة من مخطوطات مكتبة الآثار، قد بلغ ستمائة ومخطوطتين.

وفي مقالنا [مخطوطات مكتبة المتحف العراقي] المنشور في مجلة معهد المخطوطات العربية [١ (١٩٥٥) ص ٣٧ - ٤٨]، نوهنا بنحو من سبعين مخطوطة متنوعة مما في هذه المكتبة.

ومثل ذلك، ما صنعنا في بحثنا الموسوم بـ [مكتبة المتحف العراقي في ماضيها وحاضرها]^(٢١): فقد ذكرنا فيه (سومر ١١ (١٩٠٠) ص ١٣٥ - ١٣٩) من نفائس مخطوطات هذه المكتبة (٥٩) مخطوطة حرة بالعناية والتحقيق.

وكنا نشرنا بحثاً بعنوان «مخطوطات الكرملين في خزانة المتحف

العراقي» (سومر ٧) ١٩٥١ (ص ٢٧٨ - ٢٨٣)، ونوهنا فيه بست وعشرين من أمهات تلك المخطوطات.

ونشر عبد الحميد الدجيلي^(٢٢)، بحثاً بعنوان «مخطوطات ثمينة في خزانة المتحف العراقي» (سومر ٧ - ١٩٥١، ص ٢٨٤ - ٢٩٣)، وصف فيه إحدى عشرة مخطوطة نادرة من مكتبة الأب أنستاس ماري الكرمللي، المهداة، بعد وفاته، إلى مكتبة المتحف على ما ذكرنا.

وله أيضاً (سومر ٦ - ١٩٥٠، ص ٢٢٠ - ٢٢٣) وصف لكتاب [التاريخ الغياثي] وهو أحد مخطوطات هذه المكتبة.

ونشر بحثاً آخر في التعريف ببعض مخطوطات هذه المكتبة، عنوانه «رسائل إسماعيلية قديمة نادرة»^(٢٣)، وصف فيه ستة مجاميع خطية تدخل في هذا الموضوع.

ووصف عبد الكريم الدجيلي، نسخة خطية من «ديوان أبي الأسود الدؤلي» تحرّزها هذه المكتبة، وذلك في المقدمة التي صدر بها طبعته لهذا الديوان^(٢٤).

وللدكتور حسين علي محفوظ، مقالة بالفارسية، عنوانها (كتب خطي فارسي درکتا بخانه موزه عراق در بغداد)، (مجلة دانش ٣ طهران ١٩٥٥، ص ٦٢٨ - ٦٣٦)، أشار فيها إلى (٩٤) مخطوطة فارسية تحرّزها مكتبة المتحف العراقي.

ونوه السيد ناصر النقشبندي^(٢٥) في بحثه الموسوم بـ (المصاحف الكريمة في صدر الإسلام)، (سومر ١٢ (١٩٥٦)، ص ٣٣ - ٣٧)، بأربع قطع قديمة من المصاحف المكتوبة بالخط الكوفي، وهي من مكنونات هذه المكتبة.

ووصف خضر الطائي ورشيد العبيدي، ثلاث نسخ خطية من (ديوان العرجي) في هذه المكتبة، وذلك في المقدمة التي صدر بها طبعتهما لهذا الديوان^(٢٦).

ووصف المستشرق ولهلم هونرباخ، في بحث له بالألمانية، جملة مخطوطات في خزائن كتب بغداد وتطوان، منشور في مجلة الشرق (أوريانس)^(٢٧) التي كان يصدرها المستشرق هلموت ريتز. ومن تلك المخطوطات، ست في هذه المكتبة، وهي على التوالي، ذوات الأرقام: ٦٨٤، ٦٢٨، ٤٦٢، ٦، ٣٤٠، ٥٤٥.

وفي سنة ١٩٣٨، نشرنا وصفاً لنسخة خطية من (تاريخ واسط)، تأليف أسلم بن سهيل الرزاز الواسطي المعروف ببخشل^(٢٨)، دخلت هذه المكتبة، وهي منقولة عن نسخة فريدة قديمة في مكتبة الأزهر.

وهناك «فهرست» بأسماء مخطوطات أحمد عبد الوهاب نيازي ببغداد، التي آلت إلى مكتبة المتحف العراقي. وقد وضعته المحكمة الشرعية ببغداد وطبعته بالرونيو في ١٩ صفحة. وقد ذكر فيه (٢٩٣) مخطوطة.

ونوه مصطفى الموسوي، بـ (١٨٦) مخطوطة في هذه المكتبة مما صورته اليونسكو من أمهات مكتبات العراق^(٢٩).

ووضعنا «قائمة مما يحسن تصويره من مخطوطات مكتبة المتحف العراقي» مما وقع عليه اختيارنا، وتم تصويرها من قبل بعثة اليونسكو. وعددها (١٤٩) مخطوطة تعد من الأعلام النفيسة في هذه المكتبة، وقد طبعت القائمة بالرونيو سنة ١٩٦٨.

وهناك «دليل معرض المخطوطات العربية في مكتبة المتحف العراقي» وقد طبع بالرونيو (بغداد ١٩٦٩، ١٩ ص). تحتوي على ذكر (٥٧) مخطوطة.

ونشر عادل كامل الألوسي، مقالة بعنوان المختار من مخطوطات خزانة الكرمل في مكتبة المتحف العراقي^(٣٠)، نوه فيها بـ (٥٥) مخطوطة كانت في مكتبة الأب أنستاس ماري الكرمل، المهداة إلى مكتبة المتحف على ما أسلفنا.

ومن أحدث ما وضع من فهارس المخطوطات هذه المكتبة، الفهرس الموسوم بـ [المخطوطات اللغوية في مكتبة المتحف العراقي] ^(٣١). تأليف أسامة ناصر النقشبندي. وقد وصف فيه (٥٠٣) مخطوطات تدور حول النحو، والصرف، وفقه اللغة، ومعجماتها، والبلاغة، والعروض والقوافي.

بعد أن توفي يعقوب سركيس في سنة ١٩٥٩، أهدى ذووه مكتبته، إلى جامعة الحكمة في بغداد. وقد عهدت إلى رئاسة تلك الجامعة بفهرسة ما في تلك المكتبة من مخطوطات فصنفت فهرساً مفصلاً تولت تلك الجامعة نشره ^(٣٢). وقد تضمن صفة (٣٢٧) مجلداً مخطوطاً، أكثرها باللغة العربية، وأقلها بلغات شرقية أخرى: التركية والفارسية والسريانية. وبعد إلغاء جامعة الحكمة، لبثت تلك المكتبة مخزونة في موضعها، حتى استقر الرأي على نقلها برمتها إلى مكتبة المتحف العراقي. وقد تم ذلك في سنة ١٩٧١، فأصبحت جزءاً منها.

وكانت تلك الجامعة، قد نشرت لنا أيضاً، فهرساً مقتضباً بأسماء مخطوطات خزانة سركيس، رتبنا فيه تلك المخطوطات على سياق الهجائي ^(٣٣).

مكتبة الأوقاف العامة:

تضم هذه المكتبة اليوم (٥٢٠٠) مخطوطة ^(٣٤)، وفيها جملة صالحة من المؤلفات النفيسة ذوات الخطوط القديمة. وقد استجمعت في سنة ١٩٢٨ من مكاتب بغدادية كانت مدخرة في بعض الجوامع والمدارس والتكايا البغدادية، وهي:

جامع الكهيا.

جامع الحيدر خانة.

جامع الرواس.

جامع الباجه جي.

جامع أبي حنيفة.

مدرسة نائلة خاتون (وتسمى أيضاً المدرسة المرادية).

المدرسة السليمانية.

المدرسة المرجانية.

التكية الخالدة النقشبندية.

ثم أضيفت إليها فيما بعد مكتبات أخرى على ما سيجيء بنا. وقد نشر في مخطوطات هذه المكتبة جملة فهارس، وهي:

١ - كانت مديرية الأوقاف العامة قد عهدت إلى كاتب هذه السطور في سنة ١٩٤٧، بتنظيم هذه المكتبة وتنسيقها، فأتاح لنا هذا العمل، الاطلاع على ما فيها من مخطوطات، وهياً لنا وضع «فهرس» بأقدم ما تضمنه منها، نشرناه في مجلة «سومر» وقد استغرق منها (٩١) صفحة كبيرة بعنوان «أقدم المخطوطات في خزانة الأوقاف العامة ببغداد». وقد ظهر في ثلاثة أقسام على النحو الآتي:

مخطوطات المئة الخامسة والسادسة والسابعة للهجرة^(٣٥).

مخطوطات المئة الثامنة للهجرة^(٣٦).

مخطوطات المئة التاسعة والعاشر للهجرة^(٣٧).

وقد وضعنا في هذا الفهرس (٢٢٦) مخطوطة أثرية، كتبت قبل سنة ١٠٠٠ للهجرة. وهو أول فهرس ينشر في التعريف بطائفة من مخطوطات هذه المكتبة. وقد ازدان قسمه الأول باثنتي عشرة صورة تمثل أنموذجات من أقدم الخطوط في هذه المجموعة. وكانت مجلة «الأندلس» التي تصدر بالإسبانية في مدريد، قد نوهت مرتين بهذا الفهرس^(٣٨) وأشارت إلى ما فيه من مؤلفات أندلسية وهي (١٢) كتاباً.

٢ - وعنى الدكتور محمد أسعد طلس^(٣٩)، في أثناء مكثه في العراق مخطوطات هذه المكتبة، فوضع لها فهرساً شاملاً بعنوان [الكشاف عن

مخطوطات خزائن كتب الأوقاف^(٤٠). وصف فيه (٣٦١٤) مخطوطة، وصدره مقدمة في التعريف بالمعاهد التي استجمعت منها خزائن كتب الأوقاف، وألحقه بفهارس هجائية للأعلام، وأسماء الكتب، والأماكن والموضوعات.

٣ - واهتم عبد الله الجبوري، أمين مكتبة الأوقاف السابق، بفهرسة ما أضيف إلى هذه المكتبة من مخطوطات، من بعد طبع الفهرس السابق، فصنف كتاب «المستدرك على الكشف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف»^(٤١).. وقد وصف فيه (٤٠٧) مخطوطات، جيء بها من المواضع الآتية:

جامع المصرف.

جامع القبلانية.

جامع الآصفية.

خزانة محمد سعيد الطبقجلي (المتوفى سنة ١٨٤٩).

خزانة عبد الحليم الخاقاني (المتوفى سنة ١٩٤٣).

خزانة علي حيدر الباجه جي (المتوفى سنة ١٩٥١).

ومن مزايا هذا الفهرس، أن صاحبه أصلح (ص ٣٧٣ - ٣٨٢) ما وقع في (الكشاف)، من هنات وأوهام. وقد ساعد المجمع العلمي العراقي على طبع هذا الفهرس.

٤ - ولم تقف الهمة بعبد الله الجبوري عند وضع المستدرك، بل صنف فهرست آخر وسماه بـ «فهرس مخطوطات حسن الأنكرلي المهداة إلى مكتبة الأوقاف العامة ببغداد»^(٤٢) وصف فيه (١٥٦) مخطوطة كانت سابقاً في مكتبة حسن بن محمد بن رجب الموصللي البغدادي، الشهير بالأنكرلي، المتوفى سنة ١٣٤٤هـ. وقد ساعد المجمع العلمي العراقي على طبع هذا الفهرس.

- ٥ - ووصف هونرباخ، في بحثه المنشور في مجلة «أوريانس» وقد سبقت الإشارة إليه، مخطوطتين من مكتبة الأوقاف.
- ٦ - وفي القائمة التي وضعناها في ما يحسن تصويره من مخطوطات، وقد مر ذكرها (٤٨) مخطوطة نادرة وقع اختيارنا عليها من مخطوطات هذه المكتبة.
- ٧ - ونوه مصطفى الموسوي، بـ (٤٣) مخطوطة من هذه المكتبة^(٤٣).
- ٨ - ونوه عبد الله الجبوري في بحثه الموسوم بـ (مكتبة الأوقاف ونوادير مخطوطاتها) بثمانية كتب مخطوطة نادرة^(٤٤).

مخطوطات جامع السيد سلطان علي:

تولى عماد عبد السلام رؤوف، فهرسة مخطوطات هذا الجامع، في بحثه الموسوم بـ «الآثار الخطية في جامع السيد سلطان علي ببغداد»^(٤٥) مجموع ما وضعه (٨٥) مخطوطة.

المكتبة القادرية:

وهي في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد. فيها مجموعة كبيرة من المخطوطات، تولى الشيخ إبراهيم عبد الغني الدروبي، فهرسة (٦٥٨) منها. وعندي نسخة مخطوطة من هذا الفهرست. ولم يطبع.

ونوه مصطفى الموسوي بـ (٢١) مخطوطة صورت من هذه المكتبة، في الفهرست الذي صنفه، وقد أشرنا إليه سابقاً^(٤٦).

مكتبة الكرمليين ببغداد:

في سنة ١٩٤٩، أهدى الآباء الكرمليون، إلى مكتبة المتحف العراقي؛ معظم القسم العربي من «مكتبة الآباء الكرمليين» في بغداد، التي كان جمعها للدير، الأب أنستاس ماري الكرمل^{(٤٧)(٤٨)}، وفيها المخطوط والمطبوع. وللمخطوطات، قبل أن تهدي، فهرس قديم لم يعرف واضعه،

يقع في ثلاثة أجزاء لم تطبع، حوى ذكر ما اشتملت عليه تلك المكتبة، وكان عددها نحواً من (١٥٠٠) مجلد مخطوط. وفيه - على ما بان لنا - أوهام وأغلاط مختلفة. ثم إن بعض ما ذكر فيه قد بيع أو فقد قبل وفاة الأب أنستاس.

بلغ عدد المخطوطات المهداة إلى مكتبة المتحف العراقي (١٣٣٥). وقد سبقت إشارات إليها في كلامنا على «مكتبة الآثار» ولا سيما ما جاء في الفقرات ٤ و ٥ و ٦ و ٨.

وكان الأب أنستاس، قد نشر فهرساً لمخطوطات، لم تهد فيها أهدي إلى مكتبة الآثار، تلك هي المخطوطات العربية النصرانية. فظهر وصفها في نيف وعشرين مقالة قصيرة، في «نشرة الأحد» المجلة الأسبوعية التي كانت تصدر في بغداد^(٤٩).

وصنف حكمت رحمانى «فهرست مخطوطات دير الآباء الكرملين» ببغداد وهو يتضمن وصف (٤٢) مخطوطة، مما لم تفهرس من قبل، وبينها ما كان بخط الأب أنستاس، ومنها بخط غيره، وقد أخبرني مؤلف هذا الفهرس أنه سينشره عما قريب.

مكتبة كلية الآداب - بجامعة بغداد:

لم تكن هذه المكتبة تحرز شيئاً من المخطوطات. ولكن ما فيها منها الآن، إنما انتقل إليها من «مكتبة معهد الدراسات الإسلامية العليا» الذي ألغته جامعة بغداد سنة ١٩٦٩.

تتألف هذه المخطوطات من بضع مجموعات، كانت فيما مضى تعود إلى بعض الباحثين، ثم اقتناها منهم المعهد المذكور، فاجتمع لديه منها (١٤٨٣) مخطوطة. وفي ما يأتي إحصاء إجمالي بهذه المجموعات:

مجموعة كوركيس عواد: وعددها (٥٨٦) مخطوطة^(٥٠).

مجموعة يوسف مسكوني: وعددها (٢٥٤) مخطوطة^(٥١).

مجموعة ميخائيل عواد: وعددها (٣٤٩) مخطوطة^(٥٢).
 مجموعة حسين علي محفوظ: وعددها (٢٠١) مخطوطة^(٥٣).
 مخطوطات متفرقة اقتناها المعهد بصورة فردية: وعددها (٩٣)
 مخطوطة^(٥٤).

مكتبة كلية الطب - بجامعة بغداد:

في هذه المكتبة جملة مخطوطات تبحث في الطب، صنعنا لها فهرساً
 بعنوان «فهرس المخطوطات الموجودة في مكتبة كلية الطب» وفيه صفة ٢٣
 مخطوطة^(٥٥).

مخطوطات كنيسة أم الأحزان في بغداد:

في هذه الكنيسة، عشرات المخطوطات باللغة الكلدانية، عندي فهرس
 باثني عشرة مخطوطة منها.

مخطوطات مكتبة المجمع العلمي العراقي:

معظمها مصور بالفوتستات أو بالميكروفيلم. ويبلغ مجموعها (٦٢٥)
 مخطوطة وضع فيها صبيح رديف، أمين المكتبة السابق، فهرساً، ولم
 يطبع.

المكتبة المركزية - جامعة بغداد:

أحرزت هذه المكتبة مجموعة كاملة من أفلام المخطوطات التي
 صورتها بعثة اليونسكو التي قدمت إلى العراق. وقد عنت الأنسة زاهدة
 إبراهيم، رئيسة قسم الفهرسة العربية في هذه المكتبة، بفهرسة هذه
 المصورات في كتابها «فهرست المخطوطات العربية المصورة في العراق
 والموجودة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد». وقد تولت المكتبة المركزية
 طبعه بالرونيو سنة ١٩٧٠، في ١٣٣ صفحة.

مكتبة معارف بغداد:

عندي فهرس مخطوط، بخط السيد محمود شكري الألوسي^(٥٦)، ولعله من وضعه، عنوانه «سجل خزانة كتب معارف بغداد»، قال إن تلك المخطوطات المذكورة فيه، وقد جمعت من مدارس شتى، وذلك في أيام ولاية صاحب الدولة تقي الدين باشا، سنة (١٣٠٠هـ). وهو يقع في أربع صفحات كبيرة.. ولا نعلم شيئاً عن مصير تلك المخطوطات.

ثانياً: فهارس مخطوطات المكتبات الخاصة في بغداد:

١ - مخطوطات إبراهيم الدروبي^(٥٧):

في مكتبته (٧١) مخطوطة، وضع في التعريف بها فهرساً، عندنا نسخة منه، ولم يطبع.

٢ - مخطوطات إبراهيم الواعظ^(٥٨):

احتوت مكتبته على (١٠٣) مخطوطات، صنع لها صاحبها - تلبية لرغبتنا - فهرساً حسناً لم يطبع. وعندنا نسخة منه.

٣ - مخطوطات سعيد النقشبندي:

في مكتبته (١١٠٠) مخطوطة عربية، صنع لها إبراهيم الدروبي، فهرساً لم يطبع. وبين هذه المخطوطات جملة نوادر. وعندنا نسخة منه.

٤ - مخطوطات آل السهروردي:

وهم: محمد محسن السهروردي، وعبد الرحمن السهروردي، ومحمد صالح السهروردي. عندهم (٢٥٤) مخطوطة. صنع لها إبراهيم الدروبي، فهرساً لم يطبع. وعندنا نسخة منه.

٥ - مخطوطات السويدي:

كانت في مكتبة يوسف السويدي، ثم انتقلت من بعده إلى أولاده، ولا نعلم ما مصيرها اليوم. فيها طائفة من المخطوطات، وصف عز الدين

التنوشي (١٣) مخطوطة منها، في بحثه «خزائن الكتب العربية: بقية مؤلفات الأسرة السويديّة العباسية»^(٥٩).

٦ - مخطوطات ضياء الدين شكاره:

حين كان صاحب هذه المخطوطات موظفاً إدارياً في الشرطة من بلدان جنوبي العراق، أطلع علي الخاقاني على ما عنده من مخطوطات، فوصف تسعاً منها في بحثه «النوادر المخطوطة في الشرطة»^(٦٠). وحين كان صاحبها في مدينة العمارة، نوه حسين علي محفوظ بـ (٨٤) مخطوطة^(٦١):

٧ - مخطوطات عباس العزاوي^(٦٢):

لا ريب في أن مكتبة عباس العزاوي، تضم أعظم مجموعة شخصية من المخطوطات المتنوعة بالعربية والتركية والفارسية. ولا يعرف عددها على وجه التحقيق^(٦٣). وعندنا ثبت يتضمن ذكر (٢٣٨) من مخطوطاتها الأثرية. وتدرس الحكومة العراقية مصير هذه المكتبة بعد وفاة صاحبها.

٨ - مخطوطات عبد الباقي الطيار وابنه هاشم الطيار:

وضع الدكتور حسين علي محفوظ، ثبناً بمخطوطات هذه المكتبة، نوه فيه بـ (٦٠) مخطوطة^(٦٤).

: - مخطوطات عبد الوهاب ملوكي:

كان صاحبها إمام وخطيب جامع الخاصكي ببغداد. وهي (١٤) مخطوطة فهرسها إبراهيم الدروبي. وعندنا نسخة من هذا الفهرست.

١٠ - مخطوطات عبد الوهاب النائب:

وهي (٢٩٦) مخطوطة. وضع لها إبراهيم الدروبي فهرساً لم يطبع، وعندنا منه نسخة.

١١ - مخطوطات عزيز بطرس^(٦٥):

لديه (٣٣) مخطوطة بالعربية والكلدانية. عندنا فهرس بها بخط صاحبها.

١٢ - مخطوطات علي أبو السعد^(٦٦):

وهي (١٩٦) مخطوطة. صنع لها إبراهيم الدروبي فهرساً لم يطبع. وعندنا نسخة منه.

١٣ - مخطوطات علي الخاقاني:

لديه (٩٨) مخطوطة، عندنا منها فهرست لم يطبع. وهو بخط صاحبها.

١٤ - مخطوطات عماد عبد السلام رؤوف:

في مكتبته شيء من المخطوطات، وصف صاحبها واحدة منه تتألف من أربعة تأليف، في مقالة له بعنوان «آثار للشيخ ابن عربي ضمن مجموع خطي قديم»^(٦٧).

١٥ - مخطوطات فنسان ماريني:

وهو ابن أخي الأب أنستاس ماري الكرمللي. لديه (٦٦) مخطوطة، صنعنا لها فهرساً، ولم يطبع.

١٦ - مخطوطات قاسم محمد الرجب:

يعد صاحب هذه المخطوطات، أعظم الكتبيين العراقيين، وفي طليعة الكتبيين في العالم العربي^(٦٨).

اقتنى طائفة صالحة من المخطوطات، بلغ عددها (٥٦٥) مخطوطة، صنعنا لها فهرساً بعنوان «فهرست المخطوطات العربية في خزانة قاسم محمد الرجب ببغداد». وقد طبع في ثلاثة أقسام:

الأول: نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي (١٢ (١٩٦٥)، ص ١٦٥ - (١٩١). ثم أفرد في رسالة مستقلة. وقد نوهنا فيه بـ (١٦٥) مخطوطة (الرقم ١ - ١٦٥).

الثاني: مطبعة الإرشاد - بغداد ١٩٦٥، ٣٢ ص. وقد نوهنا فيه بـ (١١٨) مخطوطة (الرقم ١٦٦ - ٢٨٣).

الثالث: مطابع لبنان - بيروت ١٩٧١، ٣٠ ص. وقد نوهنا فيه بـ (٢٨٢) مخطوطة (الرقم ٢٨٤ - ٥٦٥).

١٧ - مخطوطات كمال الدين الطائي:

في مكتبته بضع مئات من المخطوطات العربية. عندي فهرس بـ (٥٨) مخطوطة منها. ولم يطبع.

١٨ - مخطوطات محمد رضا الشيبيني^(٦٩):

في داره بالكرادة الشرقية من بغداد، (٥٩) مخطوطة، وقفنا عليها، وصنعنا لها ثبناً، لم يطبع.

١٩ - مخطوطات محمد العسافي:

نجل الحاج محمد العسافي، مدرس وإمام وخطيب الزبير. في مكتبته ببغداد (٢٦) مخطوطة فهرسها إبراهيم الدروبي. وعندي نسخة من هذا الفهرس.

٢٠ - مخطوطات موسى الصائغ:

وهي (٢٢) مخطوطة. وعندنا فهرس بها لم ينشر. وهي اليوم لدى ابنه المحامي نجيب الصائغ.

٢١ - مخطوطات متفرقة في بغداد:

في الفهرس الموسوم بـ «الآثار المخطوطة في بغداد^(٧٠)» لعلي الخاقاني، وصف لثماني عشرة مخطوطة تحرزها بعض المكتبات البغدادية.

تلكيف

في مكتبة كنيسة تلكيف، مجموعة من المخطوطات الكلدانية، تبلغ السبعين عدداً، نوه القس ميخائيل ججوبزى، بإثنتي عشرة مخطوطة منها^(٧١) في مؤلفه الذي وضعه في تاريخ هذه البلدة.

دير السيدة

يقوم هذا الدير على مسافة ٣١ ميلاً شمال الموصل. وفي مكتبته مجموعة من المخطوطات الكلدانية استرعت اهتمام المطران أدى شير^(٧٢). فوضع لها فهرساً باللغة الفرنسية، نشره في المجلة الآسيوية بباريس سنة ١٩٠٦^(٧٣)، طبعه في تلك السنة نفسها في رسالة تقع في ٦٥ صفحة أتى فيها على وصف (١٥٣) مخطوطة^(٧٤).

وفي سنة ١٩٢٩، وضع المستشرق البلجيكي الأب يعقوب فوستي الدومنيكي^(٧٥)، فهرساً مجدداً باللغة الفرنسية أيضاً، سار فيه على غرار ما صنعه أدى شير. وهو أكمل من سالفه، لأن فوستي، وصف فيه (٣٣٠) مخطوطة وصفاً حسناً. وقد طبعه في رومه سنة ١٩٢٩. في ١٣٠ صفحة^(٧٦). وكنا في بعض تأليفنا^(٧٧)، قد عنيينا بذكر (٢٧) مخطوطة من نفائس ما تحرزه هذه المكتبة.

دير مار بهنام

يقوم هذا الدير على مسافة ٣٥ كيلو متراً جنوب شرقي الموصل. في مكتبته مجموعة من المخطوطات، نوه بطائفة منها الخوري أفرام عبدال^(٧٨)، في المؤلف الذي أفرد له لتاريخ هذا الدير^(٧٩).

دير مار متى

ويعرف بين أهل الموصل بدير الشيخ. وهو يقوم في أعالي جبل مقلوب من جبال شرقي الموصل. فيه مجموعة من المخطوطات العربية

والسريانية عني البطريك أغناطيوس أفرام برسوم^(٨٠) بوضع فهرست لها بالعربية، عنوانه «فهرست مخطوطات دير مار متى وكنائس القرى التابعة له» وقفنا عليه في حمص سنة ١٩٥٦ حين زرنا المؤلف. ولم يطبع. وقد أشار إليه في بعض مؤلفاته^(٨١).

زاخو

في مكتبة المطران يوسف بابانا، طائفة من المخطوطات بالكلدانية. عندنا فهرس يضم أسماء عشر منها.

سامراء

١ - مكتبة مدرسة الشيرازي:

أنشأها في سامراء، الميرزا محمد حسن الشيرازي، المتوفى سنة ١٨٩٤^(٨٢)، ذكر الشيخ أغا بزرك، أنه كتب فهرساً لهذه المكتبة ولم ينشر. قال أنها تشتمل اليوم على أكثر من ألف مجلد، خمسها مخطوط^(٨٣).

٢ - مكتبة الميرزا محمد الطهراني:

قال أغا بزرك: أنها مكتبة عامرة بسامراء، تربو على ألفي مجلد، خمسها مخطوط^(٨٤). فهرس منها الدكتور حسين علي محفوظ (٢١) مخطوطة^(٨٥) وقد سماها «مكتبة الإمام المهدي العامة في سامراء»، وهي مما وقفه ميرزا محمد الطهراني سنة ١٣٧١ هـ.

٣ - وعن الشيخ يونس إبراهيم السامرائي، بوضع كتاب عنوانه «المخطوطات في سامراء»، ولم يطبع، وصف فيه (٦١٣) مخطوطة في المكتبات الآتية:

١ - مكتبة مدرسة الشيرازي.

٢ - مكتبة الشيخ أحمد الراوي.

٣ - مكتبة الإمام المهدي العامة لنجم الدين الحيدري.

٤ - مكتبة الإدارة المحلية.

عقرة

في خزانة كتب المطرانية الكلدانية في بلدة عقرة، مخطوطات كلدانية نفيسة، وقفنا عليها. وقد تولى المستشرق فوستي فهرستها، في فهرس نشره بالفرنسية في مجلة الشرق المسيحي الصادرة في رومة سنة ١٩٣٩^(٨٦)، وقد وصف المؤلف في هذا الفهرست (٦٧) مخطوطة.

قره قوش

في الكتاب الذي ألفه عبد المسيح بهنام في تاريخ هذه البلدة^(٨٧) التي تقوم في شرقي الموصل، تنويه بإحدى وستين مخطوطة سريانية تفرقت في بعض خزائن قره قوش.

وأشار الخوري أفرام عبدال، في مؤلفه عن تاريخ دير مار بهنام، إلى (١٩) مخطوطة سريانية من مخطوطات كنائس قره قوش^(٨٨).

الكاظمية

في هذه البلدة مكتبات عامة وخاصة، فهرس الدكتور حسين علي محفوظ (٢٢٧) من مخطوطاتها ضمن مقاله «المخطوطات في العراق»^(٨٩)، وفي ما يأتي ثبت بأسماء هذه المكتبات مع عدد مخطوطاتها المفهرسة:

المكتبة	صفحة المقال	المخطوطات
مكتبة حسن الصدر	٢٣٨ - ٢٤٢	٤٢
مكتبة عبد الرازق العاملي الكاظمي	٢٤٢ - ٢٤٥	٢٩
مكتبة عبد الصاحب الكاظمي الخطيب	٢٤٥ - ٢٤٦	١٦
= الإمام الكاظم العامة	٢٤٦	٢
= عبد الحسن الأسدي	٢٤٧ - ٢٥٠	٢٩

٥	٢٥٠	= محمد رضا الخالصي
١٢	٢٥١ - ٢٥٠	= الإمام الصادق العامة
١٨	٢٥٣ - ٢٥١	= الجوادين العامة
٣٦	٢٥٥ - ٢٥٣	= علي بن الحسين الهاشمي الخطيب
٣٨	٢٥٨ - ٢٥٥	= جامعة مدينة العلم

وجدير بالذكر أن مكتبة جامعة مدينة العلم، التي أنشأها الإمام الخالصي الكبير تضم اليوم (٦٩٠) مخطوطة، وضع فيها حميد هدو، فهرساً يقع في ١٦٧ صفحة، وقفنا عليه، ولم يطبع.

ولنا أن نقول إن مكتبة السيد حسن الصدر، المتوفى سنة ١٩٣٥، تحتوي على نحو من (٦٠٠) مخطوطة، صنع لها منشئها فهرساً بعنوان «الإبانة عن كتب الخزانة»^(٩٠).

وكان الشيخ أغا بزرك قد تصدى في حياة حسن الصدر لما في هذه المكتبة من تأليف خطية صنفها رجال الشيعة في مختلف العصور الإسلامية، فأثبت عناوينها في «الذريعة». ولو جردت أسماء تلك المخطوطات من الذريعة، لقام منها فهرس لا يستهان به.

وصنف الدكتور حسين علي محفوظ فهرساً في مخطوطات مكتبته^(٩١)، أشار فيه إلى (٣٤٦) مخطوطة، باع منها إلى جامعة بغداد (٢٠١) مخطوطة، وقد ذكرنا ذلك في كلامنا على «مكتبة كلية الآداب - بجامعة بغداد».

ولدينا «ثبت» مكتوب بالآلة الكاتبة، بما تضمنه مكتبة الإمام الصادق العامة في الكاظمية من مخطوطات، وعددها (٣٢٩) مخطوطة.

كربلاء

في هذه المدينة مكتبات عديدة لا تخلو إحداها من مخطوطات، بعضها مفهرس. ومن الفهارس التي وقفنا عليها:

١ - فهرست مخطوطات الروضة الحسينية: وهو ثبت بأسماء (٢٧٢)

مخطوطة، كلها مصاحف فيها القديم والنفيس الذي يمتاز بجودة خطه وجمال زخرفته وتجليده، وهذا الثبت لم يطبع. ومنه نسخة مكتوبة بالآلة الكاتبة في مكتبة المتحف العراقي. وعندنا نسخة منقولة عنه.

٢ - عني السيد منير القاضي، بوضع بحث عنوانه «خزانة العتبة الحسينية المقدسة». وصف فيه (٧٢) مخطوطة^(٩٢) من نفائس المصاحف التي تزرع بها هذه الخزانة.

٣ - فهرست مخطوطات الروضة العباسية: وفيه أسماء (١٠٩) مخطوطات كلها مصاحف.

وما قيل عن قدم ونفاسة مخطوطات الروضة الحسينية يقال أيضاً عن مخطوطات هذه الروضة وهذا الثبت لم يطبع. ومنه نسخة في مكتبة المتحف العراقي مكتوبة بالآلة الكاتبة، نقلنا عنها بخطنا نسخة لخزانتنا.

٤ - ونوه السيد ناصر النقشبندي، بثلاث قطع قديمة من المصاحف المكتوبة بالخط الكوفي، مما تحرزه هذه الخزانة^(٩٣).

٥ - مخطوطات مكتبة السيد عباس الحسيني الكاشاني في كربلاء: لحמיד مجيد هدو. صدر منه القسم الأول^(٩٤)، وفيه يصف (١٦٥) مخطوطة.

٦ - وعني سلمان هادي الطعمة، بفهرسة مخطوطات مكتبات كربلاء فنشر في ذلك مقالات ونبدأ بعنوان «الآثار المخطوطة في كربلاء» ظهرت في أعداد شتى من مجلة المكتبة^(٩٥)، وقد استمدّها من كتاب له في هذا الشأن أطلعني على الجزء الأول منه. ولم ينشر.

كركوك

تضم مكتبة مطرانية الكلدان بكركوك، طائفة من المخطوطات الكلدانية تصدى لفهرستها المستشرق فوستي. فصنف فهرساً باللغة الفرنسية ونشره في مجلة الشرق المسيحي الصادرة في رومة سنة ١٩٣٩. وقد وصف المؤلف في هذا الفهرس (٤٩) مخطوطة^(٩٦).

مندلي

في مكتبة الملا جميل بندي الروزياني، التي كانت سابقاً في مندلي (١٢٣) مخطوطة، عندي ثبت بها بخط صاحبها، ولم ينشر.

الموصل

تزخر مدينة الموصل بالمكتبات: في المساجد والمدارس الدينية والمؤسسات الثقافية، وفي البيوتات، مما أهّأ بالدكتور داود الجليبي^(٩٧)، أن ينشر كتاباً عظيم الشأن في ما في تلك المكتبات من كتب خطية وسمه بـ «مخطوطات الموصل»^(٩٨) ذكر فيه الكتب العربية، والمكتوبة بحروف عربية، ما وقف عليه في مدارس الموصل الدينية وجوامعها، ذلك إلى مجاميع ملكها بعض الباحثين والشرأة وغيرهم من أبناء الموصل. بلغ عدد المخطوطات التي تطرق المؤلف لذكرها أو وصفها، قرابة أربعة آلاف مخطوطة مفرقة بين نيف وخمسين خزانة، وهي:

المكتبة	صفحة الفهرست	عدد المخطوطات
المدرسة الأحمدية	٢٢ - ٤٠	٢٦٠
المدرسة الإسلامية	٤١ - ٤٥	٦٨
مدرسة جامع الأغوات	٤٥	١
= جامع الباشا	٤٦ - ٧١	٣٦٨
= جامع بكر أفندي	٧١ - ٧٧	١١٥
= جامع حمو القدو	٧٨ - ٧٩	١٦
= جامع الخاتون	٧٩ - ٧٢	٥٥
= جامع خزام	٨٢ - ٨٤	٢٢
= جامع عبد الله بك	٨٤ - ٨٥	١٩

٩	٨٥	= جامع العراقدة
٦٨	٩١ - ٨٦	= مدرسة الجامع الكبير
٢٨	٩٣ - ٩١	= جامع المحمودين
١١٥	٩٨ - ٩٣	= جامع الحاج حسين بك في جامع السلطان أويس
٣٠٦	١٢٠ - ٩٩	= الحجيات
٣١٧	١٣٩ - ١٢٠	= المدرسة الحسنية
١٣٥	١٤٨ - ١٣٩	= مدرسة الخياط
١٣	١٥٠ - ١٤٨	= الرضواني
٢٦١	١٦٤ - ١٥٠	= عبد الرحمن جلبلي الصائغ
٥٧	١٦٨ - ١٦٤	= المدرسة العبدالية
٥٠	١٧١ - ١٦٨	= العثمانية في جامع الرابعة
٣٠٧	١٨٦ - ١٧١	= المحمدية في جامع الزيواني
٢	١٨٧	= مدرسة مسجد بنات الحسن
٣٢	١٩٠ - ١٨٨	= مسجد محضر باشا
٢٩٥	٢٠٣ - ١٩٠	= الملا زكر (الحاج زكريا)
٣	٢٠٤ - ٢٠٣	= النبي جرجيس
٢١١	٢٢٤ - ٢٠٥	= النبي شيث
٥٣	٢٢٧ - ٢٢٤	= المدرسة النعمانية
٣٧٢	٢٤٧ - ٢٢٧	= مدرسة يحيى باشا
٧	٢٤٩ - ٢٤٧	= مكتبة دار بطيركية الكلدان
٢٣	٢٥٨ - ٢٥٤	= مدرسة النبي يونس
١٨	٢٦١ - ٢٥٩	= من كتب إبراهيم عطار باشا

٦	٢٦٢ - ٢٦١	= أبناء سليمان النائب (محمد ومحمود ومجدي)
١	٢٦٢	= أحمد بك بن أيوب بك الجليلي
١	٢٦٢	= إدريس العمري بن محمد شريف القزاز
٧	٢٦٢	= آل الشربنتجي
١	٢٦٢	= أمين أغوان
٩	٢٦٣	= توفيق النائب
١٩	٢٦٣ - ٢٦٥	= أمين بك بن أيوب بك الجليلي
٩	٢٦٥ - ٢٦٦	= حسيب السعدي
٧٦	٢٦٦ - ٢٨٦	= الدكتور داود الجلبلي
١	٢٨٦	= سعيد بن الحاج حسين آغا آل عبيد آغا
١	٢٨٦	= سعيد الحاج ثابت
٧	٢٨٦ - ٢٨٧	= سليمان بن عبد الحافظ العمري
٢	٢٨٧	= سليمان بك بن عبد الله بك الجليلي
١	٢٨٧	= شريف جلبلي بن الحاج عبد الله زكريا
٢	٢٨٨	= الشيخ طاهر آل سليم بك
٢	٢٨٨	= صديق بن عبد الحافظ
٤	٢٨٨ - ٢٨٩	= ضياء بك بن عبد الرحمن بك آل ياسين المفتي
١	٢٨٩ - ٢٩٠	= طاهر العمري
٥	٢٩٠	= عبد الله بن أحمد آل رئيس العلماء
٦	٢٩٠ - ٢٩٢	= عبد الله بن الحاج علي العمري
١٤	٢٩٢ - ٢٩٣	= عبد الله الجلبلي

١٣	٢٩٤ - ٢٩٣	= عبد الغني النقيب
٤	٢٩٤	= علي بن داود الصائغ
٥	٢٩٤ - ٢٩٥	= كتب فاروق الدملوجي
٦	٢٩٥	= القس سليمان الصائغ
١	٢٩٥	= القس يوسف يعقوب
٣	٢٩٦	= محمد أسعد بن أمين
١	٢٩٦ - ٢٩٧	= محمد علي بن الخليفة
٤	٢٩٧ - ٢٩٨	= محيي الدين أبي الخطاب
٧	٢٩٨	= مصطفى بن محمود العمري
١٩	٢٩٨ - ٢٩٩	= نشأة الفيضي
٢	٢٩٩	= نشأة بك بن عبد الله آل ياسين المفتي

وقد استخرج الدكتور حسين علي محفوظ، من كتاب «مخطوطات الموصول» أسماء المخطوطات المؤلفة باللغة الفارسية، وهي (٢٤٦) مخطوطة^(٩٩).

وحين قدمت بعثة اليونسكو إلى العراق لتصوير المخطوطات المهمة من مكتباته أتيح لها أن تصور (٢٢١) مخطوطة من حملة مكتبات موصلية^(١٠٠).

وهذا ثبت بتلك المكتبات وما صوّر من كل منها:

المكتبة	صفحة الفهرست	عدد المخطوطات
مكتبة آل الخطيب	٦٧	٥
= الأوقاف	٦٨ - ٧٠	٤٠
= مدرسة مريم خاتون	٧١	٣
= الدكتور محمد صديق الجليلي	٧٢	١١
= المدرسة النعمانية	٧٣	٥
= مدرسة الحاج حسين بك	٧٤	٣
= مدرسة الحجيات	٧٥ - ٧٧	٢٦
= جامع الباشا	٧٨ - ٧٩	٢٤
= مدرسة يحيى باشا الجليلي	٨٠ - ٨٢	٣٤
= سعيد الديوه جي	٨٣ - ٨٤	٢٠
= المدرسة الأحمدية	٨٥ - ٨٧	٢٤
= عبد الكريم حديد	٨٨	٢
= جامع النبي شيت	٨٩	٥
= الجامع النوري (الجامع الكبير)	٩٠	٢
= عبد المجيد شوقي البكري	٩١	٧

مكتبة البطيركية الكلدانية:

كان المطران أدى شير - وقد سبق ذكره - قد وضع فهرساً للمخطوطات الكلدانية المحفوظة في مكتبة الدار البطيركية الكلدانية بالموصل^(١٠١)، وعددها يوم ذاك (١١٦) مخطوطة. وقد طبعه باللغة الفرنسية في باريس سنة ١٩٠٧^(١٠٢)، ونسخه اليوم نادرة جداً.

وقد نقل إسحق ميسكو، بمعاونة القس (هو اليوم المطران) يوسف بابانا. وهذا الفهرست إلى العربية، ولم يطبع.

كما عني أيضاً بوصف هذه المكتبة والتنويه ببعض مخطوطاتها في بحثه الموسوم «المكتبة الكلدانية البطيركية بالموصل»^(١٠٣).

ووصف المطران سليمان الصائغ إحدى مخطوطات هذه المكتبة وهي كتاب «الأسياميد» بالكلدانية، كما أتيح له أن ينشر في تلك المجلة، وصفاً لمعجم القس خدر الموصلي.

وضع المطران أسطيفان كجو^(١٠٤) ثبناً بالمخطوطات التي أضيفت إلى هذه المكتبة بعد طبع فهرست أدى شير المنوه به، ويبدأ هذا الثبث بالرقم (١١٧) وينتهي بالرقم (٢٤٧) ولم يطبع.

ثم أضيف إلى المكتبة (٢٢) مخطوطة جاءها من آمد (ديار بكر)، وقد تولى القس توما حنونا، فهرسة هذه المخطوطات سنة ١٩٣٢، ولم يطبع هذا الفهرس.

وفي هذه المكتبة سبع مخطوطات عربية فهرسها الدكتور داود الجليبي^(١٠٥)، على ما سبقت الإشارة إليه.

ثم كلف كل من المطران روفائيل بيد اويد والمطران أسطيفان بابكا وإسحق عيسكو بوضع فهرست جديد متكامل بالمخطوطات البطيركية حين كانت في الموصل؛ فأنجزوا العمل، وكانت النسخة الوحيدة لهذا الفهرست الذي وضعوه، لدى المطران بيد اويد؛ ولكنها أحرقت في حوادث العمادية، حين كان مطراناً للكلدان في تلك البلدة، كما أحرقت سائر مكتبته وكانت حافلة بنفائس الكتب.

مكتبة مطرانية الموصل وكنائسها السريانية:

صنف البطيريك أغناطيوس أفرام الأول برصوم، وقد سبق ذكره، فهرساً بالعربية عن مخطوطات هذه المكتبة ولم يطبع. وكنا وقفنا عليه في حمص سنة ١٩٥٦ حين زيارتنا لمؤلفه هناك. وقد أشار إليه في بعض مؤلفاته^(١٠٦).

المكتبة المركزية في الموصل:

وهي المكتبة العامة الكبرى في الموصل، فيها (٢٠٣) مخطوطات،
عني سعيد الديوه جي بفهرستها ونشر هذا الفهرست سنة ١٩٦٧^(١٠٧).

ويبدو لي أن هذا الفهرست المنشور لا يشمل سائر ما تحويه هذه
المكتبة من مخطوطات، بل يقتصر على ذكر المخطوطات العربية، فإن
أوراقاً بخط الحاج أحمد نيلة، أمين المكتبة السابق، يقول فيها أن عدد
مخطوطات هذه المكتبة (٦٢٢) مخطوطة. وهذا تصنيفها حسب اللغات
المكتوبة بها:

اللغة	عدد المخطوطات
العربية	٢٣٠
التركية	٢٠
الفارسية	٥
الانكليزية	٥
العبرية	٣٦٢
	٦٢٢

مكتبة الدكتور داود الجلبي:

سبقت الإشارة إلى (٧٦) مخطوطة كانت في هذه المكتبة سنة ١٩٢٧
حين فهرسها صاحبها في كتابه «مخطوطات الموصل»^(١٠٨) وقد ازدادت هذه
المخطوطات من بعد ذلك، حتى بلغت (٢٧٥) مخطوطة، عني الدكتور
فيصل دبدوب، بفهرستها سنة ١٩٦٧، وقد نشر هذا الفهرست^(١٠٩).

مكتبة سعيد الديوه جي:

فيها (٢٢٠) مخطوطة، فهرسها صاحبها في فهرس نشره سنة
١٩٦٣^(١١٠) وعندي فهرس بأسماء هذه المخطوطات، نقلته عن أوراق بعث
بها إلي سعيد الديوه جي سنة ١٩٥٦ ويختلف الاثنان من حيث الترتيب.

النجف

لكثير من أدباء النجف وعلمائها عناية ظاهرة بالمخطوطات، حملت علي الخاقاني على أن يضع فهرساً بجملة كبيرة مما فيها من مخطوطات، وقد وقفنا على مسوداته^(١١١).

نشر منه وصفاً لـ (٢٤) مخطوطة انتشرت في بعض مكاتبها، في مجلة الاعتدال^(١١٢)، كما نشر وصفاً لطائفة أخرى من تلك المخطوطات، بعنوان «النوادر المخطوطة في النجف»^(١١٣).

هذا ما يقال عن فهارس مخطوطات النجف بوجه عام، أما فهارس مخطوطات كل مكتبة على انفراد، فستكلم عليها فيما يأتي:

مخطوطات الخزانة الغروية:

وهي خزانة الروضة الحيدرية، وتعرف بمكتبة الصحن الشريف في النجف. كنا قد فصلنا القول في تاريخ هذه المكتبة، في مؤلفنا عن تاريخ مكاتب العراق^(١١٤)، وقد نوهنا في تضاعيف كلامنا به (٢٠) مخطوطة تعد من نوادر مكنونات هذه الخزانة.

وكان كاظم الدجيلي^(١١٥)، طليعة من تصدى للبحث عن مخطوطات هذه الخزانة، فوصف في مجلة «لغة العرب» التي كان يصدرها في بغداد الأب أنستاس ماري الكرملي، طائفة من نفائس مخطوطات هذه الخزانة^(١١٦).

كما وصف في بحثه الموسوم بـ «وصف كتب خزانة الأمير» (١٧) مخطوطة أيضاً^(١١٧). في هذه الخزانة اليوم، زهاء (٥٠٠) مخطوطة عربية، معظمها مصاحف، ومن هذه المصاحف ما كان قديماً جداً مكتوباً على الرق بالخط الكوفي. ومنها ما كتبه أشهر الخطاطين المعروفين في العصور الإسلامية ولهذه المخطوطات ثبت بأسمائها، لم يطبع. ومنه نسخة مطبوعة بالآلة الكاتبة، محفوظة في مكتبة المتحف العراقي، وقد نقلنا عنها نسخة لخزانتنا.

ووضع الدكتور حسين علي محفوظ مقالاً نوّه فيه بـ (٨٢) من مخطوطاتها النادرة وعنوانه «فهرس الخزانة الغروية بالنجف في مشهد أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام»^(١١٨).

وكان الشيخ أغا بزرك، ممن زار هذه الخزانة منذ سنوات بعيدة، فوضع في مخطوطاتها فهرساً لم ينشر^(١١٩).

كما نوّه الشيخ جعفر محبوبه^(١٢٠)، ببعض مخطوطات هذه الخزانة في الفصل الذي عقده عن المكتبة الحيدرية «في كتابه المطبوع عن تاريخ النجف»^(١٢١).

مكتبة آل كاشف الغطاء:

وقفها الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء على مدرسته في النجف. فيها (٦٦٦) مخطوطة. وللمكتبة فهرس يقع في تسعة دفاتر، يشمل المطبوع والمخطوط، رأيته حين زرت المكتبة. ولم يطبع.

وكان علي الخاقاني قد أفرد بحث بعنوان «الآثار المخطوطة في النجف: مكتبة الإمام كاشف الغطاء»^(١٢٢)، وقد وصف فيه (٢٢٣) مخطوطة.

كما ذكر الدكتور حسين علي محفوظ، (٣٣) مخطوطة مما في هذه المكتبة^(١٢٣).

مخطوطات مكتبة آية الله الحكيم العامة:

أنشأها في سنة ١٩٥٧، السيد محسن الطباطبائي الحكيم، في جامع الهندي بالنجف، وكان فيها سنة ١٩٦٢، (١٥٣٦) مخطوطة، عنت إدارة المكتبة بإصدار الحلقة الأولى من فهرست هذه المخطوطات، وهي تقع في مجلد يصف (٤٤) من نوادر هذه المخطوطات^(١٢٤).

ووصف محمد هادي الأميني، أربع مجاميع شعرية نادرة تضمها هذه المكتبة^(١٢٥).

مخطوطات مكتبة السيد محمد البغدادي الحسني النجف:

فهرس محمد هادي الأميني بعضاً من نواذرهما، ولم يتعين عندنا مقدار ما تحويه هذه المكتبة^(١٢٦).

مخطوطات مكتبة محمد السماوي:

أنشأها الشيخ محمد السماوي^(١٢٧)، رأيناها غير مرة، فوجدناها حسنة التنسيق، وفيها نفائس ونوادر، كانت تحتوي على (٤٧٢) مخطوطة، عندي ثبت بها. ولكنها بيعت وتشتت كتبها بعد وفاة صاحبها^(١٢٨).

مخطوطات مكتبة محمد علي البلاغي:

فيها طائفة من المخطوطات، عني محمد علي هادي الأميني بوصف مجموعة رسائل تضم (١٤) مؤلفاً مخطوطاً ما في هذه المكتبة^(١٢٩).

مخطوطات مكتبة محمد علي اليعقوبي:

ذكر حسين علي محفوظ، خمسة كتب خطية^(١٣٠) مما احتوته هذه المكتبة التي آلت بعد وفاة صاحبها في سنة ١٩٦٥، إلى نجله الشيخ موسى اليعقوبي.

مخطوطات مكتبة صالح الجعفري:

قوامها (١٢١) مخطوطة. عندي ثبت بها مكتوب سنة ١٩٦٠، ولم يطبع.

كلمة ختامية:

ولنا أن نقول قبل أن ننفض يدنا من هذا البحث، أن في العراق مكتبات تحتضن كميات وافرة من المخطوطات التي تنتظر من يفهرسها ويعرف الناس مكنوناتها على ما أسلفنا.

في بغداد والنجف وكربلاء والموصل والبصرة وكركوك وأربيل وغيرها من المدن، مخطوطات ينبغي الالتفات إليها. وليس من سبيل لتيسير هذا الأمر وتقريبه من جمهرة العلماء والمتتبعين إلا بالإقبال على فهرستها فهرسة علمية، ثم العناية بنشر تلك الفهارس الموضوعية فيها.

إن ما مرّ ذكره في تضاعيف هذا البحث من فهارس وأثبتات، ليس كله من غرار واحد، من حيث الدقة العلمية وصحة المعلومات التي أدرجت فيها. فهي تتفاوت تفصيلاً وإيجازاً، وتختلف ضبطاً واضطراباً.

كوركيس عواد



هوامش البحث

- (١) مجلة المجمع العلمي العربي (٢١) دمشق ١٩٤٦ (ص ٥٣٨ - ٥٤٣).
- (٢) المعارف. مجلة أصدرها محمد حسن آل الطالقاني (النجف ١٩٦٠) العددان ٢ - ٢، ص ٣١ - ٣٥٣.
- (٣) فصلنا القول في تلك الخزائن القديمة الغابرة، في كتابنا «خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة». (مطبعة المعارف - بغداد ١٩٤٨، ٣٤٦ ص).
- (٤) نوه بشيء مما نشر من فهارس المخطوطات في العراق، في الصفحات ٣٨ و ٣٩ و ٥٢.
- (٥) VAJDA (GEORGES); DURANTET (MADELINE): REPER-TOIRE DES CATALOGUES ET INVENTAIRES DE MANUSCHITS ARABES. (PARIS, 1949, 48.r).
- وقد نوها ببعض الفهارس العراقية، في الصفحة ٢٤ الرقم ١٨٧ والصفحة ٣٦ الرقم ٢٢ مه ٢٥.
- (٦) HUISMAN (A.J.W.), LES MANUSCRITS ARABES DANS LE MONDE: UNE BIBLIOGRAPHIE DES CATALOGUES. (LEIDEN 1967: 99 p).
- وقد نوه بما وقف عليه من فهارس عراقية، في الصفحات ٤٤ - ٤٦.
- (٧) BROCKELMANN (CARL); GESCHICHTE DER ARABISC-CHEN LIT-TERATUR. (5VOLS, LEIDEN, 1937. 1949).
- (٨) SESGIN (FUAT), GESCHICHTE DES ARABISCHEN SCHC-HRITTUMS. (Vol. I., LEIDEN, 1967).
- (٩) العرفان: (٢٧) صيدا، ١٩٣٧، ص ٢٣٣.
- (١٠) الغري (٨) النجف ١٩٤٦ - ١٩٤٧ (ص ٥٩ - ٦٠، ٩٣ - ٩٤، ١٢٣ - ١٢٤، ١٤٩، ١٦٩ - ١٧٠).
- (١١) مجلة معهد المخطوطات العربية. (١) القاهرة ١٩٥٥ (٣٦٣ - ١٦٩). المراجعة في الصفحة ١٦٥ - ٦٦.
- (١٢) مخطوطات المكتبة العباسية في البصرة. (مجلة المجمع العلمي العراقي: ٨ (١٩٦١) ص ٢١٨ - ٣١٣، ٩ (١٩٦٢) ص ٣٦٥ - ٤٢٨). وقد أفرد ذلك في رسالتين طبعتا في مطبعة المجمع العلمي العراقي. (بغداد ١٩٦١ - ١٩٦٢، ٩٨ و ١٣٦ ص).
- (١٣) فهرست المخطوطات العربية المصورة في العراق من قبل اليونسكو. (مطبوع بالرونيو - بغداد ١٩٦٨، ص ٦١ - ٦٢).
- (١٤) مجلة معهد المخطوطات العربية (١: ١٦٦ - ١٦٧).
- (١٥) أصدرت هذه المكتبة ثبناً مطبوعاً بالرونيو، نوهت فيه بمخطوطات هذه المجموعة المقتناة.

- (١٦) فهرست المخطوطات العربية المصورة في العراق. (ص ٦٥).
- (١٧) فهرست المخطوطات العربية في خزانة المكتبة المركزية لجامعة البصرة (البصرة - تموز ١٩٦٨، ١٨ ص).
- (١٨) فهرست المخطوطات العربية المصورة. (ص ١٩٦٣).
- (١٩) مجلة معهد المخطوطات العربية (١ : ١٦٨ - ١٦٩).
- (٢٠) فهرست المخطوطات العربية المصورة في العراق. (ص ٦٤).
- (٢١) أفردناه في رسالة طبعت في بغداد سنة ١٩٥٥.
- (٢٢) توفي سنة ١٩٦١.
- (٢٣) مجلة المجمع العلمي العراق (٣ (١٩٥٥) ص ٤٠٥ - ٤٢١، ٤ (١٩٥٦) ص ٢٥١ - ٢٦٤).
- (٢٤) ديوان أبي الأسود الدؤلي. (بغداد ١٩٥٤ - الصفحة ف - ر من المقدمة).
- (٢٥) توفي سنة ١٩٦٢.
- (٢٦) ديوان العرجي. (بغداد ١٩٥٦. الصفحة ٤٠ - ٤٤ من المقدمة).
- (٢٧) HOENERBACH (WILHIM), UBER EINIGR ARABISHE HANDS-CHRIFTN INBAGDAD UND TETUAN, (ORIENS; VIII; LEIDEN 1955; PP.96-119).
- (٢٨) عواد (كوركيس): مخطوطة في تاريخ واسط مدينة الحجاج. (الأخبار الأسبوعية مجلة كان يصدرها روفائيل بطي في بغداد). الأعداد ٧ و ٨ و ٩ الصادرة في ٨ و ٢٢ تشرين الأول و ٥ تشرين الثاني ١٩٣٨ ص ١٨ - ١٩، ١٧ - ١٨، ١٨ - ١٩. وقد لخصنا وصف هذه المخطوطة، والنسخة المصورة عن الأصل، في مقدمة طبعنا لتاريخ واسط (بغداد ١٩٦٧، ص ٥ - ٩ من المقدمة).
- (٢٩) فهرست المخطوطات العربية المصورة في العراق. (ص ١ - ١٢).
- (٣٠) مجلة (الأقلام)، (بغداد: آذار ١٩٧٠، الجزء ٦، ص ٦٤ - ٨٠).
- (٣١) نشرته مديرية الآثار العامة. (مطابع دار الجمهورية - بغداد ١٩٦٩، ١٩٠ ص - ١٦ لوحاً).
- (٣٢) فهرست مخطوطات خزانة يعقوب سركيس المهداة إلى جامعة الحكمة ببغداد. (مطبعة العاني - بغداد ١٩٦٦، ص ٢٢٤).
- (٣٣) فهرست مجموعة مخطوطات يعقوب سركيس في مكتبة جامعة الحكمة. (مطبع بالرونيو، بغداد ١٩٦٣، ١٢ ص).
- (٣٤) مجلة «الرسالة الإسلامية» (٤ (بغداد ١٩٧١) العدد ٣٨ - ٣٩، ص ٩٠).
- (٣٥) سومر (٣ (١٩٤٧) ص ٢٣٦ - ٢٦٩).
- (٣٦) سومر (٤ (١٩٤٨) ص ١١٣ - ١٣٥).
- (٣٧) سومر (٤ (١٩٤٨) ص ٢٢٠ - ٢٥٣).
- (٣٨) AL-ANDALUS. (XIII, (19-48); P.227-228, XIV (1949), P. 219-22. (38).
- (٣٩) توفي سنة ١٩٥٩.

- (٤٠) تولت نشره مديرية الأوقاف العامة. (مطبعة العاني - بغداد ١٩٥٣، ٣٢٩ ص).
- (٤١) مطبعة المعارف - (بغداد ١٩٦٥، ٤١٢ ص).
- (٤٢) مطبعة الآداب - (النجف ١٩٦٧، ٣٤٣ ص).
- (٤٣) يستثنى من ذلك ثلاث مخطوطات: إحداها مصوره أهدها أحمد تيمور باشا. والثانية صورت عن مخطوطة في مكتبة كوبرلي باستانبول، والثالثة أهدها مكّي الجميل ببغداد.
- (٤٤) فهرست المخطوطات العربية المصورة في العراق. (ص ١٣ - ١٥).
- (٤٥) مجلة «الأفلام» (١) (بغداد ١٩٦٥) الجزء ٧، ص ٨٥ - ٩٦.
- (٤٦) مجلة «المكتبة» التي تصدرها مكتبة المشي ببغداد. (٧ (١٩٦٧) العدد ٥٧، ص ٢٢ - ٢٣، ٨ (١٩٦٧ - ١٩٦٨) العدد ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٣ وصفحاتها على التوالي ٢٢ - ٢٣، ٢٤ - ٢٥، ١٦ - ١٧، ٢٨ - ٢٩، ٢٠ - ٢١، ٩ (١٩٦٨) العدد ٦٥، ٦٦، ٦٧ وصفحاتها على التوالي ٣٤ - ٣٥، ٣٠ - ٣٢، ١٦ - ١٧، ١٠ (١٩٧٠) العدد ٦٨ ص ١٦ - ١٧).
- (٤٧) فهرست المخطوطات العربية المصورة (ص ٢٣ - ٢٤).
- (٤٨) توفي سنة ١٩٤٧.
- (٤٩) نشرة الأحد. (المجلدات ٨ و ٩ و ١٠ الصادرة سنة ١٩٢٩ - ١٩٣١).
- (٥٠) المخطوطات العربية في معهد الدراسات الإسلامية العليا ببغداد. تقديم الدكتور صالح أحمد العلي. (مطبوع بالزيروكس. بغداد. ص ١ - ٥٢).
- (٥١) المصدر السابق. (ص ٥٣ - ٧٧). وقد توفي صاحبها سنة ١٩٧١.
- (٥٢) المصدر السابق. (ص ٧٨ - ١١١).
- (٥٣) المصدر السابق. (ص ١١٢ - ١٢٥).
- (٥٤) المصدر السابق. (ص ١٢٦ - ١٢٩).
- (٥٥) نشرته مكتبة تلك الكلية بالرونيو. (بغداد ١٩٧٠، ١٦ ص).
- (٥٦) توفي سنة ١٩٢٤.
- (٥٧) قلنا أنه توفي سنة ١٩٥٩.
- (٥٨) توفي سنة ١٩٥٨.
- (٥٩) مجلة المجمع العلمي العربي (٨ (١٩٢٨)، ص ٤٤٩ - ٤٥٣).
- (٦٠) مجلة «البيان» (٣ النجف ١٩٤٩)، ص ٤٠٧، ٤٣٣ - ٤٣٤.
- (٦١) مجلة معهد المخطوطات العربية (٤ (١٩٥٨) ص ٢٠٠ - ٢٠٧).
- (٦٢) توفي سنة ١٩٧١.
- (٦٣) في مجلة «الرسالة الإسلامية» (بغداد ١٩٧١) العدد: ٣٨ - ٣٩، ص ٨٨ أن ما في هذه المكتبة من مخطوطات، يبلغ (٧٠٠٠) مخطوط.
- (٦٤) مجلة معهد المخطوطات العربية (٤)، ص ٣ - ٦ (١٩٠٨)، ص ١٩٥ - ٢٠٠.
- (٦٥) توفي سنة ١٩٦٥.

- (٦٦) توفي سنة ١٣٧٤هـ.
- (٦٧) المكتبة (١٠ (١٩٧٠)، العدد ٧٣، ص ٣ - ٦).
- (٦٨) توفي سنة ١٩٧٥.
- (٦٩) توفي سنة ١٩٦٥.
- (٧٠) الغري (٢ (١٩٤٠ - ١٩٤١) ص ١٢٢٧ - ١٢٣٠، ١٢٤٨ - ١٢٥١).
- (٧١) بلدة تليق: ماضيها وحاضرها. (مطبعة الجمهورية - الموصل ١٩٦٩، ص ٨٤ - ٨٥).
- (٧٢) ولد في شقلاوة من أعمال أربيل سنة ١٨٦٧، وقتل في سعرت سنة ١٩١٥.
- (٧٣) JOURNAL ASIATIQUE. (MAI-JUIN 1906, PP. 479-512, ETJU- ILLETA- OUT PP. 22-56.
- (٧٤) SCHER (MGR. ADDAI), NOTCE SUR LES MANUSCRITS SYRIAQUES CONSERVES DANS LA BIBLIOTHEQUE DU COUVENT DES CHALDEENS DE NOTRE-DANS-DES-SEMENCES. (PARIS, 1906, 65P.).
- (٧٥) توفي سنة ١٩٤٨.
- (٧٦) VOSTE (5J), CATALOGUE DE LA BIBLIOTHEQUE SYROCHALDEENNE DU COUVENT DE NOTRE-DAME SEMENCES. (ROME, 1939; 143P.).
- (٧٧) عواد (كوركيس): أثر قديم في العراق: دير الريان هرمزد. (الموصل ١٩٣٤، ص ٥٩ - ٥٨).
- (٧٨) توفي سنة ١٩٦٦.
- (٧٩) اللؤلؤ النضيد في تاريخ دير مار بهنام الشهيد. (مطبعة الإتحاد الجديدة - الموصل ١٩٥١، ص ١٠٢ - ١٠٦).
- (٨٠) توفي سنة ١٩٥٧.
- (٨١) اللؤلؤ المنشور في تاريخ العلوم والآداب السريانية (حمص - ١٩٤٣، ص ١٢ الرقم ٢٥).
- (٨٢) الذريعة إلى تصانيف الشيعة للشيخ أغا بزرك (٦٩ ٤٠٢).
- (٨٣) الذريعة (٦٩ ٤٠٤).
- (٨٤) الذريعة (٦٩ ٤٠٢).
- (٨٥) مجلة معهد المخطوطات العربية (٤ (١٩٥٨) ص ٢١٠ - ٢١٤).
- (٨٦) VOSTE (J), CATALOGUE DES MANUSCRITS SYRO-CHALDEENS CONSERVES DANS LA BIBLIOTHE EPISCOPALE D AQTA, IRAQ. (ORIENTALIA CHRISTIANA PERIODICA, 1939, PP. 368-406).
- (٨٧) قره قوش في كفة التاريخ (مطبعة الأديب - بغداد ١٩٦٢، ص ٧٩ - ٨١، ١٠٥ - ١٣٦).
- (٨٨) اللؤلؤ النضيد. (ص ١٠٦ - ١١٣).
- (٨٩) مجلة معهد المخطوطات العربية (٤ (١٩٥٨)، ص ٢٣٨ - ٢٥٨).

(٩٠) الذريعة (١٩ ٥٦ الرقم ٢٨٦). ومقدمة تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: لحسن الصدر (ص ٢٢).

(٩١) مجلة معهد المخطوطات العربية ٦ (١٩٦٠)، ص ١٥ - ٥٨.

(٩٢) مجلة المجمع العلمي العراقي ٥ (١٩٥٩)، ص ١٦ - ٣٧، المراجعة ص ١٩ - ٣١.

(٩٣) سومر ١٢ (١٩٥٦)، ص ٣٣ - ٣٧.

(٩٤) مطبعة أهل البيت - كربلاء، ١٩٦٦، ٣٠٥ ص.

(٩٥) المكتبة ٣ (١٩٦٢ - ١٩٦٣) العدد ٧ و ٨ و ٩ و ١٠، وصفحاتها على التوالي ٣٠ -

٣١، ٣٨ - ٣٩، ٣٨ - ٣٩، ٣٤ - ٣٥، ٤ (١٩٦٣ - ١٩٦٤) العدد ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و

٣٦ و ٣٧ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١ و ٤٢ وصفحاتها على التوالي ٣٤ - ٣٦، ٢٧، ٢٦ - ٢٨،

٤٤ - ٤٥، ٢٤ - ٢٥، ٣٤ - ٣٥، ١٨ - ١٩، ١٧، ٥ (١٩٦٤ - ١٩٦٥) العدد ٤٣ و

٤٤ و ٤٥ وصفحاتها على التوالي ١٤ - ١٥، ٨ - ٩، ١٦ - ١٧، ٦ (١٩٦٥ -

١٩٦٦)، العدد ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ وصفحاتها على التوالي ٢٠ - ٢١، ٦ - ٧،

١٦، ١٤ - ١٥، ٢٤، ٧ (١٩٦٦) العدد ٥١، ص ٢٦ - ٢٧.

(٩٦) VOSTE (J), CATALOGUE DES MANUSCRITS-SYRO CHALDEENS CON-

SERVES DANS LABDE L'ARCHEV CHE CHALDEEN DE KERKOUK,

IRAS (ORIENTALIA CHRISTIANA PERODIC, 1939; PP. 72-102).

(٩٧) توفي سنة ١٩٦٠.

(٩٨) مخطوطات الموصل: وفيه بحث عن مدارسها الدينية ومدارس ملحقاتها. (مطبعة

الفرات - بغداد ١٩٢٧، ٣٨٩ ص).

(٩٩) كتب خطى فارسي در موحل (طهران ١٩٥٣، ٦ ص).

(١٠٠) فهرست المخطوطات العربية المصورة في العراق (ص ٦٧ - ٩١).

(١٠١) لما كان مقر الدار البطريركية في الموصل، كانت المكتبة في الموصل تبعاً لذلك.

وبانتقالها إلى بغداد في سنة ١٩٦٠، انتقلت المكتبة إليها أيضاً.

SCHER (ADDAI), NOTICE SUR LES MANUSCRITS SYRAQUES CON-

SERVES DANS LA BIBLIOTHEQUE DU PATRIARCAT CHALDEN DE

MOSSOUL. (PARIS, 1907, 38P).

وهو مستل من مجلة:

REVUE DES BIBLIOTHEQUES; (VOL. 17; PARIS, 1907; PP. 237: 60).

(١٠٢) النجم ١١ (الموصل ١٩٥١)، ص ٢١٧ - ٢٢١، ٣٩٩ - ٤٠٢، ٦٠١ - ٦٠٧.

(١٠٣) النجم ١٠ (١٩٣٨)، ص ٢ - ٤.

(١٠٤) توفي سنة ١٩٥٣.

(١٠٥) مخطوطات الموصل. (ص ٢٤٧ - ٢٤٩).

(١٠٦) اللؤلؤ المنشور. (ص ١٢ الرقم ٢٤).

(١٠٧) الديوه جي (سعيد): مخطوطات المكتبة المركزية في الموصل. (بغداد ١٩٦٧، ٣٦

ص). وهو مستل من «مجلة المجمع العلمي العراقي»، المجلد ١٥.

- (١٠٨) ص ٢٦٦ - ٢٨٦.
- (١٠٩) الدكتور داود الجليبي: حياته ومخطوطات خزائنه (مجلة معهد المخطوطات العربية، ١٣ (١٩٦٧)، ص ٣ - ٤٠).
- (١١٠) مخطوطات خزانة سعيد الديوه جي. (مجلة معهد المخطوطات العربية، (١٩٦٣) ص ٢٠٣ - ٢٣٠) وقد أفرد في رسالة.
- (١١١) دليل الآثار المخطوطة في العراق: لعلّي الخاقاني. وقد سجل فيه كثيراً من مخطوطات النجف والبصرة وبغداد والموصل. يقع في ثمانية أجزاء. أنظر مجلة المكتبة (٢ (١٩٦١)، العدد ٥، ص ١٠).
- (١١٢) الاعتدال (٥ النجف (١٩٣٨ - ١٩٤١)، ص ٥٧، ١١٣، ١٧٦، ١٧٣، ٤٧٣، ٥٣٣، ٥٧٤، ٦ (١٩٤٦)، ص ٧٥، ١٥٥، ٢٣٨).
- (١١٣) الغري، النجف ١٩٤٠ - ١٩٤١ (ص ١٢٦٣، ١٢٩٧، ١٣٣٧، ٣ (١٩٤٢) ص ١٨٧، ٢١١، ٢٨٨، ٤٣٢، ٥ (١٩٤٣ - ١٩٤٤)، ص ٧٤٢).
- (١١٤) عواد (كوركيس): خزائن الكتب القديمة في العراق. ص ١٣٠ - ١٣٧.
- (١١٥) توفي سنة ١٩٧٠.
- (١١٦) لغة العرب (٣ (١٩١٤) ص ٥٩٣ - ٦٠٠).
- (١١٧) لغة العرب (٤ (١٩١٤) ص ٤٠ - ٤٥).
- (١١٨) مجلة معهد المخطوطات العربية (٥ (١٩٥٩)، ص ٢٣ - ٣٠).
- (١١٩) المصدر السابق. ص ٢٣.
- (١٢٠) توفي سنة ١٩٥٧.
- (١٢١) محبوبة (جعفر): ماضي النجف وحاضرها. (١ (ط ٢٩ النجف - ١٩٥٨)، ص ١٤٨ - ١٥٢).
- (١٢٢) الأقلام (١ (بغداد ١٩٦٤ - ١٩٦٥) الجزء الثاني، ص ٩٤ - ١٠٦، الجزء الرابع. ص ٩٨ - ١٠٧، الجزء السادس. ص ٩٩ - ١١٢، الجزء الحادي عشر، ص ١٣٤ - ١٥٠).
- (١٢٣) مجلة معهد المخطوطات العربية (٤ (١٩٥٨) ص ٢٠٧ - ٢١٠).
- (١٢٤) من نوادر مخطوطات آية الله الحكيم العامة. (مطبعة النجف - ١٩٦٢، ١٥٨ ص).
- (١٢٥) المكتبة (٤ (١٩٦٣) العدد ٣٧، ص ٣٤ - ٣٦).
- (١٢٦) مخطوطات مكتبة آية الله السيد محمد البغدادي في النجف الأشرف. (مطبعة القضاء - النجف ١٩٦٤، ١٨٩ ص).
- (١٢٧) توفي سنة ١٩٥٠.
- (١٢٨) اقتنت مكتبة المتحف العراقي، في حياة صاحبها، سنة ١٩٤٩، جملة مخطوطاتها.
- (١٢٩) المكتبة (العدد ٥٢ - ص ١٠، العدد ٥٣ - ص ١٢ - ١٣، العدد ٥٤ - ص ١٤ - ١٥).
- (١٣٠) مجلة معهد المخطوطات العربية (٤ (١٩٥٨)، ص ٢١٤ - ٢١٥).

العمل في التراث: الاتجاهات والغايات

د. بشار عواد معروف

إن العاملين في إحياء التراث العربي أنواع: فيهم الأكاديمي البار، والعالم المتمكن من علمه، وفيهم الموظف والمتكسب لعيشه من هذه «المهنة» التي تدر عليه شيئاً من المال.

وعلم تحقيق النصوص ليس بدعاً ولا جديداً على الثقافة العربية؛ فمئات المخطوطات المتقنة اعتنى بها العلماء وقابلوا بين نسخها، واستخرجوا من كل ذلك أصح نسخة مطابقة جهد المستطاع لما كتبه المؤلف.

ويكفي أن أشير إلى تعليقات العلماء على كثير من النسخ ومقابلتها بنسخ أخرى، والإشارة إلى فروق النسخ في حواشي النسخ الخطية، وعنايتهم الدائمة بخطوط العلماء المتقنة عند المقابلة والاقتباس، فكان العلماء المتقنون يحاولون جهد استطاعتهم أن يعتمدوا المصدر المكتوب بخط مؤلفه، أو أن يكون توقيعه عليه للتدليل على صحة النسخة، أو تكون النسخة بخط عالم متقن ثقة، من نحو قول الذهبي مثلاً: «قرأت بخط الكندي في تذكرته» و«نقلت هذا وما قبله من خط أمين الدين محمد بن أحمد بن شهيد، قال: وجدت بخط عبد الغني بن سعيد الحافظ فذكر ذلك»، و«قرأت بخط الضياء» و«قرأت بخط ابن نقطة»، و«قرأت بخط ابن مسدي» و«وجدت بخط السيف بن المجد»... إلخ^(١).

كما يتعين علينا الإشارة إلى نموذجين من «تحقيق النصوص» عند علمائنا الأقدمين للدلالة على انتشار هذا العلم، ومعرفة العلماء به، وعنايتهم بتفاصيله وأأسسه.

أولهما: «موطأ» مالك برواية الليثي، نسخة جمال الدين محمد بن يوسف، المعروف بابن مسدي الأندلسي الغرناطي، نزيل مكة المكرمة ودفنها (٥٩٩ - ٥٦٣هـ).

عُني ابن مسدي بالموطأ؛ فأخذه عن العديد من شيوخه ببلاد شتى وأسانيد كثيرة، وقابل بين نسخه، وعمل لنفسه منه نسخة محققة مدققة مستندة إلى العديد من الروايات، ورمز لكل رواية من الروايات التي أخذها عن شيوخه برمز معين ذكره في صدر نسخه، ثم صار يحدث بها^(٢).

وثانيهما: قيامُ اليونيني (ت ٦٥٨هـ) وابن مالك (ت ٦٧٢هـ) بجمع عدة روايات لصحيح البخاري، والمقابلة بينها، وإعطاء رمز لكل رواية منها، وإثبات الاختلافات بينها، وعرفت هذه النسخة بالنسخة اليونينية التي تعد أفضل نسخة محققة من «صحيح البخاري».

على أن همم المتأخرين من علماء الأمة فترت، وقلت عنايتهم بهذا الشأن في الأغلب الأعم، إذا استثنينا ما أخرجته دار الطباعة ببولاق التي اعتاد مصححوها - وهم من كبار العلماء - أن يذكروا أسماءهم في أواخر مطبوعاتهم بتواضع واستحياء، مع كونهم من كبار المحققين المتقنين.

وفي القرن التاسع عشر كانت حركة الاستشراق قد خَطَّت خطواتٍ واسعة في خدمة النص التراثي العربي، فنشرت العديد من الكتب التراثية العربية نشرات علمية متقنة، نذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر - المكتبة الجغرافية العربية، والمكتبة الأندلسية، وتاريخ الطبري، وتاريخ ابن الأثير، وتاريخ اليعقوبي، وتاريخ المسعودي، وتاريخ أبي الفدا، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، وغيرها من الكتب التي يصعب حصرها وتعدادها لكثرتها.

وقد أفاد عدد من العلماء من هذه الطرائق العلمية، وساروا على هذا

المنهج، فكانت تحقيقاتهم متقنة، أضافوا بتحقيقها جديداً إلى معرفة، وبرز فيها الجهد المستند إلى المناهج العلمية والمعرفة بما يقدمونه، وكان زملاؤهم من المحققين والباحثين يتلقونها بالنقد المنصف، ويتعقبون ما يتسرب إلى أعمالهم من بعض الأخطاء المتأتية عن سوء قراءة أو غلط طبعي، فيتقبله العلماء المحققون بخلق العلماء، وينوه بما استدرك عليه^(٣).

وستعنى هذه الورقة بطبقة العاملين في التراث من الجادين المحيين له دون الداخلين فيه وهم ليسوا من أهله، وهم كثر في هذه الأيام.

ولا بد لي من الإشارة إلى أن بدء الحركة التحقيقية الجادة قد صاحبها ظهور نشرات ودراسات في أصول تحقيق النصوص، مثل تلك التي أصدرها برجستراسر، ومصطفى جواد، وعبد السلام هارون، وغيرهم. وكان من حسن صنيع «معهد إحياء المخطوطات العربية» أن بادر إلى اجتماع ببغداد لوضع المنهج الموحد لتحقيق النصوص، شارك فيه كبار المحققين من الوطن العربي، وتُوِّج بإصدار «أسس تحقيق التراث»، وكانت اللجنة برئاسة شيخنا علامة العراق محمد بهجت الأثري، وكنت نائباً لرئيسها.

لقد أثرت هذه النشرات والدراسات في كثير من الدارسين للتراث، ووضعت نوعاً من الأسس العامة لتحقيق النصوص، غالباً ما كان الباحثون الجادون يلتزمون بها.

وقد تطور الأمر، فصار علم تحقيق النصوص يُدرّس في المعاهد والجامعات، وفتحت في بعض الجامعات الأقسام العلمية والمعاهد الخاصة بدراسة هذا العلم والعناية به؛ ما جعل التحقيقات الجادة تجد طريقها بين هذا الكم من النشر غير الملتمزم.

ولا بد من الإشادة هنا بالدور المتميز الذي يقوم به معهد المخطوطات العربية في تدريب عشرات المحققين تدريباً علمياً وعملياً، وتهيئة الكوادر العلمية بهذا الشأن لتحمل الأمانة.

ومنذ بدء حركة تحقيق التراث كان هناك نوع من الانتقائية في الكتب

المحققة؛ نظراً لضخامة هذا التراث غير المحقق؛ فكان المحقق غالباً ما يحقق كتاباً تتوفر نسخه الخطية في بلده، وخصوصاً قبل شيوع سهولة التصوير، كما يلاحظ شهرة الكتاب، والأهمية، التي يراها المحقق لهذا الكتاب بمنظاره هو.

وكان في هذه الحركة توجهات إقليمية في كثير مما ينشر؛ ومرد ذلك إلى عوامل كثيرة لعل من أبرزها:

١ - اتصال موضوع المخطوط بذلك البلد، فقد عني المصريون مثلاً بنشر الموسوعات الكبرى الخاصة بمصر، مثل كتاب «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)، وكتاب «السلوك» للمقريزي (ت ٨٤٥هـ)، و«الخطط» له، وغيرها.

وعُني الشاميون بنشر «تاريخ دمشق» للحافظ ابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، وعُنت مكتبة المشنى ببغداد بنشر «تاريخ الخطيب البغدادي».

في حيث أن المغاربة كانوا أكثر إقليمية في نشر التراث؛ إذ عُنوا عناية بالغة بالفقه المالكي المنتشر في بلادهم، وفي نشر التواريخ الخاصة بهم، وقلما وجدنا عناية لهم بغير هذا التراث، وتبعته في ذلك دور النشر المغربية، وأنا واجد إلى يوم الناس هذا أن دار الغرب الإسلامي تُفَضِّل في نشراتها ما يتصل بالمغرب والأندلس على غيرها من الكتب.

٢ - توفر المخطوطات في ذلك البلد وخصوصاً قبل شيوع سهولة التصوير، ونجد هذا واضحاً في كثير مما نشر في البلاد المصرية، وذلك لأنها كان اعتمادها على المخطوطات المتوفرة في مكتباتها، ولا سيما دار الكتب المصرية والمكتبة الأزهرية ومكتبة البلدية بالإسكندرية.

٣ - ومن ذلك انتهاء المؤلف إلى ذلك البلد؛ فقد عني المصريون مثلاً بنشر تراث علمائهم، مثل مؤلفات: النُّوْبَرِي (ت ٧٣٣هـ)، والمقريزي، وتاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ)، والسخاوي (ت: ٩٠٢هـ)، والسيوطي (ت: ١١هـ)، وغيرهم كثير.

٤ - ولعل أكثر الأمور المعبرة عن النظرية في تحقيق التراث هو قيام كل قطر بتحقيق القسم الخاص به، من كتاب «خريدة القصر» للعماد الأصبهاني (ت ٥٩٧هـ)، فقد قام شيخنا الأثري بتحقيق القسم العراقي، وقام الدكتور شكري فيصل بتحقيق القسم الشامي، وقام المصريون بطبع القسم الخاص بهم، وكذا فعل المغاربة، وأخيراً قام الإيرانيون بتحقيق القسم الخاص بالعجم.

وقد أسهمت الانتماءات الفكرية في نشر كتب ذات طابع معين:

- فقد عُنت القارة الهندية بنشر كتب المذهب الحنفي خاصة، ولا سيما الموسوعات منها مثل «المحيط البرهاني» و«إعلاء السنن» و«نصب الراية»، ونحوها من الكتب الضخمة، كما عنوا بنشر كتب الحديث ورجاله؛ نظراً لانتشار العناية بالحديث في تلك البلاد، وتمسكهم به رواية ودراية، و«سنن البيهقي» و«مستدرك الحاكم» و«تاريخ البخاري الكبير» و«الجرح والتعديل» و«إكمال ابن ماکولا» و«أنساب السمعاني» و«تهذيب التهذيب» لابن حجر، و«التقريب» له أيضاً... إلخ.

- وفي العراق وبلاد الشام: نشط السلفيون بنشر كتب ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، فقد أثبتت المراسلات بين علامة العراق محمود شكري الألوسي وعلامة الشام جمال الدين القاسمي أن جهوداً مضيئة قد بذلت لجمع مخطوطات ابن تيمية وبقية رجالات السلف لنشرها مع ضيق ذات اليد يومئذ، وقد سبقوا في ذلك الدول ذات الاتجاه السلفي في هذا المضمار^(٤).

- وحينما توسعت موارد المملكة العربية السعودية قادت حملة واسعة لتحقيق كتب هذا الاتجاه ونشرها، ثم توزيعها مجاناً على المؤسسات وكثير من الأفراد.

- وقامت دولة قطر بنشر كتب المذهب الحنبلي، كما قام بعض حكام الإمارات بالتعاون مع المغاربة بنشر كتب المذهب المالكي.

وعمد الصوفية إلى نشر كتب التصوف، وكذا فعل بعض أعوان المعتزلة.

- أما الشيعة فقد اجتهدوا منذ وقت مبكر في نشر تراثهم؛ فنشطت مطابع النجف وقم وبغداد في ما بعد بنشر كثير من التراث الشيعي في العقيدة والفقه والرجال، واقتصروا على ذلك في كثير من الأحيان.

- عناية الجامعات ومؤسسات البحث العلمي بالتراث وتحقيقه ومنح الشهادات العليا فيه (ماجستير ودكتوراه)، ما جعل «الاختصاص» في تحقيق نوع معين من كتب التراث يواكب هذه المرحلة المهمة، ومن ثم وجدنا من يختص بنشر كتب النحو، وآخر في البلاغة، وثالث في اللغة، أو الشعر، ونحو ذلك.

وقد أسهمت الدراسات الدينية في بعض البلدان (مثل المملكة العربية السعودية - جامعة محمد بن سعود والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وغيرهما) إلى نهضة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في نشر كتب الحديث ومجموعاته وأجزائه ورجاله.

- وشهد الأزهر مرحلة تجلّى فيها تحقيق كثير من كتب الفقه وأصوله، وأسهمت الجامعات المصرية وغيرها من الجامعات العربية أيضاً بنشر الكتب التاريخية والجغرافية والأدبية حسب اختصاص كل قسم منها.

- وكان لإنشاء مراكز إحياء التراث العربي الدور البارز في نشر الكتب العلمية، مثل كتب الحساب والرياضيات والميكانيكا والزراعة، وغيرها، وعرف العالم أول مرة اختصاصيين حقيقيين في نشر الكتب العلمية، ولعلّ ذكر العلامة المصري الأصل رشدي راشد وما حققه من إنجازات رائعة في نشر الكتب الرياضية هو خير مثال يمكن أن يشير إلى أهمية الاختصاص في نشر التراث.

ومن باب الاختصاص أيضاً أن يتوجه المحققون الجادون إلى حقل معين من حقول المعرفة التراثية؛ فنرى بعضهم يتخصص بتحقيق كتب

التراجم، وآخر يختص بكتب التاريخ، وثالث يختص بحقبة معينة يتمرس فيها فيتعرف على أعلامها وأماكنها وطبيعة المؤلفات فيها، وصلة بعضها ببعض ومدى الأصالة في ذلك، فيكون خلال عمله الدؤوب على مدى سنوات متطاولة أكثر قدرة على تمثيلها وحل بعض مشكلاتها، وتبين موضع الأصالة في بعضها دون بعضها الآخر.

ولسبب ما من الأسباب قد يعنى محقق ما بشخصية تراثية من الشخصيات، فيتوجه بكليته إليه، ويختص بكتبه (د. بشار وعنايته بالذهبي وكتبه، أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري وعنايته بابن حزم وتراثه).

ومما يؤسف عليه أن العاملين في التراث غالباً ما يصبحون أسارى للشخصيات أو الكتب التي يعملون عليها؛ فيتأثرون بأفكارها، ويدافعون عنها ولا يرون فيها خطأ أو اعوجاجاً! وهو أمر يحتاج إلى مزيد عناية ودراسة.

وأكثر العاملين في التراث ما زالوا أسرى النص تصحيحاً وضبطاً وتعليقاً وتخريجاً، وهم في الأغلب الأعم مختلفون في أهمية كل عنصر من هذه العناصر وعلاقته بالتحقيق بين متوسع في مجال منها ومقر في مجالات أخرى؛ فمنهم من يرى الاقتصار على إخراج النص مصححاً مجرداً من كل تعليق، وآخر يرى أن من الواجب توضيح النص بالهوامش والتعليقات، وإثبات الاختلافات والتعريف بالمبهم الوارد فيه.

وأقام الفريق الأول رأيه على جملة أمور، منها: أن الغاية من التحقيق هي إخراج ما يسمى «النص الصحيح»، فلا حاجة بعد هذا إلى إثقاله بالهوامش والتعليقات؛ من ترجمة الأعلام الواردة فيه والإشارة إلى المبهم من الاصطلاحات وأسماء البلدان والمواضع، وما إلى ذلك.

أما الفريق الثاني فيرى أن الأشياء التي يهملها الفريق الأول إنما هي طرق موصلة إلى سلامة النص وصحته؛ إذ من المحتمل أن يخرج النص صحيحاً بعض الشيء من غير تعليق إذا توافرت نسخة بخط المؤلف أو

النسخ الصحيحة الخالية من التصحيف والتحريف؛ لكن هذه الطريقة لا يمكن أن تنجح مع المخطوطات التي يكثر فيها التصحيف والتحريف، وكثير من التراث العربي وصل إلينا على يد نساخ غير متقنين.

لهذا الأمر ولعوامل أخرى كثيرة اتجه بعض المحققين والناشرين إلى اختيار المخطوطات الجيدة لنشرها؛ لأنها أقل مؤونة في الدراسة والتحقيق ما أدى إلى نشر كتب قليلة الأهمية والفائدة، وبقاء كثير من أمهات الأصول على حالتها عشرات السنين، منذ بدء العناية بنشر كتب التراث، وأبدأ هنا بنشر الفروع قبل الأصول؛ فقد نشر كتاب «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر، ومختصره «تقريب التهذيب»، ولم ينشر أصله «تهذيب الكمال» للمزي (ت ٧٤٢هـ) إلا بعد عشرات من السنين، ونشرت «خلاصة تذهيب التهذيب» للخزرجي (ت بعد ٦٢٣هـ)، ولم ينشر أصله «تذهيب التهذيب» إلا بعد أكثر من مئة عام! وكذا الحال بالنسبة إلى كتاب «الأنساب» لأبي سعد السمعاني (ت ٥٦٢هـ)؛ إذ طبع مختصره «اللباب في تهذيب الأنساب» لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، بل مختصره (لب اللباب) للسيوطي (ت ٩١١هـ) قبل الأصل بعشرات السنين.

ومع كل ذلك لم يكن لهذه المسألة من الأهمية بحيث يقال فيها أصاب فلان وأخطأ فلان؛ إذ إن الأمر الأكثر أهمية هو أن كثيراً من المحققين لم يتمكنوا من وضع النص في سياقه التاريخي والمعرفي، أو لم يدركوا ذلك؛ إذ لم يزل هذا الأمر قاصراً عند أكثر المحققين الذين لم يدرسوا النصوص التي يحققونها دراسة معمقة مقارنة مع مثيلاتها من النصوص مع تبيان قيمتها.

وإنما يتأتى مثل هذا الأمر بقدرة المحقق على استجلاء أهمية النص الذي يتعامل معه وقدرته على فهم مجمل النصوص التي من بابه؛ ليتمكن من تقويم النص الذي يتعامل معه.

إن المحقق البارع هو القادر على كشف إشارات النص المبين عن

إشارات والنازع التي صدر منها، وهو جهد - وإن كان أقرب إلى الدراسة منه إلى التحقيق - فالمحقق أولى به، فمن الخير أن يندمج الجهدان، فيقوم المحقق - وهو الأقدر على معايشة النص - ببيان أهميته وقيّمته من غير تعب.

وكل هذا لا يتم إلا بدراسات معمقة يقوم بها المحقق بعد الانتهاء من تحقيق النص؛ ليبين للقارئ مدى الإفادة التي يمكن أن يفيد منها عند قراءة النص المحقق، ومواضع الأصاله فيه، أو المواضع السلبية التي يتعين التنبيه عليها؛ لئلا يغتر القارئ بها.

ومما يؤسف عليه أن المحققين في الأغلب الأعم هم أسارى النصوص التي يحققونها، يدافعون عنها بحق وباطل، وهي ظاهرة منافية للبحث العلمي القائم على الحيادية والنزاهة؛ فصاحب النص فرد من آحاد الناس دون نصه وسجله، وأساليه وأحكامه يجب أن تخضع لمعايير النقد والتقييم، والأهواء البشرية أزلية أبدية، وينبغي على المحقق المدقق أن يراعيها وينبه عليها.

في مقدمتي لـ «تاريخ مدينة السلام» للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) كان لا بد لي بعد دراسة هذا النص أن أشير إلى سليات الكتاب التي يمكن إجمالها مختصرة بما يأتي:

(١) أن المؤلف استبعد من تاريخه كثيراً من أعلام بغداد من المتكلمين الكبار والحساب والمهندسين والأطباء والصيادلة والفلكيين والأمراء والقواد وأرباب الصنائع، من البنائين والمعماريين، وكبار التجار والممولين ونحوهم، وكان تركيزه على الطبقة المثقفة بمنظاره وهم رواة الحديث والفقهاء والقضاة، وبعض الشعراء والمتأدبين، وبعض المشهورين من أرباب السياسة؛ فاجتهد أن يذكر في كتابه كل محدث حدث ببغداد مهما ضعف شأنه وقل خطره، لم يترك من ذلك أحداً وقف عليه؛ بل وجدنا تراجم لا يعرف عنها شيء سوى ورودها في

إسناد رواية، أو ذكرت في معجم لأحد الشيوخ مثل أبي القاسم ابن الثلاث (ت ٣٨٧هـ)، أو ابن جميع الصيداوي (ت ٤٠٢هـ)، أو مما أخبر به أحد شيوخه ممن اتصلوا بهم. ولم يجد الخطيب البغدادي في كثير من هذه التراجم مادة يذكرها سوى هذا النزر اليسير، في الوقت الذي أهمل فيه ذكر تراجم خطيرة لغير أمثال هؤلاء، أو قصر فيها تقصيراً بيناً.

لقد ذكر الخطيب في المقدمة الخاصة بخطط بغداد القصور الفخمة والعمائر العظيمة في دار الخلافة؛ لكنه لم يذكر المهندسين الذين أبدعوا تلك المرافق التي حيرت الألباب في هندستها وتصاميمها وتنفيذها من البرك الجميلة، والتماثيل الرائعة، والدهاليز الفخمة.

وذكر أن مهندسين وزنوا ماء الخالص حتى أدخلوه إلى الجانب الشرقي من بغداد، لكنه لم يذكر لنا واحداً منهم، ويصح ذلك على مئات الأطباء والصيادلة والصناعيين الذين أبدعوا آلات الجراحة مثلاً؛ إذ لم يضمن الكتاب ترجمة أي واحد منهم.

من هنا ينبغي أن ندرك أن تراجم «تاريخ مدينة السلام» عنيت بشرائح معينة من المجتمع البغدادي فحسب، وأن المصنف أسقط كثيراً من تراجم النخبة الذين وجدهم، بناءً على تكوينه الفكري وثقافته، غير جديرين بالذكر والتدوين، ويتعين على الدارسين أخذ ذلك بالاعتبار؛ فهو في حقيقته لا يصور الحركة الفكرية ببغداد في المدة التي تناولها تصويراً حقيقياً وأميناً؛ بل قد يعطي مفهوماً معكوساً، ويكوّن تصوراً في ذهن القارئ، وكأن ليس ببغداد إلا المحدثين والفقهاء والصوفية وبعض الشعراء والأدباء، حتى بلغ الأمر به أن ترجم لمن يتعاطى الكدّية؛ بسبب أنه سمع منه وريقات بإسناد نازل؛ قال في ترجمة الحسين بن الحسن بن أحمد الجوالقي المعروف بابن العريف: «كتبنا عنه، فكان شيخاً فقيراً يسأل الناس في الطرقات، فلقيناه ناحية سوق باب الشام، ودفع إليه بعض أصحابنا شيئاً من الفضة، وقرأت

عليه أوراقاً من كتاب لبعض أصحابنا كان كتبه عنه، وذلك في سنة ثمان وأربع مئة^(٥).

(٢) ولاحظت عند دراستي لطول التراجم وقصرها في هذا الكتاب أن الخطيب طوّل في بعض التراجم التي أثير حول أصحابها كثيراً من النقاش والجدل واختلفت فيهم الآراء اختلافاً بيناً، مثل أبي حنيفة الإمام (ت ١٥٠هـ)^(٦) وصاحبه أبي يوسف (ت ١٨٢هـ)^(٧)، وترجمة ابن أبي داود (ت ٣١٧هـ)^(٨) والحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩هـ)^(٩).

كما أنه طوّل في تراجم بعض العلماء الكبار من المحدثين البارزين أمثال محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ)، ومحمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ)، ووكيعة ابن الجراح (ت ١٩٧هـ)، ونحوهم.

ومما لا شك فيه أن طول التراجم وقصرها قد تأثر بتكوين المصنّف الفكري ونوعية ثقافته؛ فإنه كان متأثراً بالمحيط الذي يعيش فيه ومراعياً رأي المجتمع الذي ساد ذلك العصر، فقد وجدناه يُعنى بتراجم المتصوفة عناية خاصة، فيُدبجّ لهم تراجم جيدة يورد فيها كثيراً من حكاياتهم وكراماتهم وزهدهم وأقوالهم، وهو بذلك يعبر عن موقفه من المتصوفة من جهة، كما عبر في الوقت نفسه عن ذوق المجتمع الإسلامي عامة والبغداديين خاصة، الذي كان يومذاك يقدر هذه الشريحة، ويعظمها تعظيماً كبيراً يفوق معظم العلماء، كما يستدل من جُماع تراجمهم في هذا الكتاب.

ومع كل هذا الذي ذكر فإنني أجد نفسي في حيرة من إيجاد تسويق معقول ومقبول في تطويله بعض التراجم وتقصيره في بعضه الآخر؛ فقد كتب عن أشعب الطامع عشر صفحات^(١٠) وهي شخصية تافهة إن كانت موجودة حقيقة، في الوقت الذي كتب عن ابن جني (ت ٣٩٢هـ) ذاك العبقرى صاحب التصانيف الرائعة في النحو واللغة بضعة أسطر فقط^(١١)، وكتب عن شيخه هلال بن المُحسن الصابئ صاحب التآليف الماتعة ثمانية

أسطر فقط^(١٢)، وكتب عن سعد بن هاشم أبي عثمان الخالدي سطين فقط^(١٣)، وهو من مشاهير الشعراء والأدباء هو وأخوه أبو بكر محمد^(١٤)، وهذه نماذج لها عشرات النظائر في هذا الكتاب.

(٣) واعتاد الخطيب أن يذكر شيوخه بصيغ مختلفة ربما تخفى على كثير من العارفين بفن التراجم. وقد عد بعضهم هذا منه تدليساً، قال رفيقه وتلميذه الأمير ابن ماكولا (ت ٤٧٥هـ): «وشيخنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن أحمد بن منصور العتيقي... وكان الخطيب ربما دلسه وروى عنه وهو في الحياة يقول: أخبرني أحمد بن أبي جعفر القطيعي لسكناه قطيعة أم عيسى»^(١٥)، ونقل كلامه هذا السمعاني في (القطيعي) من كتابه «الأنساب».

وقد أشار الخطيب في كتابه «الكفاية» إلى هذا النوع من التدليس؛ فقال: «أن يروي المحدث عن شيخ سمع منه حديثاً، فغير اسمه أو كنيته أو نسبه أو حاله المشهور من أمره لئلا يعرف، والعلة في فعله ذلك كون شيخه غير ثقة في اعتقاده أو في أمانته، أو يكون متأخر الوفاة قد شارك الراوي عنه جماعةً دونه في السماع منه، أو يكون أصغر من الراوي عنه سناً، أو تكون أحاديثه التي عنده عنه كثيرة فلا يجب تكرار الرواية فيغير حاله لبعض هذه الأمور»^(١٦)، ثم قال: «وفي الجملة فإن كل من روى عن شيخ شيئاً سمعه منه وعدل عن تعريفه بما اشتهر من أمره، فخفي ذلك عن سامعه لم يصح الاحتجاج بذلك الحديث للسامع؛ لكون الذي حدث عنه في حاله ثابت الجهالة معدوم العدالة، ومن كان هذا صفته فحديثه ساقط والعمل به غير لازم»^(١٧).

وعلى أن العلماء نقلوا عن الخطيب خلاف ذلك في مثل هذا التدليس؛ فقال ابن الصلاح: «وتسمَّح بذلك جماعة من الرواة المصنفين، منهم الخطيب أبو بكر، فقد كان لهجاً به في تصانيفه»^(١٨).

وهذا الذي أشار إليه ابن الصلاح صحيح في صنيع الخطيب، على

أنه أكثر ما يدلّس عن متأخري الوفاة، أو عمن أكثر عنهم، فلا يجب تكرار الرواية بصيغة الاسم نفسها، وهو صنيع فيه كثير من المخاطر؛ فقد أتعبنا عند قيامنا بعمل فهرس لشيخ الخطيب، ولربما فاتنا الشيء لشدة التدليس؛ فقد يذكر شيخه باسمه أو بكنيته، أو بابن فلان ينسبه إلى أبيه أو جده، أو يغير نسبته من حين إلى حين عندما تكون له نسب متعددة، ونحو ذلك مما ستوضحه الأمثلة الآتية:

فقد ترجم لشيخه الحسن بن غالب بن علي، أبي علي المقرئ المعروف بابن المبارك (٣٦٦ - ٤٥٨هـ)، وهو أحد الكذابين^(١٩)، وسمّاه في رواية رواها عنه: «الحسن بن غالب الحربي»^(٢٠) نسبه حربياً؛ مع أنه لم يذكر شيئاً من ذلك في ترجمته.

وترجم لشيخه عبد العزيز بن علي بن أحمد بن الفضل بن شكر بن بكران أبي القاسم الخياط من أهل باب الأزج (٣٥٦ - ٤٤٤هـ)^(٢١)، فسّمّاه في روايات له: «عبد العزيز بن علي الطحان»^(٢٢)، ولم يذكر هذه النسبة في ترجمته، ولعله كان طحاناً، فأهل باب الأزج معروفون بهذه المهنة، كما يستدل من مادة «الأزجي» في أنساب السمعاني، لكن لم ينسب أحدٌ ممن ترجم لهذا الرجل هذه النسبة!

أما شيخه أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن عثمان الأزهري الصيرفي (٣٥٥ - ٤٣٥هـ)^(٢٣) فقد أكثر عنه جداً، فذكره بصيغ مختلفة: فتارة يذكره بنسبته الأزهري^(٢٤)، وتارة بكنيته ونسبته الأزهري^(٢٥)، وأخرى يقول فيه: عبید الله بن أحمد الصيرفي^(٢٦)، وتارة رابعة يسميه: عبد الله بن أبي الفتح^(٢٧).

وترجم لشيخه المشهور أبي الحسين محمد بن الحسين بن محمد بن الفضل بن يعقوب بن يوسف بن سالم الأزرق القطان المتوثي الأصل (٣٣٥ - ٤١٥هـ)، وهو من أكثر عنهم جداً^(٢٨)، فكان يقلبه على أوجه متعددة عند الرواية عنه، منها: «محمد بن الحسين بن الفضل القطان»^(٢٩)، و«أبو

الحسين بن الفضل القطان»^(٣٠)، و«ابن الفضل القطان»^(٣١)، و«ابن الفضل»^(٣٢)، و«محمد بن الحسين بن محمد المَثُوثي»^(٣٣)، و«محمد بن الحسين الأزرق»^(٣٤)، أو «محمد بن الحسين بن محمد الأزرق»^(٣٥)، و«محمد بن أبي القاسم الأزرق»^(٣٦).

أما صديقه وشيخه محمد بن علي بن عبد الله بن محمد أبو عبد الله الصُّوري، المتوفى سنة ٤٤١هـ^(٣٧)، فعلى الرغم من أنه ذكره بنسبته المعروفة «الصوري»^(٣٨)، أو بكنيته ونسبته «أبو عبد الله الصوري»^(٣٩)، فإنه ذكره عند الرواية عنه في مواضع كثيرة باسم: «محمد بن أبي الحسن»^(٤٠)، و«محمد بن أبي الحسن الساحلي»^(٤١)، و«محمد بن علي الصَّلحي»^(٤٢)!

وترجم الخطيب لشيخه الذي أكثر عنه أبي القاسم علي بن المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم التنوخي (٣٦٥ - ٤٤٧هـ)^(٤٣)، فذكره عند الرواية عنه بنسبته^(٤٤)، أو بكنيته ونسبته^(٤٥)، كما سماه «علي بن المحسن القاضي»^(٤٦)، و«علي بن أبي علي المَعْدَل»^(٤٧)، و«علي بن أبي علي البصري»^(٤٨).

أما شيخه أبو علي الحسن بن الحسين بن العباس المعروف بابن دُومَا النُّعالي (٣٤٦ - ٤٣١هـ)، فهو متكلم فيه^(٤٩)؛ فسماه في كثير من الروايات الحسن ابن أبي القاسم^(٥٠).

وحين روى عن شيخه أبي علي الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن شاذان البَرَّار (٣٣٩ - ٤٢٦هـ)^(٥١) سمّاه في كثير من المواضع: «الحسن بن أبي بكر»^(٥٢).

(٤) وبينت أن طرائق التحمّل التي سادت بين المحدثين في عصر الخطيب كانت بضرورة امتلاك حق الرواية لأي كتاب ينقل منه المصنف. واستعمال الإسناد في العصر الذي انتشر فيه التدوين - بقدر ما فيه من فوائد وتوثيق في العصور المتقدمة - أصبح في هذا العصر ضرره وبيلاً ونفعه قليلاً؛ لأنه صار يخفي كثيراً من أسماء المصادر الحقيقية التي

أفاد منها المؤلف في تأليف كتابه؛ وخصوصاً إذا كان المصدر المنقول منه ممن يستعمل الإسناد أيضاً؛ فصارت الأسانيد يتصل بعضها ببعض، فلا يتمكن القارئ من معرفة المصدر إلا من أوتي خبرة عميقة بالنص ومؤلفه، وربما تخفى على أمثال هؤلاء أيضاً؛ فقد ظن صديقنا الدكتور أكرم العمري أن الخطيب ينقل من كتاب واحد لابن سعد هو «الطبقات الكبير» عن طريق ثلاثة رواة هم: الحسين بن فهم، والحارث بن أبي أسامة، وابن أبي الدنيا، في حين أثبت في دراستي أن كل واحد من هؤلاء كان راوياً لكتاب مستقل^(٥٣).

(٥) وساقنتي دراستي لخمسة آلاف حديث تقريباً وردت في «تاريخ مدينة السلام» للخطيب ومقارنتها بالأحاديث الواردة في دواوين الإسلام الأولى حتى مطلع المئة الرابعة - إلى أن الأحاديث الواردة فيه وفي الكتب التي من بابته لا تتعدى الأنواع الخمسة الآتية:

الأول: أحاديث معروفة في دواوين الإسلام الأولى ساقها المتأخرون بأسانيدهم من غير تغيير أو تبديل، وهذه لا قيمة حقيقية لها؛ لوجودها في مدونات ثبتت عن مؤلفيها، كالمصنفين، والمسند الأحمدى، والكتب الستة، ومؤلفات أصحابها الأخرى، وما جرى مجراها.

الثاني: أحاديث معروفة في دواوين الإسلام الأولى أنها مرسلة أو موقوفة أو منقطعة، ساقها المتأخرون موصولة أو مرفوعة، وأكثر ذلك من أخطاء الرواة، أو هو مما تركه المتقدمون.

الثالث: أحاديث ساقها أصحاب المؤلفات الأولى بأسانيد معينة أو مخارج معلومة لا تعرف إلا بها، ساقها المتأخرون بأسانيد أخرى تظهر كأنها طرق جديدة لم يعرفها المتقدمون، أو خفيت عليهم، وهي في حقيقتها إما أن تكون ممّا تركه المتقدمون لعدم ثبوتها عندهم، أو هي ممّا أخطأ فيه الرواة اللاحقون، أو مما ابتدعه الكذابون.

الرابع: أحاديث ذكرها المتقدمون بمتون معلومة، رواها المتأخرون بزيادة في ألفاظها، أو تغيير يغير معانيها ويخرجها عن المحفوظ منها.

الخامس: أحاديث بطرق أو ألفاظ لا ذكر لها في دواوين الإسلام الأولى، ظهرت أول مرة في المئة الرابعة، وهي في رأينا لا تخرج عن صنفين: إما أن تكون مما تركه المتقدمون فلم يشتغلوا به لوهاؤه، وإما مما ابتدعه الكذابون المتأخرون.

إن مثل هذه الدراسات هي التي تضع النصوص في سياقها التاريخي والمعرفي، ومع أنني أثنت في مواضع متعددة على جهد الخطيب البغدادي، وبينت مواضيع الإبداع عنده؛ لكنني لم أتعصب له، فبينت ما له وما عليه في سيرته ومنهجه، واضعاً كل ذلك في سياق تاريخي مقارن مع الكتب التي من بابه، مراعيّاً ظروف العصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وعليه فإن تجريد النصوص من سياقها التاريخي والمعرفي، والإغراق في مسألة التعليق عليها وتخريج نصوصها حسب يُخرج عملية التحقيق العلمي عن مسارها الصحيح، ويجعل المحقق كالألة الصماء التي تدور في فلك واحد.

أما توظيف التراث في الدراسات الحديثة فهو أمر مهم؛ لأن التراث هو خبرة الأمة على مدى قرون متطاولة، وهو الميثاق هويتها الحضارية. ويتعين علينا قبل كل شيء أن ندرك بصيرة أن الإسلام ليس تراثاً؛ فالإسلام منهج وعقيدة، صاغتها يد الله الحكيمة القديرة المريدة العالمة، ومنحتها الصفة الدائمة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان، في حيث أن التراث هو عطاء موقوت، وهو رغم تأثيراته الدائمة الممتدة في مسار الزمان والمكان لن يصل بحال مرحلة الخلود المطلق وتجاوز النسبيات التاريخية، (على حد تعبير صديقنا المفكر الإسلامي الدكتور عماد الدين خليل)^(٥٤).

والتراث «بوصفه حصيلة لقاء عملي واقعي بين الإنسان والعقيدة يجيء

متأرجحاً بين النقص والكمال، بين الفجاجة والصرامة والتعصب، وبين النضج والمرونة والانفتاح والتوافق»^(٥٥).

ونتيجة لذلك فإن الانغلاق عليه والعودة إليه في كل صغيرة وكبيرة خطيئة كبيرة تؤدي إلى الانغلاق والجمود، ولا بد لنا من نقد هذا التراث بوصفه نتاج العقل الإنساني الذي يخطئ ويصيب، ولا بد لنا في الوقت نفسه أن نأخذ نصيبنا من الحضارة الحديثة ونتساير معها ومع متطلباتها المؤدية إلى التقدم والنهوض بمجتمعاتنا، لتساير هذه الحضارة المتسارعة النمو، مع احتفاظنا بهويتنا الحضارية والتمسك بقيمتنا وتقدير المنجز الحضاري الذي مثل الأمة على مدى قرون متطاولة.



المصدر: مستقبل التراث - د. فيصل الحفيان، معهد المخطوطات العربية، القاهرة (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م)، الطبعة الأولى، ص ٢٠٥.

هوامش البحث

- (١) ينظر كتابنا: الذهبي منهجه ٤٤٢ - ٤٤٣ (ط. القاهرة ١٩٧٦).
- (٢) تنظر مقدمتي للموطأ برواية الليثي، ص ١٣ فما بعد (بيروت ١٩٩٦م).
- (٣) تنظر مقدمة العلامة إبراهيم شيوخ لكتابي: في تحقيق النص ٧ - ٨ (بيروت ٢٠٠٤م).
- (٤) تنظر المراسلات التي نشرها صديقنا المحقق محمد ناصر العجمي.
- (٥) تاريخه ٨ / ٥٦٠.
- (٦) تاريخه ١ / ٤٤٤ - ٥٨٦.
- (٧) تاريخه ١٦ / ٣٥٩ - ٣٨٣.
- (٨) تاريخه ٥ / ١٦ - ٢٣٣ - ٢٥٢.
- (٩) تاريخه ٨ / ٦٨٨ - ٧٢٠.
- (١٠) تاريخه ٧ / ٥٠١ - ٥١٠.
- (١١) تاريخه ١٣ / ٢٠٥.
- (١٢) تاريخه ١٦ / ١١٧.
- (١٣) تاريخه ٨ / ١٥٩.
- (١٤) انظر معجم الأدباء ٣ / ١٣٧٧، وسير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٨٦.
- (١٥) الإكمال لابن ماكولا ٧ / ١٥٠، وينظر تاريخ الخطيب ٢ / ٤٠ و ٤٦ و ٦٢... إلخ، وساه في موضع آخر: أحمد بن محمد المجهز ٢ / ٤٠٩.
- (١٦) الكفاية ٥٢٠ - ٥٢١.
- (١٧) الكفاية ٥٢٧.
- (١٨) المقدمة ١٧٢.
- (١٩) تاريخه ٧ / ٤٠٨ - ٤٠٩.
- (٢٠) تاريخه ٤ / ٦٨٣.
- (٢١) تاريخه ١٢ / ٢٤٤.
- (٢٢) تاريخه ٣ / ٤٤٩ و ١٠ / ١٥٢.
- (٢٣) تاريخه ١٢ / ١٢٠ - ١٢٠.
- (٢٤) تاريخه ٢ / ١٤ و ١٦ و ٢٧... إلخ.
- (٢٥) تاريخه ٢ / ٩ و ١١ و ٢٤... إلخ.
- (٢٦) تاريخه ٣ / ٢٧.
- (٢٧) تاريخه، مثلاً ٢ / ١٠٢ و ٣ / ٢٢ و ٣١.
- (٢٨) تاريخه ٣ / ٤٤ - ٤٥.
- (٢٩) تاريخه ٢ / ٨ و ٥٣ و ٧١.
- (٣٠) تاريخه ٣ / ٤٦٥.
- (٣١) مثلاً تاريخه ٢ / ١٠ و ٤٠ و ٤٥٠.

- (٣٢) مثلاً تاريخه ٢٧/٢ و ٢٨ و ٣٣.
- (٣٣) مثلاً تاريخه ١٧٥/٢ و ٢٠٢ و ٥٦٩.
- (٣٤) مثلاً تاريخه ١٣٨/٣ و ١٤٩ و ١٨٢.
- (٣٥) مثلاً تاريخه ٣٧/٣ و ٤٠٧/٧.
- (٣٦) مثلاً تاريخه ٢٤١/١٦.
- (٣٧) ترجمته في تاريخه ١٧٢/٤.
- (٣٨) مثلاً تاريخه ٧٩/٢ و ٥٥٣/٥ و ٣٢٢/٦.
- (٣٩) مثلاً تاريخه ١٦٩/٢ و ٥٠٠/٣ و ٢٨.
- (٤٠) مثلاً تاريخه ١٨١/٢ و ١٧٣ و ١٨٤ و ١٧٤/٣.
- (٤١) مثلاً تاريخه ٣٤٠/٢ و ٣٥٧ و ١٦٢/٣.
- (٤٢) مثلاً تاريخه ٢٨٦/١٠.
- (٤٣) تاريخه ١٣/٦٠٤ - ٦٠٥.
- (٤٤) مثلاً تاريخه ١٧٧/٢ و ٤٦٥ و ٤٤٠/٣.
- (٤٥) مثلاً تاريخه ٧٠١/٣ و ٤٧/٤ و ٥٦.
- (٤٦) مثلاً تاريخه ١٤٥٣/٢.
- (٤٧) مثلاً تاريخه ٢٣/٢ و ٣٦٩.
- (٤٨) مثلاً تاريخه ٢٤٩/٢ و ٣٥٨ و ٤٣٥.
- (٤٩) ترجمته في تاريخه ٢٥٥/٨ - ٢٥٦.
- (٥٠) مثلاً تاريخه ١٠٧/٥ و ٥٦٣ و ٧/٧.
- (٥١) ترجمته في تاريخه ٢٢٣/٨ - ٢٢٤.
- (٥٢) مثلاً تاريخه ١٩/٢ و ٣٥ - ٤٦.
- (٥٣) تنظر مقدمتي لتاريخ الخطيب ١٠٥/١ - ١١٠.
- (٥٤) مقالات إسلامية ١٣١ (دار ابن كثير، دمشق ٢٠٠٥م).
- (٥٥) المرجع السابق.



ملف خاص عن الشاعر
السيد أحمد الصافي النجفي

أبا الخالدات

جواد شبّر

ما جئت أرثيك أو أجري الدموع أسي
قالوا القدمات ، قلت اليوم مولده
واليوم يبدأ تاريخ له عبّق
ما الحي مقياسه مر السنين ولو
إن الحياة بأفكار يخلدها
وأخذاً بيد العافي ومنقذه

إن الرثاء لشخص مات واندرسا
ونجمه قد تجلى يطرد الغلسا
وطيب تاريخه قد أنعش الجلّسا
طال البقاء ولا ترداده النفسا
عبر العصور وغرسا صالحاً غرسا
سواء أحسن هذا أم إليه أسا



ما كان أحمد في عصر يعيش به
يعيش في الناس لكن روحه انفردت
سما إلى عالم أسمى بفكرته
فلا ترى معه في بيت عزلته

إلا كشعلة نور تحمل القبسا
عنهم كمن عاش بين الخلق محتبسا
لذاك مهما خلا في نفسه أنسا
إلا اليراعة - أم الشعر - والطرسا



إيه أبا الخالدات النيرات سنّا
هذي روائعك الغرا يرددها
أمواجها اندفعت تتلو أشعتها
وذي الهواجس ما أحلى هواجسها

والسائرات أقام الدهر أم جلسا
فم الزمان ، ومن أنوارها اقتبسا
تجلو العقول ومنها تغمر اليبسا
تداعب الروح إن دقت لها جرسا

رفت تناعيك همساً في تدللها
أشعة في معانيها ملونة
والناظم الدر نظماً لا نظير له
والمرسل الشعر سهلاً غير ممتنع
إن كنت حلقت أو أبدعت لا عجب
أو أذعنت لغة الفصحى لروعته
لطف الحبيب إذا ناغاك أو همسا
إشعاعها مشرق عن روحك انعكسا
بالشعر ينبوعه الصافي قد انحبسا
سلساله العذب يجري سائغاً سلسا
قرآن أحمد قدماً حيّر القسسا
وعاد منطقها مستسلماً خرسا



زهدت في هذه الدنيا وزخرفها
وكنت تهزأ ممن راح يعشقها
نفسي ترى فوق هام النجم رفعتها
تريهم أن دنياكم وبهرجها
إذ أنت أرفع ممن يرتضي الدنسا
ومن بأوظارها قد ظل منغمسا
وبزة إذ تراها بزة البؤسا
كشملي هذه من سامها بخسا



لاويت دهرك حتى رضت جامحه
بعزيمة شهد التاريخ واقعها
عرفت دنياك مذ وازنت قيمتها
وكم دعتك لوصل وهي ضاحكة
رحماك ليست نفوس الناس واحدة
كمن يروّض في فرسانها فرسا
ما كنت هيّابة يوماً ولا نكسا
وأنها عرفتكَ النيقد المرسا
لكن رأتك على ما تبتغي عبسا
إن خف ذاك فهذا في الوجود رسا



هذي الحياة وكم غذيتها حكماً
فكنت تشبعها بحثاً وتجربة
وتوضح القول مجلواً ومزدهراً
دم للخلود فذي الأيام طوعك
غراً، وأرسيّت من أركانها أسسا
وكنت تنشرها درساً لمن درسا
فلم يعدْ بعدُ فيها الأمر ملتبسا
والدهر استلان وإن قدماً عليك قسا

النجف الأشرف

وأبنة الأستاذ الشاعر خضر عباس الصالحي بقصيدة عنوانها (وداع الصافي) وقد ألقاها مساء يوم الجمعة ١٩٧٧/٧/١ في الفاتحة المقامة بجامع براثا ببغداد، وهي:

ببلبل الشعر أخرسته المنون
وتهاوى من شامخ النجم ميتاً
هو نعي لرزئه انههد ركن
كان يتلو القريض عذباً شجياً
لم يصدق بالدين تصديق أعمى
عاش ملء الأسماع حراً أبيعاً
حملت كفه مشاعل فكر
هو ذاك القومي روحاً وفكراً
هو صوت العراق في الكون دوى
إنه الثورة العنيفة تصلى
قطع العمر وهو يحيا غريباً
رغم ما كان يشتكي من شقاء
هل رأيت في ساحة الحب جرحى
بسهام الأسى تمزق قلبي
أتلوى صريع حزنٍ ممضٍ
وارتدى الروض حلة من سواد
وبدا للعيون قفراً جديباً
ومشت في النفوس رعدة ذهل
فارس الشعر والزمان سيبقى
صاغ روح الحياة شعراً ندياً
فكره نيرٌ يشع نبوغاً
عبقري وفيلسوف ذكي

فترامى على الوجود سكون
فنعته إلى الجموع الفنون
للقوافي وغاض منها المعين
فيه تنساب لوعة وحنين
فهو من شكه أتاه اليقين
ولهول الأحداث لا يستكين
وهو للفكر حارس وأمين
أيما كان فالنضال يكون
ولنجواه في القلوب رنين
كل من خان شعبه أو يخون
وله الشعر سامر وخدين
فهو كالطود شامخ لا يهون
فأنا منهم الجريح الطعين
وبدمعي تخضل مني الجفون
مثل طير حزت به السكين
وذوى الفل فيه والياسمين
فيه جفت براعم وغصون
وتغشت وجه الحياة غصون
مثله لن يجود فهو ضنين
وله لاح سرها المكنون
ولأشراقه تفر الدجون
وكمي قناته لا تلين

وهو بالعز والعلی مفتون
ليت شعري هل للعظیم قرین؟
فإذا الشعر بالخلود قمين
وهو في شعره حكيم فطين
وهو لي ذلك الصديق الحنون
وهو راسخ وحب مكين
أسهم الحقد فهو حصني الحصين
قصص الشعر، والحديث شجون
وعزائي قد بات دمعي السخين
مستفيض الأسى كئيب حزين
فوق خدي يسيل دمع هتون



وأديب عقائدي شجاع
شاعر نادر القرين عظیم
جدد الشعر بعدما كاد يبلى
ذو ضمير حي وحس رهيف
كان في الروح والدي، كان كنزي
كان لي في حنانه السمع عطف
كلما سدد الزمان لقلبي
كم قضينا الأيام الشام تحكي
بعده قد فقدت كل رجائي
سيد الحرف بعدك اليوم إني
أترأى ذاك الشقي المعنى

وبصدري يجيش همٌ دفين
وعلى عالمي الظلام يرين
وبشدوي الشجي غص الأنين
وبقيثارتي تموت اللحنون
هل يجيد التغريد طيرٌ سجين؟
أنت حي للميت التآبين
أدب رائق وفكر رصين
قادة الفكر يعجز التثمين
أنت لو شئت تحتويك العيون
سوف تبقى تشيد فيك القرون
أنت في ذمة الخلود رهين

وبقلبي لواعج تتشظى
ورياح الأحزان تطوي حياتي
خنقت عبرتي سيول دموع
فوق ثغري يجف نبع الأغاني
بت خلف الجدار طيراً سجيناً
لم أؤبن رحيل شخصك عنا
صرت رمز الإباء فيك تجلى
كلما ثمنت قريضك يوماً
قد حوت جسمك النحيف لحود
نم بأرض الغري جنب علي
ملء هذا الزمان ذكرك باقٍ

الصافي الخالد

سلمان هادي آل طعمة

وخلت رياض الشعر من إصلاح
غاض الهوى وهوت كؤوس الراح
وسرى الحمام بسؤدد وسماح
كالروض فاح به عبير أقاح
كالضوء يسطع في ربا وبطاح
قد هد دنيا الشعر بعد كفاح
وشدوت شدو البلبب الصداح
شتى مخلدة على الألواح
لم تخش بأس الظالم السفاح
لتتابع الآلام والأتراح
حراً لك الإيمان خير سلاح
في جهله ويتوق للإصلاح
وتهب في البلوى هبوب رياح
باتت تثير كوامني وجراحي!
لما نعت لجيلنا الطمّاح
مشبوبة بالحزن والأتراح
عبرت بسحر أريجها الفواح

أودى الردى بالشاعر الطمّاح
لما رحلت عن الحياة مكرماً
شب الأسى في أكبد ملتاعة
دنياك فيض مودة زخارة
وصداك ملء فم الوجود مخلد
لله درك أي رزء عاصف
بالأمس زينت الطروس روائعاً
سجلت في سفر الحياة قصائد
وبذلت أغلى التضحيات مجاهداً
وشمخت كالطود الأشم فلم تهن
شهدت مواقفك العروبة ثائراً
تدعو إلى إصلاح شعب غارق
وتزود عن شرف الحمى ببسالة
وا حسرة الآداب، أي رزية
قدر أطاح فهز أركان الحمى
وتركت ما بين الجوانح لوعة
يا شاعراً غنى فكل قصيدة

أين الفصاحة قد بلغت بها العلى
تسمو بك الآداب سامقة الذرى
يا صاحب القلم النزيه ألم تكن
ما زلت ظلاً للعروبة وارفاً
إن غبت عن دنيا العروبة إنما
وبعد مضي أربعين يوماً على وفاة الفقيه الراحل أقامت وزارة الثقافة والإعلام حفلاً تأبينياً فخماً في قاعة المكتبة الوطنية ببغداد للفترة ١٢ - ١٣ شباط ١٩٧٨م حضره جمع غفير من أعلام الفكر والأدب، وألقيت كلمات وقصائد أشادت بمآثر الشاعر وحياته الغنية بالعطاء، وكان من بين المشاركين الشاعر السيد مصطفى جمال الدين الذي ألقى قصيدته (الى الصافي النجفي) ومنها:

كيف يرقى إلى رثاه البيان
لم يمت شاعر المعاني ولكن
نسي القلب خفقه فسرى في
وجرى في عروق أحرفه السمر
يتهادى بين السطور، فللحب غراس، وللنهي أفنان
للمرضى القلوب طب، وللأس رجاء، ولليتم حنان
ولكوخ الفلاح يضرب به الجذب
أريحي يذوب في حلق الأعمى
ويغني الأصم لحناً من الشجو
وإذا أظلمت الشكوك على سار تجلى بليها الإيمان
إنما الشعر والنبوات أخلاف من الغيب، درها عقبان
لم يمت شاعر المعاني، وفي كل
في لسان (الشلال) منها هدير
ولها في سنابل (السجن) قمح
وعلى شعره يعيش الزمان
هوّمت في ضلوعه الألحان
كل بيت من نبضه خفقان
دم أخضر الرؤى فينان
مروج خضر وبهم حسان
فينسيه أنه أسيان
فيصحو وكله آذان
سار تجلى بليها الإيمان
درها عقبان
مهيب من روحه ديوان
وبقلب (الأمواج) منها جمان
لم تذقه (الأغوار) والشيطان

وإذا عربدت بكأس (أبرويز) فخيّامه بها النشوان
 صور تذهل القلوب وفكر نسيت نفسها به الأذهان
 غرت فيها مع الشدة ولكن شهقت فيك وهي بكر حسان
 وإذا قيل: إن لفظك ثوب خلق، باهتٌ به الألوان
 لم تجانس به المعاني فجاءت في ثنايا جيوبه الأردن
 قبت: ثوب المدام طين ويجلو جاثم الهم روحها لا الدنان
 شاعر العرب هل تذكّر إذ جئنا ولبنان حولنا مهرجان
 السماء الزرقاء تدنو، وموج البحر يعلو، وبينهن الجنان
 واخضرار الجبال سال على السفح فهبت تلمه الشيطان
 وعكفنا عليك عباد شعر القوافي صلاتهم والأذان
 ثم أطرقت: هل نسيت؟ هل استعبرت؟ هل ضاق بالنشيد اللسان؟
 وبهمس سألت: كيف ترى الدنيا إذا لم يكن بها لبنان؟
 كيف بي لو رأيت (جنة عدن) يتولى خرابها (رضوان)؟
 لو رأيت الملاك يطعن بالرمح أخاه.. ليفرح الشيطان
 وصدقت الرؤيا، فها هي جناتك - من أجل حاقد - نيران
 المروج الخضراء شابت، وأزهار البساتين عطرهن الدخان
 وأسود (البقاع) من عرفتهم نقداً في نضالها (الجولان)
 وبعيداً عن (القنيطرة) الشام إذا الدرب نحو (صيدا) أمان
 شاعر العرب.. واستمرت بنا الحال.. حديث صلب، وفعل جبان
 ومراس على الخنوع، وعقبى السلم - لم تمله يداك - الهوان
 فاتكأنا على السيوف وقد عاضت شباها عن النجيع الدهان
 واحتوت طعنها الرماح فراحت تتثنى كأنها الأغصان

أحمد الصافي شاعر العصر

تأليف سلمان هادي آل طعمة

يا شاعر الفكر

جواد الصافي

في كفك السيف أم في كفك القلم
فطالما أفعلت نيرانها الكلم
وطالما عندها الفرسان تحتكم
كما له من (علي) صارم خذم
منه على كل عات تسقط الرجم
قلبٌ خفوقٌ وروح تلتضي وفم
إلا يراعُ وفكرٌ منه يضطرم
إن كان بالحق والإبداع يتسم

سيان - في ساحة العلياء - تقتحم
توري بأحرفك السماء جذوتها
وطالما التحمت حرب لقافية
لدين (أحمد) من (حسان) قافية
فكم قصيد إذا ما رحت تنشده
وكل حرفٍ بطرسٍ رحت تكتبه
ما حرك السيف في كف مقارعة
أمنتُ بالفكر نوراً يستضاء به



للفكر عندك سيل جارف عرم
وأنت بينهما السباح تقتحم
فما اعتراك إلى (أغوارها) سأم
تجلو السرائر ما يخفى ويكتتم
فيها تعلمت كيف العلم يغتنم
منك القوافي.. فهن الفصل والحكم
أطلقتها تنجلي - من نورها.. الظلم

يا شاعر الفكر يا نوراً بفكرته
لأبحر الشعر (تيار) وعاصفة
طففت الطبيعة (أمواجاً) ويابسة
وتنشن موعلاً في النفس تسبرها
تخذت من هذه الأكوان مدرسة
أمنت بالله إيماناً تصدقه
(أشعة) من معانيه (ملونة)

لقد تمنيت درساً لست تعرفه
 ما الموت! ما سره؟ ما فيه من غصص
 أما هنا.. أنت حي بيننا فلكم
 إن عشت منفرداً يوماً بزاوية
 وإن حرمت من الأبناء زينتهم
 عما يضم الردى والقبر والرمم
 كيف المنى بلحود الأرض تنحطم
 موتى يعيشون في الذكرى إذا عظموا
 فاليوم في ذكرك الوفاة تزدهم
 ففي القصائد ولدٌ منك ما حرموا



يا ابن العراق

علي محمد الحائري

يا شاعراً ولج الردى بساما
سفرأ يغالب ركبه الأياما
ويصارع الهم الكبير عراما
كلف الدعي بها فعات وساما
زيت الفداء، ومن فدا ما ناما
نغمأ وسقيت المدام شامأ
تتقاسم الأنداء والأكماما
فبكل روض ماج ألف خزاما
فوق النجوم فشاغل الأقواما
والمسجمات الناقعات أواما
والموقظات على كراه خصاما
حرن الكمي، وقلبه إذ هاما
بشواخص شأت العيان مراما
خلل الرماد وميضه الضراما
لكن جهلنا سره المكتاما
نفدت بكوة شاعر فاعتاماً

ما غبت عن أفق الخيال لماما
شيخ توغل في البلاد وما ونى
متطامن الخطوات ينفض عاثراً
ما الليل ما البيداء ما أحدىثة
العزم في هم النفوس ووقدها
يا ابن العراق وقد ملأت ربوعه
أرض العروبة دوحة أفنانها
الضاد إن نفثت بمسكر عطرها
بالأمس (أحمد)^(١) قدرمى عن قوسها
بالمرسلات المرجمات صواعقاً
والنافثات السحر عن هاروته
والناقلات عن الفرات وأهله
يا مبدع الصور الحسان تأطرت
لا شيء مثل العبقرية كاشف
كم نحن عايشنا الذي عايشته
فكأن ألف رؤى وألف بصيرة



وفزعت للتاريخ أسبر غوره
روح من اللغز العتي وفكرة
ما إن دعاك لكي تتابع خطوة
أفثم بين النابغين أو اصر
جبل إلى جبل يسلم بعده
هذا الذي تراث الدنا لا عسجد
ولأنت (أحمد)^(٢) من شذى تلك الربى
قومت سير الضالعين وقد كبت
نسي التراث وخال فيه بلى وما
قالوا الحداثة قلت تلك دسيصة
من قبل ألف وابن كوفان لنا
ويهز فيها الأريحية إن روى
ويجوب فينا الفكر عملاقاً ويند
فلأي أمر ندري تلك الصوى
ولأي منعطف سيلوي خطونا
لا نحن من (بودلير) ننهل نخبه
فبكل دوح سجع أطيأرها
عفواً فما للعبقرية موطن
لكن لنا شرف الأصالة يجتبي

لأرود في عتماته الخياما
جبارة طارت به الهامما
وتفك عن تلك الكنوز رجاما
أو أن بين الخالدين حزاما
غرر الكلام فرائداً ويتامى
أبقى ولا مجداً أعز خطاما
ضوعاً وهاتيك السحاب سجاما
خيل القريض وعثرت أقداما
لزت نواظره عمى فتعامى
حبكت لتغفل دوننا الأفهاما
علم يطال بياننا ضرغاما
حكماً ويشرحنا أسى أن لاما
قلنا على جنح الهوى هياما
وبأي دعوى نشحب الأرحاما
هذا المطاف لننتهي أقزاما
أو من روى (هومير) نكرع جاما
ما أن تطيق مع الغريب وئاما
وطن العظيم موزع أقساما
ونبا يعول تالداً وختاما



(١) أحمد: هو أبو الطيب المتنبى.

(٢) هو الشاعر أحمد الصافي.

إلى روح الصافي النجفي

علي الفتال

ليسيل جرحك في شبا الصبواتِ
لتشيع وهماً بارق الومضاتِ
هجس السراب بأينع الورقاتِ
من بيدر للوشم والثمراتِ
طاو يطارد مجمر النفثاتِ
مهما ستنعس ريحها لأناة
وتساقطت كسرٌ لجمع فتاتِ
صفارة الإنذار جرسٌ آتِ

غذ المسير بأومض الجمراتِ
في غربة للملح تقتنص الرؤى
غرثان تلتمس المسافة بعدما
إحصد بما جالت خيول مرارة
ومطارد طيش الضعاف وخلفها
هيهات من مهر العواصف تلتوي
بَحَّت ربابتها وجفَّ هديرها
جدد جوازك رقمه متغايرٌ



مكنونة من أوجع اللسعات
أنى تحث بأيسر الخطوات
وخلطت ورد الشوك في عرباتي
أثرٌ يعيدك صفحة المرأة
هلاً تصاهر لونها برفات؟
فتخيلته هو سرمد القطرات
وتبيعهن بأسوأ العملات

يا أيها الغادي تلح لجمرةٍ
تستحلف الأحزان تبطئ
خطوها أنا قد بلوت الأعسرين بمزةٍ
فرايت أكرم ما تنوء بحمله
يا هل رأيت حدودها ومسارها
وهمان قد ضحكت ظلال رياضها
في زئبق الأفراح رحت متاجراً

أوزيس وغدٌ ظل في آثارهم والريح تصفر في جميع جهات
(طُبِعَتْ على كدرٍ وأنت تريدها صفواً من الأحزان والحسرات)



بأبي الذين عرفتهم فوددتهم بأبي الذين على مواقع إثرهم
بأبي الذين إذا تكرر نجمهم بأبي الذين إذا تعدد فضلهم
بأبي الذين إذا تغنى بارق بأبي الذين عهدتهم ووفاءهم
فكأنهم كتبَ بأيدي رواة أجد الحياة بهيجة الصفحات
شماؤنا في أمتع القبسات ظل الحساب مجاوز الهنات
بحديثهم فالليل ملء عضات مطرٌ إذا شحّت من القطرات



يا أحمد (الأيام محض تجارب مرّت بسكنتها الفُلاة فانجلى
سيان تفترش الحصاة بظلها كبر الرحيل وما هجرت مساءه
يهنيك عرس للوفاء تشوفه هذا رصيدك ما بذرت بأرضهم
وتزاحم في الثبت والهفوات) دربان من جود ومن أزلمات
وتعود تعلقها بنفس أداة في صبحه وتباين القسمات
وتشيده صفواً من الهنّات قم فاقتطفه كأنضج الثمرات



في ذكرى الشاعر أحمد الصافي النجفي

جميل حيدر

كنصل أسهر الغمد اشتعالا
وكيف استنزف الشعل الشكالي
يغني والشذا يجري ابتهاالا
ولولا الموت لم يلف الرحالا
أميرته التي اتشحت دلالا
برته في هواها فاستحالا
وكاد هسيسها يغوي الرمالا
ينير الضفتين لنا اتصالا
بأن نلت المليحة لا الظلالا
كما بالأمس تهجسها مثالا
أليس الحدس شع بها احتفالا
ولكن هاجس الشعراء غالا
مثالا منه نستهدي المثالا
يغيم بحيرة ويشع إلا..
ولكن شب مؤتلفاً كمالا
(أشعتك) التي فيه تلالا

ترجل جسمه ومشى خيالا
هنا مسراه كيف خبا فالوى
يكاد تأوه الحرف المسجى
عناء الشعر أسرجه رحيلاً
ستبقى الغربة الحسناء فيه
سبته سائحاً فيها إلى أن
بقية غيمة شفت فذابت
وما وله العقيدة غير نهرٍ
أعدنا يا أبا الغيب المرجى
وأدليت النصاعة في يديها
وهب طوقتها من غير لمس
تهاجست المشاعر في سناها
سيبقى حرفك الصافي لدينا
فشعرك نسج طبعك في هواه
وحسبك ما اصطليت به اكتمالا
وكان لوفرة التلوين يخفي

وأحياناً يشف بنا وأخرى
 كأنك خلف كل الناس تمشي
 وما خاتلتهم بالشعر عمقاً
 كأن سواهم مسراك حتى
 ولكن قلبك المشغول فيهم
 يشف المنبع الصافي ويبقى
 دمشق كانت الشوط المجلي
 لديها استأنس الأهواء فناً
 وكان مناله فيه كفافاً
 إلى أن جاوز السبعين فيها
 فما عادت دمشق تستبيه
 ومنها أم لبنان المدمى
 رآه فتنة تلوي بأخرى
 بكى للصاهل الديني فيها
 بكى للفراس العربي يقضي
 بكى للشاعر الثوري يبقى
 كأن حضارة الإنسان دارت
 وماذا يرتجى منها وفيها
 ومنه استنفر السقط المعفى
 وغالت صورة الأحداث فيها
 وسوف يطل من (خوفا) (يهودا)
 فكل خرائط الوطن المسجى
 فمن ذا يستقي الله فينا
 تعفنت المياه بهم حلواً

يخالطنا فنحسبه ابتذالا
 ودونهم وبينهم سؤالا
 (فكم ذا تقلق (الأغوار) بالا
 تخالك كنت تحسبهم وبالا
 تخلق غير نجواهم خصالا
 يحاكي الغاب صحواً واعتلالا
 ففيها استشرق الرؤيا وجالا
 وفيها كان يستمري الجمالا
 به شجر القوافي قد تعالى
 وأدركه الهزال بها انخدالا
 لقد شابت ذوائبها احتلالا
 فرفاً شظية وشدا نبالا
 وجرحاً يمتطي جرحاً سجالا
 لغير الله والإنسان صالا
 ولكن خلف ساحتها اقتتالا
 يعانيها ويستضري جدالا
 بعينيه ومجد الله دالا
 تأسن جرحها الفادي وسالا
 عقيدته فشالته وشالا
 (فرميس) على المبكي استطلا
 ويضفر عشب سيناء قذالا
 قلائده التي اختصرت جمالا
 ويوصل بالفراتين القنالا
 سوى ماء الفرات صفا زلالا



يا رملة اليُمن مهداة للشاعر الراحل أحمد الصافي

عبد الرسول البرقعاعي

يا رملة اليُمن حتى أوراق الحجر
فاخضرَ بين جناحيها اللظى العطرُ
ويستريح على أنفاسها القمر
غمامةً في جديب العمر تنهمر
رمالُها وتناسى لحنه الوتر
قلوبُنا واشترأبت عندها النذر
نجومها وتواري خلفها العُمرُ
طيوفها بخضيب الشوق تُهتَصِرُ
ولوعةً من دخان الوجد تنضفر
النار كفاك وهي الطائر الحذر
صمتُ الرماد وسجى ناره الخدر
جنيَّةُ الشعر عريانُ بها الخفر
عصفورة الهم فيه إنه قفرُ
ظمانه لغمام الصيف تنتظر
يكاد تحت حطام العمر يندثر
على البداة إلا أنها غررُ

صلى على شاطئيك الجمر والمطر
تسلقتُ عمرك الأمجاد مشمسةً
عروسةً تغتلي الأحلام في دمها
تظل تخفق في عمري ضفائرها
فأعشبت بالهوى الصحراء واعتلمتُ
يا رملة اليمن طافت حول حضرتها
تعثرتُ في دمي الأيام وانكفأتُ
حتى طويتُ جناح الدمع عن مقلٍ
يا جمرةً خضبتُ بالحزن أجنحتي
تظلُّ تهربُ من غصنٍ إلى غُصنٍ
غفا بصدري حلم الأمس كممه
فكم تلوَّت على الرمضاء واشتعلتُ
عُشٌّ من الصبر هذا الجرح فاشتعلي
عاقرتُه الكأس فامتدت شواطئه
يا مودع الحرف سرّاً من تشرده
بناتُ فكرك جاءت وهي صاهلةُ

وصوتك النهر يفشي في غضارته
 ما انفك يستاف في دنيا شوارده
 حيث الصِّبا والقُبَابُ الزرْقُ سامقةٌ
 وحيث مجلس آداب ومعترك
 حتى يكحل ضوء الفجر أعينهم
 فكان أحمد من أدواحها غصناً
 قد كنت للفجر همساً من تطلعه
 في قلبك الحشرات البيض راعفةٌ
 الجمر تنبض في جفنيك جمرته
 شربت خضرة هذا العمر ناصعة
 في غربتيك حصدت الدمع فانسكبت
 دقت محاجرك الظلماء فانتفضت
 وغابة الأرز ترغو في أشاجعها
 وجئت فينا غريباً في نبوءته
 بأرض بغداد ألقى السندباد عصا التـ
 لآن يومض من تحت التراب فم
 يا رمل هذي صباباتي تمشطها
 هاتي يديك فأنى العمر أدركه



يا نخل يا لغة الصحراء فارعةً
 أفصح فأرضك ما عادت منابعها
 أفصح فمثلك لا يلوي به العتر
 تضيق أفصح فأنت الأرض والمطر
 دهرأ وأن تتفيا صبرك البشر



دمشق يا لغة الأشداء حالمة
أذكرين حكايا الأمس عاشقتي
تاهت بأوجاعها الجولان وانفقات
وطفلك الغض مذبوح الصبا بردى
تدثرت بثياب الجذب أذرعه
عطشى صحاراك ما رفت لرملتها
بالسيف تنتفض الآمال مفرقة
مع الزمان بضوء الفجر تأتزر
أيام كنتِ وكان العز والظفر
نجومها فهي في تاريخنا خبر
يبكي على صفته الطين والحجر
ونام في رثيته الكأس والوتر
سحابة الله عطشى وهي تصطبّر
وبالدماء طريق النصر.. يُختصرُ



يا مصرُ ضجت بهذا الرمل نخوته
أقعى الهوان على سيناء فانطفأت
لاكت أعنتها الآهات واندفعت
حتى إذا الليل أرخى عن دوائبه
تمود أيقظ فينا الشمس فانهمرت
وشهرزاد حكاياها تكحلها
وأنتِ ماء العطاشى في عذوبته
فعاد سعدٌ وعادت في شكيمة
واهتزّ في كل صدرٍ ثائرٍ قدرُ
خيولُ سعدٍ وهذّ الفارس الخور
تستمطر الخُلب الآتي ولا مطر
غلالة النجم واستشرى به الوطر
أكفها وجناح الليل منكسر
أعراس دجلة حتى يورقُ السحر
يطيب في الشرب منه الطين والكدر
شمس العروبة بالآمال تنهمر



كيف عرفت أحمد الصافي النجفي ١٨٩٧ - ١٩٧٧

جعفر الخليلي

(١)

آل الصافي من السادة العلويين، الذين يرجع تاريخ وجودهم في العراق إلى القرن الرابع الهجري، وقد نزلوا في نواح متعددة من العراق، شأنهم شأن آبائهم وأعمامهم من العلويين الذين كان يطاردتهم الأمويون والعباسيون، وينكلون بهم، ويذيقونهم ألواناً من العذاب الذي نقرأ بعضه في كتب التاريخ، وعلى الأخص (مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني)؛ فكان الكثير منهم يختفي بين القبائل ويغير اسمه ونسبه؛ حتى اندس بعضهم بين القبائل المسيحية، وتظاهروا بالمسيحية؛ تستراً على هويتهم.

ومن هؤلاء الذين عرفنا أبناءهم أخيراً بلبنان كان أمين نخلة الشاعر وكان منهم الشهابيون، وبديع هاشم، بكفرشما، وهم مسيحيون انحدروا من سلالة هاشمية، وتظاهروا بآبائهم بالتنصر خوفاً من البطش.

وبيت الحسيني هم الآخرون هاشميون علويون طارد أجدادهم الأمويون والعباسيون؛ فلاذوا بالقبائل المسيحية متسترين، كما لو كانوا مسيحين حقيقة، وما لبث أولادهم وأحفادهم أن انجرفوا بتيارات البيئة وأصبحوا مسيحيين، ومن هؤلاء اليوم ادوارد الحسيني، وخوزية الحسيني، وملحم الحسيني، وهم من وجوه (برج البراجنة) ببيروت وكبار ملاكيها، أما كثافة الحسينيين في السكن في لبنان فهي في الكسروان.

وحين ضعفت الدولة العباسية وأمن البعض من بطشها ظهر الكثير من

العلويين في نواح كثيرة من العراق، وكان من هؤلاء العلويين رهط قد استوطنوا مواطن قبائل الخزرج، التي صاحبت الإمام علي عليه السلام من الحجاز إلى العراق، واشتركت معه في حرب صفين، وذلك لموالة هذه القبائل للعلويين وتعلقهم بهم، ومن هؤلاء العلويين كان السادة من أجداد آل الصافي على ما ورد في التواتر، ويُعدُّ (الدجيل) و(بلد) ثم (الكاظمين) بعد ذلك الموطن الأول للخزرج في العراق.

وأول ما ظهر لهذه الأسرة من العلويين من آل الصافي وجود من حيث كثافة السكان ظهر في الجبيلة قرب البصرة، ثم في الجانب الجنوبي من شط العرب والمحمرة والدورق، وكانوا يعرفون بالسادة (البو شوكة)، ثم نزح منهم قسم إلى مناطق العمارة وعلي الغربي، وعرفوا بعد ذلك بالسادة (البخت)، ويغلب على الظن أن المقصود (بالبخت) هم أهل البخت، وهي صفة كانت القبائل، ولا تزال تطلقها على خيار الأسر من المشاهير بالصلاح؛ فإذا أرادوا أن يمتدحوا أحداً قالوا: إنه من أصحاب (البخت).

وكان (للبخت) العلويين قطعان من الغنم والجاموس؛ لذلك كانت مواطنهم بالقرب من (الأهوار)، وعلى ضفاف نهر دجلة، وقد هاجر منهم إلى الفرات رهط، وامتلكوا بساتين في جهة (الحيرة)، ونزل بعضهم النجف بقصد التفقه في الشريعة، وكان من أولئك العالم الروحاني الشهير السيد عبد العزيز الصافي، وهو الجد السادس للشاعر الكبير أحمد الصافي، والذي ورث علمه غير واحد من آل الصافي.

ووعيت أنا والروابط تشد أسرتي بآل الصافي شداً محكماً، ومن أسرتي هذه أبي الذي توثقت بينه وبين السيد محمد رضا الصافي أواصر الصداقة، والسيد محمد رضا هو عميد أسرة آل الصافي، وهو الأخ الأكبر لأحمد الصافي ووالد الدكتور علي الصافي، وكان يجلس للناس فيحضر ديوانه طبقة من أهل العلم والأدب، وتكثر في ديوانه المناقشات العلمية والشعرية؛ فقد كان السيد محمد رضا - وإن لم نسمع من شعره إلا القليل -

أديباً شاعراً ووجهاً من وجوه أهل العلم، وكان له الفضل في نشأة أخويه العالم المجتهد السيد محمد أمين الصافي، والشاعر الكبير أحمد الصافي اللذين نشأ في هذا الديوان، وتحت رعاية أخيها الكبير، واحتكا بحضور ديوانه من أهل العلم والأدب.

ومن مزايا السيد محمد رضا إلى جانب فضله أنه كان كثير الأناقة بهندامه ولباسه؛ فكان يلبس أجود أنواع (الجوخ) الفاصونة، وكان الجيد منها في ذلك اليوم يسمى (بالتريكو)، وحتى الآن وأنا لا أدري سبب هذه التسمية، وإنما أعرف أنها من الأقمشة الغالية، وكان يلبس (الجواريب) يوم كان لا يلبسها في النجف إلا قليلاً من العلماء والوجهاء، وكان يخضب، فلم يدع لأحد أن يرى شعرة واحدة بيضاء في وجهه لمبالغته في الأناقة، وأنا متأكد من أن ديوانه هو الآخر كان من أنظف الدواوين في النجف وأكثرها أناقة، على ما هو عليه من البساطة، ولقد تأثر بنظافة السيد محمد رضا وأناقته أخوه العالم السيد محمد أمين الصافي لحد ما، ولم أدر لماذا لم يتأثر بها أخوه أحمد الصافي ولو ببعض الشيء؟!

ولقد ولجت أنا هذا الديوان كثيراً؛ ولكني لم أألزمه، ورأيت بنفسي ما كان له من تأثير في عالم المناقشات العلمية والأدبية بين حضاره، وفي مقدمتهم المجتهد الكبير والعالم السياسي الأديب الشيخ عبد الكريم الجزائري، وأخوه الشيخ محمد جواد الجزائري، اللذان كانا يلازمان حضور ديوان السيد محمد رضا، ويوفقان في الجمع بين ديوانه العامر الذي يجلسان فيه للناس صباحاً وليلاً، وهذا الديوان - أعني ديوان الصافي - الذي لم يكن مقتصرًا على المناقشات والمجاملات؛ وإنما كان أحد وسائل بث الروح الوطنية في الصميم في أيام الاحتلال البريطاني في العراق؛ إذ كان السيد محمد رضا أحد أقطاب الثورة العراقية الكبرى ومن مفجريها؛ فلقد التقى السيد محمد رضا بالسيد علوان الياسري في (أبو صخير)، ولآل الصافي بساتين هناك يتعهدونها بين فترة وأخرى، ووجد الصافي السيد

علوان الياسري هائجاً، وفي حالة لا توصف من الغليان؛ بسبب الاهانة اللاحقة به أو بأحد الوجوه من لدن الحاكم الإنكليزي.

فإذا اغتفرت هذه الأمانة من قبل البعض من رؤساء القبائل فمن الصعب أن تغتفر عند العلويين وخصوصاً أن الناس اعتادوا يومذاك أن يقبلوا أيديهم ويأخذوا بعض القطع من أسماهم وعمائمهم وأحزمتهم فيحلّقوا بها معاصمهم، كما لو كانت أسورة، أو يقلّدوا بها أعناقهم، كما لو كانت قلادة، وذلك بقصد الشفاء من الأمراض أو بقصد التبرك، وقد يطلبون من السيد العلوي أن يبصق على جروحهم ويسمي العوام تلك الخرق... والأسمال التي يأخذونها من العمائم (بالعلك) بالكاف الفارسية.

أجل لقد التقى السيد محمد رضا بالسيد علوان وهو في مثل ذلك الهياج، فاتفق معه على أن يسعي لبث فكرة القيام بالثورة هذه في العشائر، وذلك - أي الصافي - في مدينة النجف، وكان أن أصبح السيد محمد رضا الصافي من أصحاب المشورة والساعين في الدعوة إلى الثورة في وجه الإنكليز ومن أوائل طلاب الاستقلال، وقد ربط مسعاه هذا بمسعى الشيخ عبد الكريم الجزائري ومسعى الشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، وغيرهم الذين غنوا الثورة العراقية، وجعلوا من بيوتهم مراكز لاجتماع رجال القبائل في الفرات.

وحين انتهت الثورة كان السيد محمد رضا من أوائل من قبض عليه الإنكليز، وزج في السجن، واضطهد، وظهر إباؤه للضم بصفته علويّاً جليّاً في تعاليه عند التحقيق معه، وله أبيات من الشعر طارت من السجن واستقرت في أذهان الذين كانوا يسألون عنه وعن مصيره، وقد خمّسها أخوه أحمد الصافي؛ فجاءت على هذه الصورة بعد التخمس:

إننا في سوى العلى ما رغبنا نملاً الكون رهبة إن غضبنا
ما جزعنا للسجن يوم غلبنا إن من رام مثل ما قد طلبنا
(لا يبالى إن سيق للسجن سوقاً)

نحن قوم عن العلى ما قصرنا حيثما دار كوكب العز درنا
وإذا جار حادث الدهر جرننا رخصت عندنا النفوس فثرنا
(نطلب العز والعلی لا لنبقى)

قد خلقنا دون الوری أحرارا وامتلكنا التيجان والأمصارا
وجعلنا لنا المعالي شعارا ولقد سامنا العدو احتقارا
(فرأنا نستسبق الموت سبقا)

إن ذلي موتي، وعزي حياتي ما انثنت للعدو يوماً قناتي
أنا فرع من دوحة المكرمات أنا من أسرة كرام أباة
(لا يرون الحياة في الذل أبقي)

أنا لما أسرت لم أبد ضعفاً لا ولم أرج من عدوي عطفاً
ولقد قلت والردى به حفاً شرع ان يكون موت حتفاً
(أو أراني يكون موتي شنقا)

والاشتغال في السياسة كان عند المراجع الدينية الكبرى مألوفاً وقد عرفنا في العصور الأخيرة من المراجع الدينية الكبرى: الميرزا حسن الشيرازي بسامراء والحاج ميرزا حسين الخليلي الذي أفتى بوجوب قيام المشروطة هو والشيخ ملا كاظم الخراساني (الأخوند) والميرزا محمد تقي الشيرازي وشيخ الشريعة الأصفهاني.

وعرفنا من كبار رجال العلم والاجتهاد الشيخ مهدي الخالصي، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والسيد محمد علي هبة الدين.

ومن وجوه الطبقة الروحانية السيد (أبو القاسم الكاشاني)، والشيخ جواد الجواهري، والسيد محمد علي بحر العلوم، والسيد محمد الصدر، والشيخ عبد الرضا والشيخ راضي، ومحمد رضا الشبيبي، والسيد سعيد كمال الدين، وغيرهم.

ولكننا لم نعرف أحداً من وجوه الروحانيين استساغ قيام الأحزاب في العراق، والانتساب لها غير السيد محمد رضا الصافي الذي انتسب لحزب

(الإخاء الوطني)، وصار في النجف مرجعاً لأعضاء هذا الحزب في جميع أنحاء الفرات الأوسط في المشورة، وغير الشيخ محمد رضا الشيباني الذي كان من أعمدة الحزب ورؤسائه.

وكان لي غير صلتني بالسيد محمد رضا الصافي، والسيد محمد أمين الصافي ارتباط صداقة قد تفوق - بل تفوق - حدود الإخاء بأحمد الصافي، وبالسيد نعمة الصافي، وبالسيد عبد الوهاب الصافي، وكان بيت السيد نعمة مجاوراً لبيت عمي الميرزا كاظم الخليلي؛ لذلك كان السيد نعمة ملازماً لديوانه لا ينقطع عنه في كل ليلة، وكانت بيني وبينه مساجلات شعرية ومفاكهاة أدبية.

ولقد قيل إن صداقة الآباء يرثها الأبناء؛ لذلك لا غرابة أن ورث أبناء الصافي محبة آبائهم لي وألطفهم، وتفقدتهم إياي، وفي طليعة هؤلاء كان الدكتور علي الصافي، وعزيز الصافي وحسين الصافي، والسيد موسى الصافي، ويحيى الصافي، وأولاد السيد نعمة الصافي، وأنا معتز بهذه المحبة.

(٢)

ولقد سبقني بصداقة أحمد الصافي أخي عباس الخليلي، وكان أحمد الصافي أقرب جميع الأصدقاء إلى أخي عباس حتى الأرحام منهم، فكنت أرى الصافي في بيتنا، وأراه في مدرستنا (مدرسة آل الخليلي) في غرفة أخي عباس، وبلغ من أمر هذه الصداقة أن أخذ أحمد الصافي من مدخر أخيه السيد محمد رضا، دون علم أخيه مبلغاً من الليرات العثمانية، وقدمه إلى أخي حين تورط أخي في شراء محتويات سفينة جاءت من البصرة إلى الكوفة محملة بالأقمشة، وكانت أول سفينة تقدم من البصرة عقب احتلال الإنكليز لبغداد.

وكان أخي عباس قد استعان بأختي؛ فأخذ ما كان لديها من الليرات

الذهبية، ثم قصر هذا المبلغ؛ فأتمه له أحمد الصافي من مدخر أخيه، وقد استأجر أخي لنفسه محلاً في الخان الواقع بسوق البزازين في النجف ليعمل في تجارة الأقمشة إلى جانب مواصلته للدرس.

وحين اختفى أخي بسبب ثورة النجف في سنة ١٩١٨ - كما هو مذكور في الجزء الرابع من (هكذا عرفتهم) في عرضي لكيفية معرفتي لأخي عباس، وهو لم يكن قد باشر بعد هذه التجارة - أوصى أخي عمنا الميرزا كاظم الخليلي الذي كان قد أسرع فنقل القماش كله من الخان إلى بيته، وملاً به السراديب خوفاً من مصادرة سلطة الاحتلال له، لقد أوصى أخي وهو في مخبئه بتسليم كل هذه الأقمشة إلى أحمد الصافي، كما أوصى أباه بأن يفتح للصافي غرفته في المدرسة، ويسلمه كل ما فيها حتى السجادة وحين سئل أخي عما ينبغي أن يحتفظ به من هذه الأقمشة والكتب للدائنين الآخرين ومنهم أخته، قال: هذا ليس من شأنكم؛ إنما يجب أن تسلموا كل ما يخصني أنا لأحمد الصافي، وقد فعل أبي وعمي ذلك والحصار - حصار الإنكليز للنجف - لا يزال مضروباً على المدينة، وأخي لا يزال في مخبئه.

وعند انحسار الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ خاف الصافي على نفسه، كما خاف سعد صالح، والسيد محمد علي كمال الدين؛ ففر الصافي إلى إيران، وفر سعد صالح والسيد محمد علي إلى الكويت، وحين أمنا عادا إلى العراق، أما الصافي فاتجه إلى طهران، وقصد رأساً منزل أخي عباس، وأقام عنده شهوراً كأخوين أكثر مما كانا يعيشان في النجف.

واستطاع أخي أن يحصل له على غرفة في مدرسة (مرو)، وكان من الصعب الحصول على هذه الغرفة ما دام فيها مخصصات تدفع للطلاب الذي يسكن فيها، وقد سكن فيها أخي مدة طويلة حين قدم طهران هارباً، وأفاد من هذه المخصصات الشهرية

وكان الصافي يجتهد في تعلم اللغة الفارسية وقد ساقه إلى ذلك عاملان: عامل السكن والاستيطان، وعامل الأدب؛ لِمَا بين العربية

والفارسية من وشائج وصلات أدبية عميقة، وخصوصاً أن الصافي قرأ كثيراً من القطع الشعرية والنصوص التي كانت قد ترجمت من الفارسية إلى العربية، وشغف بترجمة البستاني لرباعيات الخيام التي نقلها وديع البستاني من الإنكليزية (لفيتز جيرالد)، وهي ترجمة رائعة على الرغم من أن الترجمة لم تجيء عن الأصل؛ وإنما نقلت من لغة إلى أخرى، ومن هذه إلى لغة ثانية.

ومن المؤسف أن وديع البستاني لم يترجم من الخيام إلا سبعين رباعية، وكم كان جميلاً لو أنه قد أتم هذه الرباعيات التي تجاوزت المئتين في تحقيق المستشرق الألماني (نولدكه)؛ وإلا فهي أكثر من ثلاثمائة رباعية، وجمع البعض الرباعيات المنسوبة للخيام؛ فبلغت أكثر من أربعمائة رباعية.

(٣)

وكان بين أخي وبين الحاج (أمين الضرب) - وهو رجل من كبار رجال المال والأدب - وكان يعهد إلى أبيه وإليه من بعد أبيه بضرب سكة النقود فسمي (بأمين الضرب) وكان بيته مفتوحاً للضيوف من أهل الفضل يقيمون فيه شهوراً مكرمين.

وفي هذا البيت وفي عهد والد الحاج (أمين الضرب) نزل السيد جمال الدين الأفغاني ضيفاً، وحينما اقتضى الأمر سفره على حين بغتة - عندما أحس بمداهمة الخطر - حمل ما خف وزنه من أثاثه وحاجاته، وترك ما ثقل حمله كأمانة في بيت (أمين الضرب)، ومن بعض ما ترك صندوق مليء بالكتب والأوراق والرسائل، ومنذ عهد قريب وفي هذه السنوات الأخيرة رأى ابن (أمين الضرب) - وهو أستاذ بجامعة طهران - أن يفتح هذا الصندوق ويرى ما فيه، وكان من نتائج ذلك أن أخرج هذا الأستاذ طائفة مما في صندوق السيد جمال الدين الأفغاني، وصنّفه، وقامت جامعة طهران بطبعه. ومن المؤسف أن وافق هذا زمن الفتور الحاصل بين سياسة الحكومة

العراقية والإيرانية، فانقطعت عني فيها الصحف الإيرانية والمجلات والكتب التي كانت تهديها لي جامعة طهران ومؤسسة (بنياد بهلوي) في بعض الأحيان، وقد حرمت من الاطلاع على كثير من الكتب، ومن جملتها هذا الكتاب الذي لا شك في أهميته، يضاف إليه أنني نسيت اسم الحاج (أمين الضرب) ووالده وحفيده الدكتور الذي قام بنشر هذا الكتاب، الذي أرى من الوجوب ترجمته إلى العربية.

ولما كانت هذه الاستعراضات التي أقوم بنشرها في سلسلة كتابي (هكذا عرفتهم) صفحاتٍ مما احتفظت بها الذاكرة، لم أكلف نفسي البحث والاستقصاء عن الكتاب؛ وإلا لَمَا صعبت علي معرفة اسم (أمين الضرب) واسم أبيه وحفيده الدكتور لو تقصيت ذلك.

وطلب (أمين الضرب) من أخي عباس أن يرشح له أستاذاً يقوم بتدريس ابنه آداب اللغة؛ العربية فلم يجد أجدر من أحد الصافي وخصوصاً وقد - ألم الصافي باللغة الفارسية، واستجاب أحمد الصافي لهذه الدعوة وخصوصاً لشخص مثل أمين الضرب المعروف بتقديره واحترامه لأهل العلم والفضل والأدب.

ولا أعلم أكان هذا الذي تولى الصافي تدريسه الأدب العربي وتهذيبه هو الأستاذ الجامعي المعروف الذي أخرج هذه النفائس مما ترك الأفغاني أم أنه أحد إخوته الآخرين إذا كان له أخوة؟

والذي يدخل من أمثال الصافي بيت (أمين الضرب) - وخصوصاً من الذين لا يملكون بيتاً - فمن المستحيل أن يتركهم (أمين الضرب) يقيمون في بيت آخر غير بيته.

وبيت (أمين الضرب) بيت واسع بطهران، وفيه من الغرف الخاصة بضيوفه ما يكفي، فضلاً عن ديوانه العامر بكبار رجال السياسة والعلماء والشعراء، ووجوه البلد يلتقون في كل مساء فيه فيعمر بهم مجلسه.

وفي هذا البيت الذي حتم (أمين الضرب) إقامة الصافي فيه التقى

الصافي بكثير من هذه الطبقات، فعرف الجميع له فضله، وصاروا يشيرون إليه في كل مناسبة حتى يجيء ذكر الأدب.

وحين تم له أن يترجم (رباعيات الخيام) وقد كان من أشد المعجبين بهذه الترجمة (بهار)، وهو الشاعر الذي احتل في الفارسية منزلة (شوقي) في العربية، وكان العلامة الكبير السيد محمد القزويني - الذي درس عليه الدكتور مصطفى جواد ببافيس أيام دراساته العليا في (السوربون) - في مقدمة المعجبين بهذه الترجمة؛ ولإعجاب القزويني هذا قيمة جد كبيرة في عالم الأدب بصفته أحد العلماء المتصلعين باللغة العربية وآدابها، فضلاً عن تضلعه باللغة الفارسية والفرنسية وكان من نتيجة هذا الإعجاب بترجمة الصافي لرباعيات الخيام أن تولى السيد القزويني تقديم هذه الترجمة بقلمه.

وكان الصافي يقضي بعد هذا جل أوقاته في بيت أخي بطهران فينثيان بذكر أيامهما في النجف، وحدث بينهما جفوة بسبب من سوء التفاهم، كما عبر عنها الصافي في مقطوعة شعرية، ثبتت في أحد دواوينه، ولم يعرف أحد أن المقصود بها أخي، ولا أعلم أكان أخي قد علم بأن هذه المقطوعة تخصه؛ وذلك لانعدام الإشارة إليه، ولم يعلم بها أحد غيري. وقد جاءني هذه المعرفة من الصافي نفسه، وتجنبنا أنا ذكرها لأخي، حتى لقد سألني الصافي في أواخر أيامه عن علم أخي أخي عباس بأنه هو المقصود في هذه المقطوعة فأجبتة بالنفي؛ إذ كثيراً ما كان يجيء ذكر الصافي وأنا بطهران، فلم أجد أخي يتطرق إلى شيء من هذا، ويبدو أن الصافي كان قد ندم بعد ذلك.

في حين أن السبب في هذه الجفوة - كما رواه الصافي - أن أخي قد أصاب ثروة بطهران، وأحسست ذات يوم بشيء من تعاليه، ونحن في نقاش وأنا - يقول الصافي - مرهف الحس رقيق الشعور؛ لذلك أحسست بشيء من تعاليه بسبب ثروته، وخرجت من بيته، فلم أعد إليه ولم يسأل هو عني، وكان ذلك في أواخر إقامتي بطهران كما قال الصافي.

وقد أوردت أنا المقطوعة في استعراضني لجانب من عرضي لحياة أخي في الجزء الرابع من (هكذا عرفتكم)، ومع ذلك فلا بأس أن أورد بعض أبياتها هنا: يقول الصافي وقد عنون مقطوعته (بالصديق المثيري):

فكم قضيت دهرًا مع صديقي	يظللنا لشقوتنا الهناء
توفيق للغنى فازورّ عني	وبدلّ بالجفا منه الإخاء
لذاك نأيت عنه وفي فؤادي	بقايا الود يطردها الجفاء
وذكرى الود لا زالت بقلبي	لدى الأيام يحفظها الوفاء
وأبكي كلما أرنو إليه	ويسبقها - متى ترني - البكاء
وأرثي بالقريض قديم حبي	لو أن الميت يرجعه الرثاء
أدام الله أصحابي بفقر	مخافة أن يفرقنا الثراء

ويوم ذكر لي الصافي أنه يقصد بهذه الأبيات أخي عباساً نفيت عن أخي - حسبما أعرف أنا عنه ويعرف عارفوه - أن يكون للمال عنده قيمة؛ فسكت الصافي ولم يرد علي؛ لذلك لا يبعد أن يكون للوهم أثره في هذه الجفوة سواء كان هذا الوهم قد داخل ذهن أخي أم داخل ذهن الصافي أو داخل ذهن كليهما معاً، وهذا الأخير أرجح، وإلا لماذا لم يسأل أخي عن الصافي بعد انقطاعه؟ وأشهد أن أخي كان يسألني مرات في رسائله ويسألني عنه عند زيارتي له بطهران ويحن إليه.

لقد كنت الصديق المقرب من أحد شعرائنا الذين تحتم علي إغفال ذكر اسمه هنا يوم كنا صبياناً نلعب في الأزقة، ويوم كنا طلاباً في مدرسة واحدة، ثم شبننا وصرنا نعقد المجالس في بيوتنا ولا ينفك أحدنا عن الآخر وكم كان شاقاً عليّ يوم أصابت هذه الصداقة أول صدمة حين وقع شيء من سوء التفاهم بين الصافي وهذا الصديق الأثير، وكان لهذا الاختلاف أثره في نفسي، وقد والله نسيت هذا الصديق الأثير وصداقته إلى حين بسبب اختلافه مع الصافي، وكان ذلك بعد أن هرب أخي عباس من النجف، وقبل قيام ثورة العراق الكبرى، أي قبل نزوح الصافي من العراق إلى

إيران، فكانت من كل هذه المشاعر والأحاسيس والمقدمات عوامل ربطتني بالصافي وشدتني إليه وقربتني منه حين عاد من طهران إلى النجف سنة ١٩٢٧ بعد أن - قضى الصافي سبع سنوات بطهران، فكنت من أكثر ملازميه اتصالاً به، ومحبة له وإعجاباً ببراعته وأفكاره وشدة إيمانه، وبروحه الخفيفة المتجلية في شعره.

وكان أكثر ملتقانا مساء في الصحن الشريف، حيث يتحلق حوله المعجبون به، فينشدنا شيئاً من شعره الذي نظمه في طهران، وأكثر ما كان ينشدنا من ترجمته الرباعيات الخيام فيأتي بالأصل لمن يعرف الفارسية، ثم يأتي بترجمته له، وما لبث أن انضمَّ إلى حلقتنا هذه عدد من الأدباء، وصارت هذه الحلقة تتسع، وصار يعيد علينا الترجمة بطلب ممن لم يسبق له أن سمعها، ويومذاك كان (الجداول) ديوان إيليا أبي ماضي قد طبع ونفذ قبل أن تصل منه نسخة إلى العراق، وكنت قد كتبت للدكتور محمد حسين هيكل الذي كان يشرف على تحرير صحيفة السياسة الأسبوعية التي كانت جريدته تصل إلي بانتظام ولها علي حق لن أنساه في تعرفي بكثير من أئمة الأدب واتساع دائرة الفكر عندي، لقد كتبت له أرجو مسعاه في أن يكلف من يعتمد به بالحصول على نسخة من (الجداول)؛ إذ كنت شغوفاً بشعر هذا الشاعر الذي دلّني عليه مخلفات أخي من الصحف والمجلات التي تركها في بيتنا، والتي كنت أطلعها بشوق ولذة.

وجاءتني هذه النسخة من مصر وقبل أن أتلوها خطفها مني الصافي؛ فقد كان هو الآخر شديد الإعجاب بأبي ماضي وظل إعجابه به يزداد حتى النهاية، وظل الصافي يستمهلني في إعادة النسخة، ولعله قرأ هذا الديوان غير مرة، وحين أعاده إلي قال: إنه قد دفع به لأحد أصدقائه ليستنسخ له نسخة منه وقد فعل!! ثم حين كان الصافي في سوريا صارت له بإيليا أبي ماضي صلات ومراسلات، وإيليا عند الصافي ليس أشعر شعراء المهجر؛ بل هو أشعر شعراء العرب في عصره، وأنا معه على هذا الرأي.

وحين أصدرت (جريدة الفجر الصادق) في النجف نشرت قسمًا من ترجمة الصافي لرباعيات الخيام التي لم تكن قد نشرت بعد، وعلقت عليها وأنا أقدمها للقراء وأشارت في تعليقي هذا إلى قيمة ترجمة وديع البستاني لها؛ لكونها ترجمة مفعمة بالبراعة والإبداع الفني الأدبي مما قد يرمز إلى تفضيل ترجمة البستاني؛ فأغاظ الصافي ذلك وعاتبني على ما رأيته من رأي.

ولكن مثل هذا الغيظ بيني وبين الصافي لا يزيد على غفوة وانتباهة؛ فهو يعرف حبي له وأنا أعرف حبه لي، وقد كتبت له مرة وهو بלבنان حين علمت بأنه بالغ في انزوائه عن الناس، وهجر مجالسه من المقاهي التي كان يلتقي فيها، لقد كتبت ألوهم على هذه المبالغة في الابتعاد عن الناس، فجاء في إحدى رسائله الكثيرة التي تعبر عن مكانتي عنده يقول:

[..... وأصارك كما صارحتني، ولا أعلم هل تعلم بمدى حبي للانزواء؟ وهل تعلم أنك الشخص الوحيد الذي استطاع أن يخرجني من زاويتي، وما ذلك إلا لشدة انسجام روحي مع روحك، ولو سألت روحك لعلمت أنني لو بقيت الدهر معك ما مللت، بل كنت أزداد سروراً وتعلقاً بك.....].

لقد قضى ثلاث سنوات في العراق بعد عودته من طهران، وكان يقضيها بين النجف وبغداد، وأكثر ملتقاه كان عند عبد الحميد زاهد صاحب المكتبة الوطنية، التي كانت يومذاك بشارع المتنبي، وحين عاد من طهران كان في صحة جيدة، ثم ظهرت عليه بعد مدة آثار من أعراض المعدة وآثار من التهابات الرئة، رجع له الطبيب السفر إلى سوريا لقضاء مدة لاستشفاء، ودعاه هنالك داع آخر للسفر، وهو البحث عن يقوم له بطبع رباعيات الخيام، بعد أن لم يجد في العراق من يتصدى إلى ذلك.

لقد كان سفره في سنة ١٩٣٠، وكان كل أمله أن يعود متى تحسنت صحته، وتهيأ له طبع الرباعيات وهكذا انتقل وترك انتقاله في نفسي فراغاً كبيراً على مواصلة الرسائل بيني وبينه.

(٤)

وما لبث قليلاً في الشام حتى تعرف به الشعراء والكتاب وأصحاب الصحف وكان في مقدمة أولئك يوسف العيسى صاحب جريدة الفباء الدمشقية الذي شدته بالصافي صداقة دامت طوال حيات (العيسى)، وأنا الآخر كنت قد تعرفت بيوسف العيسى وكانت جريدته تصل إلي منذ العشرينيات، وأذكر أنه حين نفى رضا شاه الكبير أخى عباساً من إيران إلى العراق كتبت (الفباء) تستغرب هذا النفي بسبب كون أخى من المقربين للشاه فكيف تم نفيه؟! ثم أنهت تلك الكلمة بهذا البيت من الشعر الذي لا أعرف صاحبه وقالت:

تلك السياسة ما في الأمر من عجب تهوى القلب أشكالاً وألوانا
وهنا كان الصافي قد نزع العمامة، ولبس الكوفية البيضاء والعقال
الأسود، وصار بالإمكان أن تتبينه من بعيد بين أهل الطرابيش وحتى بين
البدو، لقامته الطويلة ونحافته ومشيته الخاصة.

وبدأت الصحف تنشر له شعره، وحصل هناك من عرف قدر رباعياته
فقام بنشرها، ولم يحصل الصافي من ريعها إلا القليل الذي استعان به في
معيشته وما معيشته اليومية إلا رغيغ من الخبز وبيضة دجاجة، أو شيء من
الحمص المسلوق.

وطبعت للصافي عدة دواوين وبلغ المطبوع منها عشرة، وإن كان لديه
مجموعة كبيرة غير مطبوعة فلم يكن حظها منها بأكثر من حظها من (رباعيات
الخيام) التي نفدت، وحين عز الحصول عليها قام السيد قاسم محمد
الرجب صاحب مكتبة المثني ببغداد بطبعها. بالأوفسيت في طهران، على
غير دراية واستئذان من الصافي على ما قال لي الصافي، ولست أدري أكان
قد سوى الأمر بينه وبين الصافي فيما بعد أم لا؟ ولا بأس فالصافي في
نزعته كثير القناعة، شديد الإباء غير مبال بشظف حياته، وخشونة عيشه،
وهو صادق كل الصدق إذ يقول:

وسائل مم عيشي؟ قلت من كتبي فقال لي أنت حقاً عائش برغد
فليس مثلك شخصٌ عاش من كتب فقلت لكن عيشي لم يعشه أحد
وبالنظر إلى بيته في الشام فقد كان غرفة مهملة في إحدى المدارس
القديمة، كان بينها وبين الغرفة التي سكنها بمدرسة (مرد) بطهران ما بين
السماء والأرض من الفروق، وكان يأوي إلى هذه الغرفة ليلاً لينام، وفي
النهار كانت له مقهى معينة في الشام يقصدها، هي مقهى (الكمال) ومقهى
(كوكب الشرق) إذا لم يتم زيارة (الغباء) ويمكث عندها قليلاً.

وفي المقهى الذي يقتعده الصافي يحوطه جمع من المعجبين بشعره
الذين يأنسون به ويأنس بهم، وحتى الذين يردون الشام ويبيروت بعد ذلك
الذين يعرفونه عن بعد وعن طريق الإعجاب بشعره كانوا يسألون عن مواطن
جلوسه، فإذا عرفوها لازموا فيها وأحاطوا به.

وللصافي وضعية خاصة للجلوس أشرت إليها فيما كتبت عنه،
فاستلفتت هذه الإشارة الكتاب، فتكرر ذكرها وهي أن الصافي لا يكتفي
بكرسي واحد من كراسي المقهى إذا جلس، فهو يحتاج إلى كرسي يجلس
فيه، وآخر قد يستعين به في مد رجله أو الإتكاء عليه، وثالث يضع الصحف
التي يحملها أينما ذهب عليه وكرسي آخر إذا شاء - ولا سيما في الصيف -
أن يخصص كوفيته وعقاله به، وهو بعد هذا ينزع حذاءه في الغالب ويرفع
رجليه واضعاً قدميه على حافة (الترابيزة) إن لم يمد رجله على الكرسي
الآخر.

أما الذين يلتفون حوله فإن كل واحد يسحب كرسيّاً من المقهى ويدينه
إليه، حتى تتألف من كل هذا حلقة تتسع في أغلب الأحيان، وتضيق أحياناً
قليلة يجد الصافي في نفسه ميلاً إلى السروح في الخيال، فيغمض عينيه ولا
يفتحها في الغالب إلا ليسجل بيتاً أو رباعية استوحاها من تلك الإغفاءة.

ويدعو كثيراً من أصدقائه ومحبيه والمعجبين بشعره للحضور في
جلسات عامة وخاصة لينشدهم شعره، وفي دعوة خاصة استعد لحضورها

عدد من أصدقائه الصحافيين والشعراء أو الأدباء، وكان مر وقت والصافي لم يحضر، وارتؤي أخيراً أن يقوم الكاتب الصحافي زهير مارديني باستقصاء خبره، وزهير مارديني كان أحد الملازمين للصافي منذ أن كان يقيم الصافي في الشام وحتى بعد انتقال الصافي و(مارديني) إلى بيروت، وبحث زهير مارديني عن الصافي ووجد أن وعكة صحية قد حالت بين الصافي وحضور الدعوة، ولكيلا ينغص زهير الجلسة على الأصحاب هياً له عباءة كعباءة الصافي وكوفية وعقالاً وصمم أن يتقمص روح الصافي وجسده، ولا أدري إلى أي مدى كان نجاحه، وإنما الذي أدريه هو أنه صعد منصة الخطابة وعلى قدر ما يستطيع مثل الصافي في إنشاد بعض قصائده، وكان التصفيق مزدوجاً، منه ما يتعلق بإعجاب القوم بشعر الصافي، ومنه ما يتعلق بتقمص زهير مارديني شخصية الصافي.

وللصافي نبرات في تلاوة الشعر محبوبة ومغبوبة تزيد الشعر حلاوة، ولذة في الأسماع ولا أدري هل استطاع أبو محمد (زهير مارديني) أن يجيد تصويرها الصوتي كما أجاد لبس العباءة والعقال والكوفية بالشكل الذي يلبسها الصافي؟

وفي الشام ظهرت عليه أعراض من أمراض كثيرة هذّت قواه أهمها كانت الدوسنطاريا التي ظلت أعراضها ترافقه حتى الممات، وهناك التهابات في القصبات مزمنة، كما انكشف بعد ذلك أثر للسكر في دمه؛ فكان يقضي فصل الصيف في القرى القريبة من دمشق وأهمها (مضايا) وكثيراً ما كان عارفوه ومحبوه يدعونه إلى مصايفهم؛ فيستجيب الدعوة ولا يقبل أن يقيم طويلاً عندهم وكان في سنيته الأولى ملازماً لدمشق لا يخرج منها إلى جهة أخرى؛ ولكنه صار بعد ذلك يزور بيروت في أوقات معينة ويقضي فيها بعض الوقت ويعود إلى دمشق التي كان يحبها كثيراً.

ومن عاداتي أن أقضي الصيف في ربوع سوريا ولبنان ومنذ أن سكن الصافي دمشق بدأت أطيل المكث بدمشق أكثر، وأقضي جل الأوقات معه،

فإذا التقينا لفتنا الأنظار إلينا بما كنا نطلقه من الضحكات التي كنا نغرق فيها بما كان يرويه لي وما كنت أرويه له أنا ثم يقرأ عليّ ما جد عنده من جديد نظمه ودواعيه، وكنت أنقل منه إلى جريدتي (الراعي) يومذاك و(الهاتف) بعدها زيادة على كان يبعث به هو إليّ.

أما الذي بعث به إليّ ونُشر في (الراعي) و(الهاتف) بصورة خاصة فهو عبارة عن رباعيات ومثاني ومثلثات، كان يطلق عليها اسم (أنغام مشوشة)؛ فكنت أنشر في كل عدد من الهاتف قطعة أو قطعتين ثم صرف نظره من هذا الاسم وأطلق عليها اسم (أشعة ملونة).

وذاكرني ذات يوم في مسألة إمكان جمع ما نشر في الهاتف من الرباعيات وطبعه في مطبعتي باسم (أشعة ملونة) على أن يكون الربح بعد استخراج أجور الطبع مناصفة بيننا، فضحكت، وكان معنى ضحكتي لديه مفهومة، ومع ذلك فقد صارحته بأنني سأقوم بطبع (أشعته) على نفقتي حين أعود إلى العراق، ثم أتقدم إليه بجميع النسخ على سبيل الهدية، فأبى وأبى أنا وأصر هو وأصررت أنا وهكذا كان.

وكتب لي يقول: (أما الغاية من ذلك - أي الغاية من نشر أشعة ملونة - فهي جعل القراء ينظرون إلى هذه المقاطع نظرة خاصة تريهم هواجسي وخطراتي التي جاءتني في أوقات مختلفة دون أن يكون لي رأي في خطورها، ودون أن أفكر فيها فهي بنت الخطور لا بنت الفكرة، وليس لي فضل فيها إن كانت جيدة ولا ملام عليّ فيها إن كانت رديئة، فما كنت إزاءها إلّا كالمسجل لتلك الخطرات الطبيعية إن خيراً فخير وإن شراً فشر، واليوم أقدم لك شيئاً منها على أن أبعث إليك في البريد القادم بقيتها).

ثم طلب مني تقديم هذه الأشعة عند الطبع بقلمني؛ فكتبت المقدمة وبعثت بصورة منها إليه، فأعجبه كثيراً ورحت أعيد النظر فيما نشرته من أنغام مشوشة من قبل وما بعث به إليّ أضمه إليها فيما بعد فاستأذنته في تبديل بعض ما رأيت وأنا أعلم أن الصافي لا يعني كثيراً بغير المعنى

والصورة، وهو والشيخ علي الشرقي سواء في ذلك، والفرق أن علي الشرقي يذعن لمن يورد عليه ما فاته ولكن من الصعب أن يذعن الصافي لمثل هذا، ومع ذلك فقد أخذت عليه بعض ما رأيت من قبل قوله (راق لي) عوضاً عن (راقني) وجمعه النادي بالنادي - وليس (الأندية) وقوله:

قد قلت لما جاءني متسول والفلس إذ أدنو إليه يبعد
أخذاً عليه ثبوت (الواو) في (أدنو) ورفع الدال في (يبعد) وغير ذلك
مما لا أذكره الآن فكتب لي يقول: [...] أخي أما ما ذكرته لي بشأن إبقاء
التصحیحات كما هي. فهو وإن عَزَّ عليَّ نظراً للتصرف في بنات أفكاره
التي تعلم أنت عزتها على والدها مهما كانت دميمة ولكنني أعتفر ذلك إزاء
ما اتفق به من حبك لي، واعتقادك بضرورة العملية الجراحية سواء كانت
ناجحة أم لا].

ثم قال في رسالة أخرى:

[أما تصرفك في قلبي (عزي يغر الناس حتى يحسبوا) فأنا أقبله بكل
ترحيب وإن كان أبتعد عن السائلين الذين هم موضوع الشعر، وأما حذف
نون المفاعلة الموجودة مع نون الوقاية - في قلبي (تحسيني) بدلاً من تحسيني
- وفي قلبي (يروني) بدلاً من يروني - فهو جائز حسب الأصول النحوية
التي تستند إلى رواية قوله تعالى ﴿أَتَحْكُمُونِي﴾ - بدون تشديد -
﴿وَأَتَحَاجُونِي﴾ بالتشديد، والنحاة يأتون بهذه الآية المختلفة الرواية دليلاً
على جواز حذف نون الأفعال الخمسة إذا اقترنت بنون الوقاية، وصدق
الصافي، إذ هناك من يجوز هذا الحذف، وإن كان ذلك موضع مناقشة عند
النحويين الذين ذهب بعضهم إلى أن أتحاجوني بالتشديد فيه أن النونين قد
دمجتا معاً. وبالإجمال فالحق مع الصافي في أن هناك من جوز هذا.

- وأما قولك - يقول الصافي - (يحوطها) بدلاً من (أحاطها) فأنا
أقبلها شاكراً، وأما تصحيح (كأنهم - يروني لهم من دون باقي الوري خلا)

بقولك (كأنني..... أكون لهم من دون باقي الوري خلا) فلا أوافق عليه، ولا يقبله ذوقي أصلاً. وأنا الآخر لا يقبله ذوقي ولكنني حرت كيف أصلح (يروني) من حيث لا أتصرف ببناء البيت على قدر الإمكان - وأضيف إلى ما سلف.

وأحسب أن مثل هذا كثيراً ما كان يجري بيني وبين الصافي كتابة على البعد، وشفاهاً عن قرب، وإذا ما تقبل مني بعضاً مما أخذه عليه فقد كان يتقبله على مضض، وكان مما يشفع هذا النقد عنده حبي المفرط له وإعجابي الشديد بطائفة كبيرة من الأفكار البارة التي يودعها شعره.

ومع كل ذلك فقد كان يغالي بي ويعتز برأيي ويقول مثلما كان يقول بعضهم إنه أول ما يقرأ من جريدتي كان يقرأ ما كنت أكتبه أنا في الجريدة قبل غيري حتى لقد أبدى أسفه يوم أنهيت سلسلة (الهندواني) للفصل بين (اليقوي والخاباني)، وكان يعد هذا الذي كانت تتضمنه هذه السلسلة من التهكم والسخرية ضرباً جديداً من ضروب الأدب ويوم تناولت ديوانه الأمواج بالتقريظ والنقد كتب لي يقول:

[.... أخي أعجبتني كلمتك عن (الأمواج) جداً ففيها درس وتمحيص والتفات لناحية من شعري قل من تعرض لها، فأشكرك وقد اطلع عليها بعض الأدباء منا فأعجبوا بها....].

وما دمنا في ذكر صعوبة تقبل الصافي للنقد أذكر أن أمين الريحاني الذي أثنى على شعر الصافي حين صدور (التيار) ثناء عاطراً أخذ عليه بعض المآخذ فكان أن كتب له الصافي ما يلي: [.... وإني لا أشكر حسن ظنكم بما مدحتموه - يعني مدح التيار - وأعدكم بالسعي لإصلاح ما أنتقدتموه، هذا فيما إذا انصاع شيطان شعري لاستماع النصائح الثمينة من أستاذ مثلكم فقد عرفته - أي شيطان شعره - متمرداً لا يخضع لنظام وقاعدة (كذا)، وهو إذا استرسل في النظم حسبته محموراً بهذي - وأعد أنا هذا تواضعاً من الصافي - وربما كان في هذيانه شيء مستحسن.

أجل إنني أعرف شيطاني متمرداً ولو لم يكن متمرداً ما استطاع أن يفلت من سجن النجف وأقفاص التقاليد، وإنني لأشكره على خضوعه لقيود الوزن والقافية في أثناء ثورته وهذيانه].

ولحقت النقمة على تمرد الصافي على التقاليد من لدن بعض الجامدين إلى مدينة (بنت جبيل) ومدينة (بنت جبيل) هي أقصى مدن الجنوب من لبنان المجاورة لأرض فلسطين والتي نالها اليوم - بسبب معارك الجنوب - ما نالها من الخراب وتشرد السكان، وهي كالنجف؛ لأن معظم علمائها وأدبائها قد تخرجوا في مدارس النجف، فكما تحمل النجف من الأفكار الحرة عند أهل العلم والأدب فإن هناك طائفة من المتمزمتين الجامدين الذين لا يستسيغون حرية الفكر، والذين من السهل عليهم تكفير النابيهين والخارجين على التقاليد البالية، حتى وإن بلغ هؤلاء النابيهون والمفكرون درجة (الاجتهاد)، فهم كفار في نظر أولئك الجامدين، وطالما سقط علماء فحول في الفقه والأصول من أعلى القمم إلى الحضيض بكلمة واحدة من أولئك الجامدين المتحجري الأدمغة، ومن التابعين لهم من العوام، ولقد لقيت أنا نفسي من العنت والأذى ومحاولة الاغتيال، وحرقت مكتبي، وحرقت بيتي، يوم كنت أصدر جريدة (الفجر الصادق) و(الراعي) و(الهاتف) في النجف، تلك الصحف التي حاربت فيها وأنا يومذاك شاب كثير الحماس، جريء إلى حد ما التقاليد البالية التي كان من بعض نتائجها أن سقطت مضرجاً بالدماء أمام بيتي ذات ليلة، وأنا أحاول دخول الدار، فلم أفق إلا وأنا غارق في بحر من الدم، وظللت ملازماً للسرير أياماً بسبب الجروح.

والحرب بين الجديد والقديم ليس بالأمر المستغرب فهو لا يكاد يكون سنة طبيعية رافقت الانسان منذ أوائل تكوين المجتمع، وإن الغلو ليزيدها اشتعلاً، والتعصب يزيدها رسوخاً، والحق أن الجديد لا يستطيع أن يستغني عن القديم، ولا القديم بمستغن عن الجديد لو كان في الشرق

من يزن الأمور بميزان العقل والمنطق، وقد سبب هذا التعصب من كلا الطائفتين للشرق متاعب كثيرة أدى إلى تأخره عن اللحاق بركب المتقدمين في المدنية.

يقول الشيخ محمد الشريعة العالم الروحاني في الباكستان في صدد عدم استغناء الجديد عن القديم: «بأنك ستحتاج إلى الشمعة حين ينقطع تيار الكهرباء وستحتاج إلى القداحة حين نفاد عيدان الكبريت، وستبحث عن الحمار في وسط الطريق حين يصيب سيارتك العطل فتقف عن الحركة نهائياً».

وكان الذين درسوا العلم والفقه من أهل (بنت جبيل) على أهل الأفكار النيرة في النجف - كآل شرارة مثلاً - كانوا متفتحي الذهن، واقعيين في أحكامهم وفي فتاواهم ونهجهم في التفسير بخلاف الذين أخذوا علمهم في النجف من أولئك المتزمتين الجامدين الذين إذا أعوزتهم الحجة استعملوا سلاح التكفير واللعن والسخط في كل ما لا يحلو في عيونهم أو يخالف نهجهم في حين أن الصافي قد دعي إلى بنت جبيل من لدن المعجبين به بقصد تكريمه، فهاج في وجهه أولئك المعاكسون الذين يسهل عليهم تكفير المسلمين وخصوصاً وقد سبقتهم شهرة الصافي وهجاؤه إياهم ومحاربته التقاليد البالية في شعره فقد قال الصافي في هؤلاء المتزمتين الأموات روحاً والذين قد يؤلفون نصف سكان النجف قال:

في بلاد الوري حياة ولكن في بلادي مظاهر للممات
بعض سكان بلدتي مثل دود عائش دائماً على الأموات
ومن هذا القبيل قوله:

إن (الغري) بلدة تليق تسكنها الشيوخ والعجائز
إن صادات بلدتي مشايخ وواردات بلدتي جنائز
وله غير هذا مما يثير حفيظة تلك الطبقة ناسين اعتزاز الصافي

بالنجف؛ حتى لقد ألحق نسبة النجف باسمه وسمى نفسه بـ (أحمد الصافي النجفي) وحتى قال في النجف من باب الشفقة عليها:

صدق الذي سماك في وادي طوى يا دار بل وادي طوى وعراء
جلست على الأنهار بلدان الوري فعلام أنت جلست في الصحراء؟
ويقول التاجر النجفي الحاج مهدي عجينة إنني كنت أجلس في دمشق
بمقهى الكمال، وأمامي صباغ أحذية وإلى جانبي بدوي يلبس الكوفية
البيضاء والعقال، وحين انتهى الصباغ من صبغ حذائي سألته كم ينبغي أن
أدفع لك؟ قال عشرة قروش فنسبته للنعال شاتماً كما اعتاد عوام النجف،
وقلت له (أي ابن النعال): كل يوم وأنا أصبغ بخمسة قروش فلماذا تطلب
مني عشرة قروش؟ وإذا بهذا البدوي - يقوم فيقبلني في جيبني ويقول: منذ
ثلاثين سنة وأنا مشتاق لكي أسمع هذه الشتيمة على ألسن عوام النجف،
وقال هذا وذهب ووجهه يطفح بالبشر، وحين سألت عنه قيل: إنه أحمد
الصافي النجفي.

صفعتهموا حتى برى صفعهم يدي ودستهم حتى غدا النعل باليا
ركلتهم دهرأ فأصبحت أعرجأ وألقتهم نعلي فأصبحت حافيا
لقد هاج هؤلاء في وجهه حين دخل (بنت جبيل)، وأحدثوا ضجة
كبيرة معارضين هذه الدعوة لتكريمه، وفي وسط هذا الشغب والصخب
حمل فؤاد - جرداق أحمد الصافي إلى بلدة (جديدة مرجعيون)، والجديدة
هذه بلدة مسيحية صرفة نقيض (بنت جبيل) المسلمة الشيعية، فأختفى به أهل
(الجديدة) احتفاءً باهراً وغمروه بعواطفهم، وأقاموا له احتفالاً أنشد فيه
شعراؤهم أبداع قصائدهم في تكريمه واستبقوه ضيفاً عزيزاً عندهم أياماً،
ورأى الصافي في هذه العواطف والتكريم ما سر خاطره وأنساه هياج تلك
الطائفة التي تغلبت على الفئة الأخرى التي كانت تريد أن تكرم الصافي في
بنت جبيل.

وفؤاد جرداق الذي خطف الصافي وجاء به إلى بلدة (الجديدة) (جديدة مرجعيون) شاعر فحل، وهو أخو الشاعر الأديب جورج جرداق، صاحب كتاب (الإمام علي)، وصاحب قصيدة (هذه ليلتي) التي غنتها أم كلثوم، فكرمته أم كلثوم وأهدت له (مسجلة) وحيدة من نوعها، كانت إحدى الشركات اليابانية قد صنعتها خصيصاً لأم كلثوم، وفيما يتصل بالشركة التي سجلت أغنية (هذه ليلتي) لجورج جرداق فقد كافأته بأربعة آلاف ليرة لبنانية على ما بلغني، وقالت إنها مكافأة رمزية والحق أنها مكافأة رمزية بالنسبة لتلك القصيدة الرائعة.

وفؤاد جرداق شاعر جريء له صولات وجولات وطالما هاجم شعره الاستعمار الفرنسي الذي كانت حكومة لبنان تخشاه وتجاريه، وفؤاد جرداق تاريخ أدبي سياسي لست أدري كيف تناساه الكتاب اللبنانيون والشعراء منهم؟ فضاء من لبنان جانب مهم من جوانب السياسة والأحوال الاجتماعية، ولم يكن فؤاد يركن في شعره إلى الهدوء؛ بل هو كثير الحركة يتحرش - ولكن بحق - بكل من يراه حائداً عن الحجة ولم ينبج من لسانه وشعره حتى البطارقة والخوارنة؛ لذلك لم ينبج من اعتداء المعتدين عليه كما لم ينبج من دخول السجن.

وقد قبض عليه ذات مرة وأودع السجن على أثر تطفله في إلقاء خطبة وقصيدة شعر، كان قد أعدها لهذا الحفل الذي أقيم في مناسبة تخص الأكليروس والبطارقة والرهبان فتناول البطارقة كما تناول رئيس الجمهورية إده، وقام من مرتفع في هذا الحفل وباغت المحتفلين بخطاب كان من مضمونه قوله: كيف يجوز لهؤلاء البطارقة الذين يحملون الصلبان الذهبية، ويلبسون الحرير والطيالس المذهبة وهم يعلمون أن المسيح ما ارتدى غير الصوف، وما وطأت قدماه الأرض إلا وهما حافيتان، فأحدث خطبته هذه وقصيدته ضجة في الأوساط الكهنوتية وفي رئاسة الجمهورية تم إسكاتها بزجه في السجن.

ومن بعض ما قاله في قصيدته قوله :

وطن سراحين الذئاب تسوسه ماذا يدر لشعبه تقديسه
وطن تطير من الأسى أرواحه وتشور من جور الطغاة نفوسه
هذا بلفته يلف له الأذى والإثم ذاك يقله قلنوسه
ومشى مع الطرفين يسحب ذيله متلكئاً بالمشيتين رئيسه
فيتله لأمامه محموده ويشده لورائه طننوسه
ماذا أقول بموطن حكامه رهبانه وشيوخه وقسوسه
وعلومه أديانه وعميده خوّانه وزعيمه جاسوسه
ربضت على القبر الجميل أسوده وتحكمت بالعقلين تيوسه
قانونه جور وعلم نباته إثم وقتل الناهضين دروسه
وطن بلا طول ولا عرض ولا سمك ولا جرم فكيف أقيسه
السيف ملك جبانه والمال ملك بخيله (كذا) والمومسات تسوسه

وقص عليّ ذات يوم (إبراهيم حرب) الشاعر الأديب اللبناني - وكان من أصدقاء فؤاد جرداق - قال: ما رأيت أحداً يميل إلى السجن ويشتهي أن يلوذ به ويلتجئ إليه ساعة يريد أن ينسى العالم غير فؤاد جرداق؟! ولقد دخل السجن حين تعرض لرئيس الجمهورية، وحين شتم الحكومة، وحين وقف موقف المندد في مناسبات كثيرة، فكان ذلك مما استطابته نفسه، ومع هذا فقد لا يستسيغ السجن في بعض الأوقات، فيفر ويختفي حتى تهدأ الأحوال ويخرج.

ومن نوادر الصحافة أو من نوادر (فؤاد جرداق) كما ذكر لي إبراهيم حرب أن الأمير (حارس شهاب) - وكان يصدر مجلة (المزارع) - حين رأى أن مجلته قد بارت، وأنه على وشك الإفلاس، بحيث يتعذر الاستمرار في إصدارها لجأ إلى (فؤاد جرداق)؛ لكي يخلق له الجو الذي يحمل الحكومة على إغلاق المجلة، فيكون هذا الإغلاق مشرفاً لمجلة (المزارع)، فنشر (فؤاد جرداق) قصيدة عامرة يهاجم بها الحكومة هجوماً مليئاً بالتهكم

والازدراء، وقبل صدور هذا العدد راح صاحب المجلة ييث (الدعاية) لهذه القصيدة ويوصي من يلقاه بأن يقرأ قصيدة فؤاد في العدد حتى خلق جواً حافزاً للقراءة قبل صدور المجلة.

وفي هذا الوقت لم يكن دخول السجن رائقاً لفؤاد؛ لذلك أعد العدة للهرب من لبنان إلى سوريا قبل يوم واحد من صدور المجلة، ونزل ضيفاً على آل البرازي (بحما)، وكان آل البرازي يحبونه، ويعجبون بشعره، ويأنسون به، وصدر العدد، وأغلقت المجلة وقبض على الأمير (حارس)، وزج به في السجن، ثم تدخل الشهابيون، وأطلقوه من السجن، وبعد بضعة شهور كانت الأحوال قد هدأت ولم يكن هناك ما يستدعي تحريك القضية من جديد، فعاد فؤاد جرداق إلى بيروت، وهو يحمل في معصمه ساعة ثمينة أهدها له آل البرازي.

وكان من اختطاف فؤاد جرداق للصافي من بنت جبيل والمجيء به إلى بلدة (جديدة مرجعيون)، والاحتفاء بالصافي أياماً.

وفؤاد جرداق قليل النظر من حيث السخريّة بالكنيسة ورجال الدين والذي يعرفه منهم يتحاشاه ويجامله خشية تحرشه به أمام الناس بل وحتى في الكنيسة.

وحين توفي البابا (تتشلي) أقام له الأب نقولا الحاج في كنيسة (مرجعيون) قداسة، وكان الأب نقولا يوم ذاك خورياً، وهو اليوم مطران على ما سمعت وكان فؤاد جرداق حاضراً في الكنيسة، ولما أتم الأب نقولا القداس وأبّن البابا بما كان قد أعد من بليغ القول قام فؤاد جرداق من بين الحاضرين وعلى حين غفلة وجه الكلام إلى الحاضرين وقال:

لقد سمعتم أيها الحاضرون قول الروحانيين في الأب الأكبر، أما قول الفقراء المساكين فإنكم لم تسمعوه بعد وأنا ألخصه لكم في هذا البيت:

ما مات عكروت برومة مرة إلا وحلّ محله عكروت

فامتلاّت الكنيسة بالضجيج والاحتجاج وحاول البعض الهجوم على فؤاد جرداق؛ ولكن فؤاد جرداق كان قد فرّ واختفى، لأنه كان قد حسب هذا الحساب، ولهذا كان أقرب حضار الكنيسة إلى الباب مجلساً.

(٥)

وقمت بطبع (أشعة ملونة) وعنيت بطبعها على قدر ما كان بإمكان مطبعتي، وما كنت أستطيع أن أنفق على الطبع وحرصت على أن أصونها من الابتذال حتى لقد امتنعت أن أتقدم إلى وزارة المعارف وأطلب منها شراء عدد من النسخ لمدارسها ومكتباتها، وهذا ما كنت أفعله أنا مع كتيبي ومؤلفاتي ويبدو أن الصافي كان يعلم بسجيتي هذه وكوني أتجنب إهداء مؤلفاتي، للملوك والأمراء وأهل الوجاهة كما يفعل بعض المؤلفين فكتب لي الصافي في تلك الأيام يقول:

«..... أما عواطفك وسعيك في تأمين راحتي فإن لسان قلبي يعجز عن شكره لو كان للأخ أن يشكر أخاه».

«أخي سرنى جداً أن تعاملني وتعامل آثاري بما تعامل به نفسك الأبية وآراءك القيمة من حفظ الكرامة، وللأدب عن أن يفرض بفرض ويبذل بذلاً، وكل أديب يعرف ثمن الأدب الحقيقي؛ فإن كل فكرة يبدعها الكاتب أو الشاعر تساوي في نظري ملكوت السماوات والأرض، وهذه الناحية التي عرفت منها منك هي إحدى النواحي الكثيرة التي تربط روحي بروحك، وتجعلنا متفاهمين على طول الخط».

كل هذا لأنه كان يقرأ في مقدمات بعض كتيبي شيئاً من الترفع عن بذل كتيبي وإهدائها لغير أهل الأدب والأصدقاء، ولا بد إن كان يقرأ الشعر الذي اتخذ (الهاتف)، والكلمة التي كانت تنشر في صدر الجريدة من كل عدد - وهي (الهاتف) يترفع أن يكون كلاً على أحد فعلى من يصل إليه بدون طلب أن يرفضه مشكوراً - فقد كانت جل الصحف يومذاك ترسل بصحفها إلى بعض الوجهاء دون طلب منهم، ثم تطالبهم ببذل المشاركة بعد ذلك.

وبالإجمال فقد صدرت (أشعة ملونة) وكان لها وقع جد حسن في نفوس القراء، ولا سيما الأدباء، ولا تزال حتى اليوم يجد فيها القارئ روح الصافي وأفكاره وابتكاراته ولفتاته وشاعريته الجذابة أكثر مما يجدها في قصائده المطولة؛ بل وأكثر مما يجدها في دواوينه الأخرى؛ فقد يفرغ الصافي في بيت واحد من الشعر كثيراً كثيراً من المعاني والأفكار التي تحتاج عند كثير من الشعراء إلى قصيدة لكي تتضمن ما يقول، وهذا ما نلمسه في قوله عن السيكرة مثلاً إذ يقول:

تخذتها أمةً حتى غدوت لها عبداً وها أفنيها فتفنيني
وعن الخشونة إذ يقول:

إن رمت في الدهر أن تبقى فكن خشناً
فمنخل الدهر لا يبقى سوى الخشن
وغير ذلك كثيراً من براعة الإيجاز التي عرف بها الصافي، والتي يجدها القارئ في (أشعة ملونة) أكثر مما يجدها في دواوينه الأخرى.

وقرظ عدد من الأدباء (أشعة ملونة) عند صدورهما، ونشرت تلك التقارير في الهاتف وجمعت أنا بعضاً من تلك التقارير وأرسلتها إليه، وفي ضمنها كانت كلمة المهدي البلاغي!! ومهدي البلاغي هذا شقيق الصحفي النجفي محمد علي البلاغي، اعتاد الناس أن يداعبوه ويأنسوا بأفكاره غير المنسجمة ومؤلفاته المخطوطة التي يحملها معه أينما ذهب، وقد عرض عليّ مرة أحد مؤلفاته الذي سماه (بست عشرة قصة وقصة)، فقلت له ولماذا لم تسمها (سبع عشرة قصة)، فقال لماذا يجوز أن نقول (ألف ليلة وليلة) ولا نقول (ست عشرة قصة وقصة)؟ وذكرني هذا بذلك الذي سأله قائلين: ماذا صنع صاحبك بحماره؟ قال: باعه بكسر العين!! فقلت له: لماذا لم تقل باعه بفتح العين، قال ولماذا كسرتم أنتم الرء من حمارة فقالوا له لأن الباء الداخلة على الحمار حرف جر يجب أن نجر ما بعدها.. قال يا سبحان الله! أبأؤكم تجر وبائي لا تجر!؟

(٦)

قلت: إن بين التقاريط - التي بعثت بها إلى الصافي والتي نشرت في جريدتي (الهاتف) أو التي نشرتها الصحف البغدادية بأقلام طائفة من حملة الأقلام... والشعراء - كان تقريظ لمهدي البلاغي، أرسلته للتفككة لعلمي بحب الصافي للفكاهة، ومن تعليق الصافي عليه يستبين القارئ لمحة من روح الصافي المرححة، وطبعه الرقيق الذي يعرفه من يصاحبه، ويتسنى له أن يتغلغل في أعماقه أو يتعرف إلى شعره الذي كثيراً ما يفيض بالنكتة الشعرية والحلاوة التي من بعضها قوله:

أقول إذ قال لي الشحاذ هب لي من مال الإله: لقد أخطأت موضعه
لم يودع الله عندي ماله أبداً وإنما ماله في البنك أودعه
وفيما يلي قافية أتركها للقراء ليقفوها في ضمائرهم؛ فإنها من الظرف
الذي لا يجوز أن يلفظ به اللسان، يقول الصافي:

أيها الفلاس ما أرى فيك خيراً حيث جافيت كل صاحب خير
أنت صعب الدخول في الكيس يا فلس وسهل الخروج تشبهه.....
وهذان البيتان اللذان لم يشجعني على إيرادهما إلا كونهما منشورين
في (أشعة ملونة)؛ ولكن الذي لم ينشر من ظرفه والذي أحفظ بعضه أنا فهو
مما يضحك الثكلى ومن بعض المنشور قوله متظرفاً:

وسائل قال لي هب لي لتسعدني فلساً من المال ينجيني وينجيكا
فقلت لا فلس عندي كي أجود به فقل لربك يعطيني لأعطيك
ومن هذه الظرف أنه دخل مرة نادياً للقصاصين في الشام، فقال له
أحدهم مداعباً: أنت رجل شاعر؛ فبأية صفة تدخل نادي القصاصين وهو
مقتصر عليهم وحدهم؟ قال الصافي:

«لأنني أصلح أن أكون موضوع قصة»

أقول وحين بعثت للصافي بتقريظ مهدي البلاغي ليأنس به، كتب لي

يقول: «... أما تقرّظ العلامة الشيخ مهدي البلاغي فكان أجمل تقرّظ رأيته حتى الآن، وكان لي خير سلوى، وأنجع دواء من الأمراض التي أعانيها لا سيما مرض الدوسنطاريا الذي هجم علي مدة أسبوع كامل، كان الدم لا ينقطع في أثنائها كأني في حيض مستمر، وقد شفيت ببركة تقرّظ الأستاذ مهدي البلاغي، وكان ألد كلمة جاءت في تقرّظه لديواني قوله (يا زميلي) فحمدت الله على أنني لست الوحيد من نوعي.

أما أبياته الرقيقة البليغة فقد أعطيتها لصاحب الجلالة الشيخ شريف الخياط»، والشيخ شريف وقد كتبت عنه أنا كلمة في كتاب (يوميات)، وهو رجل أوحى إليه أنه الملك فيصل الأول الحقيقي لفرط شباهته به شكلاً، أما الملك فيصل الحقيقي فهو الفيصل المزيّف عند شريف الخياط وكنا أنا والصافي وغيرنا في الشام من يأنسون به، ويوجهون له أسئلة في دنيا السياسة، فيجيب عليها إجابات عجيبة مضحكة، أجل يقول الصافي: «لقد أعطيت أبيات البلاغي للشيخ شريف ليشطرها أو يخمسها؛ لأن صاحب الجلالة أدرك أن من مكملات الملوك أن يكونوا شعراء أيضاً، فأصبح من تحت الليل شاعراً، وإليك يقول الصافي نموذجاً من شعره الجديد قال:

الحمد لله الذي جعل أعدائي بين يدي الله عز وجل
لأكون عبده المظلوم ولا أكون عبد الله الظالم
فقلت له - يقول الصافي - وتستطيع أن تقول أيضاً:

لأكون عبد الله المشنوق ولا أكون عبد الله الشانق
وأردف الصافي في رسالته يقول:

«وأنت تعلم أن عبد الله المشنوق هو صاحب جريدة بيروت، وقد ذكرني هذا بمناجاة أحد العوام في إحدى ليالي رمضان قائلاً:

إلهي أنت الراحم وأنا المرحوم، إلهي وأنا المظلوم، فأرجو إبلاغ

سلامي إلى الأستاذ مهدي البلاغي وأن يهدي لي رسمه لأنني نسيت صورة زميلي القديم».

ومما يروي (الصافي) من نكاته أنه حين كان يقيم بصيدا كان يخرج في كل صباح إلى القلعة فيفترش عباءته ويتمدد عليها، ويمسك بيده جريدة أو مجلة أو ديوان شعر، ويمر السياح والزائرون من مختلف الأقطار بالقلعة، ويرونه مسجى على هذه الطريقة فلا يناله منهم إلا نظرة إعجاب أو شفقة باستثناء بعض الشباب السائحين الذين استغربوا امتداده على هذه الصورة وانحناء إحدى ركبتيه على هذا النحو وهو يقرأ، فتقربوا منه وعلم منهم أنهم لبنانيون أحفاد لمن سكن من آبائهم وأجدادهم الولايات المتحدة فسألهم الصافي:

وأنتم في الولايات المتحدة تدرسون أم تتاجرون؟

قالوا: تتاجرون...

فعلم الصافي أنهم قد نسوا حتى لغتهم العربية.

(٧)

والصافي من الإباء بحيث يتجاوز كل حد من الحدود المألوفة، وليس من المبالغة في شيء إذا قلت أنه قد انفرد بإبائه في عصره فهو مع شدة إفلاسه الذي يؤلف ديوانه شيئاً غير قليل من وصف هذا الإفلاس؛ فإنه يأبى أن يتقبل حتى الهدية التي يشم منها بعض رائحة العطف أو الشعور بحاجته وإفلاسه؛ فيظن أنها لم تقدم إلا على هذا الحساب - حساب شعور المهدى بحاجته - فهو يفضل أن يموت جوعاً ولا يتقبل هدية مثل هذه الهدية، ولقد بلغ من أمره أنه لأمني كثيراً حين مررت بأخيه السيد محمد رضا وأنا على وشك السفر إلى الشام لأذكره بما ينبغي أن يذكر به أخاه بشيء من إرثه في البساتين، فقال السيد محمد رضا: أنت أخبر من غيرك بطبع هذا الأخ؛ فهو متى قبل شيئاً منا لكي أنسى أنا أن أبعث إليه بشيء من إرثه وبشيء

منا، ولو على سبيل الهدية، ومع ذلك فهذا مبلغ أحملك إياه لتدفعه له في الشام إذا قدرت، أقول: لقد لامني أحمد الصافي على حملي هذا المبلغ من أخيه؛ بل وعنفني وكان يوم ذاك عدد من الأصدقاء معي، كان من بينهم المرحوم إسكندر حريق، وعبود زلزلة، وعزيز نصر، ونايف نصر، فلم نخرج من الشام إلى الجبل إلا وكان الصافي قد أنفق علينا كل هذا المبلغ الذي جئت به إليه من أخيه في دعوات مكررة لنا في الشام وفي (الربوة) وفي (دمر).

هذا وقد كان - والله - أحوج ما يكون إلى المال يومذاك، ويلمس حاله القارئ في هذه اللمحات التي كانت تعبر عنها مقطوعاته ورباعياته وما جرى على لسانه من الأبيات إذ يقول:

فكم من أحرق فيهم دعاني أميراً فامتلا قلبي شجوناً
دعاني بالأمير وكنت أولى بأن أدعى أمير المفلسينا
ويقول:

صافحتني يد امرئ فرآني ساخن الكف من لظى الوسواس
قال هذي حرارة الإيمان؟ قلت لا بل حرارة الإفلاس
ويقول:

أملك الدرهم الذي لم يصلني فإذا حل في يدي طار مني
فأنا لست مالكا غير وهم ذاك لم يأتني وذا فرّ مني
ومن أجمل ما وصف به إفلاسه قوله:

براني الاقتصاد وهذّ جسمي بمنعي عن مآكل واجبات
أضر بي الطوى حتى كأني لنقص الأكل أكل من حياتي
وفي الإفلاس والمرض يقول:

مذ رأني الطبيب قال دع السعي وهماً به حشاك يجيش
قلت إنني أسعى ولا ألق العيش فإن استرخ فكيف أعيش؟

ومن هذا الشيء الكثير الذي حكى واقعه؛ ولكنه ما قبل شيئاً من أحد ولو أراد لفاقت والله ثروته ثروة أحمد شوقي وغيره دون إذلال أو دون استعطاء.



ومررت ذات صيف بالشام كعادتي في كل سنة، وكانت بيني وبين الصديق الكريم أبي طلال محمد جميل إسماعيل القربي صداقة، ولا تزال هذه الصداقة تزداد رسوخاً، والقربي هذا أحد محافظي سوريا، وصار بعد ذلك مديراً للداخلية العام، وكان يومذاك عضواً من أبرز أعضاء (نادي العروبة)؛ فعرض عليّ أن أكلم الصافي بانتقاله من صومعته في تلك الغرفة المشار إليها في المسجد إلى دار يستأجرها له النادي، وقيم عليها خادماً يقوم بكل مهامه من غسل ألبسته وإعداد طعامه، وله أن يتقبل - إذا أراد - عضوية الشرف والانتساب إلى هذا النادي؛ فإننا نفخر به ونعتز بأدبه، والنادي مستعد ليقدم له مبلغاً كثر من النسخ المطبوعة من ديوانه، وكان الصافي يوم ذاك يقضي أياماً (بمضاي) خارج دمشق وكان له بريد ثابت، هو شباك البريد في الشام يلاحقه بما يتلقي من بريده أينما يحل؛ فكتبت للصافي بذلك، وأخبرته بما جري بيني وبين (القربي)، ورجحت له قبول العضوية في هذا النادي وخصوصاً أنه هو يضم عدداً من خيرة رجالات سوريا الوطنيين والأحرار الذين كثيراً ما آلت إليهم بعد ذلك تولي سياسة سوريا كوزراء ونواب ورؤساء وزارات، ثم أخبرته بأني خارج إلى (ضهور الشوير)، وقد كانت مصيفي المفضل قبل أن انتقل إلى (سوق الغرب)، ودعوته إلى ضهور الشوير ليقضي عندنا أياماً وخصوصاً أننا قد استأجرنا بيتاً واسعاً.

وإن الصافي معي غيره مع الناس؛ فلا ينظر إليّ بالعين التي ينظر بها إلى الآخرين، وليس بيني وبينه من فاصل في الوحدة؛ حتى لقد طلب مني

ذات مرة أن آتي له من العراق بعباءة فأتيته، وحتى كان ينزل في ضيافتي بأوتيل فاروق يومين وثلاثة، ويوم خصص له راتب التقاعد أبى أن يقبل ضيافتي قائلاً: إن له في البنك ما يزيد عن الحاجة فلماذا يدعني أدفع عنه أجور الفندق؛ بل لقد طالما سألني إن كنت بحاجة إلى شيء من النقد؛ لأن لديه كثيرٌ منها الذي يزيد عن الحاجة، فأقسم له: إنني لو كنت محتاجاً إلى شيء لما كان أحد في الدنيا أقرب إلي منه.

وفي منتصف الأربعينيات سكن الشاعر أحمد الصافي النجفي بحارة حريك القريبة من بيروت، وفي غرفة منفردة مجاورة لبيت شبيه بالقصر لزعيم عائلة لها في تاريخ الإقطاع بجبل عامل شأن كبير، وكان صاحب القصر وهو الزعيم الوائلي علي نصرت بك قد علم بقدوم الصافي؛ لأنه أصبح من مجاوريه^(١).

وبحكم الصداقة التي كانت تربط إبراهيم حرب بالصافي فقد كان إبراهيم يزور الصافي دائماً؛ يقول إبراهيم حرب وصادف أنني وجدته يوماً على غير عادته مضطرباً بشكل غريب وهنا بادرني قائلاً:
- أتدري ما حلّ بي؟ أكتب عليّ بأن أسكن هنا لأتلقى الإهانة كما ترى؟

أنت تعلم من يسكن هذا القصر فقد علم صاحبه كما يظهر أنني أقيم بجواره أو سمع باسمي، فأرسل إلي يوم أمس أحد (خدمه) ودعاني بواسطته لتناول الغداء عنده دون أن يزورني بنفسه من قبل، تُرى أنه قد حسبني كبعض الشعراء ألبي الدعوة لمن يشاء؟ ألا يعلم من أنا؟ أنه مهما سما بأصله وحسبه فلن يبلغ ما أنا أرجع إليه بحسبي ونسبي ألا يعلم أنني هاشمي وأني شاعر أنتمي إلى جدي رسول الله ﷺ.

أنت تعلم أن نابليون القائد الفاتح العظيم عندما احتل المانيا ذهب بنفسه لزيارة شاعرها الأكبر (غوته) تقديراً له واحتراماً لعظمته عندما وجد أن

الشاعر قد تخلف عن زيارته لغاية في نفسه، وما وجد في ذلك من حرج على الرغم من أن معظم أمراء المانيا جاءوا إلى الفاتح العظيم لتقديم الطاعة والولاء.

وتأثر الصافي بما حدث وقال لي صباح اليوم التالي:

لقد أحسن صاحب هذا القصر بتصرفه يوم أمس، ولولاه لما نظمت قصيدتي غبن شاعر التي منها قوله:

لعن الله علة تركتني	رغم أنفي أعيش عيشة شاعر
أنا لولا سُقمي نظمت شعوري	في مساع محفوفة بالمخاطر
وأريت الدنيا قصائد مجد	لم تقطع بغير بيضٍ بواتر
سخر البعض من حياتي وإني	مثلهم من حياتي اليوم ساخر
ورثى البعض لي وإني لأرثي	لعقول ترثي لبؤس ظاهر
إن شعري لتسليات عليل	أرغمته على الخمول المقادر
دهش البعض إذ رأني عزيزاً	وكغيري بالشعر لست أتاخر
أبدأً أمنح الصعاليك عطفاً	ثم أبدي تكبراً للأكابر
وكذا الشاعر الصحيح نبي	مرسل والنبي غير التاجر
أنا إما أن لا أكون كغيري	شاعراً أو أكون وحدي الشاعر

وسافرت إلى (ضهور الشوير) وتلقيت هناك بوساطة إسكندر حريق رسالة منه تكفي لتعرف الشيء الكثير عن إباء الصافي والغيرة على كرامته؛ فهو يقول فيها:

«السلام عليك والشوق الشديد إليك وبعد:

فقد جاءني كتابك الكريم وأنا في قرية (مضايا) من المصائف السورية الممتازة بجودة هوائها وعذوبة مائها وسحر مناظرها، أما تأخري عن زيارتك في (ضهور الشوير) التي كانت أعظم أمنية لي لأنك تعرف مقدار سروري بك وبحديثك العذب وبأخلاقك الصافية، وروحك الطاهرة؛ فهو منبعث عن سبب لا أستطيع شرحه إلا بحضورك.. وهنا أنا قد صممت العزم

على زيارتك قريباً على أنني أرجوك رجاء أكيداً يتوقف عليه حفظ الصداقة بيني وبينك وأنت تعلم مقدار غلاء هذه الصداقة لدي وثنمها العظيم في نفسي، ولكن بما أن هذا الرجاء يتعلق بشرفي وكرامتي (كذا) لذلك أخشى عليها من عدم إجابتك هذا الرجاء.

أما رجائي هذا الذي لم يسبق أن تقدمت برجاء أعظم منه (كذا) فهو أن تبادل عند وصول كتابي إليك بالسلام على الصديق الأستاذ (جميل القربي) وتبدي له أولاً رفضي لعضوية النادي؛ لأن أوانها قد فات، وأعني بأوانها وقت افتتاح النادي الذي كنت مساهماً في حفل افتتاحه حيث دعيت للإلقاء قصيدة في حفلة الافتتاح، وأنا لست ممن يأتون في آخر وجبات (الوليمة)، واعلم أيها الأستاذ أنني ولله الحمد ممن يقومون بأنفسهم لا بفضل ناد، أما إذا كان النادي سائراً على الأسس التي أعلنها فإني أناصره دون أن أنضم إليه.

وأما شراء الكتب والبيت فإني أرفضها رفضاً باتاً، وأرجوك أن تعتذر لي من الأستاذ جميل عن قبول الشراء مع تقديم شكري لعاطفته؛ لأن كتابي هنا في المكتبات ومن شاء من أعضاء النادي فليشتره منها وأنا في انتظار جوابك السريع المطمئن لي عن تنفيذ رجائي لديك؛ لأتوجه نحوك وأقضي بقربك أسعد الأيام، وهناك أمور لا أستطيع شرحها لك الآن تتعلق بأسباب هذا الرجاء... سأذكرها لك عند اللقاء.

وبادرت طبعاً بتنفيذ طلبه هذا وكتبت من (ضهور الشوير) إلى الشام معذراً للأستاذ القربي بحيث لا تُخدش عزة نفسه، كما كتبت للصافي إلى شباك البريد بدمشق بأنني نفذت أمره بكامله.

وجاءنا الصافي إلى ضهور الشوير، ونزل في بيتنا أياماً سعدنا به وسعد الإخوان الذين كانوا يزورونه في بيتنا ويقضون وقتاً طويلاً قد يمتد إلى العشاء وما بعد العشاء إلى منتصف الليل، وأكثر، ونتناول العشاء معاً، وأذكر منهم الأستاذ علي الشرقي الذي جاءنا من سوق الغرب خصيصاً،

وأذكر عباس مهدي، والمحامي عبود الشالجي والشاعر الصحافي إلياس (أبي شبكة)، وحليم دموس، والدكتور اسد رستم وفي طليعتهم اسكندر حريق الذي كان يلازمنا ولا يبارحنا في كل يوم وليلة.

وبلغ الإباء من الصافي بحيث صار يشكك حتى في هدية الصديق المألوفة من: ساعة، أو قلم، أو مبلغ في مناسبة تستدعي مثل ذلك فقد صار يشكك فيما يجيئه أهبي هدية من الهدايا المتعارفة عند الناس؟ أم هي ضرب من ضروب المساعدة والإشفاق؟ وقد قدم له صديق عزيز ورفيق قديم مخلص مبلغاً داخل رسالة في مناسبة من المناسبات المقتضية لمثل هذا، فحار الصافي بين قبول المبلغ ورفضه وقد عبرت الأبيات التالية عن حيرته هذه وفيها من البراءة الفكرية ما لم تخف على أحد، يقول الصافي عن هذه الرسالة:

ونبيل قوم جاد لي برسالة فواحة من لطفه بعبيره
وإذا بها ملغومة بسخائه فاحترت بين مسائتي وسروره
حاولت رد سخائه فخشيت أن أقضي على نبع السخا بضميره
فرضيت منكسراً بجرح كرامتي وقبلت جرحي خوف جرح شعوره

وكان البعض ولعل منهم الأدباء يجهلون طبيعة الصافي، ولا يعرفون شيئاً عن إباطه الذي أصبح مضرب المثل في حياته؛ لذلك كانوا حين يتطرقون إليه في الكتابة يرون من الواجب أن يشيروا إلى ضنك عيشه، وجشِبَ غذائه وقسوة ظروفه بما يشم منه رائحة الشفقة، وكان آخر من كتب مثل هذا هو المحامي عبد المحسن القصاب الذي أسهب كثيراً في مدح الصافي وتحليل شاعريته ومكانته في عالم الأدب، ما يشكر عليه لو لم يتخلل كلمته تلك شيء من إثارة الشفقة ودعوة الحكومة إلى وجوب شراء كتبه وكان قد صادف نشر هذا المقال الذي لا أذكر أين نشره (القصاب) أهو في (الهاتف) أم في إحدى الصحف العراقية، وقد صادف ظهور هذا المقال مع ظهور (أشعة ملونة) إلى السوق، وقد حملني مقال القصاب هذا

أن - أعلق عليه في الهاتف، وأصح رأي من لا يعرف الصافي معرفة كافية، وقد جلوت صفات الصافي في هذا المقال، وأشارت إلى إباطه وتعاليه وهي كلمة كان بها الكفاية؛ ولكن الصافي حين اطلع على ما كتب القصاب وما عقلت أنا على كلمته لم يكتف بذلك؛ بل بعث لي بالمقال الآتي:

إلى إخواني العراقيين:

«لقد حرت والله ماذا أكتب وبماذا أجيب كلام هؤلاء الأصدقاء والمحبين الذين لا يعرفون كيف يظهرون عواطفهم تجاهي فيجرحونني وهم يحسبون أنهم يداوون جروحي فبين مدة ومدة أرى الصحف العراقية تتناولني موضوعاً لا اهتمامها فتشكو للعالم وللعراق وللحكومة بؤسي وإن هؤلاء ليسئون إليّ بمقدار ما يحاولون الإحسان.

لقد أصبت من الزمان بجروح كثيرة، ولكن كان أعمقها في نفسي التوجع لي والتأسف والتلهف علي وأراني الآن مضطراً إلى أن أعلن أول مرة وآخر مرة للملأ العراقي والعربي عموماً أنني بحمد الله غير بائس ولا محتاج، وإن كنت أشكو شيئاً فإنما أشكو العلل الجسمية التي أنهكتني وأقعدتني عن كل سعي، أما فيما عدا ذلك فأنا سعيد ولي من ريع كتبي ما يكفي للنهوض بي في حياة الزهد التي ألفتها لا سيما وإن كتبي تلاقي إقبالاً لا دخل للعاطفة فيه وقد نفذ بعضها وأعيد طبع بعضها وكان ذلك عفواً وبعيداً عن كل دعاية وتكليف والآن أرى - طلبنا ملحاً بإعادة طبع كتبي التي نفذت من الأسواق ولولا غلاء الورق لأعدت طبعها وإن ذلك حظ قل أن أوتيهِ أديب.

أما الركود المؤقت الذي أصيبت به بضاعة الأدب - وفي جملتها بضاعتي - فقد أصيبت به أكثر البضائع الأخرى ولي بذويها أسوة وإني وإياهم لانفراج الأزمة لمنتظرون.

لقد كان أكبر هدف لي منذ نشأت هو المحافظة على عزة نفسي وقد

حافظت عليها ما استطعت حتى الآن على رغم الظروف القاهرة التي كانت تحاول سلبني إياها، وكم عرضت عليّ أموال فرفضتها شاكرًا وكانت سعادتي طيلة هذه المدة منحصرة في المحافظة على تلك العزة واليوم أراني أجرح في كل فترة ومناسبة عن طريق الاهتمام بتنظيم حياتي فإلى الإخوان والمحبين والمشفقين أوجه هذه الكلمة راجيًا منهم أن لا يجرحوني في أعز شيء لدي كما أنني بعد هذه الكلمة التي تلهف فيها عليّ الأستاذ عبد المحسن القصاب ودعا الحكومة والأهالي إلى شراء كتبي، أقول إنني أحرم شراء كتبي على كل من يشتريها مدفوعاً بعامل الشفقة كما أرجو الأستاذ الخليلي أن يجمع النسخ - ويقصد بذلك نسخ كتابه (أشعة ملونة) - من المكاتب ويحصرها عنده حتى أرى رأيي فيها وإذا لم يفعل فلا يكون قد أدى للصدقة والكرامة حقها.

أما خوف البعض من المشفقين والأصدقاء من أن أنتحر فذلك خوف لا محل له، إذ ليست الماديات كل شيء عندي في هذه الحياة وإنني أطمئن به أنني لا اكترث للمال؛ فقد تعلمت أن ألبس لكل حالة لبوسها وما دمت أرى عزة نفسي مصونة فليس ما يدعوني إلا إلى الغبطة والسعادة مهما تنوعت الخطوب وإذا كان شيء يدفعني إلى الانتحار فهو هذه الشفقة وهذا العطف الذي يبديه بعض الكتاب عليّ، وأن يكونوا مدفوعين بأنبل المشاعر؛ لأن هذا العطف هو الذي يحقر الحياة في نظري، وهذه الشفقة هي التي تسود الدنيا في عيني؛ فإن كان هؤلاء - سامحهم الله - حريصين على سعادتي وغبطتي فعليهم أن يكفوني عطفهم، وإنني من الآن أوجه كل أنواع السب والاحتقار إلى كل من يشتري كتابي متأثراً بالعطف والشفقة عليّ لأنني أراه جانيًا وقاتلاً لنفسي وإن قتل النفس أعظم من قتل الجسم».

دمشق في ٢٩ تشرين الأول سنة ١٩٤٠

أحمد الصافي النجفي

وكتب لي الصافي في هذا الخصوص يقول: «لقد أرسلت نسخاً من هذه الكلمة إلى جريدة (البلاد) وجريدة (الهدف) وجريدة (الاتحاد) و(مجلة المجلة)، فإذا لم ينشروها فأرجو الإشارة إلى ذلك مع معاتبتهم في مجلتكم الغراء، ويقول لي:

«ولقد أرسلت لك النسخة الخامسة اعتماداً على ذوقك في قرائتها».

فلم أر بأساً أن أعلق على هذا المنشور ثانية فكانت مني كلمة واسعة عدت بها إلى الموضوع نفسه حتى أشبعته في هذه المرة إشباعاً وعلق الأستاذ عبد الحق فاضل بما يشبهها من حيث الموضوع بكلمة استلفتت نظر الصافي فكتب لي الصافي حينذاك يقول:

«أخي لقد ذكرت لك في كتابي السابق شكري وإعجابي بكلمتك التي دافعت - بها عن كرامتي وصورتي فيها أبدع تصوير، وكنت أرى كلمتك لا احتياج معها إلى كتابة شيء؛ ولكن عندما رأيت كلمة الأستاذ القصاب قدرت له عاطفته النبيلة من جهة، واثارت ثائرتي من جهة أخرى عندما ذكر الطريقة الإيجابية للاهتمام بشأني أعني دعوة الحكومة والموظفين إلى شراء كتبتي؛ فجئت بكلمتي التي نشرتها الصحف موافقاً ومؤيداً لكلمتك والحق أقول إن كلمة القصاب أقضت مضجعي ليالي طويلة حتى رأيت جوابي عليها منشوراً في الصحف فهذأت ثائرتي.

أما عاطفة الأستاذ عبد الحق فاضل تجاهي وحسن ظنه بي فإني أشكرها له غاية الشكر ولولا خجلي من أن أبدأه بالكتابة كما اقترحت أنت لكتبت إليه ما يشرح له شعوري نحوه؛ ولكنك الرسول الصادق الأمين بيننا وإنك مني بمنزلة هارون من موسى تبلغه تحياتي وأشواقي وإعجابي به وبكتابه الأخير الذي وصلني قبل أيام فقرأته بإعجاب ولقد بدأ إعجابي بشعر الأستاذ عبد الحق منذ أول قصيدة قرأتها له وقد ذكرت لبعض الأدباء هنا

أنني لم أجد شاعراً يمثل الطريقة التي أحاول اتباعها وأرى أن تسود في الشعر العربي إلا الأستاذ عبد الحق، وكنت أريد أن أكتب له في ذلك ولكن رأيت مقاله عني فامتنعت عن إبداء إعجابي بشاعريته؛ لئلا يحملها البعض على محمل تبادل الشاء فحياءك الله وحياء وجعل منكما، وممن ينهج منهجكما حملة للواء الأدب الحي الصادق ومصاييح يهتدي بها الضالون في مهامه الأدب».

وانقطعت مكاتبي عنه فترة بسبب الحرب، وقد تخيلته مستغرباً مثل هذا الانقطاع على الرغم من علمه بظروف الحرب وصعوبة وصول الرسائل وحين تسنى لي الوقت المناسب المطمئن كتبت له معذراً وأرسلت له تعليقاً جديداً اقتضته المناسبة للإشارة إلى إباطه فتلقيت منه الرسالة الآتية:

«تحيات وأشواق لا تحصى وبعد، فاعلم أيها الأخ الوفي أنني كنت كما ذكرت لي في كتابك مستغرباً من انقطاع مكاتبيك عني طيلة هذه المدة على أنني لم أكن أتصور أن السبب هو الإهمال كما خيل لك؛ وإنما كنت أبحث في نفسي عن أخطاء سببت قطع المراسلة فكنت أجد أخطاء كثيرة ولكنها ليست جديدة؛ بل كانت منذ القديم ولم تكن تؤثر على صداقتنا المستمرة التي هي أقوى من الأخطاء، على أنني رأيت السبب الوحيد هو المشاغل التي ولدتها ظروف الحرب وقلت إذن فلأبق انتظر حتى تنفرج فأحظى بكتاب منك، وإذا بي أقرأ مقالك عني في مجلة الهاتف، وإذا بي أشعر بهزات من السرور الشديد والألم الممحض في آن واحد، أما سروري فلأن لي هذه المنزلة الروحية في أرقى روح أحبها واحترمها وأعجب بها و؟ أعلم أن حسن ظنك بي هذا يفوق عندي بكثير جوائز الملوك العظمى التي كنا نسمع بها عن إغداقها على رؤوس الشعراء المبدعين، وأما ألومي فلأنني ما كنت أرغب في إثارة الموضوع من أصله على أنني رأيت موقفك

ضرورياً للدفاع عن كرامة أخيك التي تهملك كما تهمة، كما أنك لم تدع لي مجالاً للاعتراض حينها قلت إنك تؤدي واجباً قومياً يخصك ولا يخصني فأنا أشكر لك هذه العاطفة النبيلة وهذا الشعور الفياض وهذا الأسلوب البديع الذي جريت عليه فأرضيت به الذوق والعقل والضمير وليس هذا بغريب عن روح الخليلي السامية، وتفكيره الواسع الذي لا يدع في بحثه كبيرة أو صغيرة إلا أحصاها، وأقول لك بالمناسبة إن الأستاذ رثيف خوري بجانبه الآن وقد قرأ مقالك فأعجب به غاية الإعجاب، وهو قلما يعجب بشيء».

وكثيرة هي الأمثال التي يجدها المتتبع لإباء الصافي ومنها قضية الراتب التقاعدي؛ فلقد قص علي ناصر الحاني - وكان يومذاك سفيراً للعراق ببلبنان - أنه وهو يمر ذات يوم بسيارته في (الكورنيش) - وكان الوقت ظهراً - ألقى على مقربة منه بدوياً وقد تحلقت حوله حلقة من بعض الشباب عرف ناصر أحدهم وكان أديباً من أدباء لبنان فأوقف سيارته عنده وسأل عن هذا البدوي؛ فقال له إنه الصافي فنزل (الحاني) من سيارته، وتقدم إلى الصافي وبشوق قليل النظر أخذ الصافي بالأحضان وأرغمه هو وبعض من لم يعتذر من تلك الحلقة وأدخله في السيارة وسار به إلى بيته وتناولوا هناك الغداء، وأنسوا بما أنشدهم الصافي من شعره ثم أوصله (الحاني) بسيارته إلى مفردة على أن لا تكون هذه الجلسة كبيعة الديك، وبعد أيام لم تكن بالطويلة كان (الحاني) ببغداد وكان أن - نبه الحكومة بوجوب تعيين راتب شهري للصافي؛ فقرر مجلس الوزراء العراقي حينذاك هذا الراتب وجاء يخبر الصافي بما تم، وإذا بالصافي يرفض تسلم المبلغ رفضاً باتاً وعبثاً راح يحاول الحاني إقناعه بأن مثل هذا القرار من مجلس الوزراء ليس إلا وجهاً من وجوه التكريم وإن رفضه غير مستساغ في عرف الدولة والناس وبهذا نفسه حدثني الصافي أيضاً ولا أدري كم قضى الحاني من الأيام حتى حمل الصافي على إقناعه.

ومن عادة الصافي أن يستقبلني كلما جئت إلى لبنان بقصيدة جديدة - يهديها إلي فتشرها إحدى المجلات وتعلق عليها.

وفي هذا الصيف صيف سنة ١٩٦٨ الذي تم قبول الصافي لهذا الراتب جئت أنا إلى لبنان كالعادة وزارني الصافي وبصحبه ابن أخيه الدكتور علي الصافي، وهناك قدم لي مسودة قصيدة جديدة باسم راتب التقاعد، تولينا كتابتها أنا والدكتور علي الصافي وأهداها لي جرياً على عادته ثم قام بعد ذلك الدكتور سهيل ادريس ونشرها في العدد الثامن من شهر آب سنة ١٩٦٨ من مجلة الآداب وقدم لها بهذه المقدمة:

«قبل أيام قرر مجلس الوزراء العراقي تخصيص راتب تقاعد بمبلغ مائة دينار شهرياً للأستاذ أحمد الصافي النجفي والحق أن مجرد التفكير من قبل رئيس الوزارة.. العراقية ومن قبل سفير العراق بلبنان في مثل هذه البادرة لهو من الأمور التي تستحق كل ثناء وشكر ولكن للصافي مزاجاً خاصاً يجعله ينظر إلى مثل هذه الأمور نظرة خاصة.

وكيفما كان الأمر فقد قبل الصافي المبلغ على أساس أن رفضه قد يدل على عدم تقدير منه للروح الطيبة التي حملت الحكومة العراقية على التفكير في أمره فقبله شاكراً الدواعي الروحية، وليس المال الذي لم يعتد أن يقيم له وزناً طول حياته وحتى في أضيقات الأوقات، وقد هنأه من سمع بالخبر وقال له أحدهم على سبيل الدعابة: إنه قد أصبح لنا بعد هذا اليوم مأمل حين نريد أن نتسلف منك ما نحتاج إليه ما دمت قد أصبحت غنياً، فأجابه الصافي على دعابته قائلاً:

«ويلك قل لي أهو راتب تقاعد هذا؟ أم بنك تسليف لتطمع في أن تستلف منه نقوداً؟»

وقد هاج راتب التقاعد هذا في نفس الصافي شاعريته؛ فإذا بقريحته تجود بقصيدة عامرة شاء تواضعه كما يقول جعفر الخليلي أن يهديها له بصفته

- أقرب الأصدقاء إلى روحه وأعرفهم بجبلته التي جبل عليها ومزاجه الذي شب عليه كما يعتقد الصافي، أما القصيدة التي أهداها إلى صديقه جعفر الخليلي والمعنونة براتب التقاعد فهي التي تنشرها (الآداب) هنا مع الشكر.

راتب التقاعد

لم يزدني المال - إذ جاء غنى
كم أتاني المال لم أعبأ به
هازئ فقري بأنواع الغنى
اسأل المال الذي قد سركم
ولماذا غركم إذ جاءكم
أي سحر فيه أعمى منكم
ما أنا باق على ما كنته
وصغير النفس من هنائي
ليس مالي فضة أو ذهباً
مالي الخير، الذي أعمله
مالي النور الذي أرسله
مالي الوحي الذي يلهمني

كنت أغنى الناس إذ كنت فقيراً
هارباً منه ولم أملك نقيراً
يحسب المعتز بالمال حقيراً
كيف فيّ اليوم لم يبعث سروراً
ولماذا فيّ لم يبعث غروراً
عن سبيل الحق من كان بصيراً
يكبر المال امرأ كان صغيراً
حاسباً مالا أتى شيئاً خطيراً
مالي الفكر الذي عز نظيراً
مالي السعي الذي يرضي الضميراً
يبدل الظلمة في الأفكار نوراً
مالي الشعر الذي يحيي الشعوراً



لم يغير خلقي أو سيرتي
أعشق الزهد مريحاً فكرتي
أعشق العيش بسيطاً هادئاً
كم هويت الصخر لي متكأ
ما أتاني غير ما أحججه
غير ما أحججه أخرجه
حرت بالمال وإنفاقي له

عارض المال وإن كان وفيراً
أعشق الكوخ ولا أهوى القصوراً
أشتهي الأرض مهاداً لا السريراً
وافترشت الصخر لا الفرش الوثيراً
بدل السجاد أشتاق الحصيراً
من فضول العيش قد عشت نفوراً
لم أجد أخرى به إلا الفقيراً

أعرف الفقر فما يخدعني مدعي الفقر وإن لاح كسيرا
 راحة الفقر بعيشي بدلت ثروة قد عقدت مني الأمورا
 الغنى شيء غريب داخل في حياتي مقلق مني الشعورا
 هو ضيف أجنبي حرت في أمره أخشى غداً منه المصيرا
 أترى أطرده حين أرى طردي الضيف على النفس عسيرا
 هو لي مستعمر قد حل في ساحتي مهما بين لطفاً كثيراً
 مستقلاً كنت واليوم أتى عارض المال دخيلاً وأميرا
 سيرى مني احتقاراً ومتى أحترم مالاً أكن شيئاً حقيرا
 أحمد الصافي النجفي

(٨)

وقد صدق الصافي والله فيما جاء في قصيدته :

فالقناعة من أبرز صفاته، ويجدها القارئ في كثير من مواطن شعره
 وفي طرز حياته وقد - والله - بات كثيراً دون أن يدخل جوفه طول النهار
 غير رغيف واحد، وبدون إدام فلم يتدمر ولم يستنكر، وما يقرؤه القارئ في
 شعره من وصف لما هو فيه من الإفلاس ليس إلّا من قبيل التفكه أو
 المفاخرة بأنه مع كل ما هو فيه من عوز فإنه المسرور غاية السرور، وكل
 هذا قد كان قبل أن يتفق معه الناشرون على شراء طبعات دواوينه ومنهم
 (دار العلم للملايين) ببيروت، وقبل أن تخصصه الحكومة براتب التقاعد. ومن
 بعض الأدلة على قناعته قوله :

أنا حسبي ثروة من أدب قد كفتني عن طلاب الذهب
 فليدم جيبي فقيراً إنما فقر جيبي ثروة للأدب
 وحين أزور لبنان في الصيف كان يزورني في الفندق (فندق فاروق)
 بسوق الغرب فاستبقيه أياماً، وحين تم تخصيص راتب التقاعد له أبى أن
 يقضي بعد ذلك - كما سلف أن ذكرت - أيام زيارته على حسابي في

الفندق، وكان مضمون قوله ما الذي أعمل بهذه النقود التي أمتلكها وأنا - والله - أدفع منها للبعض وأنفق منها على نفسي وتبقى لي فضلة كبيرة لا أعرف ماذا أعمل بها؟.

لقد كتب لي مرة في الأربعينيات وهو في أشد أزماته الاقتصادية لقد كتب لي يقول:

«أخي سألت عني فأنا بحمد الله راضٍ بما أنا فيه، لأنني ألبس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بؤسها، فلم تضق بي الأمور حتى الآن رغماً عن ضيقها كما أنني لا أزال.. أملك شيئاً من المال - وأحسب أن هذا المال الذي يقول إنه لا يزال يملكه لا يزيد عن بضع ليرات يومذاك - ويقول - ولا أزال أملك خاتماً من ذهب كما أنني لا أزال أملك أيضاً أسناناً من ذهب؟ فكن مطمئناً على أخيك، وفوق ذلك أملك ثروة كبرى وهي ثروة القناعة التي هي كنز لا يفنى، أما الشيء الوحيد الذي أشكوه فهو انقطاع معين الشعر الذي هو سلوتي إن عزت عليّ السلوى، ويظهر شيطان - يقصد به شيطان شعره - أنه وديع مسالم أو جبان خائف، لأن الوقت كان وقت حرب وكان الصافي يكره الإنكليز كثيراً، ويصغي إلى يونس بحري وينقل أخبار انكسار الجيوش الإنكليزية في دنكرك بلدة وارتياح، فقد انكمش على نفسه في أول الحرب - يقصد شيطان شعره - واختبأ في بعض الملاجئ خوفاً من الغارات وأنا أتمنى انتهاء الحرب حتى يخرج من مخبئه خيفة عليه أن يموت من هواء المخابئ قبل أن يموت من الغازات والقنابل ولعله إذا خرج حياً يكون الرسول الأمين بيني وبين (الهاتف) - يعني جريدتي -».

(٩)

وقد ثبت أن شيطان شعره لم يكن جباناً؛ فحين تم انهزام جيش فيشي سنة ١٩٤١ ودخلت الجيوش الإنكليزية لبنان زجت بالذين عرفت منهم الكره للإنكليز في السجن وكان - من هؤلاء أحمد الصافي الذي كان من أبرز من

تصدروا للمظاهرة، التي قامت في وجه الإنكليز ببيروت، وكان من المشاركين فيها الدكتور ضياء أبو الحب، وكان يومذاك طالباً في الجامعة الأميركية كعضو بعثة عراقية فطرده الجامعة لهذا السبب، وأكمل بعد ذلك دراسته العالية بأميركا، وكان من المتظاهرين إبراهيم حرب الشاعر الذي يدير اليوم أكبر مدرسة ثانوية رسمية ببرج البراجنة، وهي الثانوية التي تضم ١١٠ مدرسين وأكثر من ٢٤٠٠ طالب وطالبة، ويقول إبراهيم: لقد انخلع حذاء الصافي في هذه المظاهرة، وهو يهرول مع المهرولين وحين نبهه إلى ذلك قال: لقد مشى النبي محمد حافياً ومشى قبله المسيح حافياً، فما قيمة ممشاي حافياً في هذا السبيل؟

وسجن الصافي، وانطلق الشعر من فمه في السجن فإذا به يؤلف ديواناً كاملاً باسم (حصاد السجن)، والغريب أن الذي تولى تقديمه في الطبع كان رثيف الخوري ووجه الغرابة بعد ذلك أبيات من شعر الصافي أعقبتها أبيات أخرى ما لبثت أن غيرت رأي رثيف في الصافي، وإذا به يتقدم من تلقاء نفسه؛ فيعرض على الصافي استعداده لتقديم هذا الديوان ديوان (حصاد السجن) إلى القراء وينسى الخوري كرهه الذي حدثني عنه الصافي نفسه وينسى الخوري اختلافه مع الصافي في الرأي فقد كان رثيف الخوري متطرفاً في اليسار في حين كان الصافي متطرفاً في اليمين، متفانياً في حب العرب والعروبة وكتب الخوري مقدمة تعتبر من أهم العروض للذين زجوا في السجون من رجال الأدب... والفكر والشعر في التاريخ.

ثم قال رثيف بعد ذلك عن شعر الصافي ما يلي:

«هذا شعر إن فاتي شرف نظمه فلن يفوتني شرف نشره فإذا بي الآن وقد أكرهتني ظروف القاهرة على التنازل عن شرف نشره أرى حسبي أن أفق بعثة هذا الديوان آخذُ بأيدي رائديه إلى داخل عتبة الهيكل، وأبقى عندها ويقيني أن رائديه سيقبلون على الديوان كثيراً، وسيوافقونني على قولِي إنه أغزر مجموعة من شعر السجون لشاعر واحد في الأدب العربي قديمه

وحديثه؛ بل أنفس مجموعة شعرية في هذا الموضوع تشارك شعراء العرب أفضل معانيهم في هذا الباب، ثم تبرزهم على الجملة سعة وإغراباً وعمقاً.

ويقول الصافي في سجنه هذا:

حبست وضاق الحبس بي حين زج بي إلى غرفة ظلماء محكمة السد
فقلت علام الحبس؟ لا أنا سارق ولا آثم عمداً ولا دونما عمد
ولما رأيت الذنب خدمة موطني حلا السجن حتى خلته جنة الخلد

وكان قد بلغ الصافي أن مذاكرة تجري بين السلطات الإنكليزية والفرنسية واللبنانية والحكومة العراقية لإطلاقه من السجن قال:

حكومة لبنان قد راجعت فرنسا لفكّي فلم تسطع
وراحت فرنسا إلى الإنكليز تراجمهم جل من مرجع
وقد راجع الإنكليز العراق ولليوم بالأمر لم يصدع
فقلت اعجبوا أيها السامعون ويا أيها الخلق قولوا معي
أمن قوتي صرت أم ضعفهم خطيراً على دول أربع

وقال لي الصافي بعد ذلك أن صالح جبر - وكان يومذاك وزيراً
للداخلية ووكيلاً لوزارة الخارجية - هو الذي سعى لدى السلطات الإنكليزية
في إطلاقني فأطلقت.

ومن الأمثلة على كرهه للإنكليز قوله فيهم:

أحارب جيش الإنكليز لأنني وقفت على نصر الحقيقة مخدمني
أحاربهم حربي لكل رذيلة إلى كل شيطان إلى كل أرقم
أخاف إذا ماتوا تموت أبالس فأبقى بلا لعني لهم نصف مسلم
تحاربهم روحي وكفي ومنطقي وإن هم نوا قتلي يحاربهم دمي

وساءت حاله الصحية وهو في السجن فنقل إلى المستشفى وفي
المستشفى لقي من الأطباء وكلهم كانوا يعرفونه عناية فائقة وياشر الأطباء
بإجراء فحوص طبية عامة له، وكان أكثر الساعين للإفراج عنه من السجن

قدري القلعجي الذي كان يراجع بشأنه الحكومة العراقية والسلطات الإنكليزية والفرنسية، وقبل أن تتم فحوصه الطبية ومعالجته صدر الأمر بالإفراج عنه فلم يسع الأطباء الاستمرار في معالجته لخضوع المستشفى للنظام العسكري فصب الصافي جام غضبه على قدري القلعجي الذي كان في طليعة الساعين لإطلاق سراحه وعن طريق الدعاية صار الصافي يلعن القلعجي، وينسب لمسعاه في خلاصه من السجن وقوعه في المرض؛ لأنه خرج من السجن ولم تتم بعد فحوصه الطبية؟؟

وانتابت الصافي طوال إقامته في سوريا ولبنان أمراض كثيرة كان أبرزها قرحة في المعدة إلى جانب الدوسنطاريا المزمنة وضيق في النفس إلى جانب التهابات رئوية راسخة وضعف في الأعصاب، ويجد القارئ الشيء الكثير من شواهد علله في شعره كقوله:

لا تسلني عن جديد الخبر بل فسلني عن جديد الخطر
أنا من فرط سقامي دائماً عائش عيش امرئ محتضر
كما يقول:

يرى الطبيب بجسمي ما انتهى عللاً كأن جسمي أضحى سفر أمراض
وفي الشتاء كانت تشدد عليه الأزمات الرئوية والمعوية، وطالما حثته أنا على العودة إلى العراق في الشتاء والرجوع منه صيفاً إلى سوريا ولبنان، وكتبت له ذات مرة بهذا المعنى في أيام الحرب من شتاء سنة ١٩٤٢ - وكان قد مرّ على غيابه نحو اثنتي عشرة سنة - فكتب لي يقول:

«أما ما ذكرته من أمر رجوع إلى العراق فأنت تعلم أنني منذ حللت في هذه الربوع ما فتر شوقي إلى العراق وإلى الأهل والخلان وإلى ذكريات الصبا التي امتزجت بروحي ودمي، وأشهد الله أنني في هذه الاثنتي عشرة سنة لم أنو الإقامة يوماً واحداً في هذه الأرجاء مهما حوت من مسليات ومنعشات، لقد مرت عليّ هذه المدة وأنا أشعر أنني أعيش في حديقة مستشفى أنتظر الإبلال، من مرضي والأذن لي بالخروج وأقسم لك بكل

المقدسات أني كلما عرضت لي فترة من الشعور بالصحة، ولو يوماً أو يومين فكرت للحال بأمر العودة إلى العراق، ولكن لا أكاد أفكر بذلك حتى يعود إلي المرض وأستيقظ من حلم الصحة الجميل على وخزات الألم وجرح السقام، وأنت تعلم أني عدت من طهران إلى العراق بصحة لا بأس بها، وإذا بالمرض يوصلني إلى حالة القبر وأظنك لا تنسى الحالة التي وصلت إليها فكيف أعود اليوم إلى العراق وأنا أشكو أشد الآلام وقلما تتركني الحمى رغماً عن وجودي في أجمل المصايف وقد كشف الفحص الأخير عن أني مصاب بالتهاب مزمن في المعاء الغليظ وهو يحتاج إلى مداواة طويلة من حقن وإبر لا تساعد الظروف على تطبيقها.

وهب أني غامرت بصحتي وعزمت على الرجوع إلى الوطن المقدس - ولو مدة الخريف والشتاء عن طريق القطار - فاعلم أني لا أستطيع مواصلة الركوب في القطار هذه المسافة الشاسعة ولا بد من تقطيعها إلى مراحل تكلفني مصاريف باهظة لا أستطيع القيام بها مع هذه الديون التي تراكمت عليّ من انقطاع موارد الطبع والنشر».

(١٠)

كان الصافي ينتظرني في كل صيف بشوق ولهفة وأنا أنتظر الصيف لأحظى برؤيته بأكثر من شوقه ولهفته، وقد قلت إنه اعتاد أن يحييني بأخر منظومه الذي لم يتمه بعد أو الذي أتمه قريباً ولم ينشره فيهديه لي، وتنشره الصحف له هدية يخصني بها في صدر القصيدة وقد كان من ذلك قصيدة باسم (رواد ابولو ١٣) الذين وجلت القلوب خوفاً عليهم من الوفاة وقد - نشرها الدكتور سهيل إدريس في العدد السابع من مجلته (الآداب) من سنة ١٩٧٠ والتي يقول فيها الصافي:

على رواد (ابولو) حزناً وهاج بنا اضطراب وانتحاء
فثرنا لاستعادتهم جميعاً أليس الكل يجمعنا الاخاء
أليسوا مثلنا أبناء أرض فخفنا أن تصادرهم سماء.. الخ

وأهدى لي في صيف ١٩٧١ قصيدة نشرها الأستاذ البير أديب في مجلته (الأديب) وقدم لها هذه المقدمة التي تشرح الدواعي التي هاجمت قريحة الصافي وجاء في مقدمته ما يلي :

«عشرون سنة متواصلة والشاعر الصافي النجفي يرتاد متنزهاً بين بعض الشجيرات وفي جوار مقهى متواضع من (ربوة دمشق) يقصده في كل يوم من أيام الصيف فيفرش له القهوةاتي بين تلك الأشجار حصيرة من حصره المتواضعة، ويهيء له وسادة ويصدع بأمره فيشتري له من الحبوب حفلات لكي ينشرها للبظ والوز الذي يسبح هناك وللطيور التي تتجمع حوله والتي ألفتها فصارت هي والبظ تلتقط الحب من بين يديه، وقد أصبحت تلك الحصيرة بين تلك الأشجار وإلى جانب ذلك القهوةاتي مفرش لذة الصافي ومبعث وحيه طوال هذه السنين العشرين ويجيء الصافي في هذه السنة إلى ذلك المتنزه فيجد المقهى الصغير مبعثراً والشجيرات مصوحة وليس هناك غير تلك الطيور المحوَّمة على تلك الصومعة - صومعة الصافي والبظ الذي يروح ويجيء في ذلك النهر الصغير، لأن القهوةاتي كان قد مات والمكان قد خلا من كل إنسي يتخذ منه منتجعاً كالسابق فبكى الصافي واستحالت دموعه قصيدة رثاء لذلك المأتم الذي سماه (مأتم متنزه) وقدمها لصديقه جعفر الخليلي الذي - كثيراً ما نعم بمثل هذه الهدايا النفيسة الغالية من صديقه (الصافي) في كثير من المناسبات».

ثم نشر (الأديب) القصيدة تحت هذه المقدمة بعنوان مأتم متنزه - مهداة لجعفر الخليلي :

أنا أرثي في الشام عندي مقاما	كان خلداً لدي عشرين عاماً
هو سهل في شاطئ النهر نضر	لي يهدي الإبداع والإلهاما
كان مأواي كل يوم هجير	ومقيلاً ومنظراً ومقاما
عميت أكثر النواظر عنه	وسروري إن تعم أو تتعامى

تركتني في جنة الخلد وحدي
يسمعون الضجيج من (راديات)
سامعاً دونهم غناء السواقي
حيث وزّات نهره ألفتني
ولكم بالجنّاح قد صفقت لي
يتظاهرن فرحة بقدومي
صائحات يوقظنني من رقادي
ويحدقن بي فأفهم منها
حسبتي المسؤول عنها تماماً
إن أسافر عنهم أوكل وصياً
طول عامي أبقى أفكر فيها
أرتجي الصيف مسرعاً لي يأتي
كم أثارت تعجباً وهي تغدو
هي لي أسرة وكل حنان
كن سبعاً، وأربع متن منها



عدت في لهفة بصيفي هذا
واستحالت أشجاره لصخور
جعلوا الروض مأرباً لانتفاع
تركوا بين دوحتين مكاناً
نمت فيه كأنني في جحيم
رحت أرضي نفسي به دار ذكرى
رحت أبغي نوماً فأبصر حلماً

فإذا الشاطئ استحال ركاما
واستحال الجو اللطيف قتاما
وإذا الأنس فرّ منه انهزاما
لي فيه والشمس تذكو ضراما
رحت أشوى وما اقترفت آثاما
مثلما دارسو الطلول احتراما
باكياً فيّ تلکم الأياما



وإذا الوّز مسرع لي يعلي
 رحت أبكي حزناً عليها بقلبي
 رحت أبكي لها أباً في يمضي
 ليتني حامل لها أين أمضى
 هي لم تنسني إذا مرّ عام
 كان حظي من جنة الشام روضاً
 كان في الشام جنتي ومصيفي
 كان برداً لمهجتي وسلاماً
 سوف يبقى لذلك الروض جرح
 زقزونات أطارت الأحلاما
 إذ فقدنا هناءنا والمقاما
 عن حماها قسراً فتحيا يتامى
 صاحباتي في الصيف عاماً فعاما
 حافظات عهداً لنا وذماما
 صار فقدي له لأنسي ختاماً
 فسألقي في كل صيف هياما
 صار ناراً تذيبني وضراما
 في فؤادي هيهات يلقي التآما
 أحمد الصافي النجفي

وفي شتاء إحدى السنين جئت إلى بيروت للإشراف على طبع أحد
 كتبي وكان قد أصاب لبنان قحط ومحل شديدان لقلة الأمطار في تلك
 السنة، فقال لي الصافي بهذا المضمون:

لأنت أجدر أن ينشد فيك هذان البيتان يا جعفر، وأنشدهما قائلاً:
 ولقد مررت على (العقيق) وأهله يشكون من مطر الربيع نزورا
 ما ضرهم إن كان جعفر جارهم أن لا يكون ربيعهم ممطورا
 وفي ١٦ شباط من سنة ١٩٥٧ كنا قد تصورنا معاً فكتب لي تحت
 الصورة اليتيم اللذين ذكرتهما من قبل واللذان يقول فيهما:
 إلى أخي جعفر الخليلي:

أنظر لرسمي واذكر به عهد التلاقي
 لوفاه يوماً لأبدي إليك فرط اشتياقي
 وحين جاء الصافي إلى بغداد كان قد كفّ بصره إلّا قليلاً من بصيص
 يكاد لا يرى منه إلّا الأشباح فأهدى لي هذه الأبيات وأرسلها إلى مجلة
 (ألف باء) وبحضور جمع كان من بينهم سالم الألوسي وأحسب أن المجلة

لم تنشرها وفي صدرها مقدمة تشرح سبب نظم هذه الأبيات التي يقول فيها :

حفلت بغداد بي ترفع شاني وتغالي
رؤيتي بغداد أحلى لي من ألف احتفال
حلماً كانت بنفسي شاغلاً كل خيالي
دائماً أسمع عن إدراكها حد الكمال
حرمت من حسنها عيني في يوم الوصال

ومن محبته لبغداد لم يطق أن يراها بعينه يوم وصوله فيما قال عنها :

يا عودة للدار ما أقساها أسمع بغداد ولا أراها
وصار هذا البيت مثلاً لمحبته على الرغم من كثرة شعره في حب
العراق... وبغداد خاصة ومنها قوله :

إن البلاد كما الحسان تفاوتت حسناً وإن عروسها بغداد
وقوله من قصيدة طويلة يحن بها إلى العراق :

يا عراقي برغم طول الفراق فيك تشدو جوانحي يا عراقي
وأنا العاشق الذي بك أضحي في دنا الحب سيد العشاق
إلى أن يقول :

أفأبقى ذاك الغريب المعنى يا إلهي متى يكون التلاقي؟

(١١)

ويسأل البعض حين يعرفون زهد الصافي وقناعته وتركه لملذات الدنيا
وخصوصاً إذا قرؤوا له أمثال هذا البيت :

أرى شعراء يعشقون غوانياً من الشعر يحكين العصور الخواليا
غوانيهم في كل يوم بحلة ويخلق فكري كل يوم غوانيا
قد يسألون: وهل الصافي يحب غير غواني الشعر غواني من النساء؟

لا سيما وقد عاش أعزباً وكانت له ابنة عم سميت باسمه فحللها من هذا الارتباط بالاسم ولم يتزوج، وقد يسألون هل أنه بعيد عن هواجس الحب والشعور بجمال المرأة؟ وهو سؤال لا أحسبه وارداً حتى وإن خلت دواوينه، وهي لم تخل من تصويره جمال المرأة وأثرها في النفس ما دام رقيق الشعور مرهف الحس نابض القلب نافذ النظرات وماذا تريد منه أكثر من قوله الذي بز أقوال كثير من الشعراء المحبين الصادقين في حبهم والمعروفين بالرقّة؟ ماذا تريد أكثر من قوله وهو ينظر إلى جمال المرأة:

ليس عينا لي بكافيتين فوق عيني أبتغي ألف عين
وماذا يريد السائل من حب الصافي أكثر من قوله:

يا رب شوّه لي وجوه الغيد كيلا أعذب منهم بصدود
وذلك لما تأخذ منه الغيد من انفعال مشوب بالحرمان فيدعو الله أن
يشوّه هذه الوجوه الساحرة ما دام يحب ويعشق ولا يطيق صبراً على حبه.

ويقول أكرم زعيتر وهنا أذكر قول أمين الريحاني عن الصافي إذ يقول
الريحاني «... فالدمامة أمه، والبؤس والده، والسقم أخوه، والفقر ابن عمه،
أما الروح فهي سليمة قوية، بل هي روح جبارة في هيكل سقيم».

وحين كنت أنزل بسوق الغرب وكان يتفضل الصافي عليّ بالزيارة كما
أشرت إلى ذلك، وكان لي في سوق الغرب صديق قديم هو الدكتور أمين
زهر تعود صلتني به وبآله إلى أيام اشتغاله طبيباً في النجف، فكان هذا
الصديق يدعونا إلى العشاء في كل ليلة يكون الصافي عندي فننعم أنا
والصافي بسهرة تمتد إلى ما بعد منتصف الليل ويحضرها رجال ونساء من
أسرة الدكتور وأسرة قرينته، وتعمر سهرتنا بقراءة أشعار الصافي حتى لقد
يستكتبونه إياها وكانت لقرينة الدكتور زهر أخت أديبة تعمل معلّمة وذات
جاذبية وخلق رضي ولطف ويبدو أنها وقعت من عين الصافي موقع
الالتفات لكثرة ما كان يطلب منها أن تقوم وتقعّد بإغلاق الشبايك مرة

وفتحها من جديد مرة أخرى ثم الطلب منها بأن تعد له شايًا خفيفاً على الرغم من وجود الخادمة التي تقوم بمثل هذا، إلى غير ذلك من تسخير وتكليف كانت تتلقاه الست (سامية قائد بيه) بكل سرور وفخر وهي شقيقة طبيب أمراض القلب الشهير الدكتور (سامي قائد بيه) الأستاذ بكلية الطب في الجامعة الأمريكية ببغداد وأحد كبار أطباء المستشفى الأميركي في أمراض القلب وكثيراً ما كان يحضر مجلسنا هذا إذا علم بوجود الصافي. وكل هذا الاهتمام من الصافي بالست سامية قائد بيه لم يلفت اهتمامي أنا.

ومرت سنتان أو ثلاث سنوات كان يتكرر هذا الاهتمام من الصافي بالست سامية كلما دعينا إلى بيت الدكتور أمين زهر في أيام الصيف لتناول العشاء وقضاء السهرة حتى توثقت عرى الصداقة والمحبة بين آل زهر وآل قائد بيه وأحمد الصافي، وقد زارهم الصافي ذات يوم - ولا أدري أين كنت أنا - وكانت الست سامية قد اعتادت قضاء بعض أيام الصيف في بيت أختها قرينة الدكتور زهر؛ فطلب منها الصافي أن تعد له الشاي والشاي الذي - يعدونه آل الدكتور زهر هو كشاي العراق تماماً وقد تعلموا كيف يحافظون عليه لئلا يغلي، ولكي (يتخدر) على حد اصطلاحنا نحن العراقيين منذ أن كانوا في العراق وإذ جاءت (سامية) بالشاي طلب منها الصافي أن تجلس بالقرب منه، وكانا وحدهما في غرفة الاستقبال وهناك قال لها الصافي:

يقول (ربيع ديب) وهو من (شحيم) ببلدان: إن الصافي أجاب دعوة أديبة لبنانية وقد أصر على عدم ذكر اسمها كانت تدعي غرامها به، وقد زارها في مكتبها، حتى إذا جلس شرعت آلات الهاتف الكثيرة فوق مكتبها ترن الواحدة تلو الأخرى، والمرأة تلتقط سماعة مرة، وسماعتين مرة أخرى، ولما طال بها الوقت وهي منشغلة بمكالماتها الهاتفية، تناول الصافي ورقة من المكتب وكتب عليها هذا البيت:

وكيف الترجي منك صدق العواطف وقلبك مقسوم على ألف هاتف؟
ثم خرج من دون أن تشعر به!!

(١٢)

وللصافي عشرة دواوين مطبوعة بأسماء مختلفة كالأمواج، والأغوار،
والتيار، وألحان اللهب، وهواجس، وحصاد السجن، وشرر، واللفحات،
والشلال، وقد طبعت له (دار العلم للملايين) ببورت ستة منها، هذا عدا
ترجمته لرباعيات الخيام، وقد قال لي إن له من الشعر الذي لم يطبع بعد ما
يساوي ديوانين وأكثر وكان يحرص على هذه المجموعة التي بقيت في
مسكنه ببورت حين سقط في الشارع جريحاً بالرصاص، فبادرت جارتة
المسيحية التي كانت تعنى به هي وزوجها وسلمتها للسفارة العراقية، وهذه
سلمتها له في المستشفى، وقامت وزارة الثقافة والفنون أخيراً بطبعها في
مجلد ضخمة.

وله غير هذا ترجمة ممتازة من الشعر الفارسي باسم (صفحات من
الأدب الفارسي)، وقد طلب منه عبد الوهاب عزام أن يبعث بها إليه في
القاهرة ليقوم بتقديمها وطبعها له هناك، وكان الصافي مهتماً بهذه الصفحات
ثم استصغر شأنها بعد ذلك، ورأى أنها في حاجة إلى إعادة نظر؛ لأنه كان
قد ترجمها على عجل على ما قال لي، وقد كتب لي عنها يقول: «إن بعض
الأدباء قال له حين تأجل تقديم هذه (الصفحات) للطبع: ولا بأس أن
تحفظ هذه الصفحات كأثر (من آثاري) يطبع بعد مماتي وقد أصغيت - أنا -
لنصائحكم وعدلت عن طبعها وسوف تطلع - أنت - عليها متى قدمت إلى
سوريا لترى رأيك فيها».

وإذا عدلنا عن الشعر فإن له في النثر كتاباً باسم (هزل وفكاهة) يلمس
فيه القارئ روح الصافي المرححة المتفتحة.

وأخذ بعض الأدباء على الصافي تعاليه في شعره ولم يستسيغوا منه هذا التعالي، وقد أشاروا إلى ذلك في مقالاتهم وكان في مقدمة أولئك الأديب الناقد مارون عبود وأكثر هذه المآخذ التي لم يستسيغوها كانت من قبيل قول الصافي:

سموت بشعري فوق جيلي ولم يزل يشك بشعري معشر البلهاء
فإن لم أكن من أمة الشعر واحداً أكن أمة أعلى من الشعراء
أو مثل قوله:

كل بشعري واجد نفسه ففيه أسرار الورى مودعه
شعري ينمو مع سن الفتى ينمو حجاه وهو ينمو معه
ومثل قوله:

مرآة هذا الوجود شعري تبصر عصري بها وذاتي
إن مثلت في الحياة عيباً فالعيب لا شك في الحياة
ودافع عن أقواله هذه أدباء آخرون كان منهم سعيد الجزائري الذي قال أن ليس في أبناء عبقر من لم يقل (أنا. وأنا. وأنا) وقد قالها المتنبي إذ قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمنت كلماتي من به صمم
ولكن الجزائري عاد فأخذ عليه تلك المآخذ وقال: «إن الصافي كان يرى شخصه فوق جيله لا فوق شعراء جيله فحسب، وأنه هو الشاعر الواحد في أمة الشعر، وأين؟ ومتى؟ وذلك في الزمن الذي كان فيه أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، و خليل مطران، و شفيق جبري وبدوي الجبل...».

وكان الصافي يعجب كثير من الشعراء المتقدمين والمتأخرين ولكن إعجابه هذا بدأ يقل كلما تقدم في السن حتى اقتصر على المتنبي من المتقدمين وعلى أبي ماضي وإلياس فرحات من المتأخرين؛ بل لقد قل هذا الإعجاب أو انعدم أخيراً عن الكل حتى المتنبي، ويوم كنا نجتمع أنا وهو

كان يشير إلى الذين يثيرون إعجابه بشعرهم، وقد كتبت لإلياس فرحات بما كنا نستعرض أنا والصابي من أشعار المتقدمين والمتأخرين وعن رأي الصافي فيه فكتب لي يقول في إحدى رسائله:

«... وكم تمنيت لو أنني كنت اتلصص عليكم من خلف الباب.. وأسمع حديثكم عني وعن زملائي بل زميلي أبي ماضي والقروي، وأتنتص بلذة إلى حديث (البدوي) الصافي الذي - كما قال لك - قد اجتمعت به غير مرة في لبنان، وقد زارني في (كفرشما) ثم التقينا في بيروت في مكتب الأستاذ البير ربحاني، وقد دخلت المكتب فوجدت الصافي جالس القرفصاء أعني متربع فوق كرسي هناك وحضنه مملوء بالأوراق ولم يكن صاحب المكتب موجوداً، دخلت وسلمت فرد السلام دون أن يرفع نظره عن أوراقه ففهمت أنه مهتم بتصحيح أخطاء مطبعية لأنه كان يطبع أحد دواوينه، وأنه لم يعرفني، وأنا الآخر لم أعرفه، فقلت له - من باب الدعابة متحرشاً به كبديوي يقرأ ويكتب - لقد قلت له: الظاهر أنك تحسن القراءة العربية...؟ فأجاب دون أن يرفع رأسه بعض الشيء وقال: أنا الصافي النجفي: فقلت له: وأنا إلياس فرحات، فقفز عن كرسيه وقفزت أوراقه من حضنه، بالطبع، وضمني وضممته، وجمعنا الأوراق المبعثرة وضحكنا، ولم نفرق إلا بعد أن مضت على لقائنا ساعات...».

وقورن تعالي الصافي بتعالي أحمد شوقي الذي تألب عليه فحول الأدباء في عصره، مثل العقاد وعبد الرحمن شكري والمازني واتباعهم وقيل: لقد ترفع شوقي عن أن يقول شيئاً إلا في عرض الكلام، ودون أن يسمى مهاجميه الذين ندموا بعد ذلك، وكان العقاد في مقدمة النادمين والمستغفرين وإن كل ما قاله شوقي في تعاليه هو هذا:

كان شعري الغناء في فرح الشرق وكان العزاء في أحزانه
وكان رئيف الخوري، من هؤلاء الذين هاجموا الصافي حتى لقد قال لي الصافي بأن الخوري يكرهه ولكنه كان بعكس مارون عبود إذ رجع

الخوري عن رأيه كما رجع العقاد عن رأيه في شوقي. ولم يرجع مارون عبود.

ومن المآخذ التي أخذها سعيد الجزائري على الصافي - والجزائري صديق مقرب للصافي - قوله عنه: «ولقد رأيتہ يمعن في مسامرة الشاعر العملاق محمد مهدي الجواهري مواطنه وابن بلده، ونحن في جلسة ثلاثية في مطعم سقراط في دمشق وأنا أعرف رأيه الصحيح في الجواهري».

فأينما يرد الناقدون أن يضعوا أحمد الصافي بين الشعراء فإنهم لا ينكرون أنه أحد كبار شعراء عصره، وأن له من ميزة (السهل الممتنع) في الشعر الشيء الكثير، وأكثر ما يصور في شعره فإنما يصور نفسه، فيأتي بالمبتكر من المعاني، والصور، ومن هذه المعاني قوله في السيارة كما ذكرت ذلك من قبل:

تخذتها أمة حتى غدوت لها عبداً وها أنا أفنيها فتفنييني
وقوله وهو يسخر بلقب الأستاذ:

وغبي سميته أستاذاً وهو في جهله من الأفذاذ
قيل هل رمت رفعه قلت كلا رمت إسقاط كلمة الأستاذ

ومن هذا القبيل قوله في شخص كان الصافي يستصغر شأنه فقيل له
إن هذا الشخص قد قتل صلاً فوجه الكلام له قائلاً:

زعمت بأن أرديت صلاً بضربة وما خلت قبل اليوم أنك صنيدي
فلا شك ذاك الصل قد كان دودة وإلا فكيف الصل يقتله الدود؟

ومن جميل قوله:

يقولون إن الخطب للشعر منبع وكم ببديع الشعر خطب الفتى يوحى
فلا تخش ضغطاً سوف يخرج لؤلؤاً فقلت أخاف الضغط يخرج لي روحى

ومن شعر الفكر قوله:

كل يوم أزيح عني ثوباً
 آملاً أن أعري النفس حقاً
 غير أنني إن أنض ثوباً أصادف
 فتراني ما عشت أنزع أثواباً
 صرت أخشى إن أنض كل ثيابي
 فكأنني القشور كون منها
 بالياً من عقائد الأحقاب
 من لباس يشينها وحجاب
 ألف ثوب ملاصقاً لإهابي
 كأنني كونت من أثواب
 لم أصادف روحاً وراء الثياب
 بصل ما به سوى الجلباب
 وقوله:

بعوضة أنا في الدنيا وحين أرى
 ومن أقواله الظريفة قوله:

أواه من جنس بني آدم
 كلاً، فما الناس بنو آدم
 واحداهم شر من الآخر
 إذ لم يلد آدم لكن خري
 ومن هذا القبيل قوله في كثرة النسل عند الفقراء:

كم غني لم يعطه الله نسلاً
 فلو أن الأمور كانت بكفي
 وفقير يبلى بنسل كثير
 كنت أخصي في الكون كل فقير
 وليس هذا مقاماً لعرض شعر الصافي وأنا هذا ما جرى على بالي
 كشواهد لأفكاره في حين أن دواوينه تحوي الشيء الكثير من الشعر المبتكر
 الرائق الذي يصلح للأمثال ولا يعد هذا الذي أوردته أنا شيئاً إلى جنبه.

(١٣)

وأحبنى الصافي كثيراً وقال لي غير مرة أنه ينتظر الصيف بفارغ الصبر
 لينسى عند حضوري كل ما كان يؤلمه من الخواطر والأفكار والأخيلة،
 وكنت في السنين السابقة أنزل.. (ضهور الشوير) حين كان الصافي لم يزل
 مقيماً في الشام ولكن لا أمكث إلا قليلاً حتى أعود إلى الشام، لا شيء
 إلا لكي أنعم بلقائه، وقد أستصعبه معي إلى ضهور الشوير؛ فقد كنت
 استأجر بيتاً في كل سنة في الضهور.

وفي إحدى السنين كان بيتي لا يحتوي إلا على غرفتين، فجئت به معي إلى (ضهور الشوير)، ولم أكن قد اتخذت تدبير منامه في غرفة مستقلة إن جاء معي، وبحث فلم أعثر على غرفة في فنادق الضهور له، وأنا لم أعتد النوم مع أحد لكي أهيئ له سريراً آخر في غرفتي ولم أذكر متى فصلني أبوي عنهما وخصّاني بغرفة مستقلة، وحتى بعد الزواج كان هذا ديدني، وحتى حين أمرض وحين يجب أن يسهر أحد على مراقبتي كنت أمانع أن ينام أحد معي، ولا أنكر أنني طالما ضمتني غرفة واحدة أو إيوان واحد وجماعة من الرفاق في أيام الشباب، حين كنا نخرج إلى الكوفة أو مسجد السهلة، والسبب هو أننا كنا ننام مجازاً إذ كنا نقضي الليل بتقنية الشعر أو بالأحازير أو بمهاجاة بعضنا بعضاً بما يدور على ألسنتنا من الشعر المرتجل؛ فتشرق الشمس ونحن في يقظة مستمرة من أول الليل إلى آخره.

وذكرت أن لي صديقاً في الشوير وقد تعرف إلى الصافي ذات يوم حين جاء إلى الشام معي؛ بل لقد (تصورنا) في جلسة معاً، وذلك هو اسكندر حريق فأخذت الصافي معي إلى بيته ووجدنا منه ترحيباً حاراً، وسرعان ما أفرغ لنا إحدى غرف البيت، وسهرنا عنده تلك الليلة، ولم أعد إلى الفندق إلا بعد ساعتين وأكثر من منتصف الليل ونام الصافي عنده؛ وفي الليلة الثانية أفرغت للصافي إحدى الغرفتين وحصرت زوجتي وولدي في غرفة واحدة ونمت أنا في ممر ضيق ظللت أنام فيه على الأرض طوال الأيام التي كان الصافي عندي وحين كنت أغادر الشام عائداً إلى العراق كنت أحس بالكتابة مرتسمة على وجه الصافي وكانت محبته لي لا تثمن ولم تنقطع مكاتبي ولا مكاتبيه عني، وكان يودعني وأنا استقل السيارة فألقي عليه آخر نظرة متأسفاً لهذا الفراق.

«السلام عليك، والشوق إليك وبعد:

فقد مرت مدة مديدة وأنا لم أظفر منك بكتاب كما أنني لم أقرأ (الخليلي) في (الهاتف) كما كانت عادتي، وقد بلغني منذ مدة أن أحد

المتهوسين الأنذال أعداء كل إصلاح وعبقرية قد اعتدى عليك وأصابتك منه ضربة نالت مركز الشعور والعبقرية، وأنت تعلم مقدار ألمي لمجرد السماع لهذا الحادث، وكنت أريد أن أعلم السبب في هذه الجناية؛ ولكنني لم أهتد إليه حتى الآن، ولقد حاولت مراراً أن أكتب إليك مستفسراً عن صحتك؛ ولكنني خفت من أن أزيد جرحك إيلاًماً؛ فانتظرت حتى يلتئم بمرور الزمن، والآن أرجوك أن تظمني عن صحتك العزيزة علي وعلى كل من يعرفك من عشاق أدبك وإبداعك...».

وحين عدت إلى العمل في الجريدة بعد الشفاء، عدت بأشد حرارة في مهاجمة تلك التقاليد وفي هذه الأثناء صدر لي الجزء الثاني من (يوميات)، فأرسلت للصافي نسخة منه، وتلقيت منه رسالة يقول فيها:

«أخي لقد وصلني منذ مدة وأنا ببירות منتجع للصحة كتابك الجديد، أعني الجزء الثاني من (يوميات)؛ فسررت أولاً لاعتقادي بشفائك، حتى استطعت إخراج الكتاب المزين بأمضائك، وثانياً فقد قرأته بكل لذة».

واتفق عند وصوله أن كنت مع الأستاذ (عمر أبو ريشة) فأطلعته على الكتاب فقرأ منه أكثر من أربعة فصول وأغرق منها في الضحك وأعجب غاية الإعجاب وبقي كلما رأي يذكّرني ببعض فقرات الكتاب، والبارحة ذكرني (بجبلقة جبلاق)...

وجاءت الحرب فحالت بيني وبين الاصطياف بسورية ولبنان، بل قد تأثر بها حتى البريد وقد علمت أن الصافي قد سكن صيدا وكان يلزم كل يوم قلعتها، ويفترش هناك عبادته ويتمدد ويسرح في خياله، وله في هذه القلعة شعر رائع يصور كل ما يجول في ذهنه، وقد علم بمحله هذا عشاق شعره فكانوا يزورونه في القلعة، ويتخذون من صخورها وبقايا أحجارها مقاعد لهم، فيلتفون حوله، ويقضون شطراً من الوقت بالتحدث إليه والتلذذ بأشعاره.

وجئت إلى بيروت وقد طال غيابي بسبب الحرب وبسبب ما حدث لي من عوائق، ولم أدر كيف سألتقي الصافي؟ وأين سيتسنى لي العثور عليه؟ فقد تغيرت الأحوال، وتبدلت معالم البلد قليلاً، وأنا لا أعرف أين يسكن الصافي؟ وأين مقره؟ وكل ما كنت أعلم هو أنه قد انتقل من صيدا إلى بيروت واتخذها مسكناً، فصممت أن أعمل في التفتيش عنه ما عمل ابن أخيه الدكتور علي الصافي على ما قيل لي؛ إذ التجأ إلى جريدة (الحياة) حين مر ببيروت في طريقه إلى ألمانيا وبالعكس، وأعلن عن نفسه يقول إنه الدكتور علي الصافي، وإن عليه أن يغادر بيروت قريباً، وإنه نزّل الفندق الفلاني، وليس لديه من الوقت الكافي ما يساعده على البحث عن عمه أحمد الصافي النجفي، وهو في حاجة جد شديدة لرؤيته، فعلى عمه إذا قرأ الجريدة، - والرجاء من معارفه الذين يعرفون مقره - أن يخبروه بمنزله في الفندق المذكور، وما كادت جريدة الحياة تنشر صباحاً حتى وصل الصافي إلى الفندق وانتهت المشكلة.

أقول لقد صممت على أن أعمل ما عمل الدكتور علي الصافي، وأعلن في الجريدة مثل ذلك الإعلان؛ ولكنني ذكرت، لقد ذكرت أنني لست مضطراً لمغادرة بيروت بتلك العجالة؛ فلم لا أبحث عنه بنفسه وبهداية من معرفتي لطبيعة الصافي ومزاجه، وفكرت قليلاً، ثم قلت في نفسي: صحيح أن (كل نجد للعامة دار)؛ ولكن الاهتداء إلى محل الصافي ومواطن جلوسه في المقاهي يجب أن يجيء عن طريق مزاجه، ويومذاك كان الصافي يتهرب من الضوضاء والضجيج، حتى لقد مرّ عليه وقت كان يلقي بالراديو جانباً منزعجاً من صوته، وهو ينتظر وقت إذاعة الأخبار، ولم يعرف الصديق ناجي جواد ذلك منه، ولولا ذلك ما اشترى له من بيروت (راديو) وأهداه له؛ فأخذ الصافي شاكراً، وهو يبتسم، ولم يعرف أحد سر ابتسامته غيري، ولكن الصافي قد تغير بعد سنين وصار لا يعبأ بالضوضاء والصخب والصراخ.

أقول وإن الذي يعرف مزاج الصافي يستطيع بسهولة أن يعرف محلات ارتياده، ويستطيع أن يحصرها؛ فهو إذا نزل فندقاً أو نزلاً فالغالب يومذاك أن يكون هذا النزول هادئاً كل الهدوء، وكما يصفه هو في قوله إذ يقول:

سكنت نزلاً ما به نازل بي هو لا بأهله أهل
مودع أنا ومستقبل والضيف والقادم والراحل
حارسه والأهل فيه أنا والزائر الخارج والداخل
في النزول تلقاني وتلقاه بي حتى كأني النزول والنازل
وأما من حيث روحه المحلقة في سماء الشعر والطائفة في العوالم
اللانهاية فيستطيع الباحث أن يلقاه حين يقول:

يروم زيارتي عشاق شعري فلا يجدون لي في الأرض دارا
تراني كالنسيم أطوف حراً فلست ولا النسيم نرى قرارا
فزوروني بأنفاس الخزامى وزوروني بآهات العذارى
وقد آوي لقلب أخي غرام وأصعد منه آهات حيارى

وكل لذة الصافي كانت منحصرة في الانفراد بنفسه، ويستوحى من انفراده هذا ووحدته آيات شعره وبدائع خياله؛ لذلك كثيراً ما اتخذ سكناه في الأحياء النائية الهادئة البعيدة عن الجلبة والضوضاء وفي ذلك كان يقول:

قال قوم: الجار قبل الدار ولذا قد ألفت سكنى القفار
طففت في الأرض ما ظفرت بجار فمن اليأس ما أقمت بدار
ما ديارى إلا محطات سير ومكوثي بها مكوث القطار

وقد صدق إذ صوّر نفسه بالقطار الذي لا يمكث عند المحطة إلا قليلاً ثم يغادرها إلى محطة أخرى، وكثيرة هي الشواهد التي تعرب عن فراره من الناس، وتعبّر عن حبه الانفراد بنفسه؛ فهذا هو ذا يقول عن مصيف كان قد وقع من نفسه موقع الإعجاب:

جميل بعيني هذا المصيف وأجمل ما فيه فقد البشر
فما فيه من ناطق مقلق يشوش لي ما أرى من صور
وعن هذا الانفراد بالنفس والوحدة التي تلذه وتنعشه ويرى فيها موطن
وحيه وصفاء ذهنه وحضور عقله يقول:

أراني مجنوناً متى كنت في الورى وإن أنفرد يوماً رجعت إلى العقل
وتتجاوز الشواهد التي يستخلص منها القارئ ميول الصافي إلى
المواطن الهادئة لذلك ما أسرع ما كان يفر حين لا يجد المسكن والمقام
الملائم لمزاجه وفي ذلك يقول:

لم أقن داراً خوف المقام بها مقيداً كالجدار والصنم
أسكن داراً حيناً وأبرحها منتقلاً دائماً كمنهزم
وقوله:

إذا انفردت أتانى الوحي مندفعاً كأن كل عراقيلي هم البشر
وإذا استعرضت دواوين الصافي فلا يصعب عليك أن تحصر أماكن
الصافي من المقاهي التي كان يرتادها في الشام والتي يرتادها بيروت، حتى
لقد يكون بإمكانك أن تسبق الصافي وأنت على غير دراية سابقة بمحلّه،
وتنتظره هناك قبل مجيئه، فإن أخفقت مرة أو مرتين فلن تخفق في المرة
الثالثة والرابعة، وقد أحسن هو في وصف المجالس التي كان يأوي إليها
سابقاً إذ يقول:

يقولون بيتي سوف يغدو محجة إذا ما طوى شخصي القضاء المحتم
يحج له عشاق شعري مواكباً يقبله هذا وذاك يسلم
وذاك بكفيه يمس تبركاً جداراً له والبعض ساه يعظم
وذاك يشم الأرض منه تيمناً وهذا على أيامه يترحم
فقلت وهل لي أي بيت يضمني وعمري طواف مزمن وتبرم؟
فبيتي مقاه جمّة وفنادق أقيم بها حيناً فأشقى وأهزم

وبيتي زوايا لا تعد سكنتها وروض وصحراء بها كنت أنعم
وكرسي ومقهى كنت أجلس فوقه وشاطئ بحر فيه أهنا وأحلم
وبيتي خرابات بشعري عمرتها أجيء لها أبغي الهدوء وأنظم
أتعب عشاقى طوافاً ورحلة فينجد ذا بحثاً وذلك يتهم
أرى حظ عشاقى كحظي تشرداً فإنهم مني كما أنا منهم
كل هذا وأكثر كنت أعرفه عن الصافي وأعرف أين ترفرف روحه
ولكني أريد أن ألتقيه بهيكله وصورته وروحه المرححة الجذابة، فرحت
استعرض من مقاهي بيروت التي تتوفر فيها راحة النفس لمزاج كمزاج
الصافي وحصرتها في عدد لا يتجاوز أصابع اليد، وقلت إذا لم... أجده هنا
أو هنا وجدته هناك أو هناك، بدون ريب وشك.

وقصدت المقهى الأول فلم أعرف عنه شيئاً وجئت إلى المقهى الثاني
وسألت:

- أتعرف أين أجد الأستاذ الصافي؟

فردّ عليّ باللهجة اللبنانية قائلاً:

- إذا بدّك وديع الصافي فما بعرف فين.. أما إذا بدّك الصافي النجفي
فهلاً مرأ من هون... (أي مرّ من هنا).

وأسرعت الخطى حيث الإشارة ولم أكد أنعطف خلف المقهى
بعشرات الأمتار حتى وجدته، ولقد وجدته بهداية من نفسي، وبعلم من
طبيعته ومزاجه دون الاستعانة بأحد الأدباء ممن أعرف، ودون إعلان في
الجريدة.

ولكيفية التقائي إياه بعد تلك الغيبة الطويلة قصة منشورة في الصحف
أما الذي لم ينشر منها على ما أظن فهو ما سادنا نحن الاثنين من الدهشة
وما ركبنا من العجب بالطريقة التي يتم لي فيها الاهتداء إليه.

وسألني الصافي: أهى من باب المصادفة أن التقينا هنا أم أن هذا
الالتقاء كان مقصوداً؟

قلت: لا بل إنه لقاء مقصود له شبه بقصة الحشاش والحمار الضائع؛ فلقد ضاع لرجل حمار ظل يطلبه أياماً لم يترك فيها وسيلة من وسائل البحث عنه دون أن يلتجئ إليها حتى المناداة عنه في الشوارع حتى يئس، وعلم أن الحمار إما أن يكون قد سرقه سارق أو أنه قد خرج من البلد، ورأى صديق حيرته ويأسه؛ فأشار عليه بأن يقصد حشاشاً من الحشاشين؛ فإن لهم أفكاراً عجيبة مبتكرة يوحي بها الحشيش لهم، وبين مصدق ومكذب اهتدى الصديقان إلى حشاش معروف وقدماً له بعض السكاير من الحشيش وأخبراه بمهمتهما، وبدأ هذا الحشاش يدخن حتى أخذت النشوة منه مأخذها قام من محله وقال لصاحب الحمار اتبعني لأدلك على حمارك.

وسار الحشاش ومن خلفه الصديقان وهو يدخل شارعاً ويخرج من شارع حتى أتى إلى خربة لا تقع عليها العين فإذا بالحمار واقف هناك!! وسئل الحشاش - وكيف عرفت بمحل هذا الحمار؟

قال: لقد فكرت لو أنني كنت هذا الحمار وحاولت أن أهرب من صاحبي فأني مكان هو أصلح للهروب والاختفاء؟ فلم أجد مكاناً أحسن من هذه الخربة...!

وقلت للصافي وفكرت أنا، لقد فكرت: لو كنت أنا الصافي ففي أي مكان يمكن أن يلقاني به الباحثون عني واهتديت إليك؟!

(١٤)

وفي السنين الأخيرة كان قد استأجر له (شقة) صغيرة ببيروت دعاني غير مرة إليها فاعتذرت أما الغرفة التي كان قد استأجرها سنوياً بفندق المعرض الواقع مقابل شارع سوريا فقد بقيت في إيجاره، وكنت أمر عليه بها فإما أن أجده فيها وإما أجده بمقهى فلسطين، وعند الظهر لا بد أن يكون قد اتخذ مقره في مقهى البحرين أو مقهى الحاج داود على البحر ثم يروح ماشياً إلى فندق المعرض فينام قليلاً، ويشرب الشاي الذي كان يعده بنفسه ثم يغدو إلى (الشقة) التي يقضي فيها ليله، وكانت إلى جواره سيدة

مسيحية تسكن وزوجها شقة صغيرة فكانت تعنى بالصافي كثيراً وكان هو كثير الامتنان لها، ولما لم تكن تعمل ذلك لطمع مادي على رغم عوزها، وتأنف أن تتقاضى شيئاً فكان الصافي يستغل بعض المناسبات من الأعياد فيشتري لها ولزوجها من الحاجات والهدايا ما يفيدهما، ومع ذلك فقد كانت تتعفف في كثير من الأحيان من قبول الهدايا على ما قال لي الصافي.

ووقعت حوادث بيروت في سنة ١٩٧٥ وتأزمت الأحوال يوماً بعد يوم حتى لزم الناس بيوتهم، فكانت الأضواء التي يسلطها القناصون على البيوت مما يزعج الصافي، لأنها كانت لا تنقطع هي والرصاص الذي كان يدخل هذه الشقة؛ فكان الصافي لا يستطيع النوم في أغلب الليالي على ما حدثني، إذ قال: وكنت أخرج في النهار حين يخف تبادل الرصاص إلى مقربة من الشقة التي أقيم فيها، فأشتري من صاحب فرن هناك أكثر من حاجتي اليومية من الخبز حذراً من أن لا يكون بوسعي الخروج في اليوم الآخر، وقد كان هذا الحذر في محله؛ إذ كثيراً ما كان ينقطع الطريق ويصبح الخروج متعذراً فألجأ إلى هذه الأرغفة، وقد يبست فأبلها بالماء وأتخذ من الشاي إداماً.

وذات يوم - يقول الصافي: وأنا خارج من هذه الشقة لشراء الخبز والبحث عن أغذية أخرى، إذ، مرت سيارة عسكرية لبنانية جواله، اعتادت أن تجوب الشوارع للحراسة، وكان الصافي في سنيه الأخيرة إذا مشى فهو يمشي مشية من يدب على الأرض، كمن يحمل من الأثقال ما لا طاقة له على حمله، ويلتفت الضابط الذي تقله السيارة وتقل جنوده إلى الصافي وهو يدب فيعرفه، ويقف له ويسأله عن محل إقامته وأسباب خروجه من البيت؟ ويخبره الصافي - وهو لا يعرف هوية هذا الضابط وكيف تم له أن يعرفه - فيخبره بخبره ويدله على شقته القريبة منه ويشكو له مضايقة هؤلاء القناصة، وتسليط أضوائهم ورصاصهم ليلاً على هذه البناية التي يقيم فيها فيطمئنه

الضابط بأنه سيوعز إلى هذه الجهة التي يأتي منها الرصاص والأضواء بالكف عنه، كما سينيط بأحد هؤلاء الجنود حين تمر سيارة الحرس هذه من هذا الطريق بأن يمر بالصافي ويتسلم منه ثمن الحاجات اليومية التي يريدها وهكذا كان فقد كان يمر هذا الجندي الحارس بالصافي في كل يوم ويأتيه بما يريد دون حاجة لخروج الصافي من مسكنه، كما انصرف القناصون عن توجيه رصاصهم وأضوائهم إلى هذه الشقق بعد ذلك.

وكان أكثر ما يحرص عليه الصافي هو هذه المجموعة المخطوطة من شعره الذي كانت (دار العلم للملايين) تطمع في نشرها؛ فكان يضمها إلى صدره، ويستعرض أشعارها في قلبه ذلك؛ لأن بصره قد رك وضعف حتى لم يبق له منه إلا ظلال الأشياء التي لم تتميز.

ولا أدري كم ظلت راية هذه النعمة النسبية ترفرف على رأس الصافي؛ فقد بدأ ينাম منذ تلك الليلة التي عرفه فيها الضابط وقد غدا يحصل على بعض ما يحتاج من الغذاء النافع ببركة ذلك الجندي الذي كان يمر به كل يوم ويشترى له حاجاته اليومية، وجاء يوم نيّط حراسة هذه المنطقة بجنود آخرين وضابط آخر است/ بدل بالضابط السابق؛ فانقطع المرور بالصافي من الجند وعاد الرصاص يزعج ويخيف الصافي؛ إذ طالما مرت.. الرصاصة وهي على قيد شبر منه، أما أضواء الكشف فلم تنقطع عن اختراق الحجب وعاد الصافي إلى التفكير في أمر معيشته كلما فرغت غرفته من الخبز وكان يرى أن جاره المسيحي وزوجته في أزمة أشد من أزمته فهما شيخان عاجزان لا يدري الصافي كيف يدبران أمرهما؟.

وخرج الصافي - كما كان يخرج أولاً - في طلب الخبز وفي هذه المرة كان قناص من بعيد يصبو إليه رصاص بندقيته فتصيبه رصاصتان، وينكفي الصافي على وجهه والدم يشخب من جسده، ولقد كان الصافي من النحافة والضعف حتى لم يبق منه في السنوات الأخيرة إلا هيكل عظمي يغطيه جلد أرق من جلود العصافير؛ فكيف به الآن وقد بدأت تنفذ آخر

قطرة ما يسمى بالدم من جسده؟ وتمر من هناك سيارة إسعاف فتري هذا الرجل الجريح الغائب عن الوعي والذي لا تعرف عن هويته شيئاً فتحمله إلى (مستشفى المقاصد) ويراه مدير المستشفى، ويدهش حين يعرف أنه الصافي الشاعر الكبير ويحوطه منذ تلك الساعة بعناية فائقة، وتجرى له العمليات المستعجلة لاستخراج الرصاصتين، ويتم إخبار السفارة العراقية بذلك، وتنقل الإذاعات العربية والصحف خبر إصابة الصافي، وتهتم الحكومة العراقية بالأمر، وتطلب من سفارتها نقل الصافي إلى العراق لمعالجته ببغداد، ومانع الطبيب في نقله حتى يتماثل للشفاء، ولا يكون لنقله من أثر صحي عليه إذا ما نقل.

وحين صار بإمكان الصافي أن يستعيد شعوره فإن أول ما سأل عنه هو مجموعة أشعاره، وكم سره حين وجد أن هذه الجارة قد حملت هذه المجموعة وسلمتها للسفارة - العراقية ببيروت.

واستقبل عدد من الشعراء الصافي بالشعر وهذه إحدى الخرائد التي استقبل الدكتور أحمد الوائلي بها أحمد الصافي حين عودته إلى العراق.

يا عود جرحك لحن بالعبير ندي	فخل جرحك يشدو في ذرى بلدي
فرب جرح على أنغامه سكرت	دنيا وما زال صداحاً إلى الأبد
يا بن الفرات لقد تاق الفرات إلى	لحن عن الشط والناعور مبتعد
غنى للبنان فاخضرت شواهقه	ولفّع السفح في زاه من البرد
وتينة الجبل استبكته وحدتها	وربّ منفرد يبكي لمنفرد
وعلمته بأرض الشام صومعة	يأوي إليها معاني الصبر والجلد
ونخلة الشام كم آذته غربتها	وأنها ما نمت يوماً ولم تزد
قلب يوزع للدنيا خوالجه	شدواً وسجواً ولم يبخل على أحد
والشعر من طبعه النعمى وسابغة	من العطاء بلا منّ ولا نكد



يا أيها العائد المجروح نزل له
فالقلم أدماه سحر الحور سارحة
والجسم أدماه رشاش لباغية
إذ وجه لبنان للمجدور شوهه
يا بن الفرات وحمداً للرصاص فقد
بالقلب جرح وجرح نزل بالجسد
بساحة البرج حيث النفث بالعقد
رش اللهب على روض ومبتد
رشق القذائف من قرب ومن بعد
أعاد مغترباً لولاه لم يعد



عد للحصاد وللناور يغزل في
للنخل أعذاقه الصفراء يسكرها
وللمواويل إذ تنساب من قصب
للسامرين ليالي البدر يجمعهم
وللدوالي بأرباض السدير بها
ودير هند وقد مرت كواعبه
حيث الشعانين تستهدي مواكبه
وحيث يمزج ثرواني خمرته
الشطين نجوى حبيب لاهب الكبد
سجع الفواخت في جوق من الغرد
الراعي فتطرب حتى سارح النقد
ناي يقصّ حكايات بلا عدد
طيف من ابن عدي أو شذى دعد
تمشي إلى الكرخ في دل وفي أود^(١)
طريقها بنهود للسمانهد^(٢)
بالخمر إذ يبتغي ماءً ولم يجد^(٣)



لكوفة الجند أطياف الكميت بها
لساحر المتنبي العبقري لدى
لرملة النجف السمراء ضاحكة
في حيث تخبأ أفكار معمقة
وندوة لشقة؟! في المتن والسند
أرباض كندة بالنقاد محتشد
أبعادها بالأصيل الحلو والرأد
لو جاءت العصر في أثوابه الجدد

(١) الكرخ: بيت النصارى وكانت بيوتهم بظهر النجف جنب أديرتهم.

(٢) الشعانين: عيد للمسيحية.

(٣) الثرواني: محمد بن عبد الرحمن الشاعر الكوفي أو أبو نؤاس الكوفة وبالبيت إشارة لمقطوعته التي يقول فيها:

وإبريق كطير الماء في لجة ضحضاح
إذا عز بنا الماء مزجنا الراح بالراح

على الريحان والراح وأيام الأكيراح
سلام يسكر الصاحي وما ثم فتى صاح

وحيث يرقد عملاق مشاعله ما زال بالكون منها ألف متقد
عد فالمعار إلى أهليه مرتجع وقل لجرحك غرد في ذرى بلدي

النجم الأشرف

الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

ونقل الصافي من بيروت إلى العراق في يوم ٩ شباط من سنة ١٩٧٦ ليقتضي دور النقاهاة في (مدينة الطب) وليعنى الأطباء بما يتطلبه هذا الدور من الاستشفاء وأقبل على زيارته الأصدقاء والمحبون والمعجبون بشعره ويظهر أنه قد ضاق ذرعاً بزواره فقد زرتة ظهراً أول مرة في غرفته بالمستشفى، وكان نائماً فحرصت على راحته حتى لقد ضغطت على أنفاسي لكيلا يسمع لي صوت، وجلست قليلاً أفكر فيما ينبغي أن أفعل؟ هل أعود من حيث أتيت؟ - وأترك زيارتي إلى الغد؟ أم أظل جالساً لأرى كيف يتم الأمر؟

وهنا تملل الصافي في سريره قليلاً وتحرك منقلباً من جنبه اليمين إلى الشمال فوجدتها فرصة، فقلت له: يبدو أنك قد أفقت من النوم - وقبل أن أتم كلامي قال - وقد بدا عليه شيء من الضجر من هذه الزيارة المزعجة - قال: لا، إنني (موجوع) - وهذه عبارته - وأريد أن أنام، وكرر كلمة (موجوع) لكي أتركه لشأنه وأخرج، قلت متعك الله بالصحة، أما أنا فإني جعفر الخليلي وسأزورك في وقت آخر، وما كاد يسمع باسمي حتى هب من فراشه، وأنا أقسم أن عينيه قد دمعتا وأقبلت عليه وأخذته بالأحضان وراح يقص عليّ ما جرى عليه، وطال جلوسي عنده وكلما حاولت القيام استبقاني، وأنا أخاف عليه من استمراره في الحديث وكثرة الكلام واستعراض أخبار الشدة عليه وعلى الناس ببيروت وكيفية محاولة السفير العراقي في جلبه.

وصرت أزوره بعد ذلك مرات في المستشفى وقد رافقني ذات يوم الصديق سالم الألوسي والحاج طالب الحاج فليح الذي حضرته أبيات مرتجلة فطلب الصافي مني أن أسجلها في دفتر كان هناك بمثابة التذكارات.. فكتبت أنا كلمة، وكتب الألوسي كلمة مثلها، وسجل الحاج طالب أبياته ثم نقله بعد ذلك الدكتور علي الصافي إلى بيته ريثما يهَيئ له داراً مستقلة وخادماً وطباخة وهكذا كان فقد نقل إلى دار عامرة وبدأ يزوره الناس فيها وزرته أنا فيها كثيراً. ولقي من الحكومة ومن السيد النائب قائد القوات المسلحة السيد صدام عناية مفرطة.

وفي ١٤ حزيران سافرت إلى لبنان وتركته في حالة غير مُرضية نقل على إثرها إلى المستشفى؛ إذ أصيب بجلطة دماغية فقد على إثرها وعيه، وفي يوم ٢٧ حزيران ١٩٧٧ صعدت روحه الشفافة إلى بارئها في المستشفى وشيع في اليوم التالي تشييعاً فخماً مشى فيه جميع أهل الفضل والأدب ودفن في مدينة النجف، وإذا لم يتسع لي أن أشارك في تشييعه بحضوري فقد شيعته عيناى بالدموع الغزيرة التي سكبتها حزناً عليه ليالي طويلة بلبنان فقد كانت الغرفة التي كنت أعدها له في هذا الفندق يوم يزورني مجاورة لغرفتي فما جئت إلى غرفتي ووقعت نظرتي على غرفته إلا وتمثل لي شخصه أمام عيني، وشييعه قلبي بتلك الذكريات العزيرة التي كانت الجزء الأكبر من نعيم حياتي ونعيم حياته هو كما كان يقول.

وقد مرت الآن سنون وستمر سنون أخرى إذا كتب لي أن أعيش سنياً أخرى وغاب عن ذهني كل شيء في الغالب، ولكن الصافي سيظل خالداً على صفحة الذهن والذي لن يغيب أبداً ولن تغيب ذكرياته العزيرة.

ولقد صدق الخطيب المعروف السيد جواد شبر حين قال في رثائه قصيدة من خرائد الشعر وروائعه إذ قال:

ما جئت أرثيك أو أجري الدموع أسي
قالوا القدمات، قلت اليوم مولده
واليوم يبدأ تاريخ له عبق
ما الحي مقياسه مر السنين ولو
إن الحياة بأفكار يخلدها
وأخذاً بيد العافي ومنقذه

إن الرثاء لشخص مات واندرسا
ونجمه قد تجلى يطرد الغلسا
وطيب تاريخه قد أنعش الجلسا
طال البقاء ولا ترداده النفسا
عبر العصور وغرساً صالحاً غرسا
سواء أحسن هذا أم إليه أسا



ما كان أحمد في عصر يعيش به
يعيش في الناس لكن روحه انفردت
سما إلى عالم أسمى بفكرته
فلا ترى معه في بيت عزلته

إلا كشعلة نور تحمل القبسا
عنهم كمن عاش بين الخلق محتبسا
لذاك مهما خلا في نفسه أنسا
إلا اليراعة - أم الشعر - والطرسا



إليه أبا الخالدات النيرات سنأ
هذي روائعك الغرا يرددها
أما وجهها اندفعت تتلو أشعتها
وذي الهواجس ما أحلى هواجسها
رفت تناعيك همساً في تدللها
أشعة في معانيها ملونة
والناظم الدر نظماً لا نظير له
والمرسل الشعر سهلاً غير ممتنع
إن كنت حلقت أو أبدعت لا عجب
أو أذعنت لغة الفصحى لروعته

والسائرات أقام الدهر أم جلسا
فم الزمان، ومن أنوارها اقتبسا
تجلو العقول ومنها تغمر اليبسا
تداعب الروح إن دقت لها جرسا
لطف الحبيب إذا ناغاك أو همسا
إشعاعها مشرق عن روحك انعكسا
بالشعر ينبوعه الصافي قد انحبسا
سلساله العذب يجري سائغاً سلسا
قرآن أحمد قدماً حيّر القسسا
وعاد منطيقها مستسلماً خرسا



زهدت في هذه الدنيا وزخرفها إذ أنت أرفع ممن يرتضي الدنسا
وكنت تهزأ ممن راح يعشقها ومن بأوظارها قد ظل منغمسا
نفسي ترى فوق هام النجم رفعتها وبزة إذ تراها بزة البؤسا
تريهم أن دنياكم وبهرجها كشملي هذه من سامها بخسا



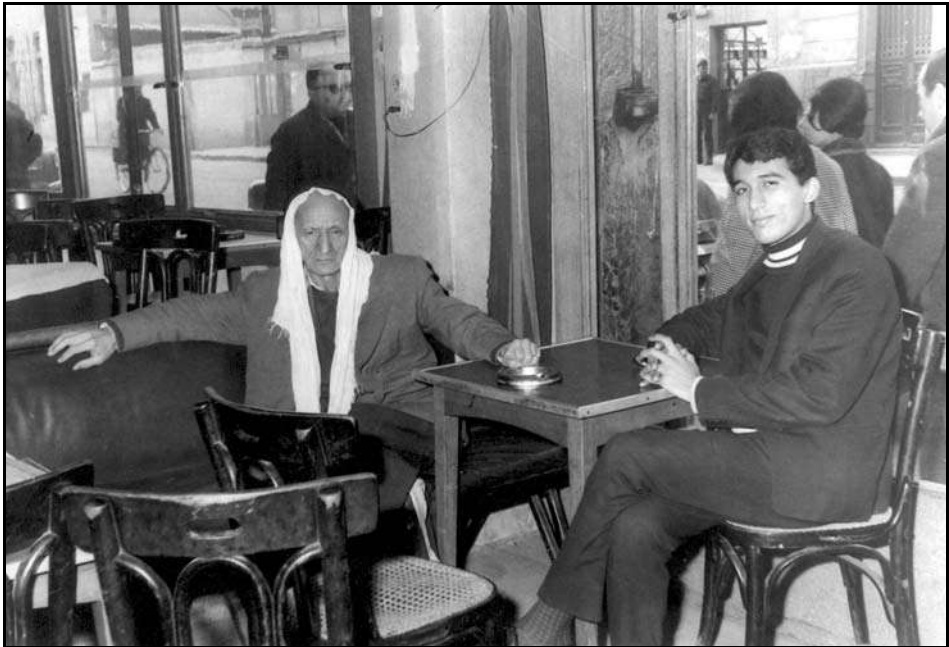
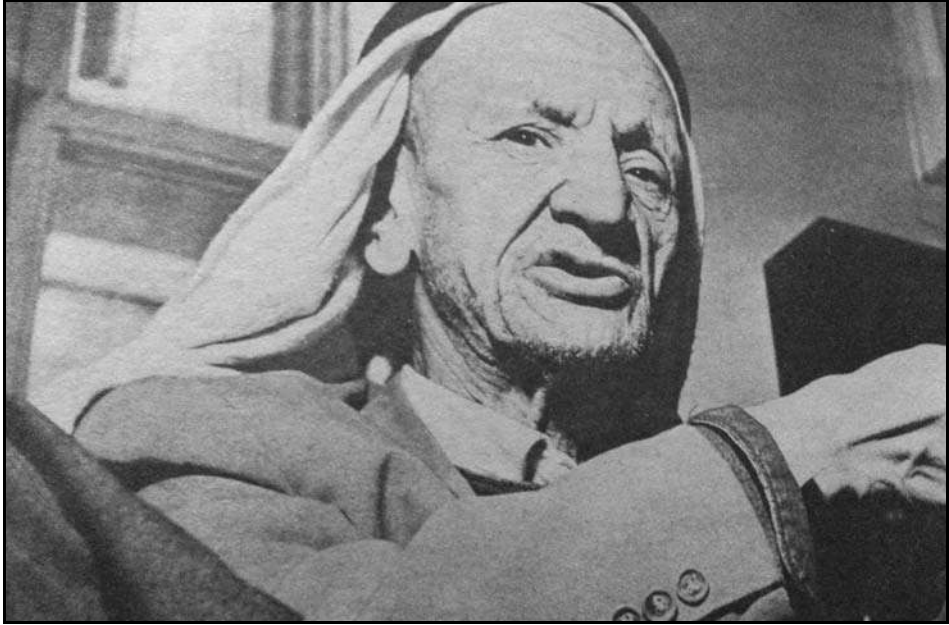
لاويت دهرك حتى رضت جامحه كمن يروّض في فرسانها فرسا
بعزمة شهد التاريخ واقعها ما كنت هيّابة يوماً ولا نكسا
عرفت دنياك مذ وازنت قيمتها وأنها عرفتك النيقد المرسا
وكم دعتك لوصل وهي ضاحكة لكن رأتك على ما تبتغي عبسا
رحماك ليست نفوس الناس واحدة إن خف ذاك فهذا في الوجود رسا

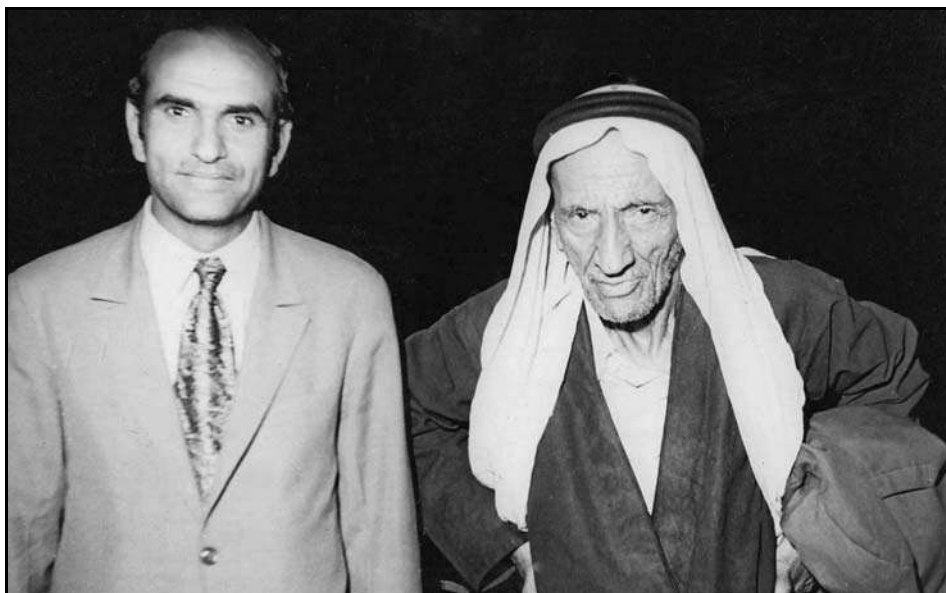


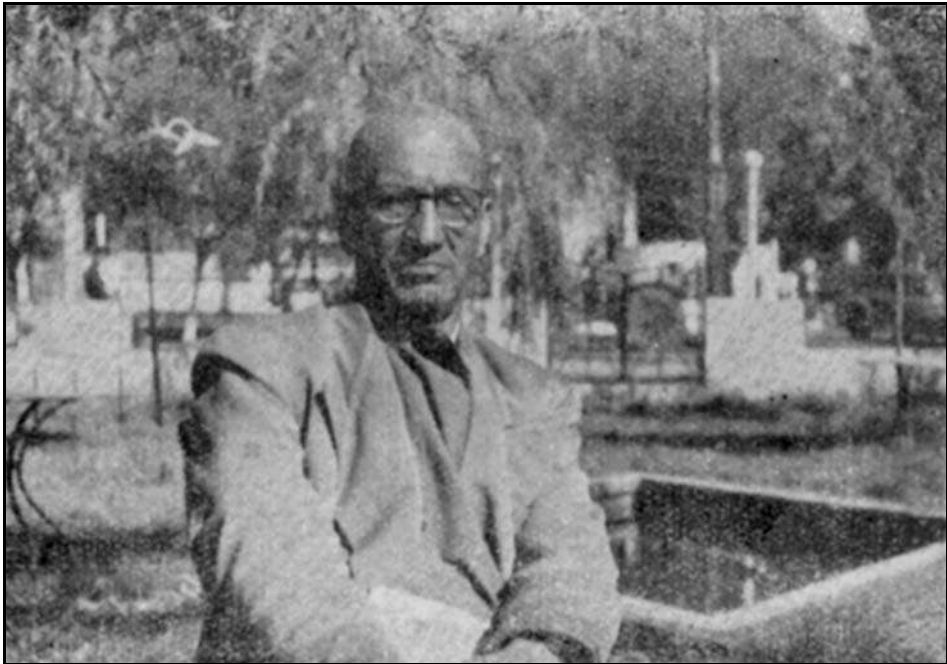
هذي الحياة وكم غذيتها حكماً غراً، وأرسيّت من أركانها أسسا
فكنت تشبعها بحثاً وتجربةً وكنت تنشرها درساً لمن درسا
وتوضح القول مجلواً ومزدهراً فلم يعدّ بعدُ فيها الأمر ملتبسا
دم للخلود فذي الأيام طوعك والدهر استلان وإن قدماً عليك قسا

جواد شبر

المصدر: الأستاذ جعفر الخليلي: هكذا عرفتهم - الجزء السادس،
انتشارات المكتبة الحيدرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، ص ٢٠٣.





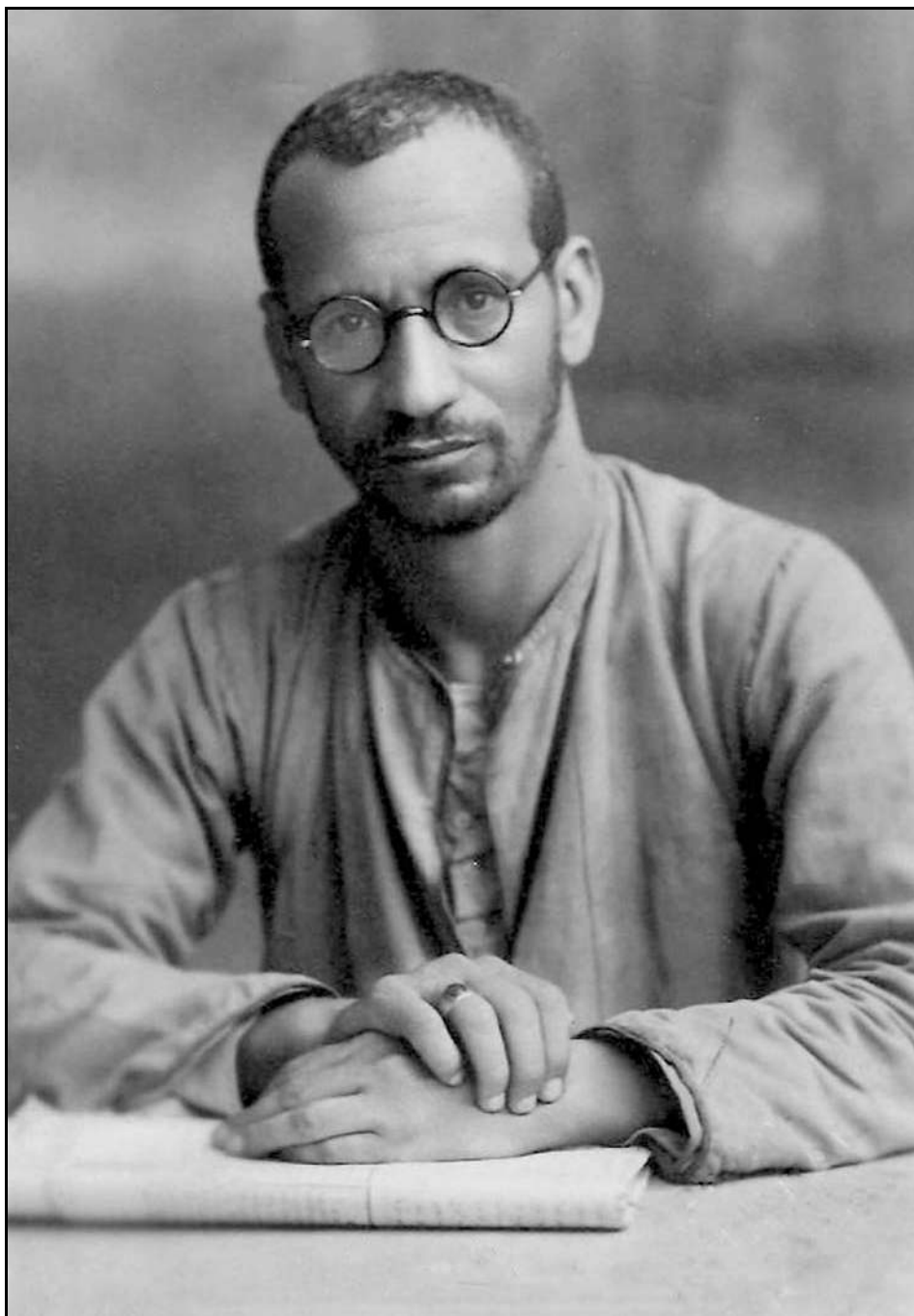














تاريخ صابو

كانت ولادتي في ١٨٩٦ في مدينة النخف من اب
ينتمي الى قبيلة «الابي شوكة»، العاطنة في عربستان
التي تابعة اليوم للحكومة ايران وعدوها عير
وعدد افراد القبيلة المذكورة يربو على ... سنة
وتصل نسبها الى الشيخ بابنبي العربي العظيم محمد
يكنى بركن جدي السيد عبد العزيز وطه الاول
منذ ثمانية سنة تقريبا واستوطن النخف
طلبا للعلم حتى اصبحت من كبار علماء عصره وفتيت
عائلته تتوارث الاشتغال بتلك العلوم
القدمة خلفا عن سلف
اما امي فهي كريمة المرحوم الشيخ محمد حسين الكاظمي
البحر المحمود واما جدتي لأمي فهي من اهالي جبل





المقطوعتان الشعريتان بخط الشاعر

بني والحجاج

يقولون بني سوف بعدو حجة × إذا ما طوى شخصي الفضاء المحقق
 يحج له عناق شعري موالكا × بقله هذا، وذاك يسلم
 وذاك لكفه عيس تبركا × احذر أله والبعض ساه يعظم
 وذاك بنتم الارض منه تيمنا × وهذا على ايامه يترحم
 فقلت وهل لي أربنت يفتي × وعمري طواف مر من وترام
 فبقي مقاه حجة وفنادق × أقيم لها حينا فاستقي واهزم
 وبني زوايا لا تعد سكنها × وروعن وصحراء بجالت أنعم
 ومرسى مقرئ كنت احلس فوقه × وشاطئ بحر فدها هنا واحلم
 وبقي خرابات بعري عمرها × احلى لها ابني الهدوء وأنظم
 سأتعيب عناتي طواقا ورحله × فنجد ذا اجنا، وذلك يتهم
 اري خط عناتي كخطي شردا × فأنهم شي كما انا منهمو!

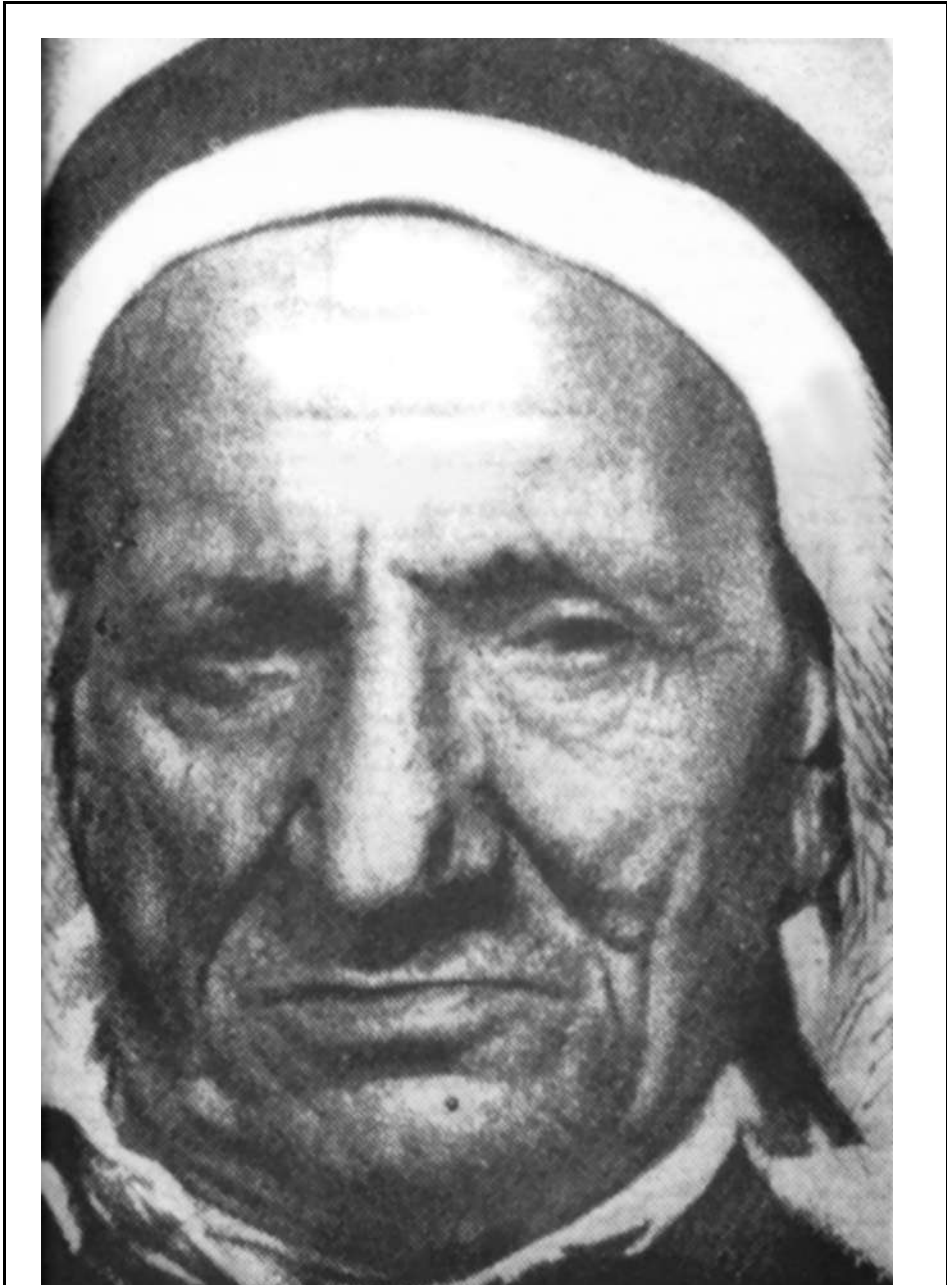
خضر هذا العصر

الحوف ولا اري لي من مقر بي صابح ليلى فيه النهار
 ولكن كلما تممت ارضا × بصير لها مقام واعتبار
 كاي الخضر تطوانا وسرا × له في كل ناحية مزار!

احمد الصافي النجفي

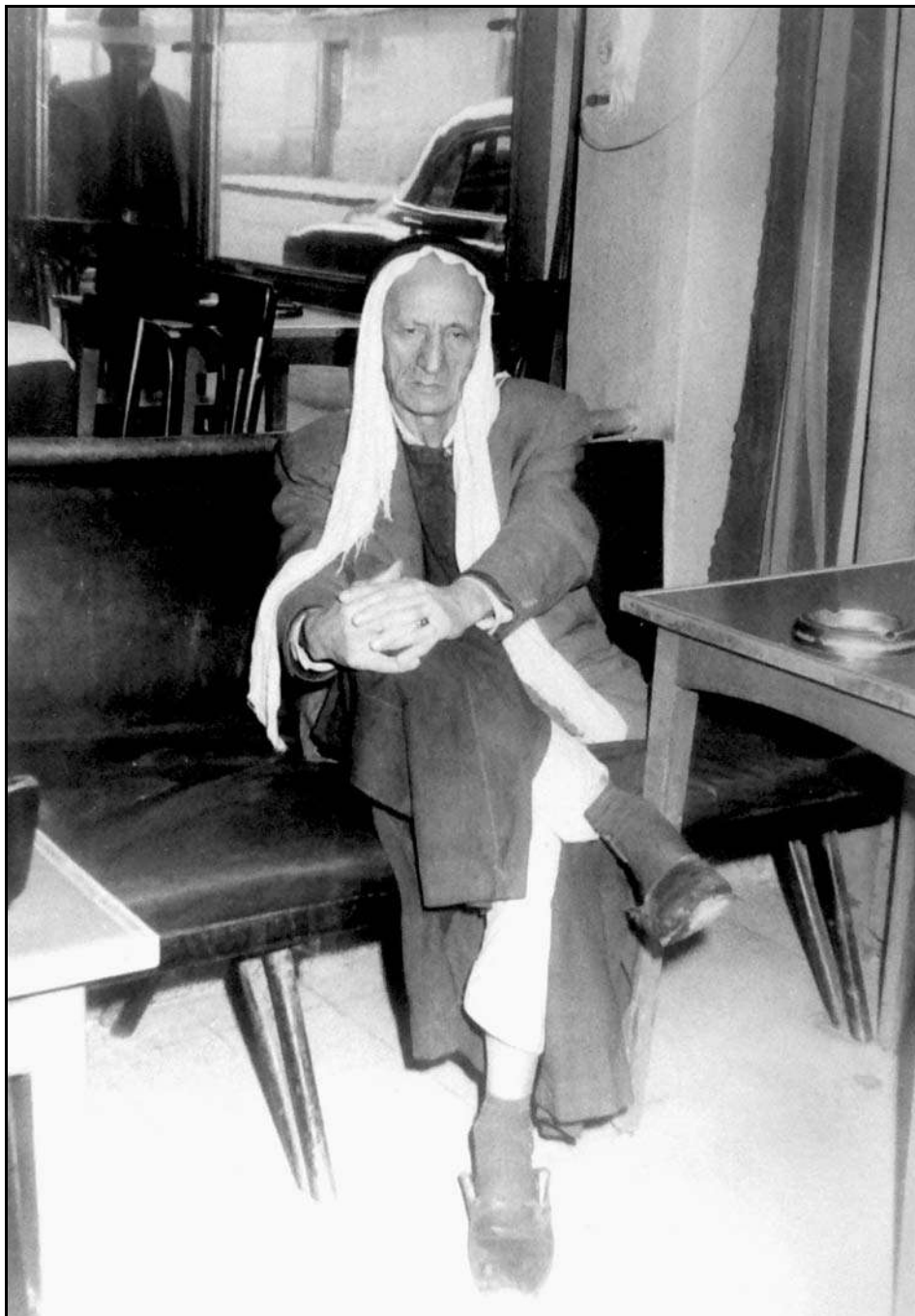
١٠ تشرين الاول ١٩٦٥



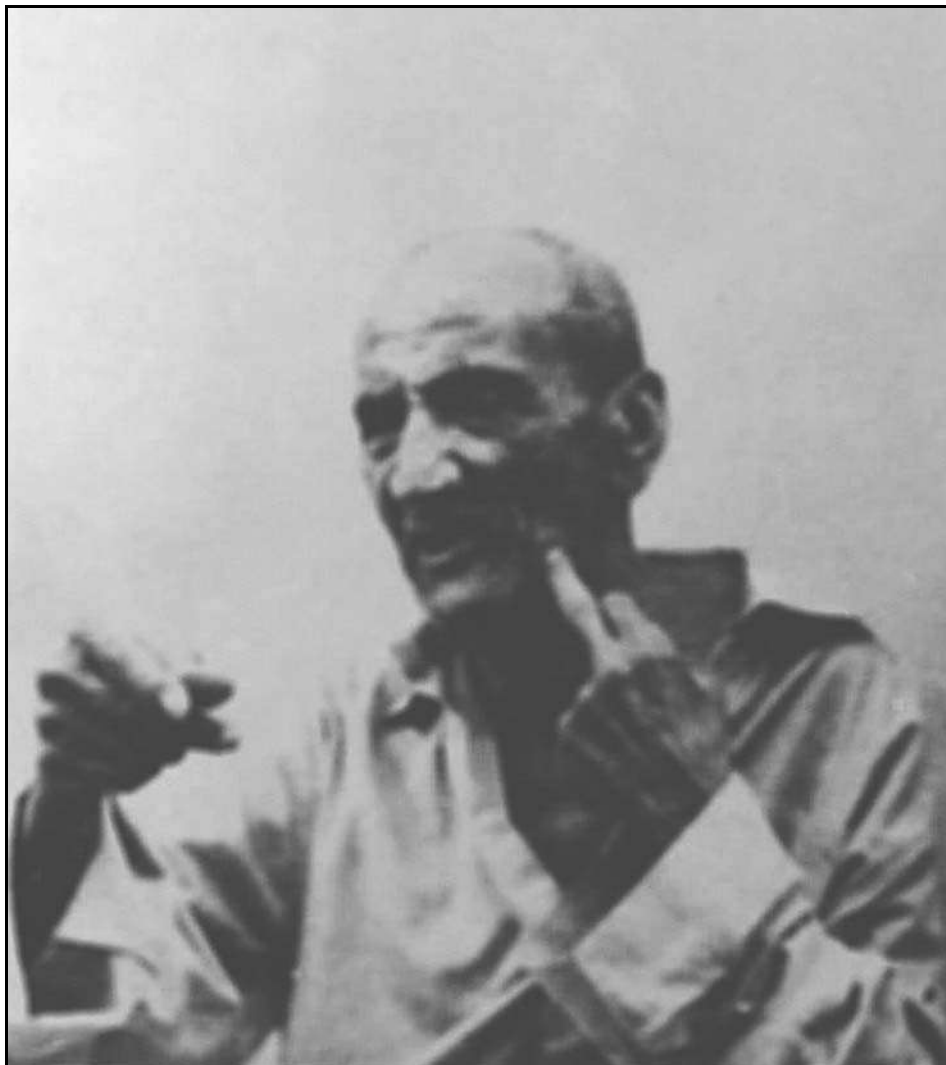
















التراث والذاكرة: إخراج معرفي لعلاقة جديدة(*)

د. بغداد عبد المنعم

يصحّ أن نقدّم رؤية تعريفية للتراث وللذاكرة، وأن نقترح مجالاً تفعلياً لحركتيهما معاً، خصوصاً أن العالم دخل في طور تقني، يختلف عن كل العصور السابقة؛ فقد باتت السرعات تضغط الجغرافيات وتترك التاريخ دون تواصل.

تحكمنا في لحظتنا الحاضرة أموراً مؤكدة، هي بمنزلة حتميات انبثقت من التطورات المتسارعة التي اجتاحت الأرض، ولعلنا الآن في مركز هذه الحتميات وزمنها، إنها نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين الميلادي، وهي كذلك العقد الأول من الألفية الميلادية الثالثة، وإسلامياً نكون قد دخلنا في الربع الثاني من القرن الهجري الخامس عشر، هذه الروزنامة المطولة تحاول أن تقول: إن اللحظات نفسها ليست هي التاريخ نفسه ولا المستقبل نفسه.

إذن هي روزنامة نسبية، أزمانها غير متكافئة؛ فالزمن الغربي (العالمي) هو المهيمن، وهو الذي أنتج التسارعات وأطلقها، وأنتج شيئين جديدين في تاريخ الأرض: المعلوماتية الإلكترونية والإعلام الجديد، وهي بعض من

(*) تغيبت صاحبة البحث لأسباب خارجة عن إرادتها، لكن البحث عرض في المؤتمر.

الحتميات التي تحكم (لحظتنا)، وتملؤها بإرادتها وقراراتها.

إذن هي روزنامة لا تؤدي زمناً فحسب؛ بل تشقّ عن فروقات ونسيات، فهذا الزمن نفسه لا يعود مهيمناً، ولا منتجاً حين يغدو زمناً عربياً إسلامياً! بل هو مُخزّنٌ بحمولاته التاريخية من الوزن الثقيل، وفيها تلك الأحمال التراثية، وهذا المخزون هو أمرنا الداخلي تراثاً وذاكرة، لا تنفع معه القطيعة ولا التجاهل ولا التسطّيح؛ لأننا من دونه نكون بلا (لحظة)، بلا لحظة قادمة تضعنا فوق الروزنامة الجديدة للعالم.

وإذا ما دخل (التراث) مبكراً في توظيفات ودراسات وفي مقترحات كثيفة، فإن (الذاكرة) بصفتها مفهوماً ومصطلحاً فكرياً ثقافياً لم تتبلور إلا مؤخراً، فخرج وتسرب من السرديات الأدبية والنص الشعري أكثر مما تجلّى مصطلحاً فكرياً أو مصطلحاً رديفاً للتراث.

وعملية لقاء (التراث) مع (الذاكرة) نستطيع أن نتصورها وكأنها مقارنة ما بين الراسخ العريض المتجذّر والأفق الفضائي المتحرك بسحبه وشعاعاته وعتقه المتغير من لحظة إلى لحظة، أو لعله مقارنة بين الحقيقي المتجسد واللامحدود، بين أمر تم إنتاجه وأمر حي مرتبط بالنبض.

هذه المقاربة بين (التراث والذاكرة) ستعتمد - إلى حد كبير - ما نعبئها به من رؤى تجديدية، ولذا لا بد من لحظة موضوعية مع هذين المفهومين، ولحظة تاريخية، ثم تعمد نقداً أو فتحاً جديداً أو محاولة سجل لصالح القرن الجديد ربما.

١ - التراث والذاكرة تعريفين تاريخيين:

لا شك أن كلا المصطلحين خلعا - إلى حد كبير - الثوب الخامي المعجمي، ودخلا في دلالات جديدة؛ غير أن ذاك النسج اللغوي البعيد سيمنحنا طريقة نوعية في التأصيل لوجودهما الراهن.

جاء في لسان العرب: «الوارث صفة من صفات الله عز وجل، وهو

الباقى الذي يرث الخلائق ويبقى بعد فنائهم، والله عز وجل يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، أي يبقى بعد فناء الكل، وقال الله تعالى إخباراً عن زكريا ودعائه إياه: ﴿...فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥ - ٦]، أي يبقى معي فيصير له ميراثي.

قال ابن الأعرابي: الوِثْر والوَرث والإِثْر والوِراث والإِراث والتراث واحد. والجوهري يقول: ... والتراث أصل التاء فيه واو.. ابن سيده: والوِثْر والتراث والميراث: ما وُثِرَ، وقيل: الوِثْر والميراث في المال والإِثْر في الحسب، وتوارثناه: ورثه بعضنا عن بعض قدماً، التراث: ما يخلفه الرجل لورثته، والتاء فيه بدل الواو..^(١).

وجاء في اللسان أيضاً عن الذاكرة «الذِّكْرُ: الحفظ للشيء وتذكره، والذكر أيضاً الشيء يجري على اللسان، والاسم الذكري، والذكر والذكرى نقيض النسيان، ويقال: اجعله منك على ذكر وذكر، أي تذكر، وقال الفراء: الذكر ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والذكر بالقلب، واستذكر الشيء: درسه للذكر، والاستذكار: الدراسة للحفظ. وذكرت الشيء بعد النسيان، والذِّكْرُ الصيت والثناء، ذكر الشرف والصيت، والذكر: الشرف، وفي التنزيل ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمُكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أي «القرآن شرف لك ولهم»، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، أي شرفك، والذكر: الكتاب، وكل كتاب من الأنبياء ﷺ ذكر، والذكر الصلاة، والذكر قراءة القرآن، والذكر التسبيح، والذكر الدعاء، والذكر الشكر، والذكر الطاعة، وقوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِىَ الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]. أي ذي الشرف، وفي صفة القرآن الذكر الحكيم أي الشرف المحكم العاري من الاختلاف^(٢).

إذن تحمل هذي المعاني الخامية أطيافاً ترتبط بـ (التراث) وبـ (الذاكرة)؛ فالتراث ثم أكّدت جوهرية معناه من كونه حالة مستمرة لا نهائية للخلق والكون، ومن كونها ميراثاً نهائياً لله سبحانه وتعالى، وجرت في نسيج المعاني المعجمية كلمة (التوارث)، وهي حالة الاستمرارية في هذا الفعل، بل حالة الاستمرارية المجتمعية.

وفي أطياف (الذاكرة) المعجمية نلمس ارتباطها بالحفظ وبالكلام، ووسم القرآن الكريم بـ (الذكر) ليظل ذاكرة دوماً، ونفي النسيان مطلقاً عنه؛ تلك الصفة المرتبطة بالإنسان أيضاً.

ما ذكرته من ظلال تاريخية هو ما أظن أنه روحٌ ظلت قائمة في المصطلحين، روح من التجربة العربية القديمة، وذلك على الرغم من أن رياحاً غربية لا يتعدى أقدمها بداية القرن العشرين هي التي سلطت الأضواء في البدء على (التراث) محولة إياه إلى مصطلح حمل بتعريفات وتوظيفات، ولاحقاً في (الذاكرة).

فكلمة (تراث) قديماً لم تتضمن إراثاً ثقافياً أو فكرياً، وذلك حتى خطاب اليقظة العربية الحديثة منذ بداية القرن التاسع عشر، وكذلك فإن المصطلح المستورد من اللغات الغربية الذي قمنا بترجمته (Heritage) لا يحمل المضامين والشحنات الوجدانية والأيدولوجية التي خضعت لها كلمة تراث العربية والنهضوية إن صح التعبير.

وإذن فإن التراث بمعنى الموروث الثقافي والفكري والعلمي والديني والأدبي والفني، هو المضمون الذي تحمله هذه الكلمة داخل الخطاب العربي المعاصر مع النفحات الوجدانية والأيدولوجية، ولم يكن شيء من ذلك موجوداً، سواء في الدلالة العربية القديمة لكلمة (تراث) أم في المصطلح المستورد المترجم.

٢ - التراث.. من التناول إلى النقد:

خلال الربع الأخير من القرن الماضي صدرت الكتب والبحوث الفكرية حول (التراث) في سياق حضوره النهضوي، كان من أهمها وأكثرها شيوعاً على امتداد المنطقة العربية بحوث ومؤلفات حسن حنفي ومحمد عمارة، ومحمد عابد، الجابري، ومحمد أرغون^(٣)، وحسين مروة، والطيب تيزيني، وعبد الله العروي، وأحمد برقاي، وآخرون ليسوا أقل اجتهاداً

وبحثة. وأضيف أن هذا المصطلح نمت بقربه فروعٌ ودراسات من سلالته مثل: أنساق الأبحاث التي تندرج تحديداً في (تاريخ العلم) The History Of Science، ومنها أبحاث في تاريخ العمارة والمدينة وتاريخ الطب وتاريخ الصيدلة وتاريخ الجبر، وظهرت كذلك أبحاث تتعلق بـ (التراث غير المادي) وهو تعريف تراثي وجهت به اليونيسكو^(٤).

و(التراث) ضمن هذا التوضيح والتوسعة احتفظ أكثر من السابق بالبعد التحميلي من كونه إراثاً مشتركاً عربياً معرفياً وأيديولوجياً بأساس عقلي. ولكن ما شكل حضور التراث بصفته معرفة في الثقافة العربية الراهنة؟ وهل كان ثمة اقتراح من ذلك الحضور بربط التراث بالذاكرة؟

حضر (التراث) - ويحضر الآن - بعدة أشكال تمثل الطريقة التي تم الاشتغال بها عليه، (كي يتم تحويل الموضوع التراثي إلى كائن معرفي موجود منتج)، كان من هذه التجسيديات المعرفية التوظيف الأيديولوجي للتراث، والفهم التراثي للتراث^(٥)، وهما شكلان شديداً الوضوح والحضور في الوضع التراثي الراهن.

ولئن كان التوظيف الأيديولوجي للتراث قد حوله إلى ذخيرة في مواجهة فإن الحضور التراثي للتراث لم يشكل إلا قراءة دائرية ضيقة تخرج من النص لتدل عليه من جديد في استسلام مطلق لأهدافه وأساليبه ومشكلاته، وحتى للغة!! والشكلان افتقدا إلى تخليق حوار مع التراث من موقعنا الزمني والتقني، يعانيان من فقدان كبيرين: النقد والنظرة التاريخية.

أما الشكل الثالث من الحضور المعرفي للتراث فلعله الظهور الأقدم والأعمق تأثيراً في المستوى البحثي، كان ذلك هو الحضور الاستشراقي الخارجي للتراث، وقد تشكل باحثوه ومنتجوه من المستشرقين وتلامذتهم العرب الذين تخرجوا في المراكز والجامعات الأوروبية^(٦).

من التناولات النقدية تلك التي اهتمت بتقسيم التراث إلى مستويات أربعة: (الفكر المنتج للتراث والفكر المستغل للتراث والفكر المستهلك

للتراث - الفكر الدارس والمبْلَغ للتراث^(٧)، وهي تقسيمات مهمة وتشريحية للباحث المفكر محمد أرغون، حاول من خلالها أن يضع التراث وإنتاجاته في سويات كبيرة متداخلة في معظم الأحيان، وقد جعل السوية الأولى تمتد حتى القرن الخامس الهجري، وحَمَّل هذه السوية بأداءين كانا موجودين معاً: الأداء التقليدي النصوصي، والأداء الإبداعي الذي أنتج النصوص العربية الجديدة مثل نص الجاحظ، ونص الفارابي، ونص البيروني، ونص ابن رشد، والنظريات الرياضية الجديدة عند الخوارزمي، والجبرية والهندسية عند الكَرْجِي.

ويرى أرغون أن ثمة إبداعاً تأسيسياً كان قائماً في السنوات الأولى للهجرة، التي احتملت كمّاً كبيراً من التجارب والحوارات والمبادرات والنقد، هي التي أنتجت المجتمع الجديد في المدينة والقاعدة الأولى من الفكر المنتج الذي استمر تأثيره حتى الآن.

لقد اهتمت هذه الطبقة من مفكّري نهاية القرن العشرين العرب بتصنيف الأشكال المعرفية الحداثوية للتراث ونقدها؛ فمهدت لنا دروباً مقاربات، كيما نحاول الرؤيا لزمن تتسارع أحداثاته وتقنياته.

ولعلنا نلاحظ كيف أن تلك الأشكال المعرفية المعاصرة التي تناولت التراث لم تهتم بالتحميل من التراث إلى الذاكرة، وأعتقد أن السبب في ذلك يعود - منذ قرن من الزمن حتى الآن - إلى أن التعامل مع التراث - سواء كان داخلياً (الشكلان الأيديولوجي والتراثي للتراث)، أم خارجياً (الاستشراقي وامتداداته) - لم تشكل ناقلاً حياً للنض التاريخي، فبقيت كل الأشكال السابقة خارجية بالمعنى الجوهرية؛ فلم تتعامل مع الجزء الحي الباقي من التراث المحمول مع الإنسان (الذاكرة).

وإن فتح القنوات بين التراث والذاكرة، وبناء قنوات جديدة تعني - إلى حد كبير - الوصول إلى المعنى في النص التراثي من النص ذاته، وتجاوز التحميل المسبق، سواء التراثي أم الأيديولوجي، ثم التحليل

التاريخي من خلال ربط النص بمجاله الزمني وبمرجعياته الثقافية والسياسية والاجتماعية، وذلك لأجل تأصيل حضور هذا النص في صورة جديدة، وبعلاقات جديدة من أجل أن يكون معاصراً لنا.

اللحظة الراهنة في تاريخنا العربي الحديث ما زالت لحظة نهضوية، والنهضة لا تنطلق من فراغ؛ بل لا بد لها من الانتظام في تراث، الانتظام في تراثنا بعد إحضاره إلى لحظتنا عبر الدروب العقلانية والنقدية الواعية لهذا الزمن الجديد الحساس بملاساته الشديدة.

٣ - مقارنة من مصطلح (الذاكرة) بوصفه رديفاً للتراث:

تتقاطع مع كلمة (الذاكرة) فروع علمية منها: علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ وعلم الآثار والجماليات والبيولوجيا والتربية.

وقد أدى هذا التنوع إلى ذهاب البحوث في مسارات كثيفة ويختلف بعضها عن بعض؛ فهناك المستوى السيكلولوجي والمستوى البيولوجي، وفيها بعدان: البعد العصبي الفيزيولوجي والبعد البيوكيميائي، وهناك المستوى السبراتي (مدخل النظم).

في التعريفات العريضة للذاكرة هناك: التذكر ثم الاحتفاظ ثم التعرف ثم الاسترجاع ثم النسيان، وثمة عملية مهمة عالية تستخدمها الذاكرة هي (الترميز)، وقد عرفت السيكلولوجيا بأنها سلسلة من العمليات المنطقية تؤدي إلى الاختزال والإبقاء على ما هو جوهري فقط.

من الأشياء الطبية المتعلقة بـ (الذاكرة) وجود جهاز دماغي متخصص يقوم بوظيفة استقبال المعلومات وتحليلها، وإجراء المقارنات بين المعلومات الجديدة الواردة والمعلومات السابقة المختزنة.

فالذاكرة هي الخاصية الأكثر أهمية للجهاز النفسي للإنسان، تعالج التأثيرات والمعلومات وتُرْمِزها وتحفظ بها، حيث تستخدم في السلوك

المقبل عند الحاجة، والذاكرة هي التي تضمن وحدة الشخصية وكيّتها. إذن، فإن التعقد التدريجي للسلوك والارتقاء الدائم به يتحقق بسبب تراكم الخبرة الفردية والنوعية والاحتفاظ بها، والسلوك (بما فيه السلوك المعرفي وفضاؤه الواسع من الأداء الثقافي الخاص والعام) تحدده الخبرة السابقة، أي (الذاكرة) من خلال تأزرها مع التفكير واستخدامها لطرائقه وآلياته.

دور الذاكرة لا يقتصر على تسجيل ما كان في الماضي فقط وضغطه؛ بل يتفاعل دورها في أي فعل حيوي نريد القيام به في الوقت الحاضر؛ لأن الفعل وجريانه وتحقق أهدافه يتطلب بالضرورة الاحتفاظ بكل عنصر من عناصره لربطه بما سبقه وبما سيأتي بعده، وبدون هذا الربط فإن التعلم والتطور غير ممكن، وإن مصطلح الذاكرة (MEMORY) يشير إلى الدوام النسبي لآثار الخبرة، وبدون التعلم والتلقي يتوقف تدفق المعلومات من خلال قنوات الاتصال المختلفة، وتتحول الذاكرة إلى (ذاكرة اجترارية).

ونلاحظ أن الذاكرة تعتمد (التصوير السمعي)؛ فحتى لو دخلت على شكل صور بصرية أو لمسية أو سمعية؛ فإنها تترجم أو تحول إلى صور سمعية إذا كانت قابلة أو سهلة التحول إلى ذلك، ولعل السبب في ذلك هو أن خبرات الإنسان تتحول بطريقة أوتوماتيكية إلى (كلام)، والكلام سرّ بقاء الخبرة محفوظة إلى (الأبد)، والذاكرة طويلة المدى تخضع لقوانين التفكير^(٨)، وهي بدورها تساند التفكير.

سطعت هذه الكلمة على نحو لافت منذ بضعة عقود على أبعد تقدير، وليس منذ وقت مبكر، كمصطلح (التراث) الذي جلس على عرش خطاب النهضة العربية وما زال.

خرجت كلمة (الذاكرة) كحالة قائمة بذاتها من النص الروائي والشعري قبل أن تتسلل إلى بعض النصوص الأخرى كالسيناريوهات التليفزيونية والسينمائية والبرامجية، وكذلك بعض النصوص الخاصة الذاتية، وكذلك

قبل أن تدخل على استحياء في عناوين أبحاث اجتماعية تاريخية، لكني لم أجدها بوصفها مصطلحاً مرتبطاً بالتراث، ويبدو أن هذه العملية الرابطة بينهما هي موضوع هذه الورقة أو محاولة في تأسيس ذلك.

الذاكرة شاسعة وماصة تشبه لوحة السماء، باقية لكنها غير ثابتة، تعزيزها وإغناؤها يكون بتصعيد دور المثقف المبادر والمشكّل للغة أحياناً، والمتحرك بين الرسوخ التراثي العالم المكتوب، وبين التراث غير المادي ذي الامتدادات الشعبية والمحلية الكبيرة، وبين الذاكرة الحامل النهائي للغيوم والسحب والعناصر الآتية من تلك الأرض.

وحقاً إن (الذاكرة) بوصفها مصطلحاً فكرياً لم يجر التعامل معها في الحقول التراثية والفكرية البحثية؛ غير أن وجودها قائم بالطبع. وقد تشكلت الذاكرة العربية بوصفها واقعاً ذهنياً، وأداءً مباشراً للمجتمعات العربية كمجموعة من التصورات الغامضة والمفككة غير المتواصلة.

وفي أحسن الأحوال حملت الذاكرة (شكلاً تراثياً ما)، وحملت المجتمعات العربية الأداء الناتج عنهما على أنه مجموعة من التقاليد والأخلاق، ثم إطار من الأحكام والشرائع التي استنبطتها الأئمة المجتهدون، وكذلك بوصفها مجموعة من الخبرات الشعبية المتوارثة من الحرف والفنون، وهو المعنى الذي سلطت اليونسكو عليه ضوءاً كثيفاً.

وعلى الرغم من أنني لم أجد تعريفاً عربياً للذاكرة رديفاً متفاعلاً مع التراث، إلا أنني وجدت انطباعات ذاتية في تقديم عابد الجابري لكتابه «حفريات في الذاكرة»؛ يقول: «... وبما أن وقائع الحياة الشخصية، وكذا الاجتماعية العامة تتحول بمجرد وقوعها إلى ذكريات في نفس الإنسان، تتراكم مع مرور الزمن وتتدافع ويغطي بعضها بعضاً أو يخنقه أو يمحوه أو يلغيه؛ فإن ما تبقى صامداً بعد استبطان وتأمل أشبه ما يكون بالقطع الأثرية التي تمكنت بهذه الدرجة أو تلك من مقاومة عوامل التحلل والاندثار، وسط ما تراكم حولها من مواد لا أثرية ولا تاريخية...»^(٩).

وفي كتابه السابق أيضاً عند حديثه عن النص المستند إلى الذاكرة بأنه «عملية تتعاون على تحقيقها عدة عناصر: هناك أولاً السياق الذي توضع فيه الذكرى، وهو مجرى حياة يعاد بناؤه، وتقوم فيه الذاكرة بدور، ويقوم فيه العقل المحلل والمؤول بدور آخر، وهناك ثانياً الدلالة الاجتماعية والنفسية للذكرى في علاقتها مع مكوناتها الخاصة بعداً إنسانياً يُحيل إلى الإنسان بوصفه إنساناً، وبعداً اجتماعياً يُحيل على مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي، وهناك ثالثاً لغة العرض وأساليب التأويل...»^(١٠).

من السهولة أن نلاحظ أن ما قصده المفكر الكبير هنا هو الذاكرة الذاتية المحدودة بحياة الإنسان، وهي جزء من التجربة العربية المعاصرة مع الذاكرة، تعاملت بها - إلى حدٍ ما - مع الذاكرة الآنية، سواء كانت فردية أم جمعية.

لكنّ هذا المعنى ينزاح عن موضوع هذه الورقة، الغني بذاكرة تواكب تراثها الهائل الطويل، ليست آنية ولا قصيرة، ولعل تجربة الجابري هي نصّ في الذاكرة الآنية، وثمة ومضات في النسق نفسه استندت إلى الذاكرة الحياتية، أو لعلها السيرة الذاتية؛ فلا يغيب عنا (خارج المكان) لإدوارد سعيد.

وكانت تجربة أمين معلوف في الرواية التاريخية التي مَنَحَتْ من التراث العربي الإسلامي تجربة نوعية تقاطعت على منطقة تجمع بين التراث والذاكرة والأدب والنفحة الاستشراقية، وأعتقد - مبدئياً - أن هذا الحضور الأدبي المُهَجَّن الذي فيه ناتج معرفي تراثي لم يُسهم في إعادة بناء ذاكرة عربية، وهي أعمال تحتاج منا إلى عملية نقدية طويلة.

أخيراً - والأخير هنا هو الأشد قرباً من موضوع هذه الورقة - تأتي (تجربة جمال الغيطاني)، وهي الأشد أصالة في نص أدبي جَسَرَ ما بين التراث والذاكرة، وشكّل نصّاً روائياً معاصراً.

ولعل محوراً عنوانه (الغيطاني والذاكرة) هو موضوع يستحق التعمق وحده بخصوصياته في استحضار بقايا الوجود من ثنانيا الزمن، وإعادة خلقها في نص جديد، يقول الغيطاني: «أيُّ قانون خفي يحكم الذاكرة - ربما - ينظم مضمونها، يخفي ما يخفي، ويظهر ما يظهر، يدفع بهذه الملامح إلى بؤرة الوعي ويخفي اسم صاحبها، أو يسمح للاسم بالظهور ويطمس الملامح، الإفصاح عما احتوته اللحظة الشاردة وإفناء حقب حميمة ظننتُ أنها لن تبيد أبداً، أي ترتيب؟ أين؟ من يرتب؟»^(١١). أسئلة إشكالية ضوئية! والأدب يطرح الأسئلة الكبرى وحين يحاول الإجابة، أو حين نحاول الإجابة، قد نحصل على تجربة نوعية غير مسبقة، في كنه (الذاكرة)، كما يمكن أن تُهندس القنوات بينها وبين التراث.

وقد قمت بكتابة عدد كبير من النصوص الطويلة والقصيرة المنشورة في كتيبي أو في المجلات والصحف تتصل بأمرين معاً: تاريخ العمارة، وذاكرة المدينة^(١٢).

٤ - الشكل الاستشراقي.. لم يؤسس شيئاً في ذاكرتنا:

حازت النهضة الحضارية العربية الإسلامية، واكتنرت المخزون الثقافي العلمي الكتابي والبشري لكل المناطق المفتوحة إسلامياً، وللمناطق التي بقيت متاخمة لحدود الدولة الإسلامية، وذلك بدءاً من مخزونات متشابكة ومتقاطعة ما بين اليوناني واللاتيني والسرياني ثم الفارسي والهندي، وكثير من جيوب مهمة لثقافات قديمة جداً كانت ما تزال قائمة بتراثاتها وكتبها وأطبائها وعلمائها، ولعل هذه العمليات النقلية والاستيعابية استغرقت القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة، ليبدأ بعد ذلك الانبثاق الإبداعي الخاص بالحضارة العربية الإسلامية.

لقد جرت عملية حيازة بعد ذلك بقرون عديدة؛ ولكن بشروط وظروف تختلف عن ظروف التجربة العربية، أدت إلى أن المخزون المخطوط العربي

الهائل انتقل تجاه أوروبا، وكان لهذا الانتقال نقاطه الجغرافية وأزمته المختلفة، فقد حدث مبكراً بسبب المجابهات خلال الحروب الصليبية، ثم من خلال نقاط أندلسية، واستمرت هذه الانتقالات مدة طويلة، وربما حتى الآن.

هذا الانتقال للمخزون العربي لم يخضع للترجمة فقط، كما حدث قبيل النهضة الإسلامية من ترجمة للتراث اليوناني والفارسي؛ لكن الفرق هنا أنه دخل في جهد بحثي غربي هو (الاستشراق)، وقد أنتجت هذه المرحلة كماً و(نوعاً) من الدراسات والأبحاث التي قامت على التراث العربي خارج أرضه، أي قامت على المخطوطات بكل أنواعها وحُوّلت نتائجها تجاه أهداف غربية نوعية، ولم تكن الحالة العربية الإسلامية الواقعية لتعني شيئاً للغرب، سوى جغرافيا غنية بالخامات، وخصوصاً حين تراجعت السلطة الدينية في أوروبا وتقدمت السلطة الصناعية، ومن ثم برزت الرأسمالية، حتمية قديمة جديدة تحكم جزءاً من تاريخ الإنتاج المعرفي للتراث العربي.

إنها الطريقة أو الآلية أو الذهنية التي استطاع الغرب أن يصدرها إلينا في دراستنا لتراثنا، وقد تم تقديم هذه الذهنية وتفعيلها في مرحلتين متتابعتين: الأولى الدراسات والأبحاث الاستشراقية ونتائجها، وهي التي حملت إلى المرحلة الثانية، وخلال هذه المرحلة المباشرة والحديثة من الوجود الغربي في النطاق العربي الإسلامي منذ العقد الثاني من القرن العشرين وُضعت نتائج الاستشراق البحثية إلى جانب تأسيس كليات ومراكز علمية ذات طابع غربي.

وفي مرحلة لاحقة جرى إعداد كوادرات درست تحقيق المخطوطات وإعداد الأبحاث عنها بإشراف أوروبي؛ لتؤسس بضع مراكز بدأت تهتم بدراسة التراث العربي بأسماء وعناوين متفاوتة الأهمية، بدءاً من (تاريخ العلم) إلى تشكيل تاريخات فرعية، مثل تاريخ العلوم الهندسية، وتاريخ العلوم الطبية، وتاريخ العلوم الأساسية، والآثار.

وقد أنجزت أبحاث ودراسات، لكنها لم تنضو حتى الآن تحت استراتيجية بحثية موحدة، تمتلك ما لديها من أوله إلى منتهاه، وتبدأ بتحقيق أهداف هي واضعُتها.

إذن من دائرة مفهوم العالمية انبثق (الاستشراق) بوصفه منظومة تفكيرية ثقافية، ولسنا هنا في موضع التعمق في الاستشراق، لكن كان لهذه (المؤسسة) تأثير كبير جداً في الثقافة العربية المعاصرة، وخصوصاً أنها غاصت في النتاج الثقافي المخطوط للحضارة العربية الإسلامية (والتراث المخطوط هو أضخم وجود مادي من هذا التراث)، وأخرجته هي - أول مرة - مطبوعاً ومنشوراً بكثافة، أخرجته مؤسسة الاستشراق بآلياتها البحثية واستراتيجياتها الثقافية، فقد أطلت بقوة على (تراث هائل)، أطلت عليه من نوافذ الأندلس، ومن نوافذ عسكرية أخذت كثيراً بعين النظر العالمية الأوروبية، وذلك بعد مفصلين حاسمين عرييين إسلاميين: مفصل حطين، ومفصل عين جالوت.

لعل التناول (الجديد) للتراث يحتاج إلى إعادة قراءة للدراسات الاستشراقية، استناداً إلى نمط بحثي نقدي وعنوانات تجديدية، وإلى تقسيمات زمنية علمية وثقافية.

إن تجاوز الشكل الاستشراقي من تناول (التراث) بدأ وتبلور من تصنيع منهج نقدي وبناءه لهذا الشكل، يتجاوز الصدمات المسبقة الخارجية. فالاستشراق ولد من رحم العالمية الثقافية التي حققت لها الوحدة والاستمرارية، وأضحت هي التاريخ العام الرسمي للفكر الإنساني كله بمنبعه الوحيد الذي صيروه لها، أي المنبع اليوناني، في تجاهل مستمر ودائم للوجود الحضاري الشاسع والمؤثر لباقي الحضارات في العالم، ويبدو أن هذه العالمية المتطرفة لم تقبل أخيراً إلا بجعل منسوبه وإحداثياته في مواقع هامشية ومعزولة.

وعلى الرغم من أنَّ ثمة اختلافات منهجية رافقت مؤرخي الفكر في أوروبا ومنهم المستشرقون، فإنهم ظلوا يتحركون داخل إطار المركزية الأوروبية بكل ما نتج من سلوكهم ومناهجهم المختلفة التي امتدت من المنهج التاريخي إلى المنهج الفيلولوجي (تحقيق النصوص اليونانية أو اللاتينية) إلى المنهج الفردي.

وهكذا التصقت بـ (التراث العربي) صوره عصرية استشراقية لم يشارك فيها المستشرقون فقط؛ بل جيل من الباحثين العرب، تبعهم واقتفى أثرهم، وأحياناً بمعنى يعكس مظهراً من مظاهر التبعية الثقافية، على الأقل على صعيد المنهج والرؤيا.

ولم يسهم الاستشراق في بناء أية ذاكرة تتعلق بتراثنا، وهذا باعتقادي طبيعي؛ لأن العملية الاستشراقية على التراث بقيت عملية خارجية وورقية، غير معنية بالإنسان ولا بالذاكرة المجتمعية، والذاكرة وبنائها مهمة داخلية عظيمة لا تعني إلا أهلها.

ولن أتطرق مطولاً إلى ما تركته العالمية الثقافية - ومن ضمنها الاستشراق - من خطوط عريضة أخفت وراءها إمكانية الحضور الحقيقي للتراث العربي، وربما غيره من تراثات العالم، من هذه الخطوط العريضة المشهورة: تقديس المصدر اليوناني إلى درجة تحويله إلى مصدر مقدس حضاري ووحيد، وتحويل رموزه إلى أيقونات علمية وميثولوجية وشعرية.

وقد تبعنا ذلك الخط وآمنا به وتسربت إلى ذاكرتنا السطحية معظم أيقوناتهم الفنية والفلسفية وغيرها، وكأن ذلك أمسى قدراً مقدوراً أو أمراً مفروضاً منه، في حين امتلك التراث العربي أيقونات شديدة اللمعان في الشعر الملحمي والشعر الرومانسي، والإنجاز الهندسي والمعماري، لم يتم تثبيتها وتفعيلها في ذاكرتنا.

إن عملية الانتقال من الوجود التراثي السكوني إلى معرفة تراثية حركية

تعيد بناء الذاكرة، هي عملية شديدة التفاصيل وشديدة التخصص، أكاديمية بمقدار ما هي نضالية، هي عملية نقدية طويلة الأمد لـ (العالمية الثقافية) بقصد تقديم تعريفات جديدة أكثر عدلاً ودقةً وعلمية.

٥ - فقدان البحوث الاستراتيجية التراثية:

طوال قرن وكنا نتوجه إلى (تراثنا) توجهاً عشوائياً أو ارتجالياً أو شخصياً، ولعل أمراضاً بحثية عدّة اعترتنا، بعضها انقضى، وأكثرها باقٍ حتى الآن.

أبحاث ودراسات وكتب ومخطوطات حققت، كل ذلك داخل في دائرة التراث العربي دون أن يحزمها أو يطلقها في اتجاه محدد، أو دون أن تكون هناك مرجعية تراثية واضحة لتقييم هذه الجهود البحثية، وبقي الأمر كأنه مجرد هواية إضافية أو زخرفة ثقافية، في حين أنّ أهميته الآنية والكامنة التي يمكن إطلاقها بأصوليات مرجعية بحثية عربية وبوعي علمي وموضوعي للحتميات التي تحدثنا عنها التي هي حتميات خارجية لا فكاك منها. إن إطلاق هذه الأهمية بهذه الصفة يتجاوز أهمية البترول الكامن في الأرض العربية.

إذن هذه الأبحاث الانتقائية والارتجالية من داخل التراث العربي بأبعاده الكثيفة والعريضة، هذه الأبحاث المتسعة وغير المترابطة مع بعضها لم تستطع أن تحقق حضوراً منهجياً واضحاً، ولم تؤد إلى ظهور طرائق بحث أو مدارس؛ فحتى الآن لم يظهر شيء من ذلك الذي يؤدي إلى تكوين الهيئات والمرجعيات الرصينة، التي توجه البحث، وتمنحه المحاوريات العامة، وتمتلك أن توجه نتائجه؛ فهي في النهاية نتائج البناء والتوظيف في البدء تراثياً وعلمياً ثم مجتمعياً ومستقبلياً، وهذا التكوين هو الذي يهيئ على المدى الطويل لذاكرة منعكسة عن الوجود التراثي بحضوره المعرفي.

إن روح العصر هي التي تتحكم بالعبقريّة التاريخية، وبسبب من ذلك فإن روح العصر يجب أن تُحلَّ بشكل طبيعي وسريع، فيما يجب تخطيط إنجازها من الأبحاث التراثية؛ فهناك فراغ كبير في بناء المناهج، وبناء الأبحاث، وطرح محاورها الأساسية، وكذلك في عمليات بناء النتائج وتقاطعها.

وموضوعياً وتاريخياً فإن استنادنا إلى الأسلوبية الغربية التي قامت على تكوين تاريخاتها المتنوعة، بدءاً من التاريخ السياسي والفلسفي، ثم فروع تاريخ العلم الكثيرة التي بنيت استناداً مبدئياً إلى الإنجاز الإغريقي اللاتيني. هذه الأسلوبية الغربية هي التي أضافت إلى هذه التاريخيات صفة (العالمي) ليكون العالمي؛ هو الغربي.

إن استنادنا إلى هذه الأسلوبية هو تكتيك لا بد منه؛ لأننا يجب أن نضع نتائجنّا وما سوف نصنعه من تاريخيات فوق الخطاب المسموع حالياً من كل العالم؛ فمثلاً الأبحاث الهيدرولوجية التراثية يجب أن توضع ضمن تاريخ الهيدرولوجيا (العالمي)، وهي خطوات أولية.

وهذا البحث التراثي الاستراتيجي لا يمكن إلا أن يبدأ من (قواعد المعلوماتية الإلكترونية) التي ستوفر السرعات الفائقة لعدد كبير من خطوات البحث، منها المراسلات ومقارنة النصوص ومقارنتها، واعتماد النص النهائي، وقبل ذلك توفير النصوص وتجميعها، وهي القاعدة الأساسية لهذا العمل.

إن فقدان البحوث الاستراتيجية على المستوى التخطيطي العربي يمثل إحدى القنوات المهمة المسدودة بين (التراث) و(الذاكرة).

٦ - حكاية واحدة.. وذاكرتان:

(الفهرست) نقطة مهمة من إحدائيات تاريخ الكتاب العربي، بل وثيقة عربية مهمة تؤرخ للكتاب حتى نهايات القرن الرابع الهجري، فيه إحصاء

للكتب المنقولة والمترجمة من اللغات المختلفة التي غطاها الإسلام؛ فذكر المترجمين والمؤلفين الأصليين أحياناً، وكتبهم التي أنجزوها مع ترجمة لحياتهم، وفوق ذلك هو إحصاء للكتب المنجزة خلال هذه الفترة في الدين واللغة وعلومها والأدب والفقه والكلام والفلسفة والتاريخ والحساب والطب والكيمياء، كما قام بإجراء المقارنات أحياناً، ولعله أقدم بليوغرافية عربية، وهو مصدر أصيل لكتب التراجم والسير.

محمد بن إسحاق النديم مؤلف «الفهرست» يؤرخ في كتابه الاستثنائي لحيثيات بدء تكوين المكتبة العالمية الشاملة وملاسات في بيت الحكمة ببغداد^(١٣)، وذلك بعد أن يروي قصة مرحلة لها مغزاها البعيد! جمعت هذه القصة بين الخليفة المأمون والفيلسوف أرسطوطاليس، فتدور بينهما حوارية تعني من الناحية الجوهرية والنهائية دخول الحكيم أرسطوطاليس بيت الحكمة الإسلامي، ومنحه خاتم الشرعية الجديدة!

ولا يبخل علينا النديم بتفاصيل قصصية جميلة، وحوار شديد الذكاء وعالي الهدف، يصف شخصية أرسطوطاليس الذي رآه الخليفة المأمون في المنام: رجل أبيض مشرب حمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب، أجلح الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل، جالس على سرير المأمون، وكأنني بين يديه قد ملئت منه هيب - هذا ما قاله المأمون - ويبدأ الخليفة بالكلام:

- من أنت؟

* أنا أرسطوطاليس.

- أيها الحكيم أسألك؟

* سل.

- ما الحسن؟

* ما حَسَنٌ في الشرع.

- ثم ماذا؟

* ما حسن عند الجمهور.

- ثم ماذا؟

* ثم.. لا ثم.

- زدني.

* من نصحك بالذهب فليكن عندك كالذهب، وعليك بالتوحيد^(١٤).

شكلت هذه القصة الرمزية مدخلاً جدياً مناسباً لبدء تأسيس مكتبة عربية حضارية.

وثمة مراسلات قامت بين المأمون وملك الروم لإحضار الكتب المدخرة لديهم. ونظمت البعثات من أجل هذه المهمة، فكان في بعثات الترجمة أسماء كبار الذين قاموا بالترجمات لاحقاً مثل الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلم صاحب بيت الحكمة، ويوحنا بن ماسويه، ومحمد وأحمد والحسن بنو شاكر (الذين تخصصوا بالهيدروليكا) وقسطا بن لوقا، وكان في هذه البعثات أيضاً حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة. وقد ذكر صاحب «الفهرست» نحو الخمسين مترجماً مصنفًا إياهم إلى مترجمين عن اليونانية وعددهم كبير، وإلى مترجمين عن الفارسية مثل آل نوبخت وابن المقفع والبلاذري، وكذلك مترجمي الكتب النبطية والهندية مثل ابن دهن الهندي وابن وحشية^(١٥).

ذكر كارل بروكلمان في كتابه الشهير «تاريخ الأدب العربي» إضافة إلى المترجمين^(١٦)، لكن بمنطلقات مختلفة؛ فبينما تحاورا معاً: الخليفة العباسي الكبير والفيلسوف اليوناني الأشهر في مخدع الخليفة - ووفق ما ذكره النديم كان ذلك هو المفتاح العربي الإسلامي في التعامل مع الآخر وفي إعطائه الشرعية ما دام هو الحق - نجد بروكلمان ينطلق من قاعدة (الثقافة الهلنستية)، التي يذكر أنها وجدت موطناً قدم لها في سوريا وأرض الرافدين، تحت حكم الإسكندر الأكبر وخلفائه، ومع انتشار المسيحية لقيت قبولاً كبيراً، فهو يذكر أنه في سورية التابعة للإمبراطورية البيزنطية كانت

الأديرة مراجع للثقافة اليونانية، ولعلها المرجع الأول، ويذكر البيمارستان والأكاديمية الطبية التي أنشئت بطاقم طبي يوناني ورعاية ساسانية من قبل كسرى أنو شروان في سنة ٥٣١م في جُنْدِيسَابُور في الجنوب الشرقي من العراق، والتي بقيت قائمة حتى العصر العباسي، فتعد المرجع اليوناني الثاني، ثم مدينة حران ببنيتها الأكاديمية القديمة من الدراسات الفلكية والرياضية التي لاقت رعاية هليينستية أيضاً، تعد المرجع اليوناني الثالث. وبحسب بروكلمان فإن هذه المدن - المراجع اليونانية الثلاثة - قامت بتقديم العلم اليوناني مترجماً إلى المكتبة العربية الإسلامية الناهضة، وقد قام بروكلمان وفق طريقته المتبعة في كتابه بذكر المترجمين وترجماتهم وكتبهم وأماكن مخطوطاتها في العالم، وهناك تقاطع بين قائمته وبين ما ذكر النديم في «الفهرست»، فقد ذكر بروكلمان مثلاً: الحجاج بن يوسف بن مطران الحاسب الوراق - أسطاث النصراني - سرجيس بن إلياس الرومي - يوحنا بن البطريق... (١٧).

إن عملية تشكيل الذاكرة من التراث تبدأ من القراءة الخاصة بنا في واقعنا التاريخي، فكم تصلح هذه القصة (برواية الفهرست وتحميلاته) كي تدخل الذاكرة الجمعية العربية بوصفها مفتاحاً كبيراً وتأسيساً في فهم تاريخ الحضارة العربية وخصوصياتها! في حين أن (قصة بروكلمان) للواقع التاريخي نفسه ليست إلا القصة الغربية أو الاستشراقية بإطارها الهلينستي، وهي بدون شك جزء من الذاكرة الغربية؛ ولكنها لم تغد يوماً في الذاكرة العربية التي ربما اقترفتها فجوة فلم يكن ثمة قصة عربية تملأ المكان، وكم يتكرر ذلك!

٧ - لحظة التأسيس في المعرفة التراثية بعلاقتها مع الذاكرة:

دور الإعلام في تطلعات منهج دراسة حدائي للتراث؛ بحيث يتساير مع تشكيل ذاكرة جمعية خالية من الفجوات، ولا نضطر إلى أن نتعامل معها بالنسيان لعدم جدواها أو فقدان أهميتها، أو لعدم تناغمها مع أهدافنا.

من خطة هذا التأسيس عدم نقل صراعات الماضي إلى الحاضر من

أي نوع كانت، ثم جرد التراث والاختيار منه لما يقع في دائرة اهتمامات الحاضر والتطلعات المستقبلية والمحافظة على الاستمرارية، استمرارية انتقال الترميز التراثي لكل ما هو جوهري إلى عتبة الحاضر، ومن ثم إلى الذاكرة، بل إلى إعادة ملء الذاكرة الجمعية العربية بالقيم والمفاهيم الحية النابضة عبر برنامج شامل، هدفه استرداد الثراء المعرفي الرافع من التراث المدروس موضوعياً، وتحقيق علاقة جدلية لعلها مقطوعة منذ زمن طويل جداً، حتى غدت هذه الذاكرة تحمل نتفاً وأجزاء وقصصاً، لا يمكن أن تمنح بوضعها الراهن قامّة سامقة لمجتمعاتها، فهل حقاً كانت الذاكرة الجمعية العربية ليس فيها إلا الاستنساخات الشعبية المتأخرة لسير وقصص وتاريخات، وهي قليلة جداً في مقابل تراث هائل متنوع؟

إن الكشف وإعادة الإنتاج والإخراج لهذه المكونات التراثية بعيون حديثة لا تستثني ولا تحرف من شأنها في حال وُصل بينها وبين الذاكرة الجمعية لتعيد لهذه المجتمعات قامتها الحقيقية وهويتها المخبأة؛ وذلك لإعادة خلق الحركة فيها بأقل ما يمكن من تباطؤ وثغرات، وإعطائها الحصانة الكافية لخوض كل أنواع التجارب الفكرية والحضارية.

لقد تكاثف دور الإعلام واتسع إلى درجة غير محدودة التأثير، ولم يعد التراث كافياً سواءً بوجوده السكوني تاريخياً أو بحركته المعرفية حديثاً، بوضعه الراهن في تشكيل (ذاكرة)؛ بل إنه دخل في إنتاج معرفي جديد هو إنتاجه إعلامياً، وغدت الصورة التي يقدمها الإعلام إمكانية شاسعة في تكوين الذاكرة.

فقد خرجت بعض النصوص التراثية من وجودها السكوني الورقي إلى وجود متحرك درامي يعيد إنتاج النص ويقدمه ضمن مخيلة نسبية، نسبة قليلة جداً من هذا التقديم كانت موفقة ومرتفعة، والنسبة العامة التي ضخت إلى (الذاكرة) أوضاعاً «مسطحة» للغاية كانت في الشكل «التسطحي» المبتذل للنص، فلم تتمكن مخيلة كاتب السيناريو وثقافته من استيعاب أبعاد شخصية

الخليفة أو عاصمته أو آلياته الإدارية أو أجهزته ومؤسساته، فلم تقدم إلى الذاكرة موقفاً تراثياً حقيقياً، وساهمت حتى الآن في «تسطيح» الذاكرة العربية تجاه تراثها.

إن الاشتغال على الذاكرة إعلامياً سيتطلب إعدادات مكثفة لكفاءات نوعية، تصل ما بين النص التراثي والحامل الإعلامي بأشكاله المتكاثرة وإدراك وظيفة الذاكرة والذاكرة العامة ودورها الجوهرية في احتمال تغيير حقيقي.

وفي دراسة الانتقال من النص التراثي الخامي إلى الحامل الإعلامي فإنني أجتهد في وجوب المرور على مرحلة من الإنتاج التراثي الحديث، تسبق المرحلة الإعلامية تكون في غاية الانتباه للقيم التي ستُنقل إلى الذاكرة.

وفي تراثنا خصوصيات عريضة هي من أوليات ما يجب نقله إلى الذاكرة، وخصوصاً تلك التي أعتقد أنها ستتلور بجزئها الأكبر استناداً إلى الإعلام والاتصال الإلكتروني.

هذه الخصوصيات هي من مهمات «التجسير» مع الحضارات الأخرى، وذلك يعني نقل الخصوصية العالمية - التي وسمت تراثنا - خلال خمسة قرون على الأقل - من الحيز النظري إلى حيز التفعيل الإعلامي في إمكانية بناء ذاكرة على أساس استيعاب هذه العالمية، في أي تناول برامجي أو درامي، وكذلك (الانفتاحية) التي قبلت وهضمت تراثات الحضارات التي احتكت بها أو احتوتها، و(الشمولية)؛ فهو تراث معني بجميع أبعاد الحياة، وهو تراث حضاري، ولذلك ما زال يطبع جوانب أساسية وكثيرة من حياتنا بصفتنا أفراداً وجماعات.

لقد امتلك العرب منذ القرن الماضي حتى هذه اللحظات = طبقة مرموقة من التراثيين مفكرين ومنظرين؛ لكن لم يتم حل الإشكال وتحقيق مصالحة مع العصر ومع المستقبل، وظل الوادي الفاصل بين الذرى التراثية

وهضاب العصر بدون جسر فاعل تجتازه السرعات والتكنولوجيا والإعلام، لعله جسر العصر إلى كل شيء، وهو فرصتنا التأسيسية في التحقيق الحضاري لوجودنا، ولن نستطيع رؤية واحدة أن تستلهم الحل؛ فلا بد من التراكم والمواصلة، ولا بد من الصف الرصين من التراثين الغواصين الذين يعرفون الباحة في الأعماق حيث اللؤلؤ، ولا بد من الصفوف المتكاثرة من الشباب الحاملين والمستهلكين لتقنيات التواصل الإلكتروني، والمعتمدين شاشات الفضائيات والكومبيوترات في تشكيلهم الثقافي وفي تكوينهم الذاكرة عامة، ولا بد أكثر من أي وقت آخر من هؤلاء المجسرين بحضورهم الإعلامي والتربوي ومسؤولية الدول ومؤسساتها لتهيئة إنسان أكثر قدرة وحصانة، تمكن من إيصال الحبات الغنية والعفوية من التراث وتهيئتها في الذاكرة بوصفها حالة سنبلية متكاثرة؛ سيكون ذلك في سياق (أنسنة التراث) ولماذا أنسنته؟ أعتقد كي ما تكون المسارب أكثر وضوحاً بينه وبين الذاكرة.



المصدر: مستقبل التراث - د. فيصل الحفيان، معهد المخطوطات العربية، القاهرة (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م)، الطبعة الأولى، ص ٢٦٥.

هوامش البحث

- (١) لسان العرب، لابن منظور المصري - دار المعارف - مادة (ورث).
- (٢) المصدر السابق - مادة (ذكر).
- (٣) انظر:
- التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، حسن حنفي، القاهرة، المركز العربي للبحث والنشر ١٩٨٠.
- نظرة جديدة إلى التراث، محمد عمارة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩.
- نحن والتراث قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، محمد عابد الجابري، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٠.
- التراث وتحديات العصر في الوطن العربي (الأصالة والمعاصرة)، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥، ص ١٥٧.
- تغيير العالم، أنور عبد الملك، سلسلة عالم المعرفة (٩٥)، الكويت ١٩٨٥، ص ١٤.
- (٤) نصت الاتفاقية الدولية لحماية التراث غير المادي العالمي التي صدرت بتاريخ ١٧/١٠/٢٠٠٣. وعدت عمليتي العولمة والتحول الاجتماعي تعرضان هذا التراث لأخطار التدهور والزوال والتدمير.. عرفت الاتفاقية هذا التراث بأنه يشمل الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات وما يرتبط بها من أدوات وقطع ومصنوعات وأماكن تعد الجماعات جزءاً من تراثها الثقافي، وينمي الإحساس بهويتها والشعور باستمراريتها وهو يتجلى التقاليد وأشكال التعبير الشفهي باللغة وغيرها، وفنون وتقاليد الأداء، والممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات، والمعارف والممارسات الاجتماعية بالطبيعة والكون.
- (٥) نحن والتراث (قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي)، محمد عابد الجابري، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٠، ط ٢.
- (٦) التراث والحداثة، محمد عابد الجابري، ص ٢٦.
- (٧) ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي (الأصالة والمعاصرة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥، ص ١٥٧.
- (٨) الذاكرة والذكاء، بياجه وانهيلدر (دراسة مشتركة)، ١٩٦٨.
- (٩) حفريات في الذاكرة (من بعيد)، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٧، ص ٧.
- (١٠) المصدر السابق، ص ٨، .:
- (١١) نثار للمحو، جمال الغيطاني، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٥، ص ٥١.
- (١٢) صدر للدكتورة بغداد عبد المنعم مجموعة من النصوص الطويلة والقصيرة على هيئة

- كتب ومقالات حملت ما يستند إلى بناء الذاكرة من مفردات التراث والعمارة وقاموس المدينة القديمة. كان منها: حلب في أحاديث الماء والجمال (حوارية معاصرة مع المؤرخ ابن شداد (كتاب)، وعدد كبير من الدراسات والمقالات، نشرت في مجلات المعرفة والكويت والباحثون وبعض الصحف العربية، ومن عناوينها (لوحة المدينة - مدينة على خارطة الروح - نكهة قادمة من التاريخ - متحف المنمنمات الأنثوية - شرفات المدينة والعالم - المدينة حوارية المكان والحواس....).
- (١٣) الفهرست للنديم، محمد بن إسحاق النديم، تحقيق د. ناهد عباس عثمان. دار قطري بن الفجاءة، ط ١ - ١٩٨٥، ص ٥٠٤.
- (١٤) المصدر السابق ص ٥٠٧.
- (١٥) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية د. يعقوب السيد بدر ود. رمضان عبد التواب. دار المعارف - جامعة الدول العربية - المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة. ج ٤، ص ١١، و ص ٨٩.
- (١٦) المصدر السابق، ص ٨٩.
- (١٧) المصدر السابق، ص ١٢٣.

**وثائق وصور من
ذاكرة الأرشيف**



شهادة تقديرية من جمعية المؤرخين والآثاريين في العراق
إلى الأستاذ سالم الألووسي بتاريخ ١٢/٩/٢٠٠١ م



اتحاد المؤرخين العرب يمنح الأستاذ سالم الألووسي (وسام المؤرخين العربي)
تقديرًا لإسهاماته المتميزة بتاريخ ١٥ تموز ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ثانوية التحرير الثقافي

الأهلية المسائية

في النجف

العدد

التاريخ ١٤/٢/٢٠٢٠

مهداة الى الأستاذ الاخ السيد سالم الالوسي
مدير الثقافة المحترم
و للفخر والمجد عمر الزمان
فقد حزت بالسبق كأس الإهداء
لمحت إخواني سالم للمعلمي
فاني أعظم قبل النهي

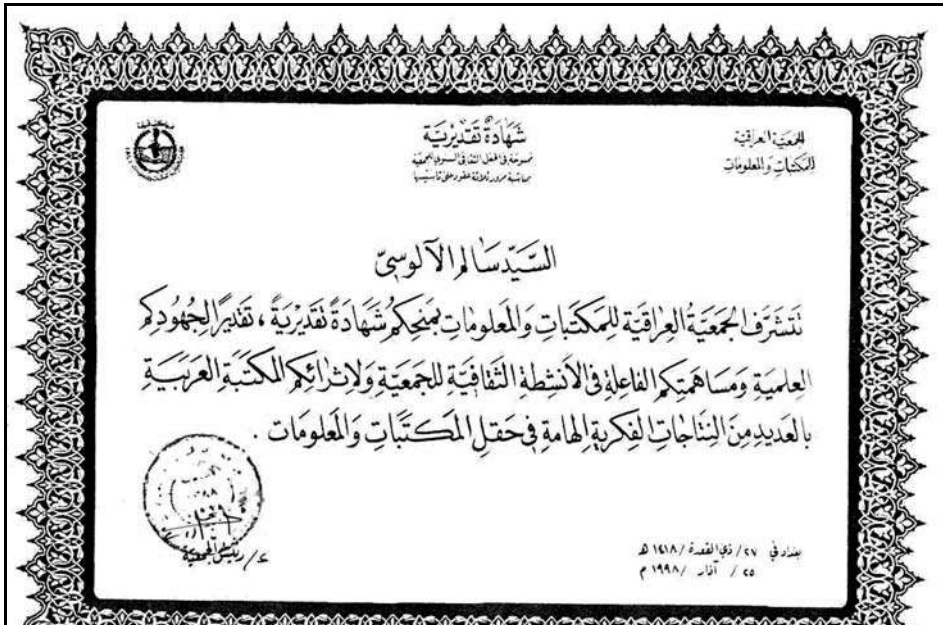
اخوك
أبو عبد الله الغني الخضري
خضري

بيتان من الشعر هدية من الشيخ عبد الغني الخضري (باسم ثانوية التحرير الثقافي الأهلية المسائية)
إلى الأستاذ سالم الالوسي بتاريخ ٤ آذار ١٩٧١م

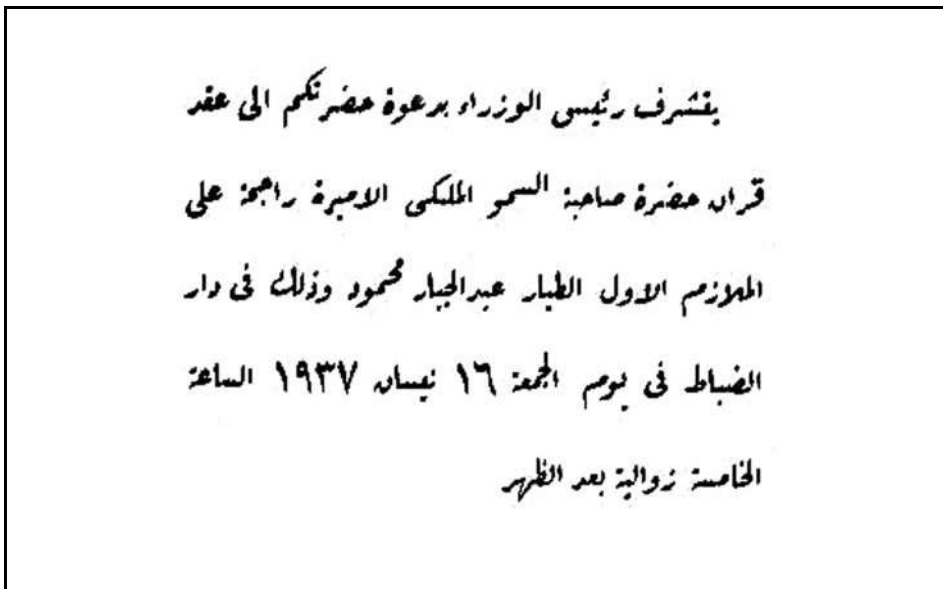


شهادة العضوية الشرفية لجمعية المؤرخين المغاربة للأستاذ سالم الالوسي

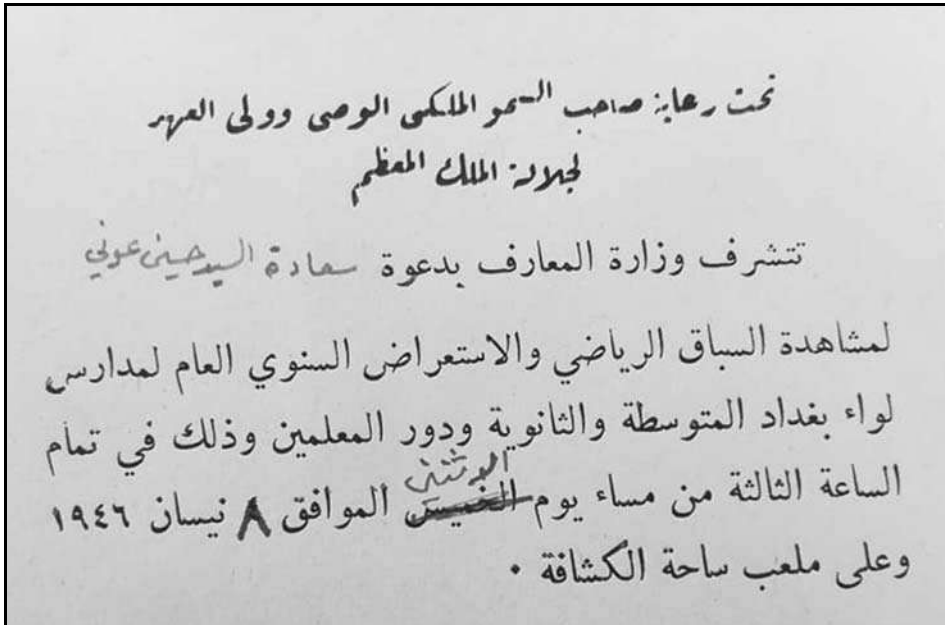
بتاريخ ١٨ تشرين الثاني ١٩٨٩م



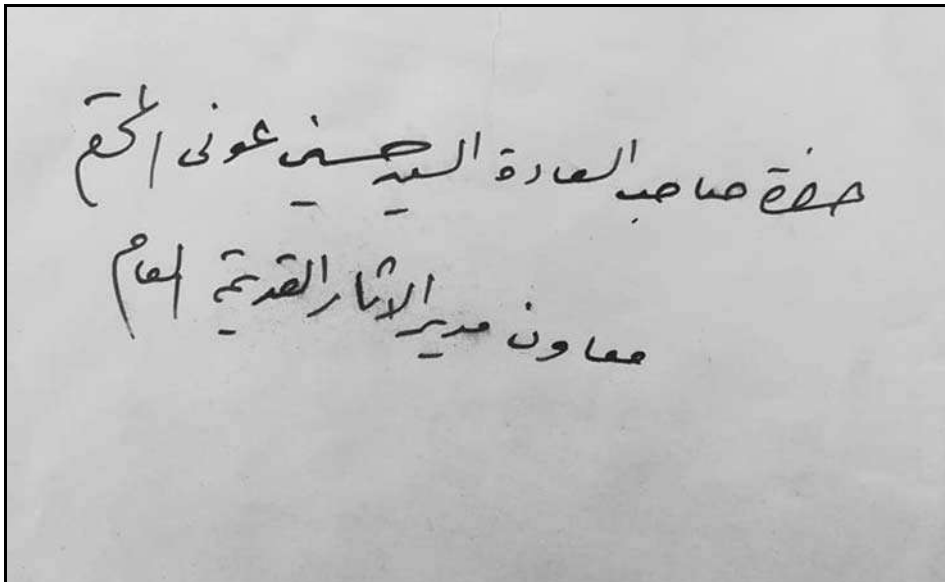
شهادة تقديرية من الجمعية العراقية للمكتبات والمعلومات الى الأستاذ سالم الأكوسي بتاريخ ٢٥ آذار ١٩٩٨م



دعوة لحضور عقد قران الأميرة راجحة والملازم الأول الطيار عبد الجبار محمود في يوم الجمعة ١٦ نيسان ١٩٣٧م



دعوة من وزارة المعارف العراقية موجهة إلى السيد حسين عوني معاون مدير الآثار القديمة العام
لحضور السباق الرياضي والاستعراض السنوي العام للمدارس بغداد في ٨ نيسان ١٩٤٦ م



دعوة من وزارة المعارف العراقية موجهة إلى السيد حسين عوني معاون مدير الآثار القديمة العام
لحضور السباق الرياضي والاستعراض السنوي العام للمدارس بغداد في ٨ نيسان ١٩٤٦ م

معرض النخاني ولطيف الأمان
بالبغداد السعيدة

شركة المخازن العراقية (ش.م.م.)
بغداد

تهنئة من شركة المخازن العراقية بمناسبة العيد السعيد

بشرف وزير المعارف برعونكم لحضور حفل الشاي
التي ستقام على شرف وفد الجامعة الأميركية في بيروت
في النادي الرياضي الملكي وذلك يوم الجمعة الموافق
١٤ - ٤ - ١٩٤٤ في الساعة ٣٠ - ٦ مساءً .

دعوة من وزارة المعارف العراقية لحضور حفل الشاي المقام على شرف وفد الجامعة الأميركية في
بيروت في النادي الرياضي الملكي يوم الجمعة ١٤ نيسان ١٩٤٤م

تفتشرف « جمعية الشبان المسلمين » بدعوة شكم
الى الامتثال بزكرى مولد الرسول الاعظم فى الساعة
العاشر والرابع من مساء يوم الامر ١١ - ربيع الاول ١٣٦٦
الموافق ٢٠ سباط ٩٤٧ وذلك فى قاعة الملك فيصل التالى.

دعوة من جمعية الشبان المسلمين للإحتفال بمولد الرسول الأعظم ﷺ

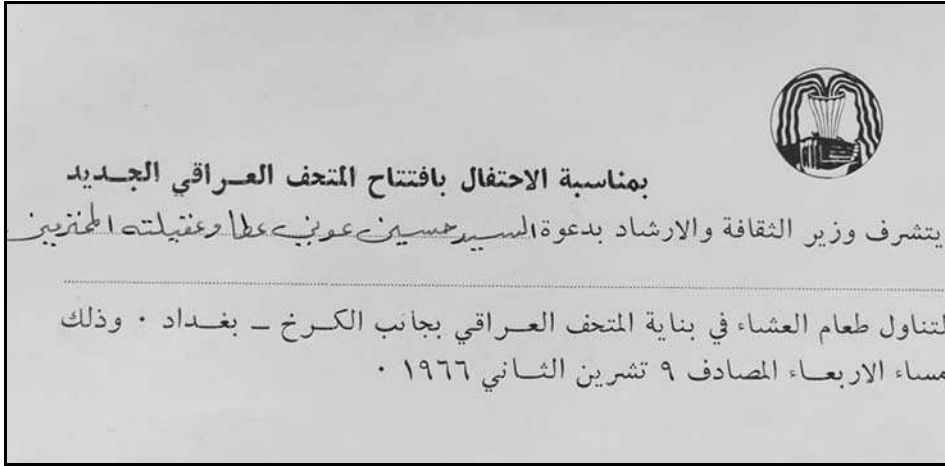
فى يوم الأحد ١١ ربيع الأول ١٣٦٦هـ

تفتشرف مديرية الآثار القديمة بدعوة

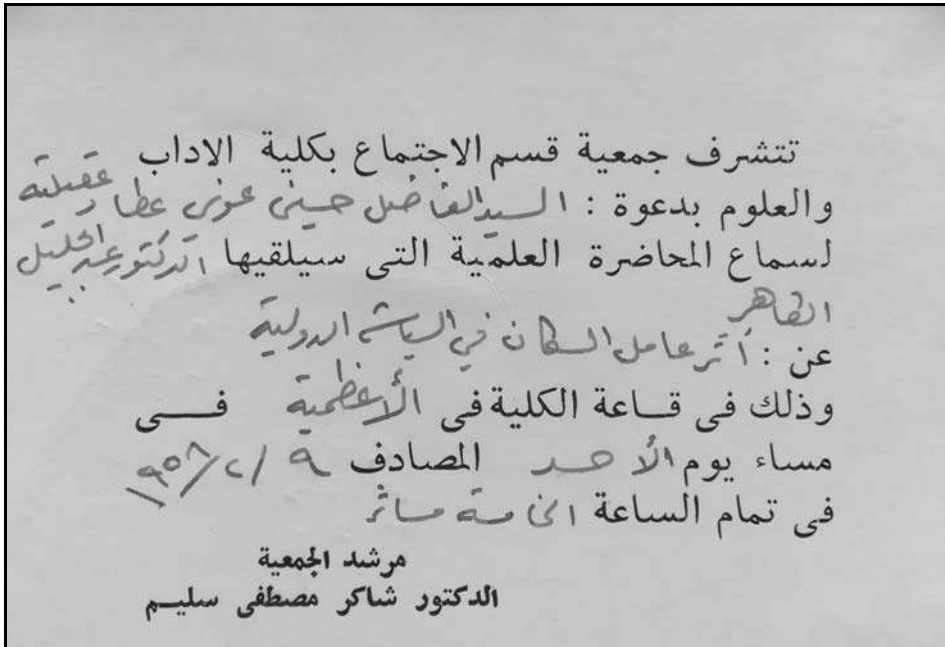
الى زيارة المعرض الفصلى فى دار الآثار العربية الطائفة فى شارع
السموأل (شارع البنانى) صباح يوم السبت المصادف ١٦
كانون الاول سنة ١٩٣٩ من الساعة العاشرة الى الساعة
التانية عشرة زواله .

دعوة من مديرية الآثار القديمة لزيارة المعرض الفصلى فى دار الآثار العربية

يوم السبت ١٦ كانون الأول ١٩٣٩م



دعوة من وزير الثقافة والإرشاد إلى السيد حسين عوني وعقيلته لتناول طعام العشاء
بمناسبة افتتاح المتحف العراقي الجديد بتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٩٦٦م



جمعية قسم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم تدعو السيد حسين عوني وعقيلته للمحاضرة العلمية التي
سيلقيها الدكتور عبد الجليل الطاهر عن (أثر عامل السكان في السياسة الدولية) بتاريخ ٩ شباط ١٩٥٨م

المجمع العلمي العراقي

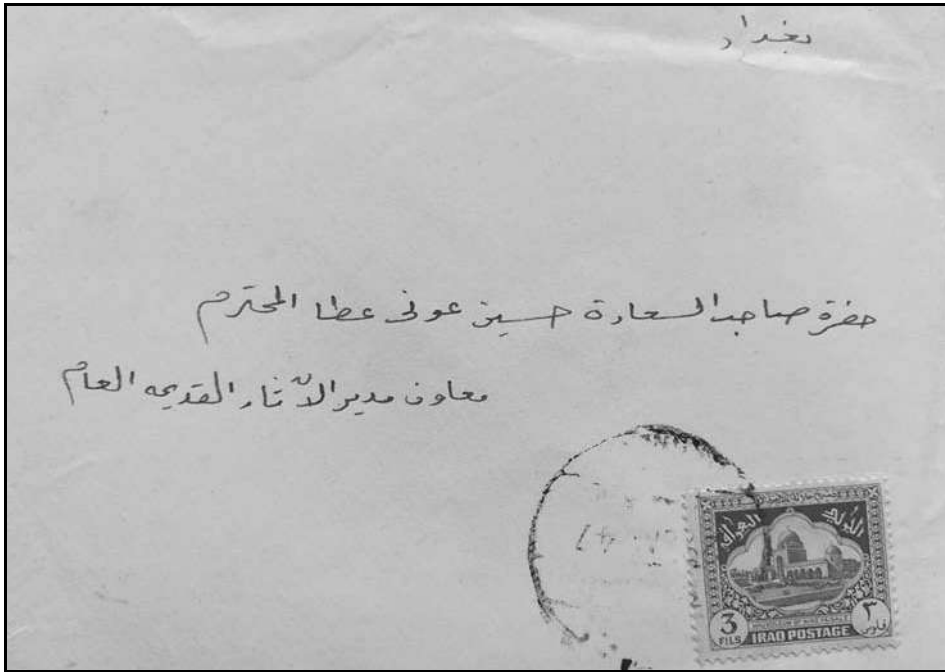
يتشرف المجمع العلمي العراقي بدعوتكم الى استماع محاضرة
الدكتور احمد سوسة عن «ري العراق القديم» في دار المجمع بشارع
صفى الدين الحلي المعروف بشارع بعقوبة وذلك في الساعة السادسة
من مساء السبت ١٤/٤/١٩٥٠ .

دعوة من المجمع العلمي العراقي لاستماع محاضرة الدكتور أحمد سوسة عن (ري العراق القديم) في
دار المجمع بتاريخ ١ نيسان ١٩٥٠م

نقش في عمادة دار المعلمين العالية

بدعوة
_____ عمادة السيد حسين علي محمد
لحضور الحفلة التأبينية التي ستقيمها بمناسبة مرور ستين يوماً على
وفاة المرحوم الاستاذ السيد طه الراوي وذلك في الساعة التاسعة
والنصف من صباح يوم الجمعة الموافق ٢٠ كانون الأول ١٩٤٦ في
قاعة جلالة الملك فيصل الثاني .

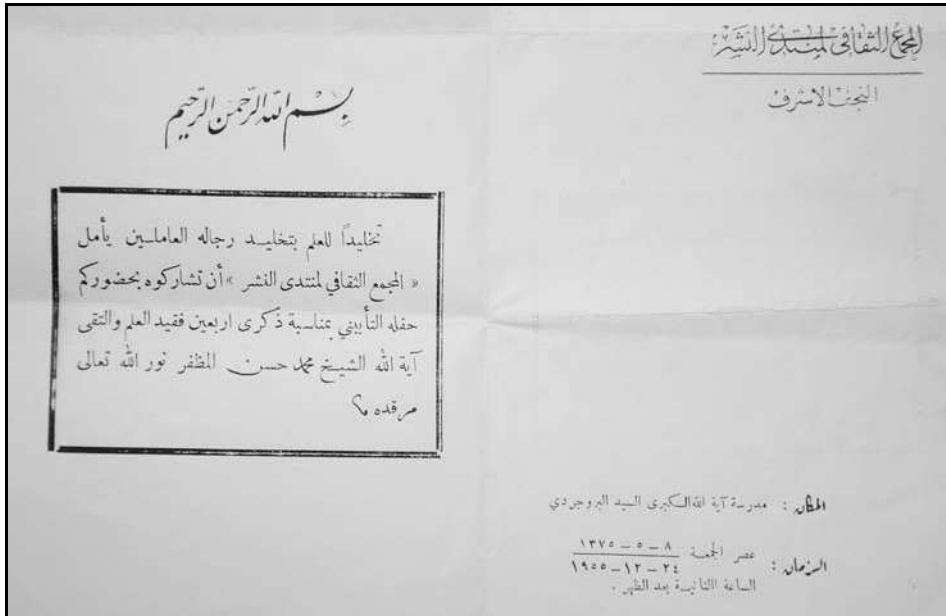
دعوة من عمادة دار المعلمين العالية إلى السيد حسين عوني لحضور الحفل التأبيني المقام
بمناسبة مرور ستين يوماً على وفاة الأستاذ طه الراوي في قاعة الملك فيصل الثاني
بتاريخ ٢٠ كانون الأول ١٩٤٦م



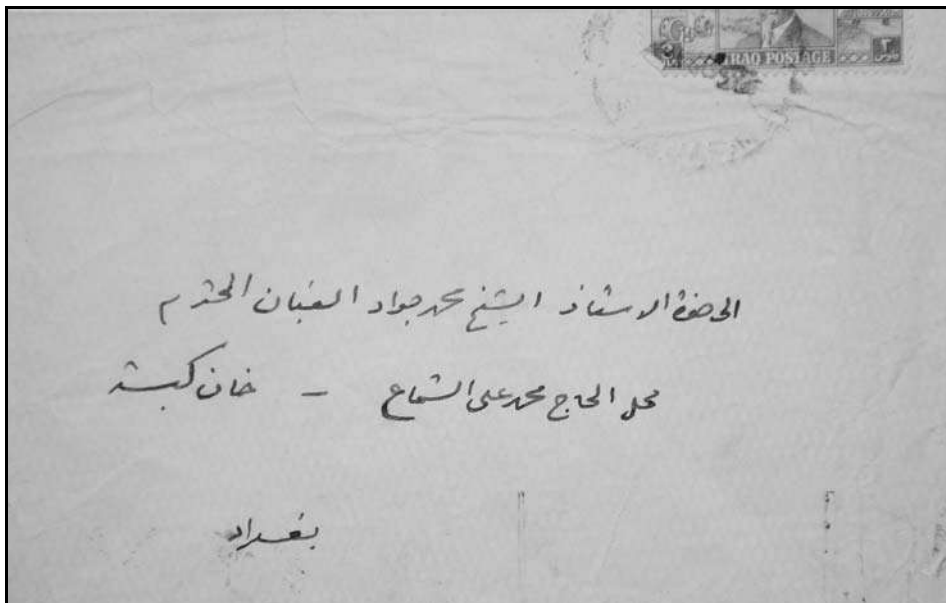
رسالة موجهة إلى السيد حسين عوني عطا معاون مدير الآثار القديمة العام في العراق



رسالة من المجمع الثقافي لمنتدى النشر إلى الأستاذ محمد جواد الغبان



(١) دعوة من المجمع الثقافي لمنتدى النشر إلى الأستاذ الشيخ محمد جواد الغبان لحضور الحفل التأبيني بمناسبة ذكرى أربعين آية الله الشيخ محمد حسن المظفر بتاريخ ٢٤ كانون الأول ١٩٥٥م



(٢) دعوة من المجمع الثقافي لمنتدى النشر إلى الأستاذ الشيخ محمد جواد الغبان لحضور الحفل التأبيني بمناسبة ذكرى أربعين آية الله الشيخ محمد حسن المظفر بتاريخ ٢٤ كانون الأول ١٩٥٥م

وزارة المعارف
مديرية الشؤون الثقافية العامة
الترجمة والنشر

العدد / ٥٠٠ ن / ٢٣ / ب /
التاريخ / ٧ / ١٩٥٤

محمد جواد الغبان - النجف

تقرر شراء (١٠٠) نسخة من كتابكم (جعفر بن أبي طالب) بـمصر النسخة الواحدة (١٠٠) فلس
نرجو تسليم العدد المذكور إلى مديرية الترجمة والنشر وتقديم تأييد الحساب للصرف *

نسخة منه إلى -
مديرية المعارف العامة
مديرية الإدارة العامة / الحسابات - التجهيزات

مدير الشؤون الثقافية العام

كتاب وزارة المعارف إلى الأستاذ محمد جواد الغبان لشراء عدد من النسخ من كتابه (جعفر بن أبي طالب) عام ١٩٥٤م

منتدى النشر
النجف الأشرف

التاريخ ٢٨ رجب ١٣٧٠
العدد ٢٠٠

شهادة الانتساب

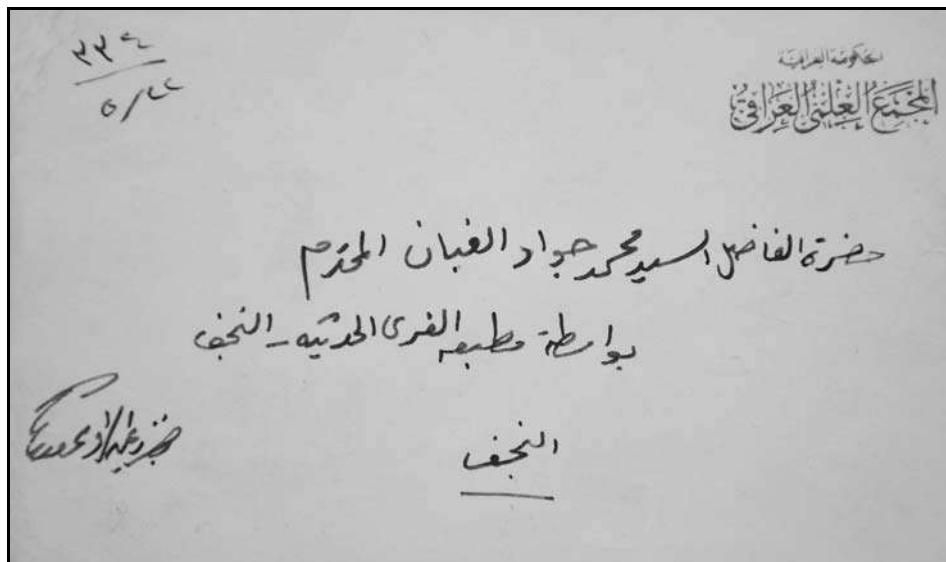
لحضرة الشيخ محمد جواد الغبان المحترم

إشارة إلى طلبكم المؤرخ ١٨ رجب ١٣٧٠، وبمقتضى المادة (١٩) من النظام
الاساسي فقد قررت اكثريه مجلس الادارة اعتباركم عضوا لمنتدى النشر
من تاريخه على ان تراعوا نظام المنتدى لسنة ١٣٧٠ مع قبول فائق
الاحترام .

المعتمد

كل ورقة لم تختم بختم منتدى النشر الخاص تعتبر باطلة .

شهادة إنتساب من منتدى النشر في النجف الأشرف إلى الشيخ محمد جواد الغبان
بتاريخ ٢٨ رجب ١٣٧٠هـ



رسالة من المجمع العلمي العراقي إلى الأستاذ محمد جواد الغبان

بمناسبة اربعين فقيدنا الغالي الشيخ محمد باقر الشبيبي تغمده الله بالرحمة
يتشرف محمد رضا الشبيبي بدعو تكم لتناول طعام العشاء في الساعة الثامنة من
مساء يوم الاثنين المصادف ٢٣ محرم سنة ١٣٨٠ الموافق ١٨ تموز سنة ١٩٦٠
وذلك بمنزله الواقع في الكرادة الشرقية - زوية - .

دعوة من الشيخ محمد رضا الشبيبي لحضور أربعين الفقيد الشيخ محمد باقر الشبيبي
بتاريخ ١٨ تموز ١٩٦٠م

العراق
وزارة المعارف
شهادة الدراسة الثانوية

ان محمد هيثم بن عبد الجبار المميز
من طلبة المدرسة الثانوية المركزية في بغداد قد دخل
الامتحان العام للدراسة الثانوية - الفرع العلمي
للسنة ١٩٢٨ - ١٩٢٩ والمرتبة الممتازة درجة من مجموع
الف وقد اهدى للقبول في المدارس العالية

التاريخ ٢٩ تموز ١٩٢٩

ك.م. ا. ا.
مدير المعارف العلم

نصافق عليها

وزير المعارف



شهادة الدراسة الثانوية من المدرسة الثانوية المركزية في بغداد إلى السيد محمد أمين المميز

بتاريخ ٢٩ تموز ١٩٢٩ م

نقابة الصحفيين

(القار العراقي)

المركز الخام - بغداد

تلفون ٢٠٦٦٢

ب. ب ٥٤٣

العدد / ١٠٧٨ / ٤٤٤

التاريخ / ١٠ / ٤ / ١٩٧٤

الزميل سالم عبود الألويسي المحترم

- مجلة الوثائق العربية -

بعد التمهية ..

قرر مجلس النقابة بجلسته الخامسة والعشرون المنعقدة بتاريخ ٤/٤/١٩٧٤
 قبولكم عضواً مصلحاً استناداً الى المادة الثالثة من قانون نقابة
 الصحفيين رقم ١٧٨ لسنة ١٩٦٩ ، ولتوفر شروط المادة التاسعة من القانون في
 الملزم المؤرخ ٤/٤/١٩٧٤

يرجى مراجعة أمين الصندوق لدفع رسم الانتساب وبدل الاشتراك الشهري
 وتسليم الهوية النقابية مع التكرم .

د. ر. ر. ر.

أمين السر

نصير عبد الرزاق حسن

صورة منه الى :-

هيئة صندوق نقابة الصحفيين / للعلم رجاءاً

ذكرى المولد النبوي الشريف

بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف وتخليدا لهذه المناسبة الدينية
فقد قامت مصلحة البريد والبرق والهاتف بإصدار طابع تذكاري
مؤلف من طابع واحد فئة (١٥) فلسا والذي سيوضع في التداول
يوم ١٩٦٩/٥/٢٨.

مع اوفر تحيات

اسماعيل الحديثي

المدير العام

لمصلحة البريد والبرق والهاتف

بغداد

بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ فُلِيهِ



فِيصِلُ إِلَى الْمَلِكِ الْعِزِّ

نحن فيصل الثاني ملك العراق

نقدراً للمزايا الحميدة التي أنصف بها السيد فريدريك براوننك

ونوثقاً لقرى الالفة والمودة بين المملكتين ففرصناه باسم مملته وسام الرافدين من الدرجة

رئيسية ومن النوع لصدك وأمرنا بإصدار هذه البرادة ابتداءً بذلك

صدر من البعوط الملكي بيفراد في اليوم الثاني والعشرين من شهر صفر سنة

الف وثمانمائة ربيع الأولى الهجرية الموافق لليوم الثاني عشر من شهر أيلول سنة

الف وثمانمائة ربيع الأولى الهجرية وفي السنة الخامسة عشر من حكم مملته .

صدر بأمر صاحب الجيوش الملك المعظم

رئيس القسريجات الملكية

وسام الرافدين من الدرجة الثانية من النوع العسكري يمنحه الملك فيصل الثاني إلى

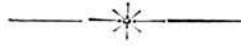
السير فريدريك براوننك بتاريخ ١٩ أيلول ١٩٥٧م

منهج

الاحتفال بذكرى مولد الرسول الأعظم محمد (ﷺ)

الذي تقيمه جمعية الشبان المسلمين في بغداد

مساء يوم الاحد ١١ ربيع الاول ١٣٦٦ الموافق ٢ شباط ١٩٤٧



- | | |
|--------------------------|--|
| ١ - القرآن الكريم | الحاج محمود عبد الوهاب |
| ٢ - خطبة | نائب رئيس الجمعية الاستاذ محمد بهجة الاثري |
| ٣ - قصيدة | السيد خالد الشواف |
| ٤ - نشيد الشبان المسلمين | فرقة دار الايتام الاسلامية |
| لرافقي | |
| ٥ - خطبة | الدكتور بديع شريف |
| ٦ - المنقبة النبوية | عبد الفتاح معروف ورفقاؤه |
| ٧ - نشيد | فرقة دار الايتام الاسلامية |
| ٨ - خطبة | الاستاذ حسن جواد |
| ٩ - قصيدة | الاستاذ محمد الهاشمي |

منهج الاحتفال بذكرى مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم الذي أقامته جمعية الشبان المسلمين في بغداد بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٣٦٦ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

يسر المجمع الثقافي لمنتدى النشر ان يفتح موسمه الثقافي بعد الانتقال لبنائته الجديدة بمحاضرة معالي العلامة الكبير الشيخ محمد رضا الشبيبي وسيتفضل معاليه بالحجاء الى النجف الاشرف لافتتاح الموسم والقاء محاضراته .

يرجى التفضل باجابة دعوتنا لاستماع هذه المحاضرة الممتعة ولكم الشكر

الرئيس

المجمع الثقافي لمنتدى النشر ونجف الفعّور

الإمام بهاء الدين العاملي

موضوع المحاضرة :

فذلكة عن سيرته . نبذة من أشعاره .

طائفة من آرائه العلمية والفلسفية

الزمانه : الجمعة ١٠/١٠/٩٥٧ الساعة ٣/٣٠ الثالثة والنصف بعد الظهر
٣٧٧ / ٣/٣

المكان : بناية منتدى النشر الجديدة نجف الاشرف

(١) دعوة من المجمع الثقافي لمنتدى النشر لحضور محاضرة العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي
بمناسبة الانتقال لبنانيته الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

يا ايتهنا النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية
فادخلي في عبادي وادخلي جنتي

تتمى (جمعية الرابطة الأدبية في النجف الأشرف) بمزيد الاسى والاسف
عميدها وكبير مؤسسيها شيخ الخطباء العلامة الكبير والشاعر الشهير سماحة
الشيخ محمد علي اليعقوبي تغدو الله برحمته .
فلقد قضى حياته الطاهرة طيلة السبعين عاماً في خدمة المبدأ والعقيدة
والجهاد من أجل نشر كلمة اهل البيت عليهم السلام بقلمه ومنبره ومواقفه
الشهيرة المعروفة لدى ابناء العالم الاسلامي كافة .
فلكم قارع الظلم والاستعمار وواجه العواصف والتيارات بقوة ايمان
وثبات قلب ملء بالطاقات الروحية قل ان يتمتع بها أحد من اقرانه وامثاله .
وكان الى جانب هذا كله يحمل بين جنبيه نفسية كبيرة تعطف على
الضعيف وتحترم الكبير وتجاهد في خدمة العلماء الاعلام وسيشيع جثمانه
الطاهر عصر هذا اليوم (٢١ جمادى الثانية ١٣٨٥ الموافق ١٧/١٠/١٩٦٥)
من جامع البهبهاني خارج البلد .
وان جمعية الرابطة الادبية بدورها ترفع تعازيها المؤلمة الى اصحاب
السماحة العلماء الاعلام وقادة الاسلام وفي طليعتهم سماحة الامام المجاهد
الحكيم أيدهم الله بتأييده .

وانا لله وانا اليه راجعون

بسم الله الرحمن الرحيم

ستقيم (جمعية الرابطة الأدبية في النجف الأشرف) مجلس الفاتحة على روح فقيدها الغالي وعميدها الراحل سماحة شيخ الخطباء والادباء العلامة الجليل والشاعر الكبير الشيخ محمدعلي اليعقوبي - تغمده الله برحمته - لمدة ثلاث ليال ابتداء من عصر يوم الاربعاء ٢٤/٦/٨٥ الموافق ٢٠/١٠/٦٥ في جامع الشيخ الطوسي تقديراً لخدماته الاسلاميّة ووفاء لتأسيسه لهذه الجمعية . وانا لله وانا اليه راجعون .

طبع بمطابع النعمان - النجف الاشرف

جمعية الرابطة الأدبية في النجف الأشرف تقيم مجلس الفاتحة على روح فقيدها الراحل الشيخ محمد علي اليعقوبي في يوم الأربعاء ٢٤ حزيران ١٩٦٥م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقامة مجلس فاتحة

بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة فقيه الدين والاسلام سماحة

العلامة الجليل حجة الاسلام والمسلمين الشيخ عبد الكاظم الغبان تغمده

الله برحمته سيقام مجلس الفاتحة على روحه الطاهرة عصر يوم الجمعة (٢١)

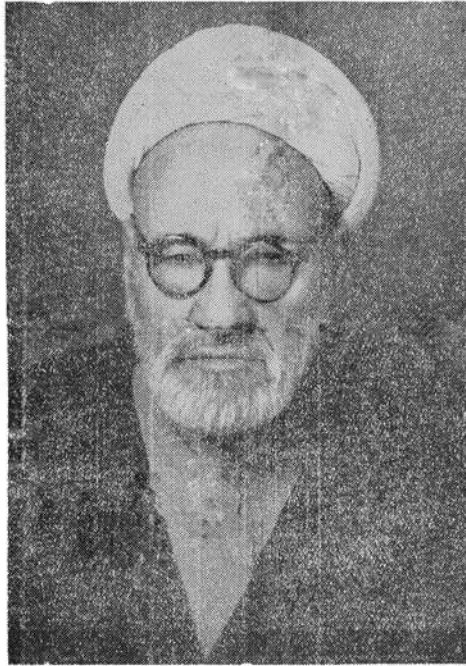
ربيع الثاني المصادف ٢٦ / ٦ / ١٩٧٠ في الحسينية الكبرى في الشنافية

وانا لله وانا اليه راجعون *

مطبعة النعمان - النجف الاشرف تلفون ٢٠٩٧

جمعية الرابطة الأدبية في النجف الاشرف تقيم مجلس الفاتحة بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة
العلامة الشيخ محمد جواد الغبان في ٢٦ حزيران ١٩٧٠م

يا أيها النفس مطمئنة أرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي
وادخلي جنتي •
صدق الله العلي العظيم



النجف الأشرف - الجمعة ٢٣ شعبان ١٣٨٥
١٧ / ١٢ / ١٩٦٥
مطبعة النعمان النجف - تلفون (٩٩٧)

جمعية الرابطة الأدبية في النجف الأشرف تعزي بوفاة فقيدها الشيخ محمد علي اليعقوبي
بتاريخ ١٧ كانون الأول ١٩٦٥ م

منهاج الحفل التأبيني
بذكرى أربعين المغفور له الشيخ محمد علي اليعقوبي
عميد الرابطة الادبية

- | | |
|------------------------------------|--|
| القرآن الكريم | السيد حبيب الأعرجي |
| ١ - الافتتاح والتعريف | الدكتور محمد جواد رضا - الاستاذ في كلية التربية - بغداد |
| ٢ - كلمة الرابطة الادبية | السيد محمد بحر العلوم - سكرتير الجمعية - النجف |
| ٣ - آراء بعض أعلام النجف في الفقيه | الشيخ عبد الهادي الفضلي - عضو ادارة الرابطة - النجف |
| ٤ - كلمة | السيد عبد الهادي التازي - سفير المملكة المغربية في بغداد |
| ٥ - قصيدة | الشيخ عبد الغني الخضري - عميد جمعية التحرير الثقافي - النجف |
| ٦ - كلمة | الشيخ محمد مهدي كبة - بغداد |
| ٧ - كلمة | السيد أحمد الصافي النجفي - بيروت |
| ٨ - قصيدة | السيد محمود الجبوبي - عضو الرابطة الادبية - بغداد |
| ٩ - كلمة | السيد محمد تقي الحكيم - عميد كلية الفقه - النجف |
| ١٠ - كلمة | السيد محمد قره علي - عضو نقابة الصحافة اللبنانية - بيروت |
| ١١ - قصيدة | الشيخ عبد المنعم الفرطوسي - عضو الرابطة الادبية - النجف |
| ١٢ - كلمة | الشيخ موسى عز الدين - رئيس جمعية علماء الدين العاملين - صور |
| ١٣ - كلمة | السيد روكس بن زائدة العزيمي - ممثل الرابطة الدولية لحقوق الانسان |
| ١٤ - قصيدة | السيد هادي مجي الخفاجي - عضو الرابطة الادبية - بغداد |
| ١٥ - كلمة | الدكتور علي الحلي - الحلة |
| ١٦ - كلمة | المحامي توفيق الفكيكي - بغداد |
| ١٧ - قصيدة | السيد محمد حسين الشبيبي - بغداد |
| ١٨ - كلمة | الدكتور أحمد عبد الستار الجواري - جامعة بغداد |
| ١٩ - كلمة | الدكتور يوسف عز الدين - الامين العام للمجمع العلمي العراقي - بغداد |
| ٢٠ - كلمة أسرة الفقيه | الشيخ موسى اليعقوبي |

منهاج الحفل التأبيني لجمعية الرابطة الادبية في النجف الأشرف بمناسبة مرور أربعين يوماً

لوفاة الشيخ محمد علي اليعقوبي عميد الرابطة الادبية



كتاب منتدى النشر بخصوص الشاعر محمد جواد الغبان بتاريخين ٢ أيلول ١٩٥٤م

العدد	مِشْتَدَى الْيُسْرَى
التاريخ	النجف الاشرف - العراق
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ	
اشي وثرة عيني	
يسرني ان ابذل التهانى الصادقة في زفافك الميمون المبارك ويؤسفني ان تموتني الموانع عن مشاركتك السرود بالحضور • فبالرفا • والبنين • وتقبل مني التحيات العاطرة	
 محمد رضا المظفر	

بسم الله الرحمن الرحيم

جمعية منتدى النشر

الامانة العامة للمكتبة

المدد / ١٩٩

التاريخ ١٩٨٠ / ٤ / ٢٥

الى السيد محمد جواد الغبان

تهدي لكم الامانة العامة لمكتبة جمعية منتدى النشر اطيب
تحياتها وتود ان تعرب لكم عن صادق شكرها لتفضلكم باهداء
الكتب المذكورة ادناه التي ستكون موضع الافادة لرواد مكتبتنا
العامسة من القراء والباحثين ..
والسلام عليكم ..

حامد جابر حبيب

امين مكتبة جمعية منتدى النشر

العامسة

الكتب المهداة :

١ - جعفر بن أبي طهالرب

منتدى النشر

النجف الاشرف - العراق

العدد

٥
التاريخ ١٨/١٢/٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الدفع الاثني عشر من كمد حيدر الصباية
 السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - شاكرا - هذه الرسالة من ابن ابي جميع فوجيت
 فيها ما كنت اتمنى في الشوق عليها حركة وحيوية وشا لها ما يتخرج حين
 وانني يدرت رسالة في الحياة فيها في لغة دلاسة الدرسة وعمرا سرا
 شعاره المير وتقبلوا شكر

المخلص
 محمد بن ابي جميع
 ٩٥

محمد رضا اعظم يديكم السلام في الشكرى املكم الياسم

العدد ٤٢٢

التاريخ ١٩٥٤/٥/٢٢

١٣٧٣ رمضان

الموضوع :

حكومة العراق
المجمع العلمي العراقي

حضرة الفاضل السيد محمد جواد الغبان بواسطة مطبعة

الغفرى الحديثة - النجف

تسلم المجمع مع الشكر رسالتكم : ((جعفر بن ابي طالب)) وقد
سجلت في سجل الهدايا التي توصل الى خزانه كتبه .

ناجي
رئيس المجمع العلمي العراقي
الدكتور ناجي الاصيل

صورة منه الى -

محاسب المجمع - للتسجيل

كتاب المجمع العلمي العراقي إلى حضرة السيد محمد جواد الغبان
بتاريخ ٢٢ آيار ١٩٥٤م يبلغه بتسلم كتابه

بغداد في ١٩ / ٦ / ١٩٥٤

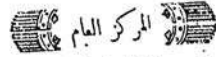
حضرة الأستاذ المحقق الأديب السيد محمد جواد الغبان المحترم

تحية عظيمة واحترام مستدام وبعد فقد كانت لصدتكم القيمة كتابكم القيم
 جعفر أديب طالب وصل إلي فراشاً الرصانة فطناً لفضلك ما حال
 دون إكمال الشكر مع وجوبه وأسألكم المصفرة وأسأل الله تعالى أن يوفقكم
 لأجود وجود كريمة عظيمة أخرى من وجوه السابغ الرسيم الباككم كوجه
 جعفر أديب طالب مثال الجملة والاحترام والفرح والثناء - رضي الله عنهما
 وتقبلوا تحياتي خالصة التحية والسلم عليكم ورحمة الله وبركاته.

المخلص

مصطفى جواد

بسم الله الرحمن الرحيم



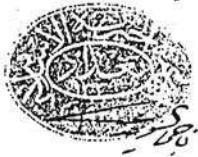
المركز العام
للجمعية الخيرية الإسلامية

بغداد

في ١٥ شوال سنة ١٣٤٤
الموافق ٨ مارس ١٩٢٥

عزى الأفاضل سليمان فيضي فدي المرحم

بعد عرض الحجة والتكريم
بنار على أئمتنا من الأفاضل الفاضل والمجاهد المشكور المشجوع بالرافعة والظان تجاه الإسلام
منذ أحداث هذه المؤسسة وإنزال قصارى جهدهم نحو أعذار شأنا بالمعادنة المالية
والبدنة فقد قررت حياة الديوان العام للجمعية بالتفان والاعتماد على سيادتكم
عنوية الشرف الدائمة في الجمعية المذكورة فالله إن تفضلوا بقبولها وإن تفضلوا
إيمان الجمعية بعين عنايتكم ونسئله تعالى أن يوفقكم إلى مساعدة كل شئ من شئ آخر وإن
يجعلكم قدوة حسنة لأئمتنا من المؤمنين المخلصين بيقول فائق الأضرام



GENERAL HEAD QUARTERS, I.E.F. "D."

The bearer of this pass, named S. Faiz

has permission to proceed from G. HQ to Asr Basrah

via _____ and to return from thence to _____

via _____

He has permission to take with him _____ servant(s) named _____

He has permission to see _____ at _____

Dated Basrah 7/4/16

J.C. Moore Capt
General Staff.

This pass is re-granted for the same journeys to the same individual(s) named

above and is re-dated _____

General Staff.

أمر استدعاء سليمان فيضي الى دائرة الاستخبارات العسكرية لمقابلة لورنس

أمر استدعاء سليمان فيضي إلى دائرة الاستخبارات العسكرية لمقابلة لورنس

بيان تواريخ ولادة أولاد وروحيين مريم طه

ولادة وروحي مريم طه في الموصل
يوم السبت ١٨ ذو القعدة ١٣١٥ = ١١ نيسان ١٨٩٨

ولادة (بنيت هديج) في البصرة
ليلة الثلاثاء ١ صفر ١٣٢٤ = ٢ كانون الاول ١٩١٤

ولادة (بنيت نوريه) في البصرة
يوم الخميس ١ ذو القعدة ١٣٢٥ = ٢١ آب ١٩١٦

ولادة (ولدي محمد) في الزبير - البصرة
يوم الاثنين ٢٥ ربيع الاول ١٣٢٧ = ٢٠ كانون الاول ١٩١٨

ولادة (بنيت تهته) في البصرة
يوم الاربعاء ١٠ ربيع الاول ١٣٢٨ = ١ تشرين الثاني ١٩٠٩

ولادة (ولدي عبد الحميد) في الهواز - ناصرية - البصرة
يوم السبت ١٠ صفر ١٣٤٢ = ١٠ آب ١٩٢٤

ولادة (صبيح) في البصرة
يوم الاربعاء ٢٠ جمادى الاخرى ١٣٤٤ = ٦ كانون الثاني ١٩٢٥

ولادة (بنيت ليلى) في البصرة
يوم السبت ٢٤ جمادى الاول ١٣٤٦ = ١٩ تشرين الثاني

ولادة (بنيت فائزة) في بغداد
ليلة الاحد ٩ ذو القعدة ١٣٥٤ = ٢ شباط ١٩٣٦

تاريخ زواج وروحي مريم بنت الحاج طه الموصلي (ام محمد) الذي كان قد نظم الحاج محمد المصطفى

زواجها في ضيعة ضيعة ٩٥ ١٥٤ ١٤١ ١٢٧ هـ رجب

ولادة (ابني باسل) في البصرة
الليلة ٢٠ بعد شهر الاربعاء ١٧ محرم ١٣٥٨ = ٨ مارس ١٩٣٩

بغداد ١٠ نوفمبر ١٩٤٤

الى حضرتي سليمان فيضي اندي العنعم

لقد استلكت كتابكم الذي فيه تطلبون الاستعفاء وقد جعلت ايضا
كتابكم الرسمي الى هذه الوزارة من رئيس الاستئناف والحق اننا
مدا من طلبكم هذا وقد اوقفت عن اتخاذ الاجراءات بخصوصه
لحين تعييني وزيراً جديداً واليوم قد حضر عبد المحسن بك للوزارة
ليقدم برأىات الوزارة بصورة موقفة و رويت له استدعائي
واطلع عليه وكان يتأسف بما قرا فيه وافادني انه سيرسل
لكم برقا حالاً في هذا الخصوص

وانني اعلم تماماً انكم ستخرجون كثيراً في الحاماة في البصرة
مبث ان البصرة تحتاج الى محامي بارع ولوان خدمتكم السابقة
هي برهان كافي ان رجلكم يكون خسارة الحكومة - هذا
وفي الختام اقبلوا فائق احترامي

المخلص

Sludrower



٩١١٩

سليمان فيض الموصلي الحامي

هو سليمان فيض الموصلي بن الحاج داود خندي القصاب أحد أئمة الماهدين
شأنه الطرق المقتضية العبادة .
ولد سنة ١٢٠٢ هـ في الموصل وهو عربي الأصل من عشيرة العواودة (نسبة إلى
عواد العشاري) وموطنه الموصل . وقد اختار سكنى البصرة سنة ١٢٢٢ هـ
هجيرة . ولذا زال فيها .

تحصيله : ~~كان له~~ تلقى دروسه في مدرسته الأهلية في الموصل والوعظية العسكرية
في بغداد . وبعد ذلك دراسة القوانين على بعض الأساتذة نظرياً وعملياً نال شهادة
المقامة من مدرسة الحقوق العلمية/بغداد . والتحق فيها وفق منهج المدرسة ~~والتحق~~
درس مقدمات الفقه على والده والعربية على الأستاذ كبار ~~للاستاذ~~ كالمراجع السيد محمد
النجدي في الموصل والسيد عبد العزيز الناصر في البصرة .

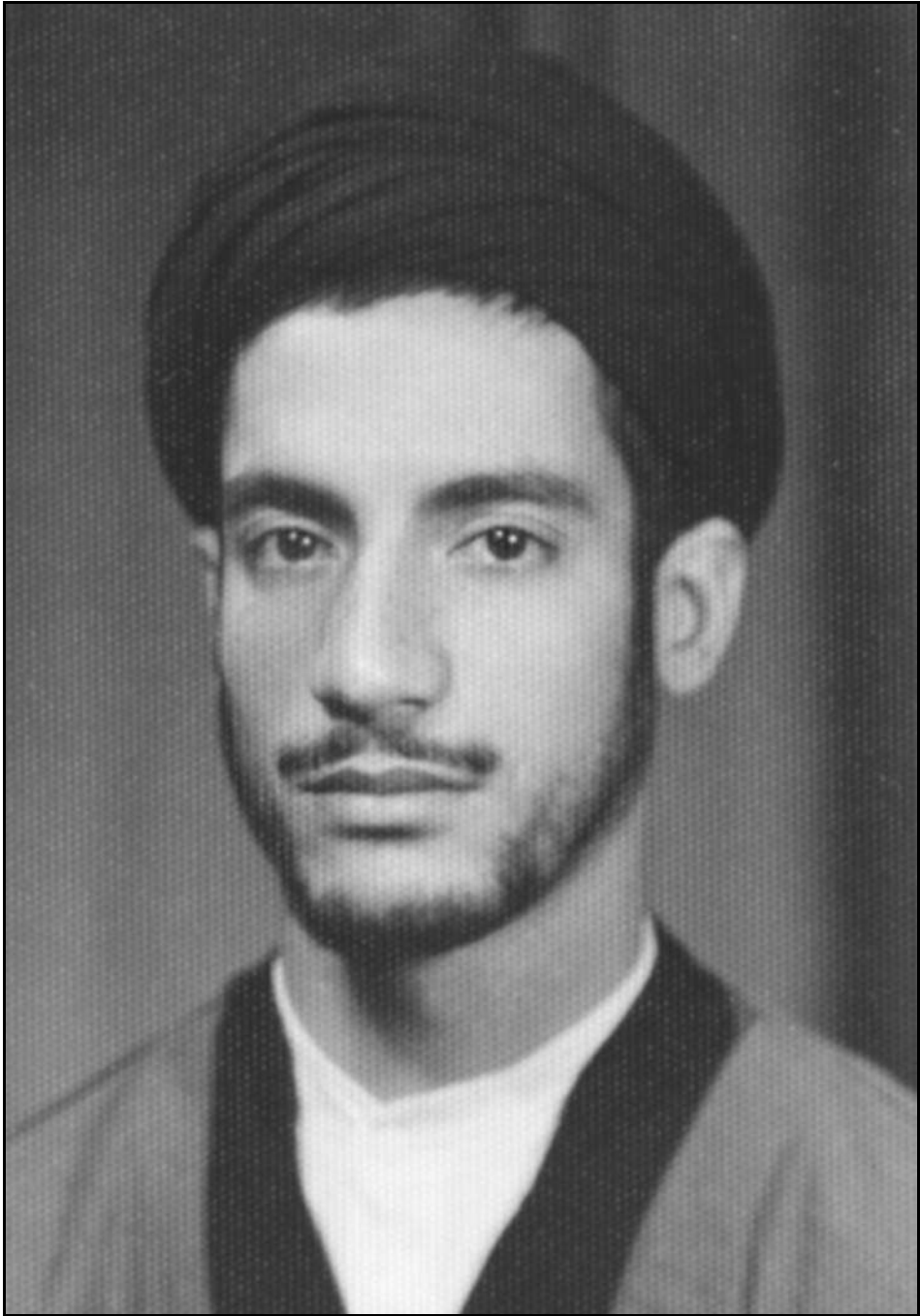
مجالس العربية والتركية كتابة ومطابقة . ويعرف الفارسية وله الملاح بالفرنسية .
المسند والروايف : دخل في بعض الوظائف الصغيرة كمدبر لقنصلية إيران في البصرة ومولزم في بعض
الدوائر العدلية والإدارية . ثم انتقل في ذلك الحماة سنة ١٢٢٤ هـ هجيرة .

~~في سنة ١٢٢٤ هـ انتخب عضواً للمجلس البعدي في البصرة وكان في أثناءه يشغل وكالة~~
رياسة الحقوق ~~والتحق بالعدلية وفي~~ وفي سنة ١٢٢٤ هـ انتقل إلى البصرة
وقبلت بناء على أمره . وكان في ذلك عهداً عاصمياً في جمعية الأحرار التي
وفي سنة ١٢٢٤ هـ شارك في البصرة ~~في~~ غلوة على كوالته العامة
انتخب نائباً عن لواء التجارة ~~في~~ المجلس المبعدين الثماني ~~في~~ سنة ١٢٢٤ هـ

في سنة ١٢٢٤ هـ انتخب نائباً عن لواء التجارة ~~في~~ المجلس المبعدين الثماني ~~في~~ سنة ١٢٢٤ هـ
الحزب والاستلاف ، ~~انتخب في الانتخابات الأولية / نائباً عن البصرة في المجلس~~
المذكور . وبعد استقلال من وكالة الخزانة المذكورة .

المسند والروايف : ~~انتقل إلى~~ انتقل إلى البصرة / منذ الاستقلال البريطاني في ~~في~~ سنة ١٢٢٤ هـ
وفي ذلك الملك حتى أول سنة ١٢٢٤ هـ . وكان في أثناءه ~~في~~ سنة ١٢٢٤ هـ
عضواً للعدلية ، وعضواً لمجلس الأوقاف الإسلامية ، وسقياً للملك السنين
فما يخص المعارف والمدارس ، ومفتشاً على الأوقاف الإسلامية ، ومنذ ذلك
من اللجنة لوضع تاريخ الأوقاف في البصرة ، ورئيس اللجنة محاسن الحسين
في البصرة .

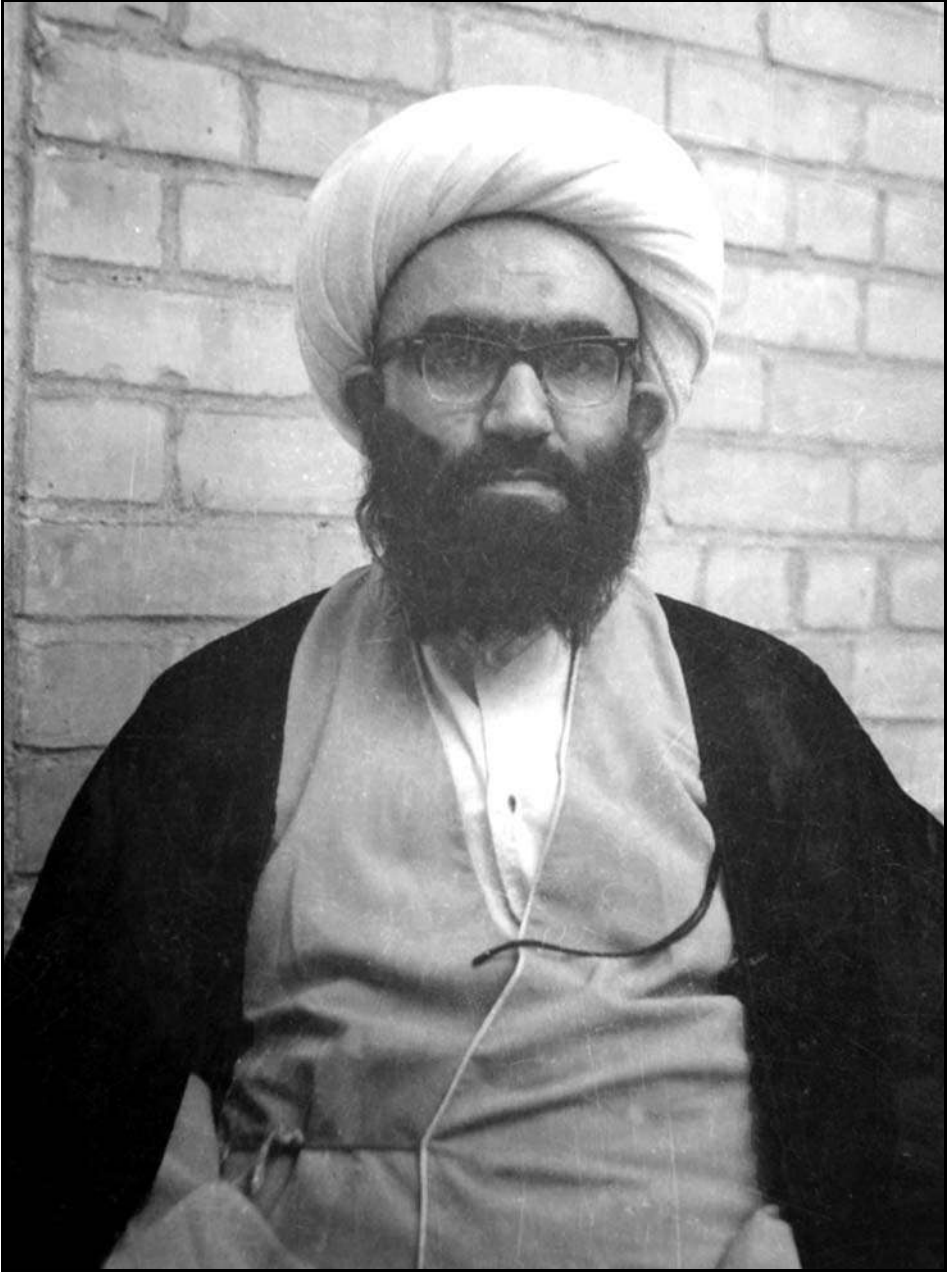
مسودة شهادة عرض الحال التي قدمها سليمان فيضي لتعيينه حاكماً في عام ١٢٢٩ هـ



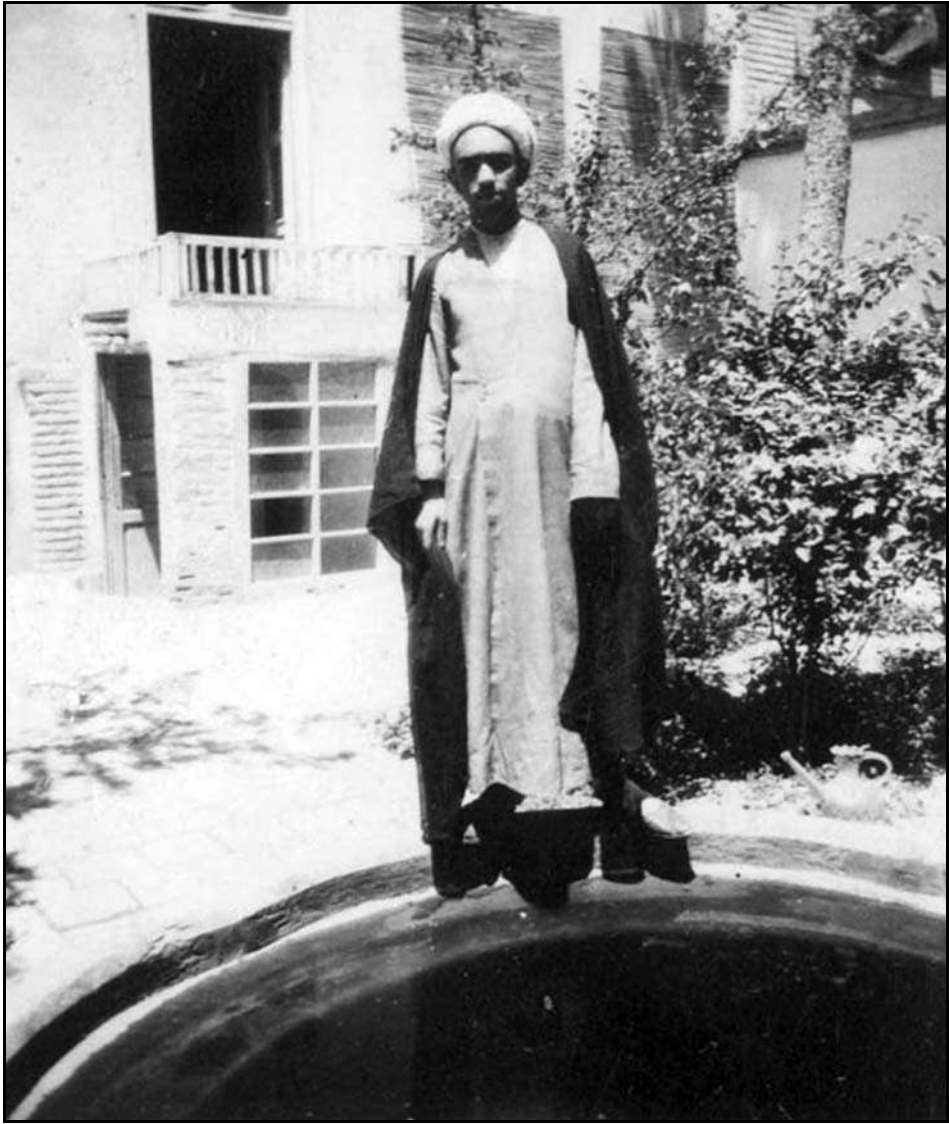
الشهيد السيد محمد تقي الجاللي



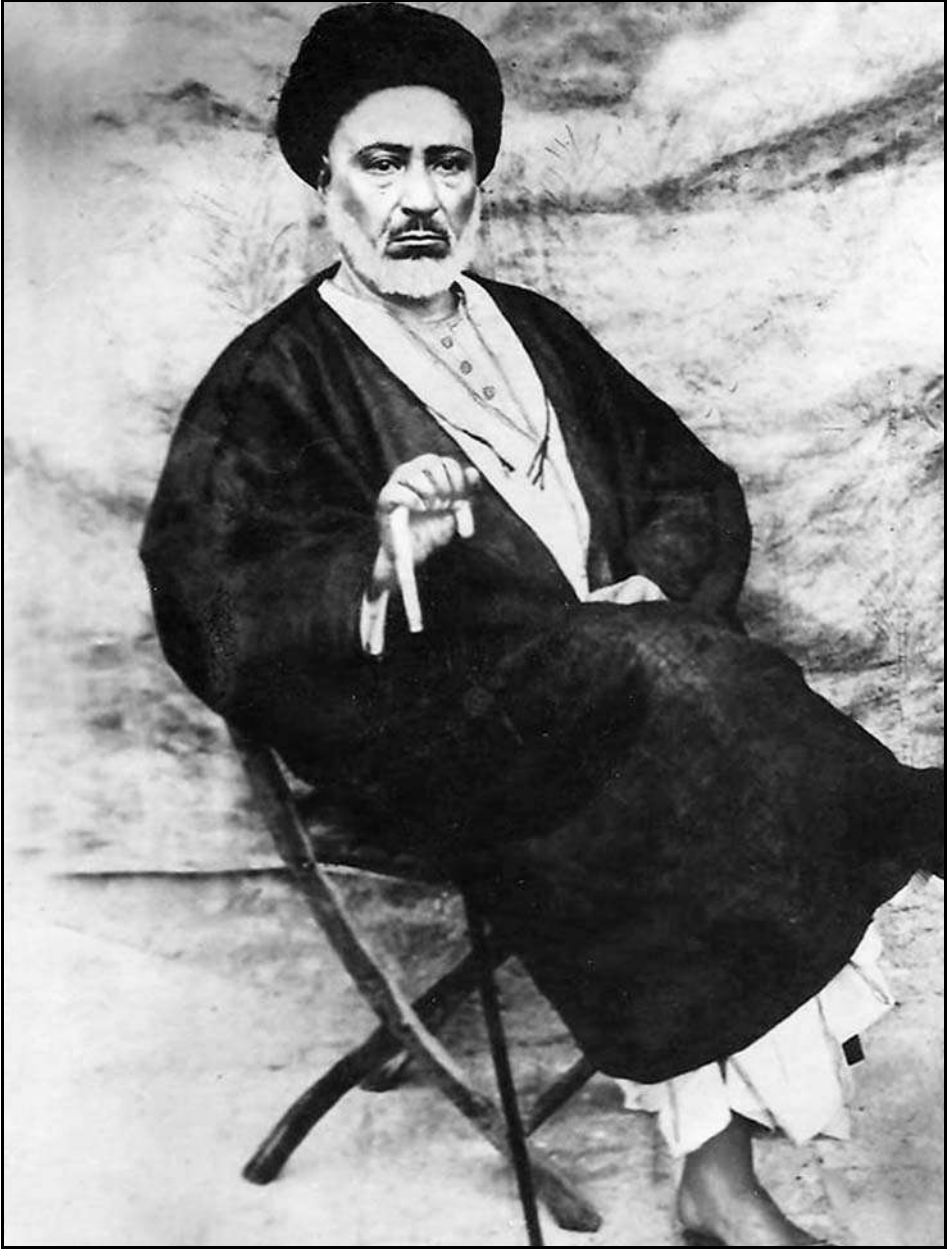
المرجع الراحل السيد شهاب الدين المرعشي



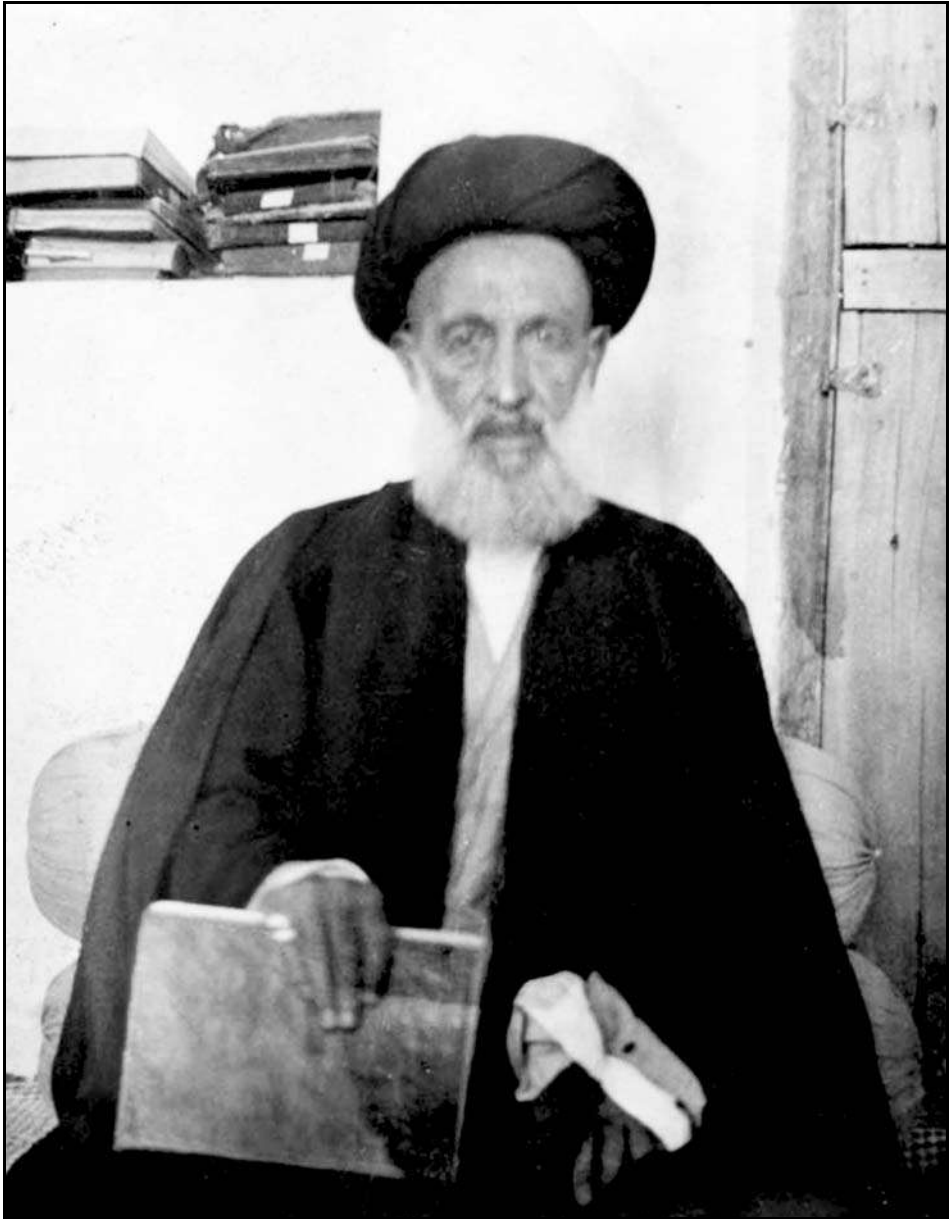
المرجع الراحل الشيخ علي الغروي



المرجع الراحل الشيخ علي الغروي أيام شبابه



الخطيب السيد صالح الحلي



الراحل السيد علي أكبر الخوئي والد المرجع السيد أبو القاسم الخوئي



السيد جمال الخوئي



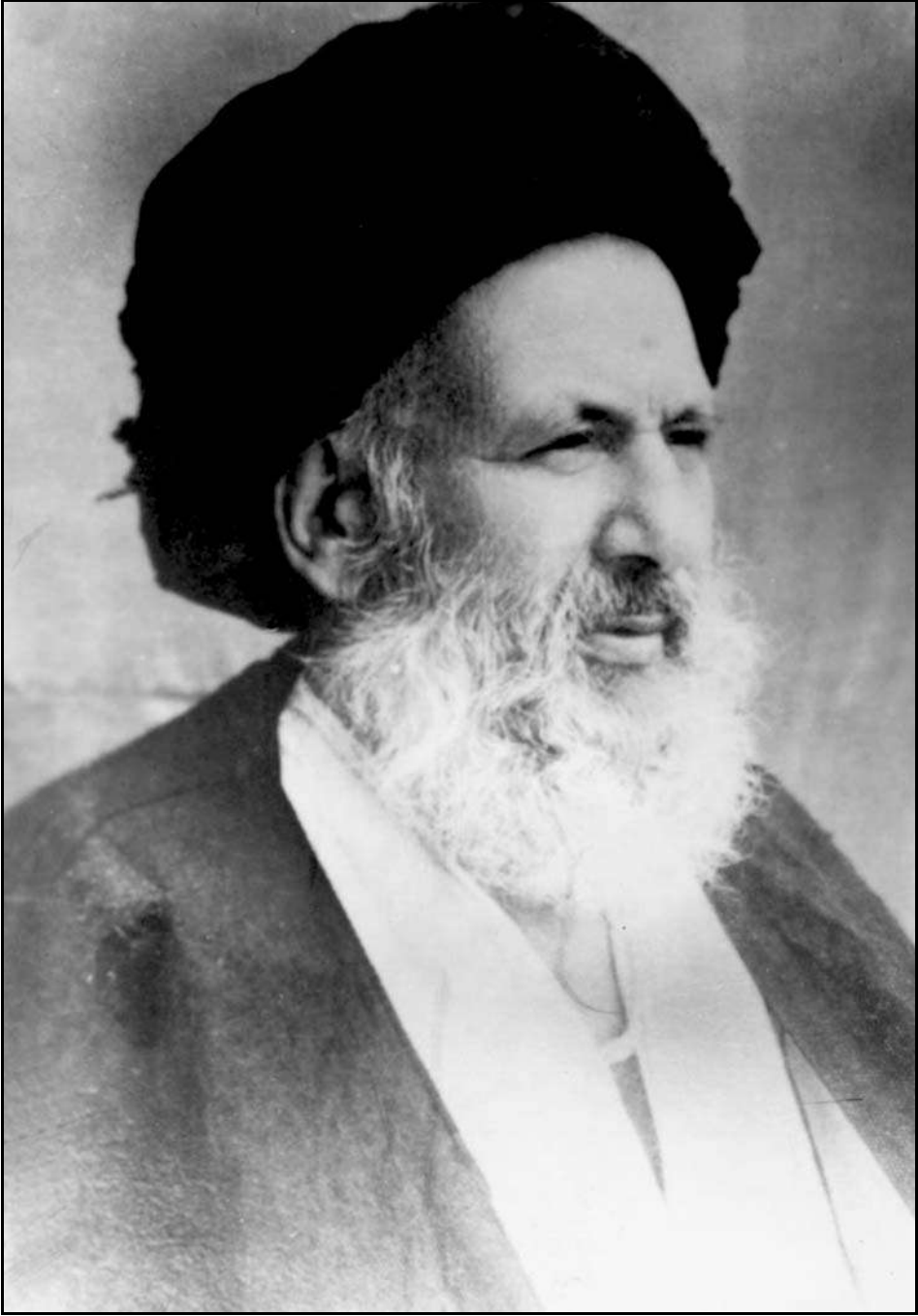
الراحل السيد محسن الجاللي



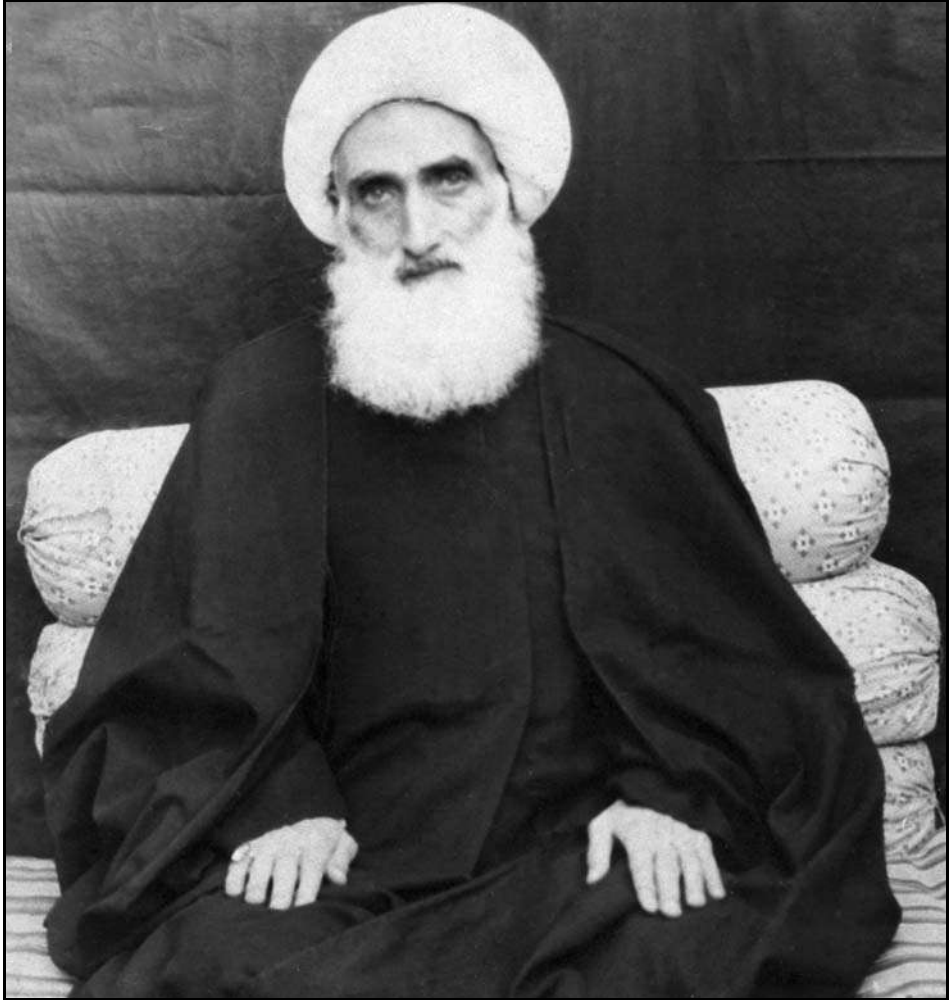
السيد هبة الدين مع والده في سنة ١٣١٨هـ - ١٩٠١م في كربلاء



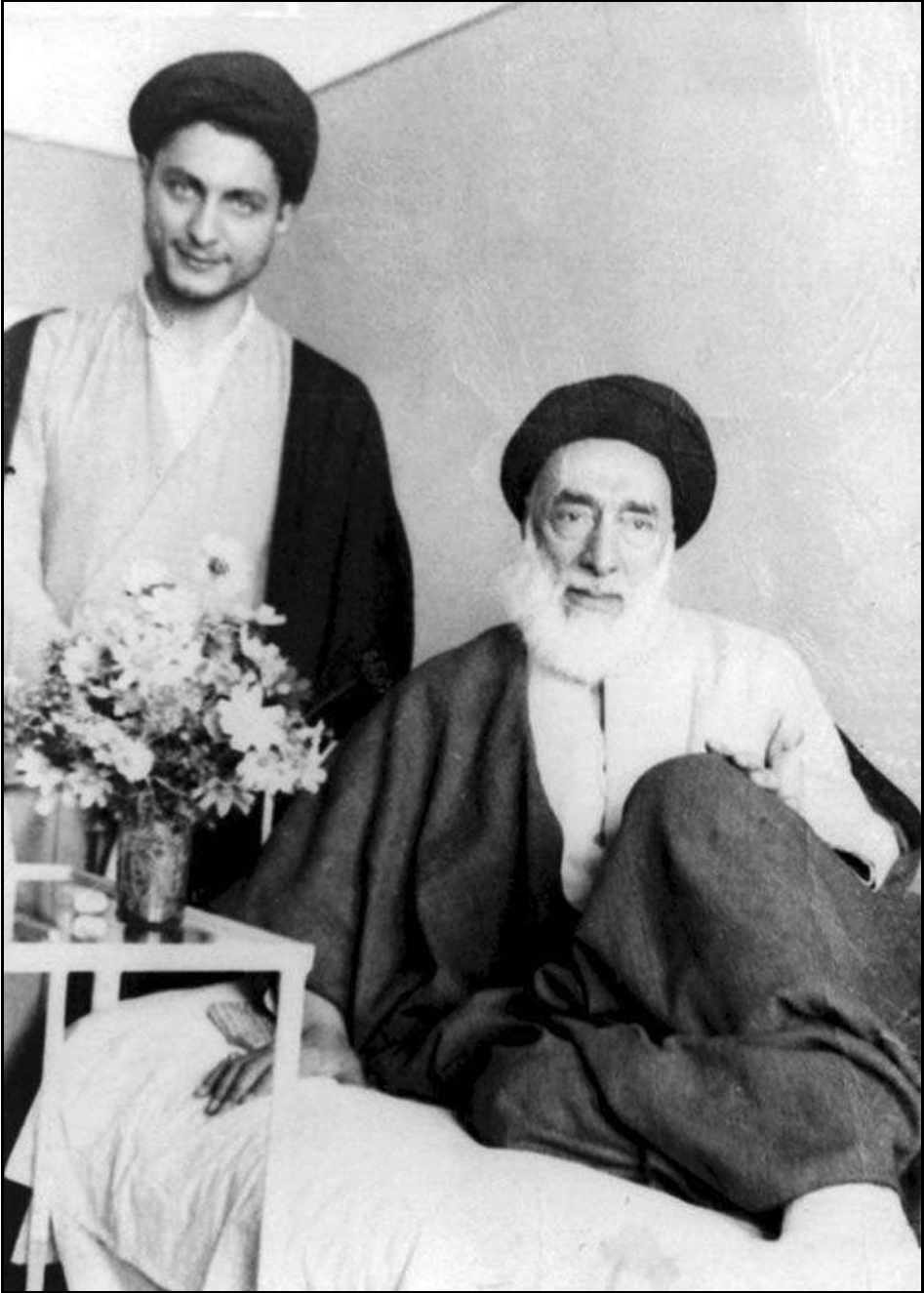
السيد هبة الدين الشهرستاني أيام دراسته سنة ١٣١٥هـ - ١٨٩٨م وعمره ١٤ عاماً



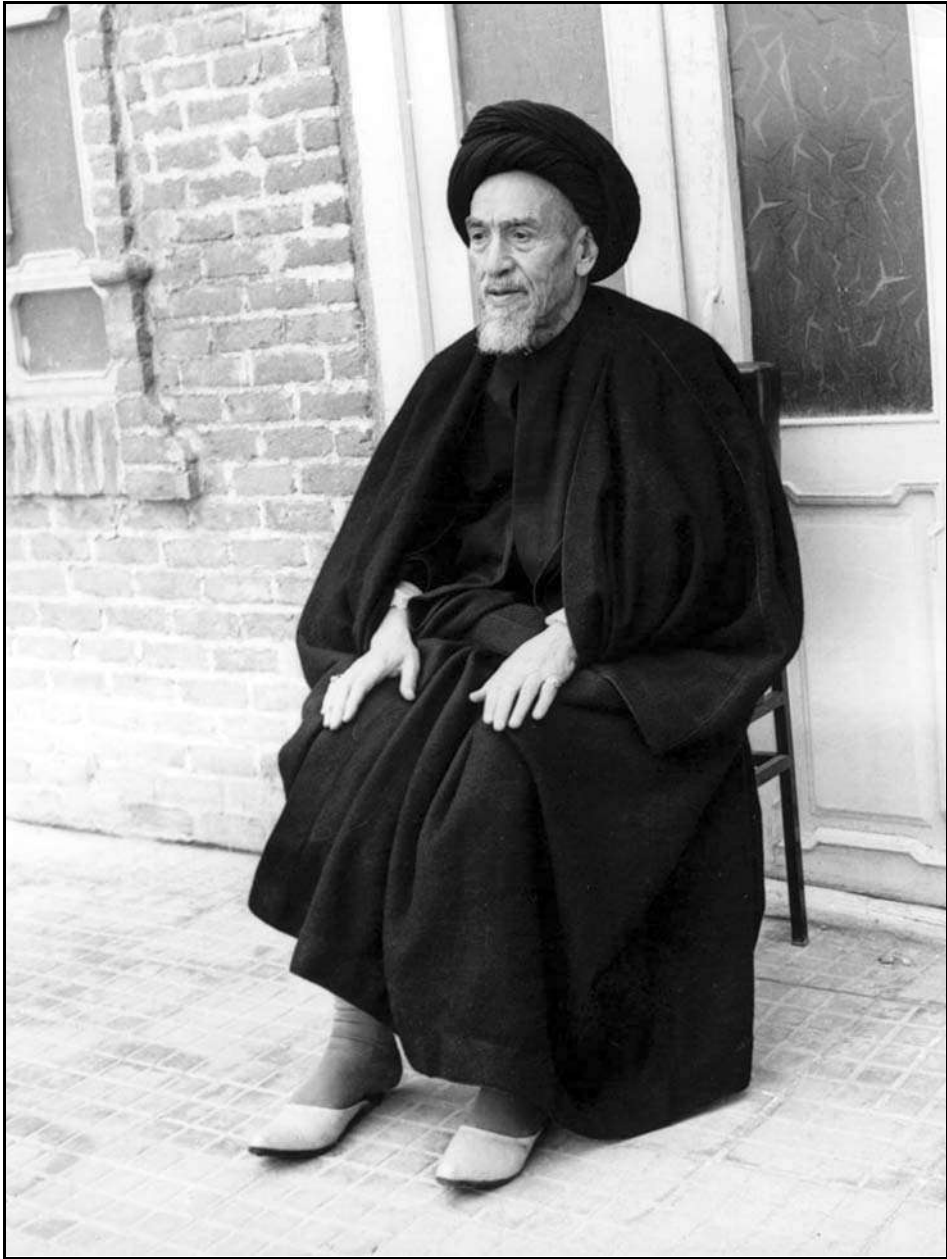
المرجع الراحل السيد محمود الشاهرودي



الراحل الشيخ محمد سبيويه



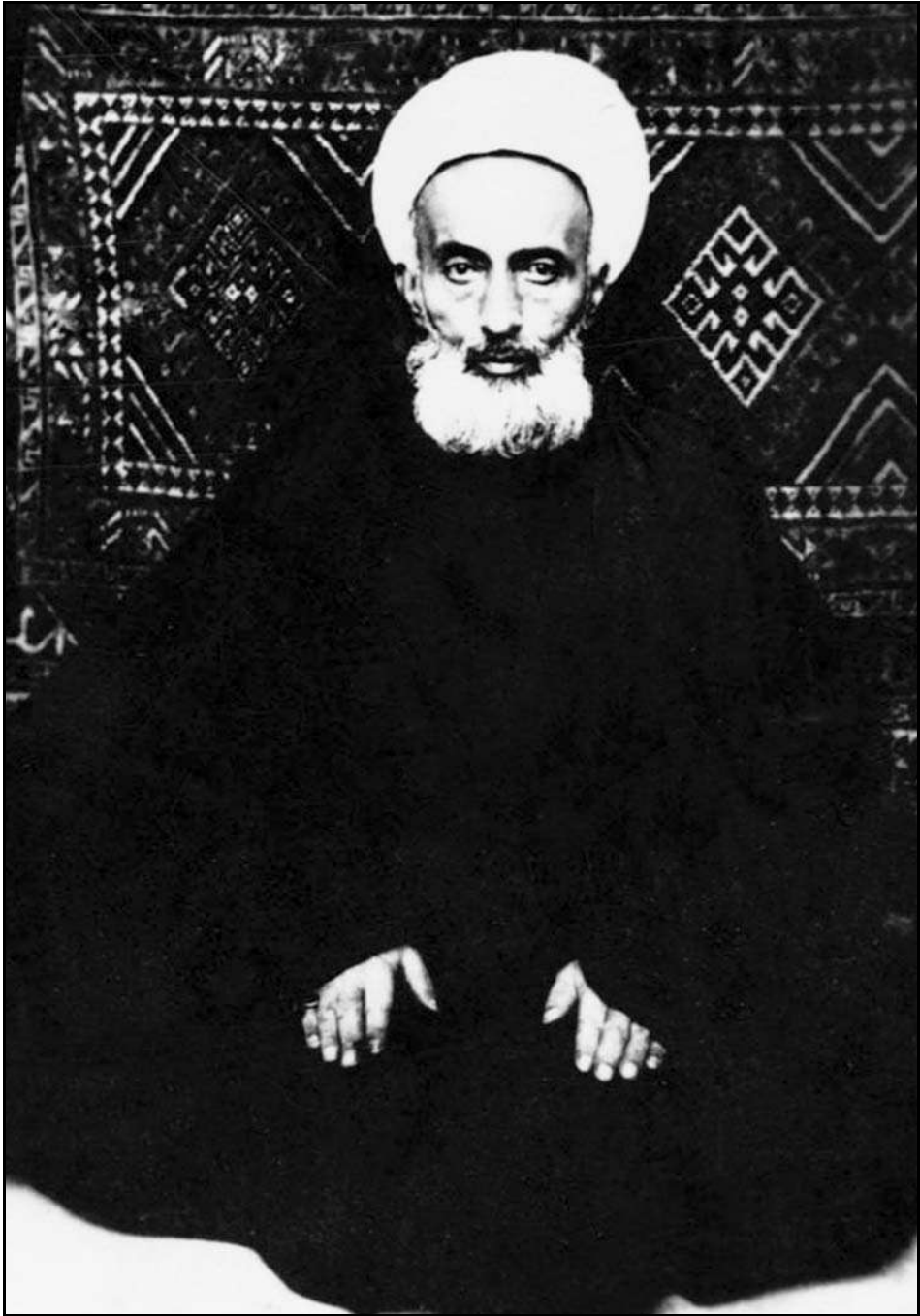
المغيّب السيد موسى الصدر مع والده السيد صدر الدين الصدر



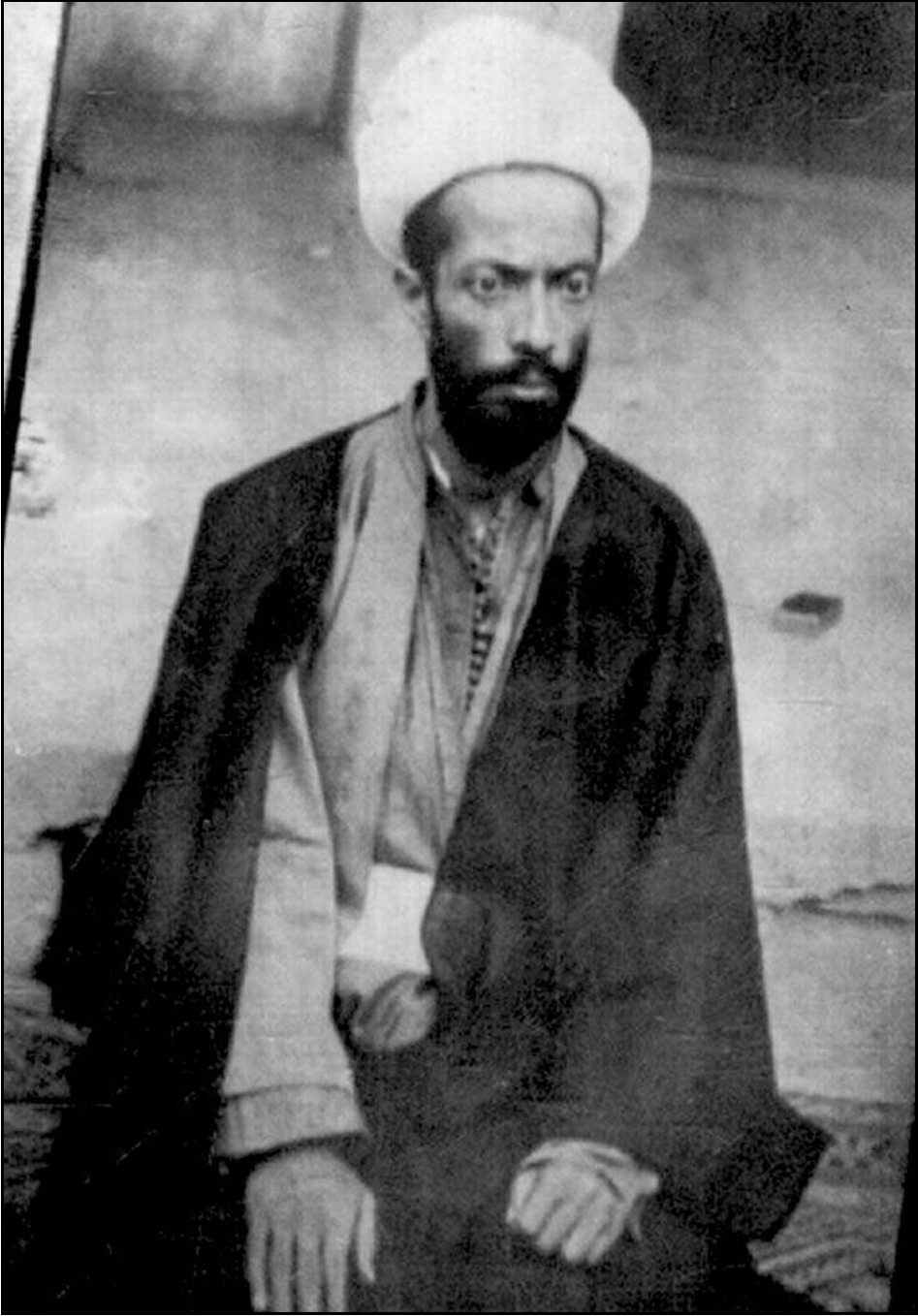
الراحل السيد محمد هادي الميلاني



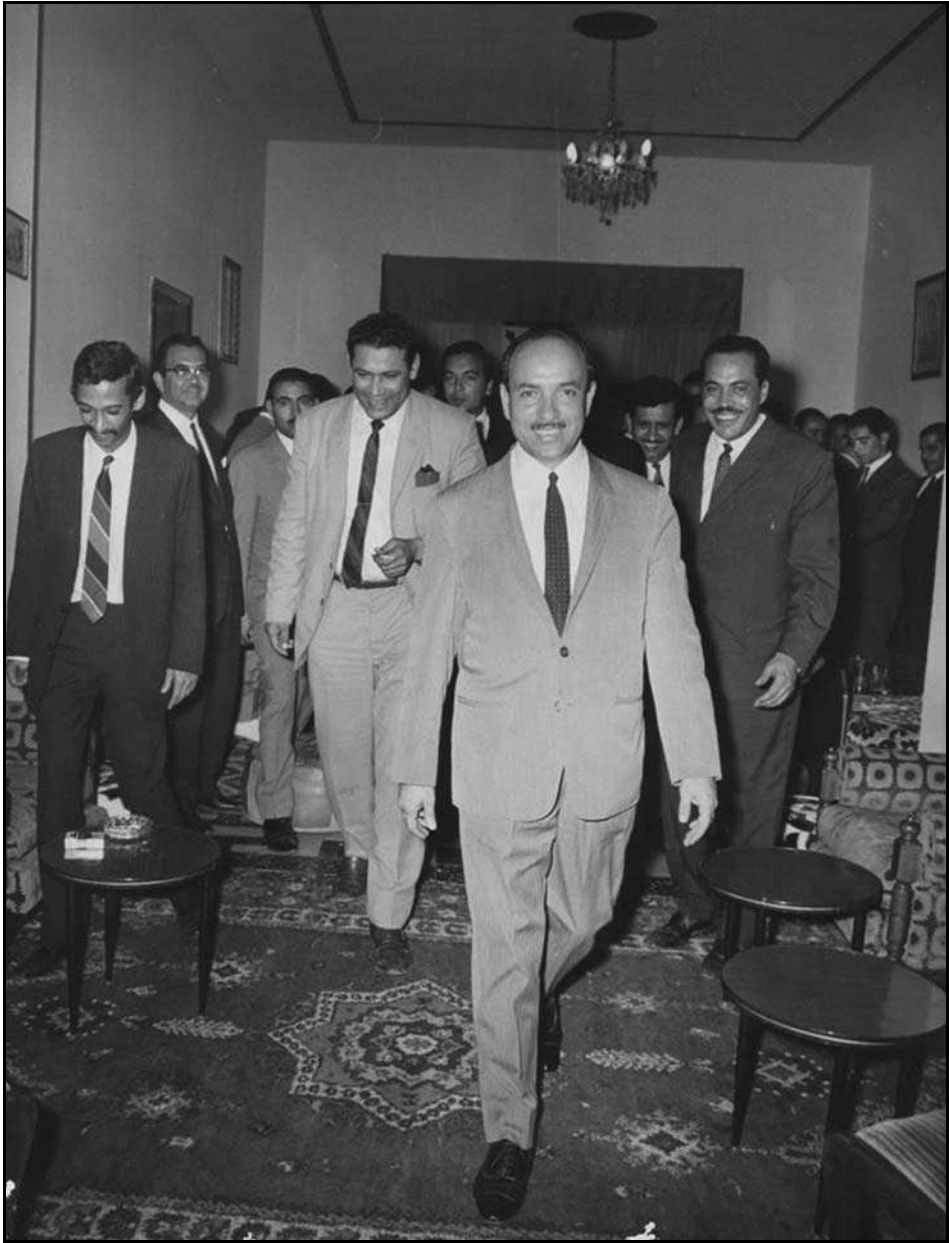
الراحل السيد حسين الحماوي



الراحل الشيخ عبد الكريم الجزائري



الراحل الشيخ محمد جواد الجزائري



الأستاذ سالم الألويسي في إحدى الاحتفالات في بغداد



رئيس مجلس الأعيان في العهد الملكي السيد محمد الصدر



الأستاذ ناجي شوكت عام ١٩٦١م في السبعين من العمر



الأستاذ ناجي شوكت عام ١٨٩٦م في السادسة من العمر



محمد رضا شوكت باشا



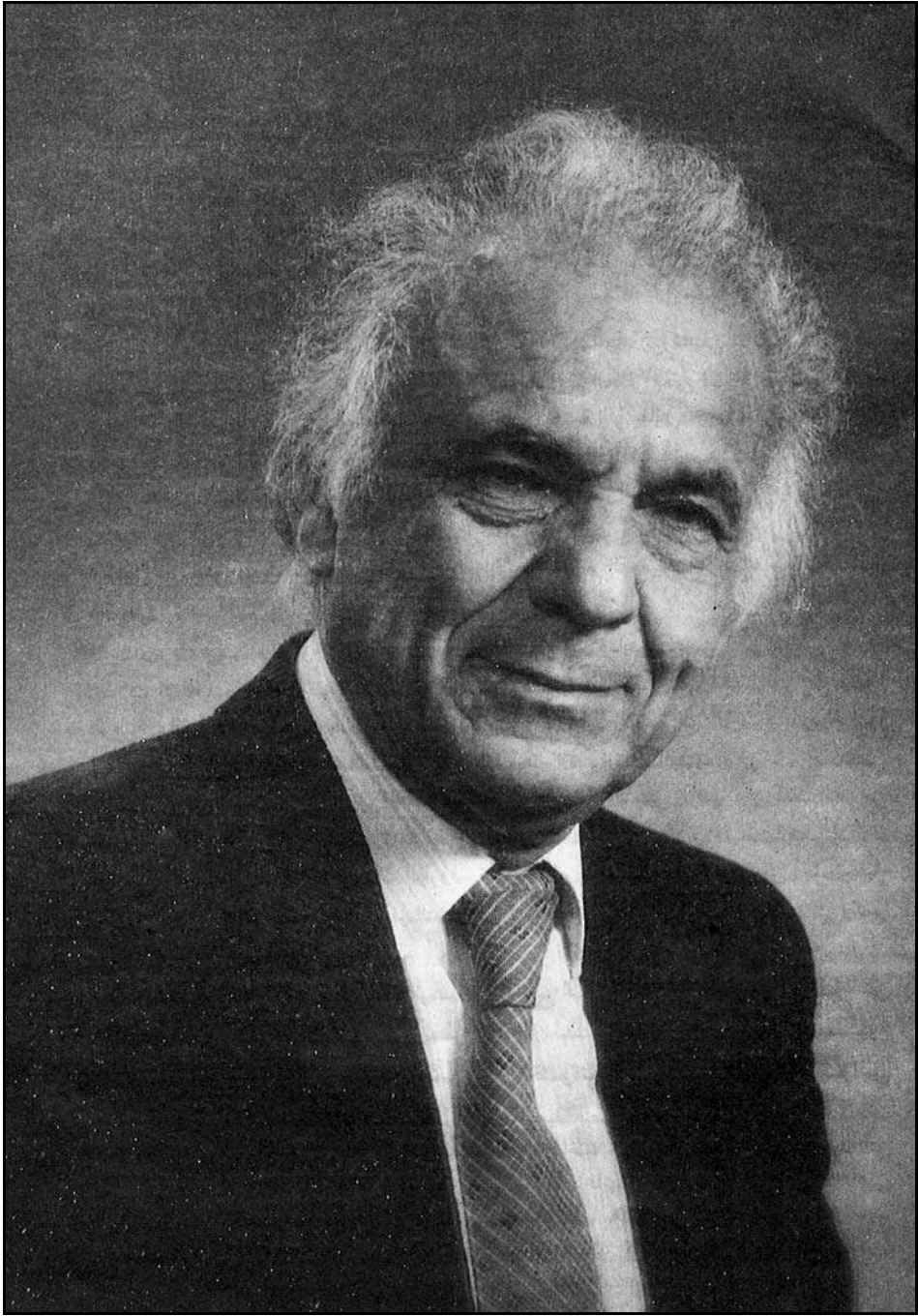
الملك فيصل الثاني



الأمير غازي



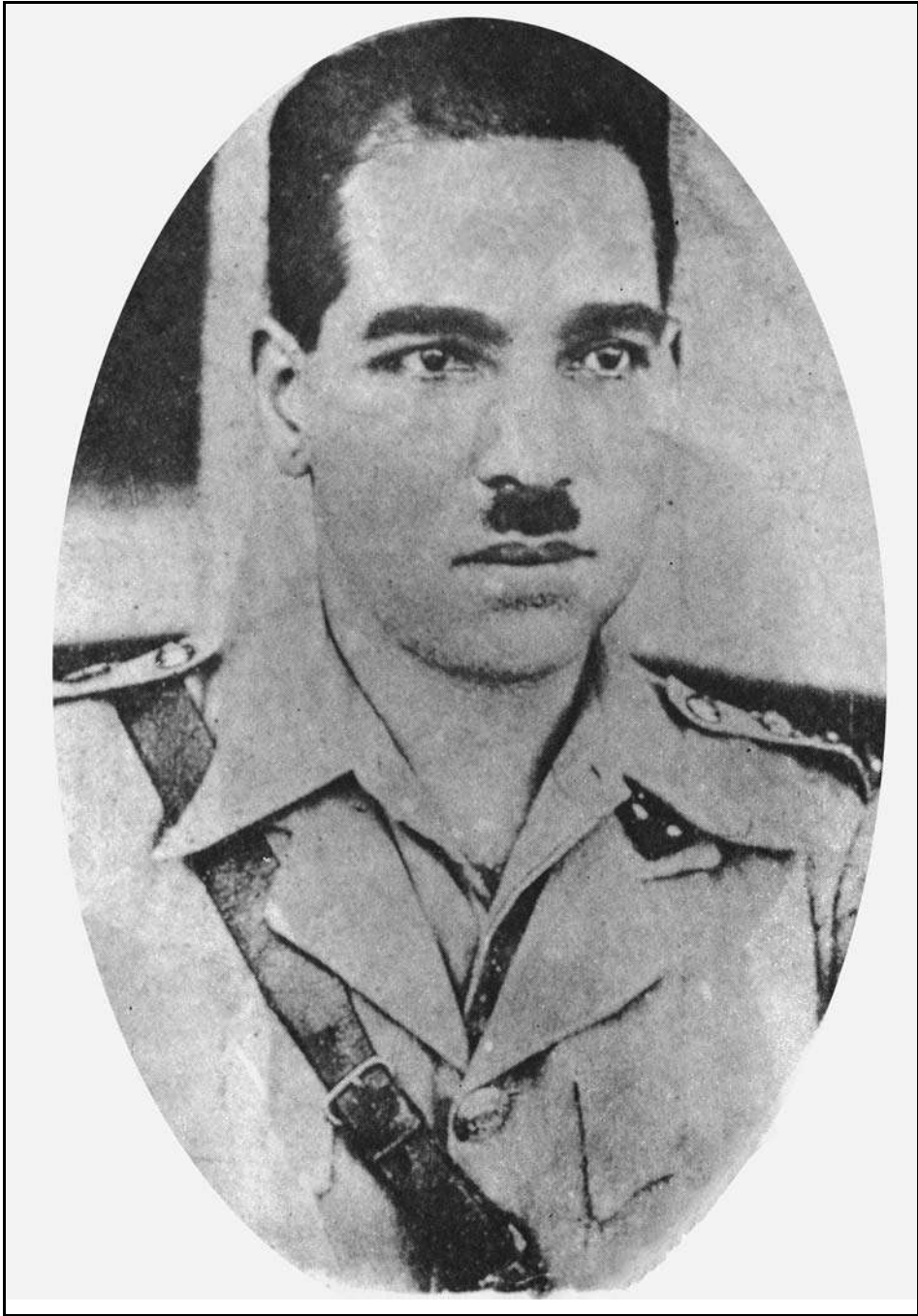
الشيخ عبد الواحد آل سكر



الأستاذ عبد الغني الخليلي



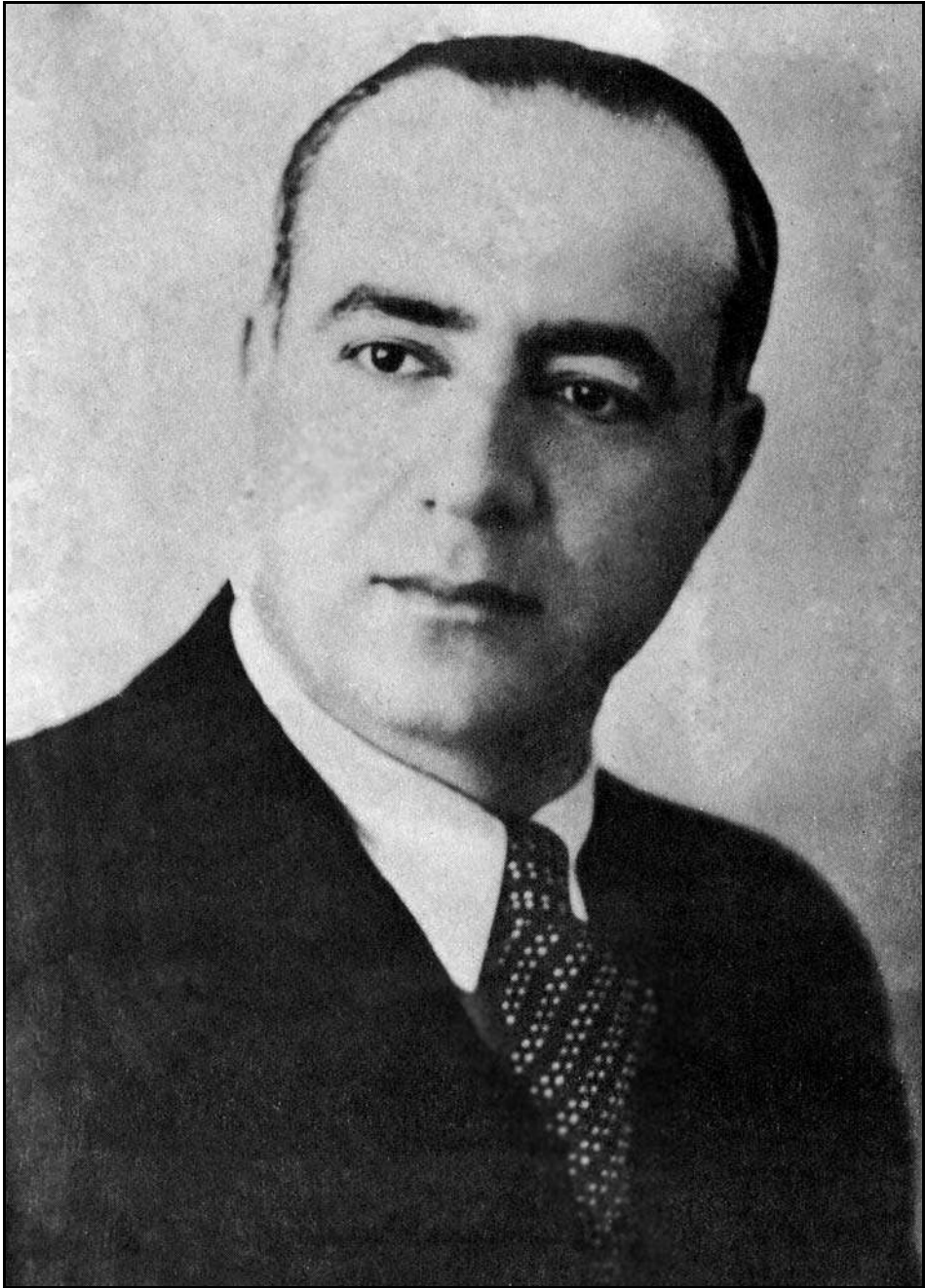
السيد المجاهد حسين آل كمال الدين



السيد كمال شبيب



السيد محمود فهمي سعيد



السيد موسى الشابندر وزير الخارجية في حكومة الدفاع الوطني



الزعيم الوطني صالح جبر



السيد جميل المدفعي



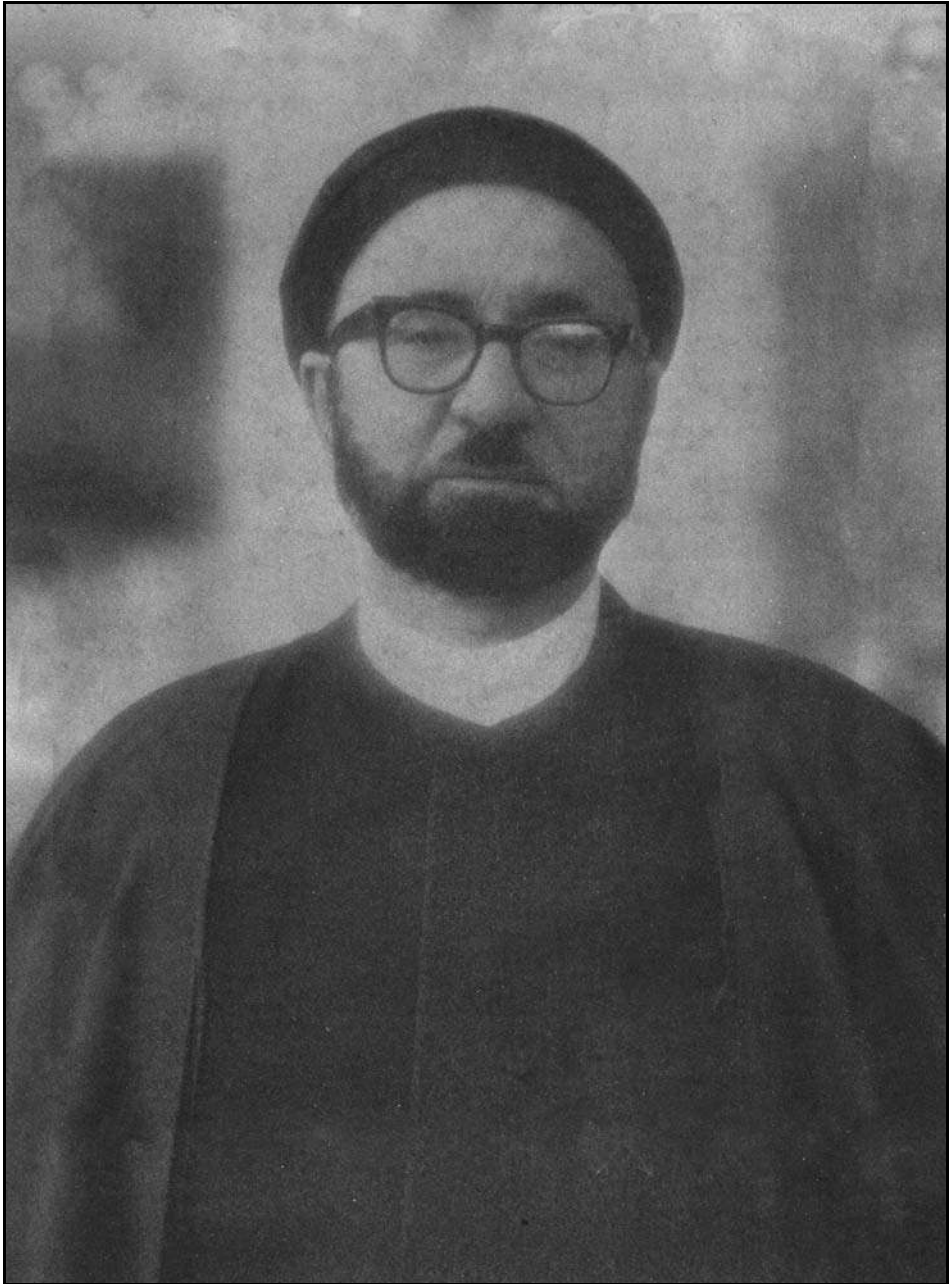
الفريق الركن جعفر العسكري



السيد علي جودة الأيوبي



آية الله الشيخ محمد تقي الفقيه



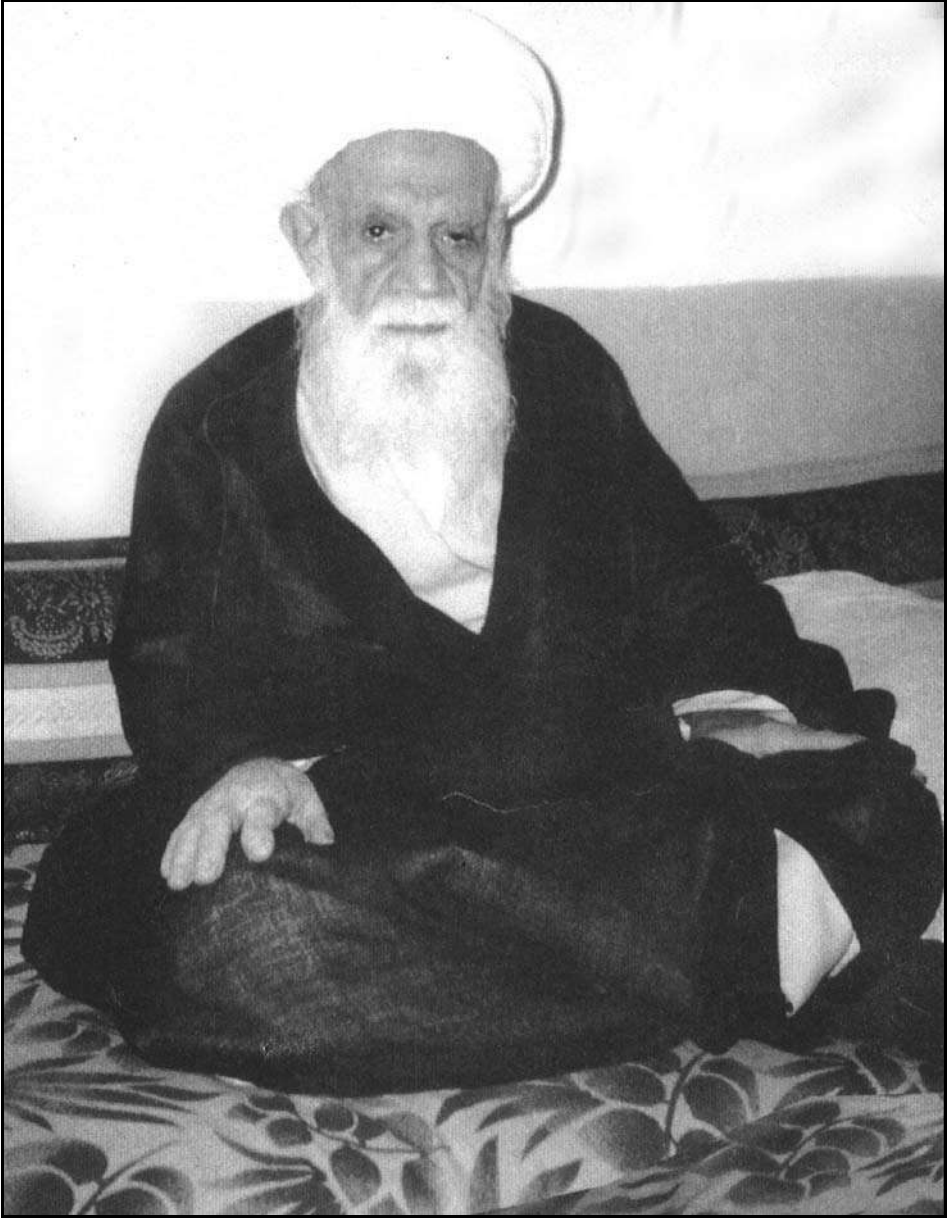
السيد مير محمد القزويني (الكويت)



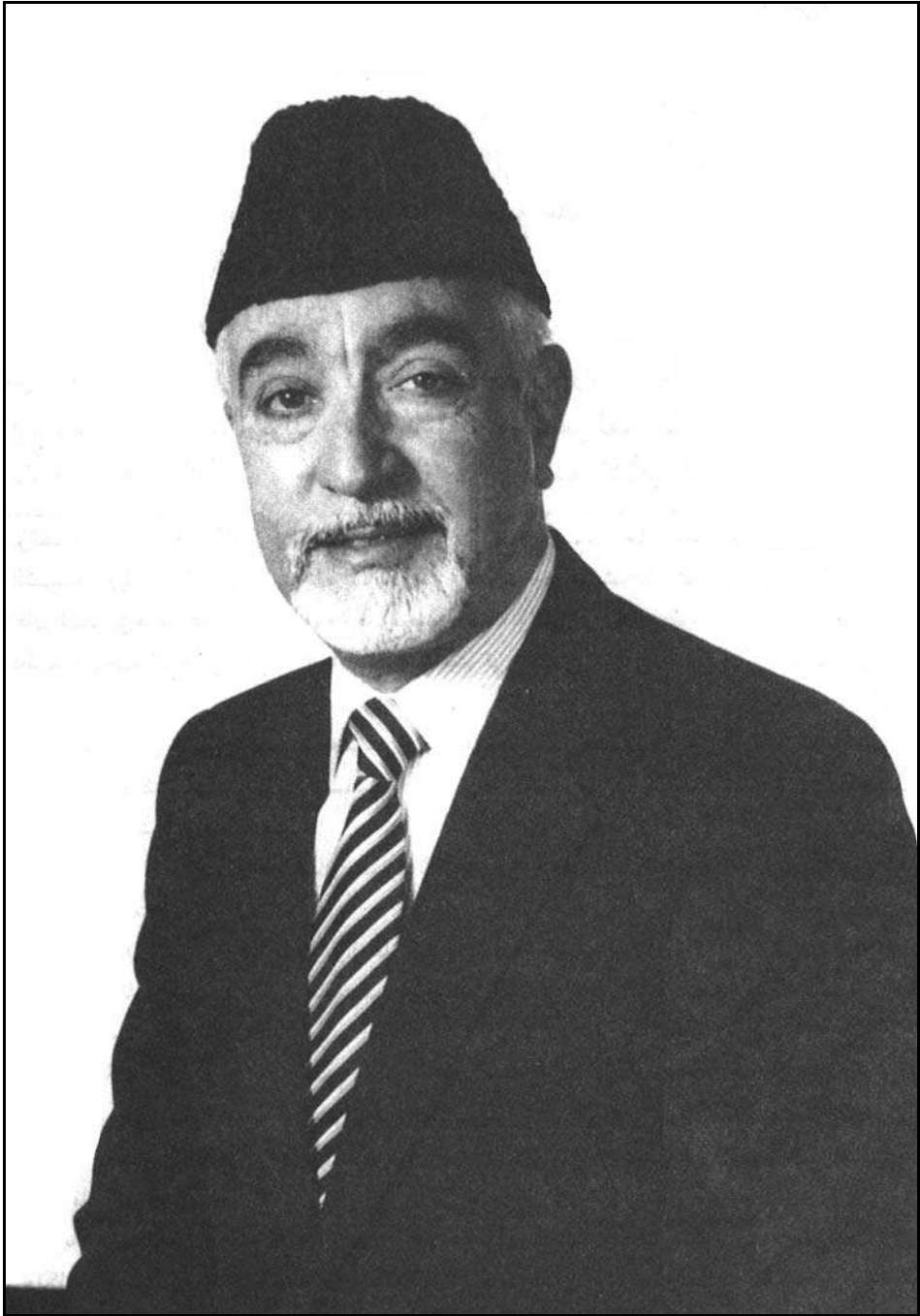
السيد محمد جمال الهاشمي



آية الله السيد علي نقي الحيدري



الراحل الشيخ محمد أمين زين الدين



الحاج حسين الشاكري



محمد صالح الموسوي عندما كان طالباً في مدرسة الغري في النجف الأشرف



السيد جميل الفهد



احمد بيك الجليلي نائب لواء الموصل



أرشد العمري



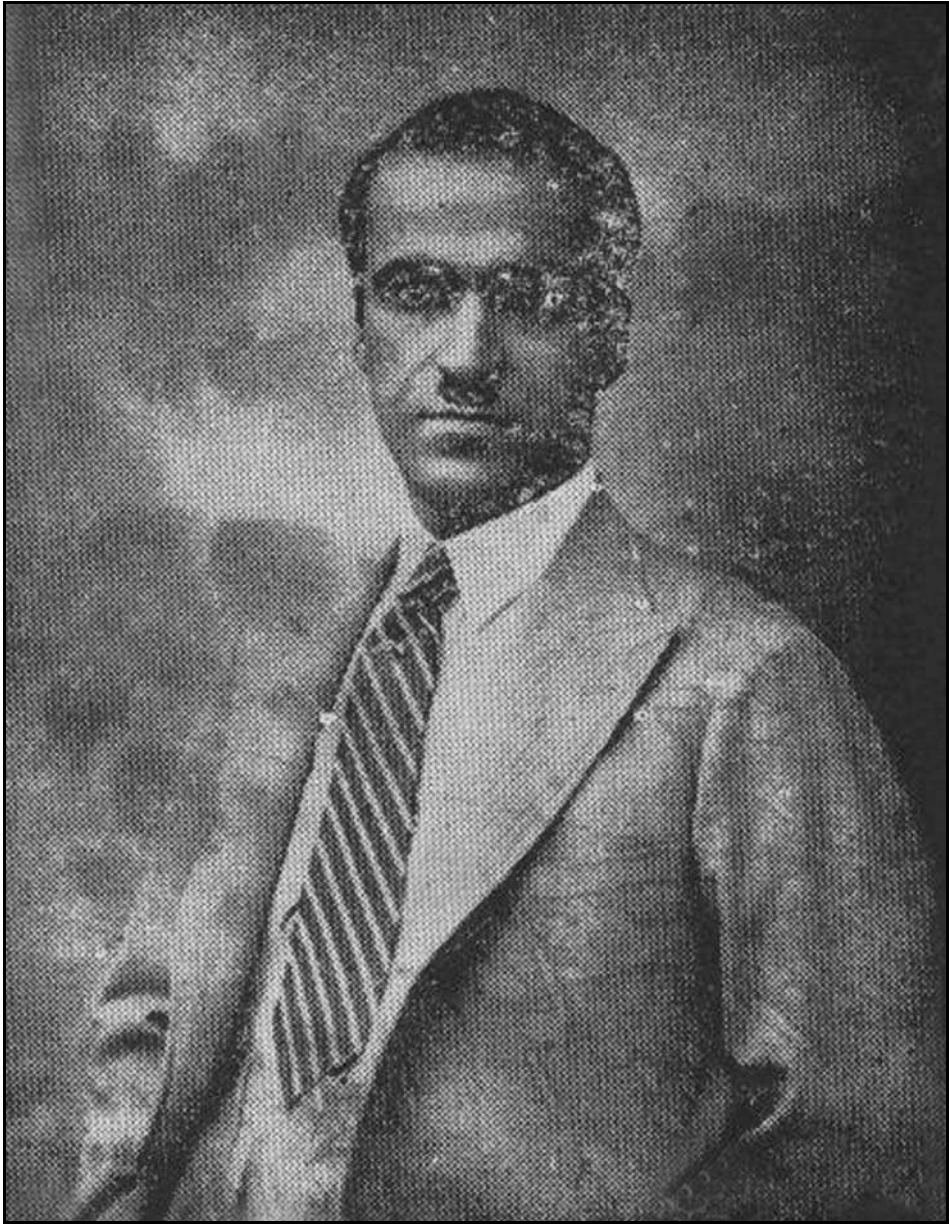
السيد الوزير عبد الجبار التكرلي



السيد حسام الدين بك جمعة



السيد حسن فهمي علي



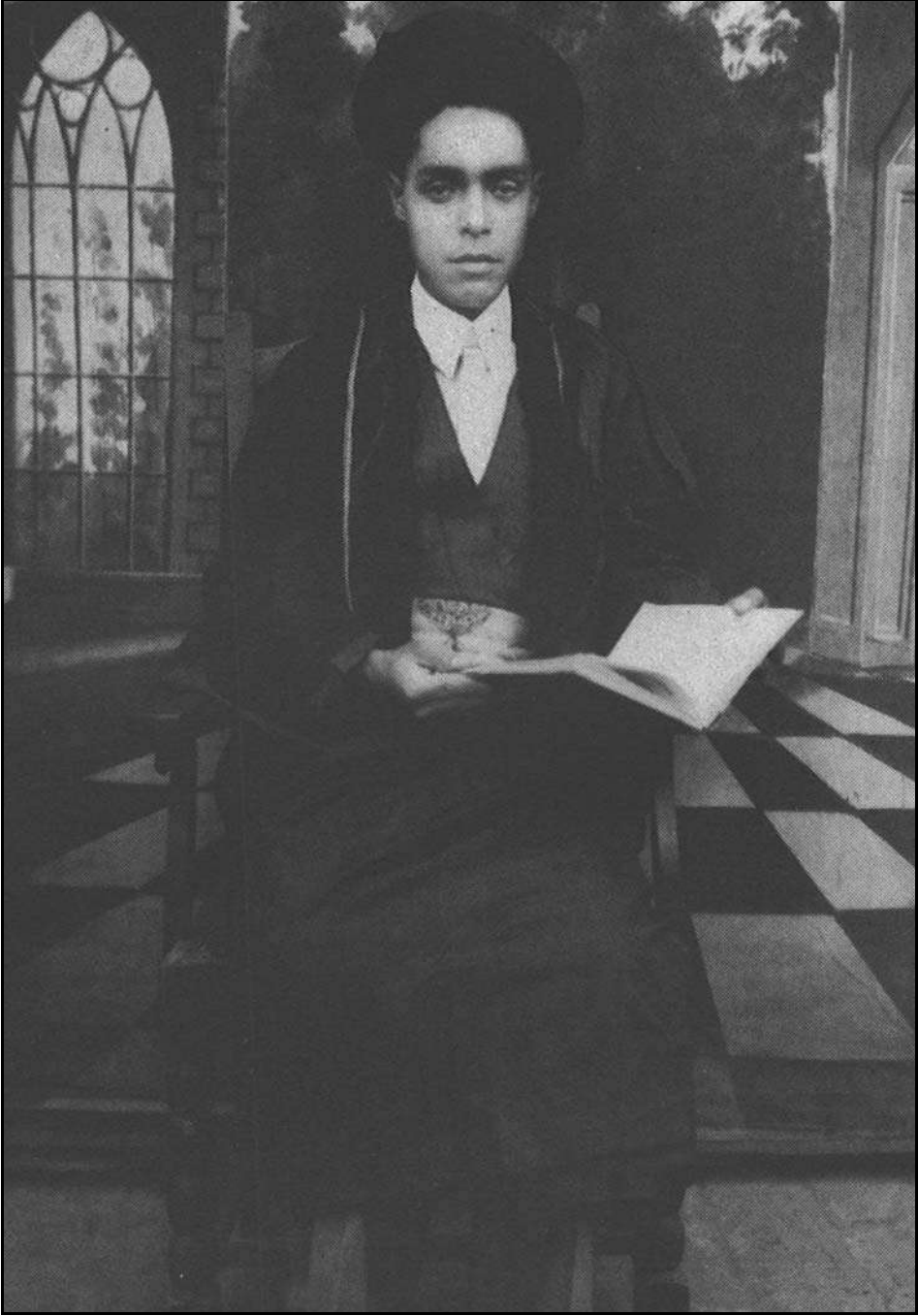
السيد سامي بك شوكت



السيد صبيح نجيب العزي سنة ١٩٢٤م



السيد عبد الحميد باشا الشالجي حين كان مديرا للشرطة العام في اواسط الثلاثينات



السيد محمد صالح الموسوي عند رجوعه من الهند إلى البحرين في
٥ شوال ١٣٥٩هـ - ٦ نوفمبر ١٩٤٠م



السيد فخري الطبقجلي - أمين العاصمة



السيد محمد صالح الموسوي في لاكناو في ٢ جمادي الثانية ١٣٥٨هـ - ٢٠ يونيو ١٩٣٩م



الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم متحدثاً في جامع السهلاني في البصرة



الشيخ حسن السهيل



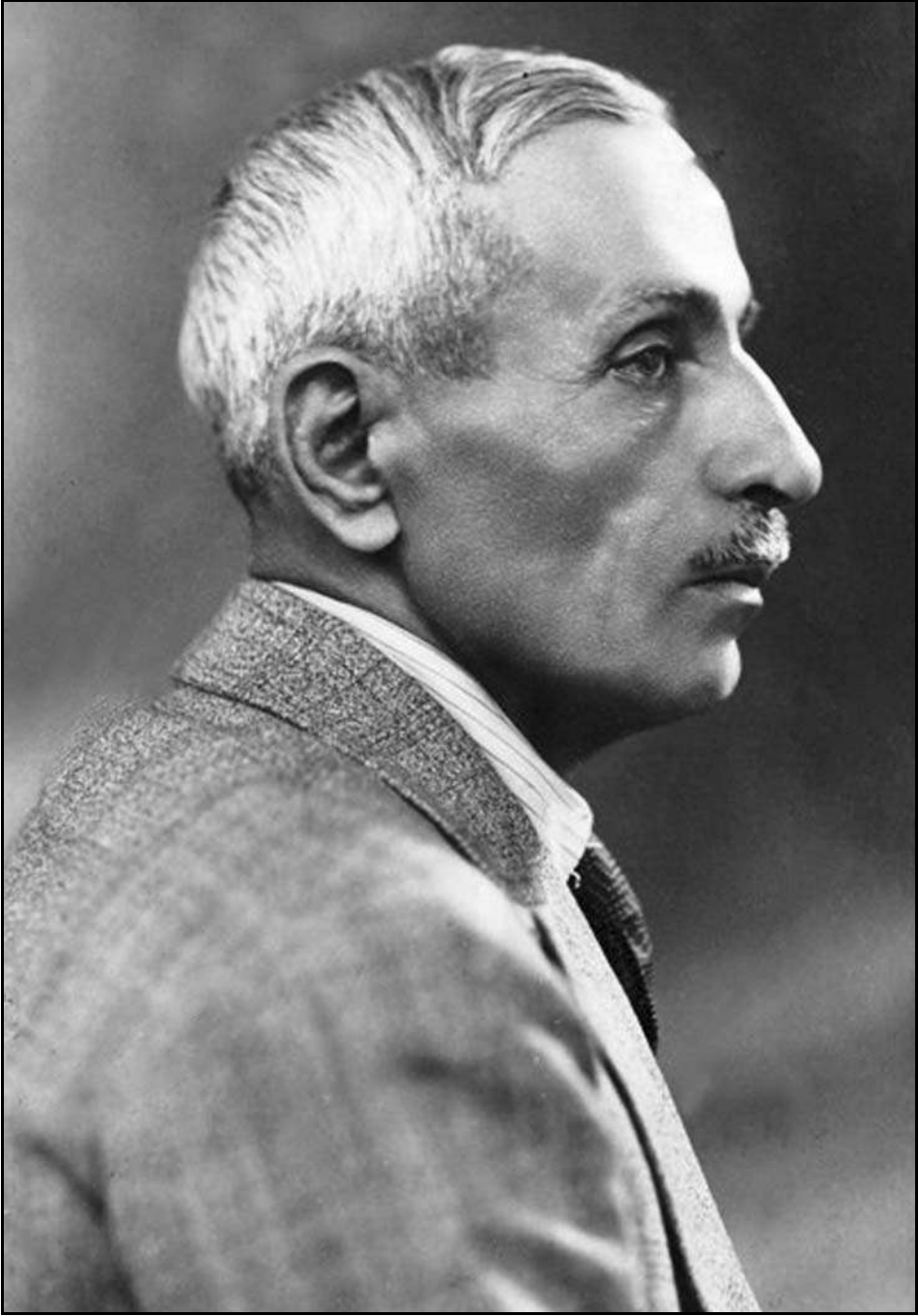
الشيخ محمد طاهر النقشبندى نائب عن لواء الموصل



الشيخ موحان الخيرالله



الفريق الاول الركن صالح صائب الجبوري يضع حجر الاساس لفندق كربلاء



أمين زكي بيك وزير الاشغال والمواصلات في العهد الملكي



السيد فائق بطي



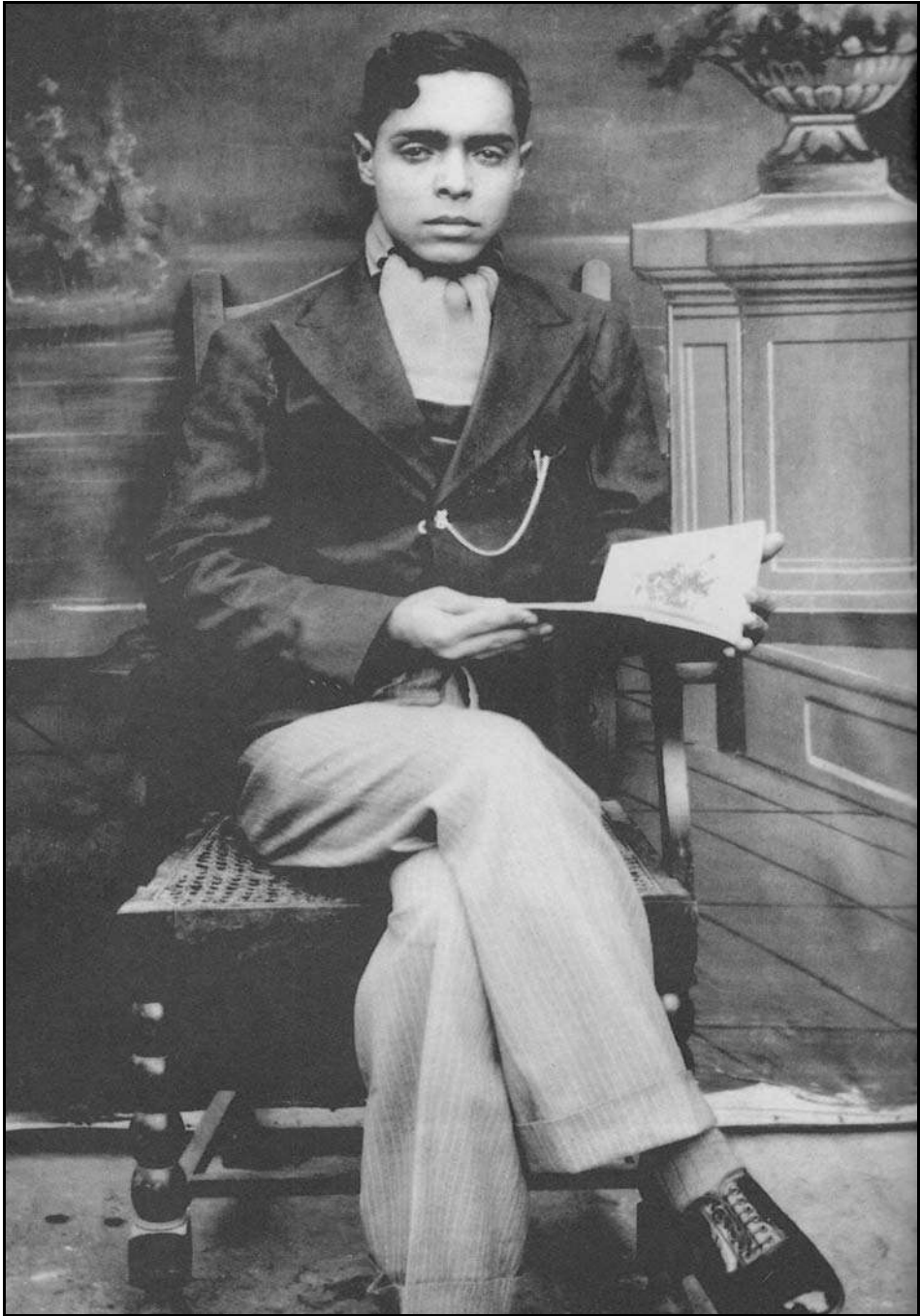
بهجت العطية



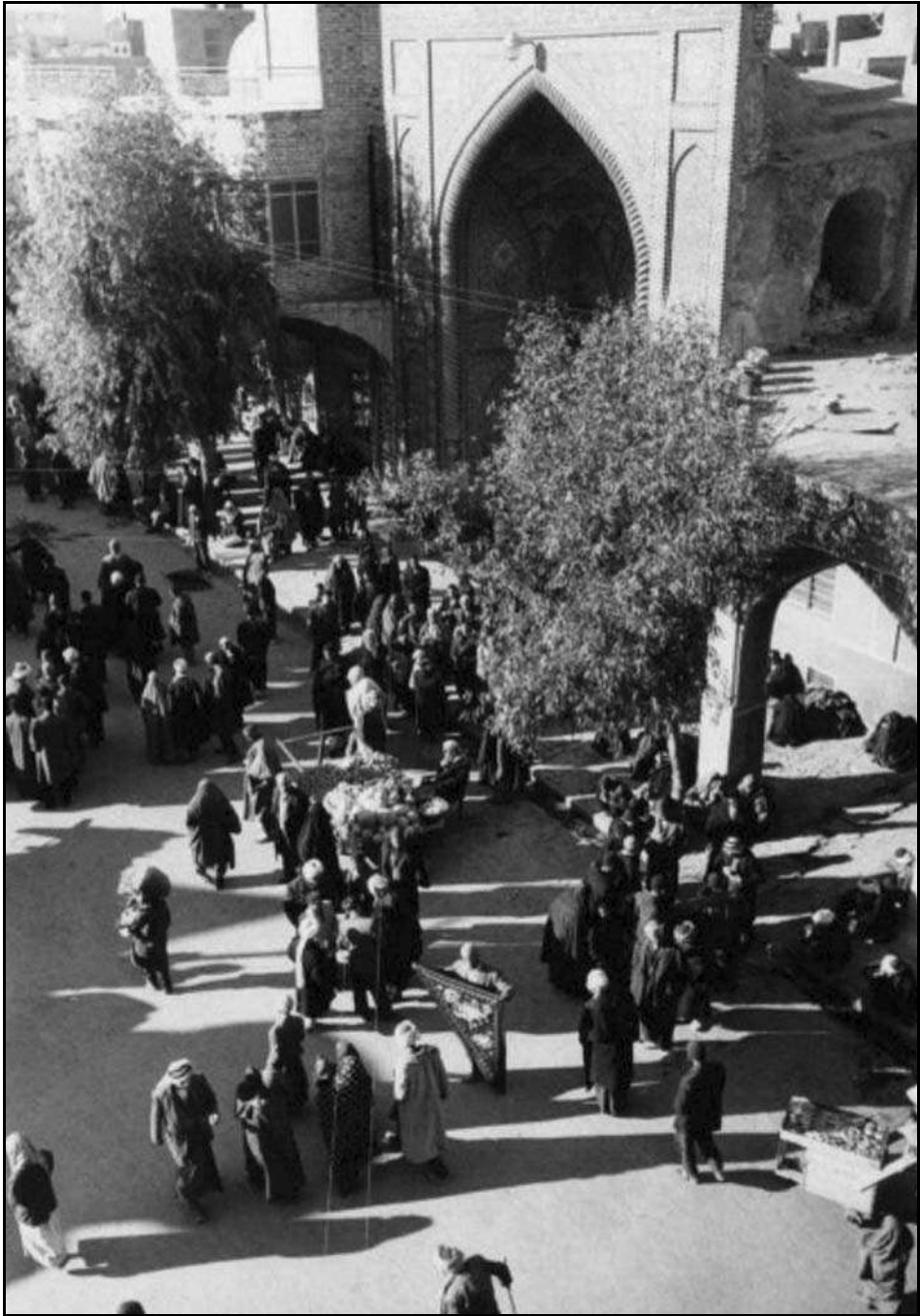
السيد رستم حيدر



صديق بيك البصام - وزير المعارف



السيد محمد صالح الموسوي في ٦ شوال ١٣٥٨هـ - ١٩ نوفمبر ١٩٣٩م



كربلاء عام ١٩٥٦م - مرقد الإمام الحسين عليه السلام



متصرف لواء الكوت ماجد مصطفى مع الامير علي الحبيب من امراء ربيعة عام ١٩٣٩م